

بدر خضر

هندسة الحوار

بحث في ثقافة الوعي
وتكنولوجيا المعلومات

دار البحوث

للدراسات والنشر والتوزيع

هندسة الحوار

بحث في ثقافة الوعي وتكنولوجيا المعلومات

اسم الكتاب: هندسة الحوار
بحث في ثقافة الوعي وتكنولوجيا المعلومات

تأليف: بدر خضر
عدد الصفحات: 408
القياس: 14.5 × 21.5
1000 / 2014 م - 1435 هـ

© جميع الحقوق محفوظة
Copyright ninawa

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق، ص ب 4650
تلفاكس: +963 11 2314511
هاتف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org
www.ninawa.org

العمليات الفنية:
التصميم والإخراج والطباعة
القسم الفني - دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة،
أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت
دون إذن خطي مسبق من الناشر.

بدر خضر

هندسة الحوار

بحث في ثقافة الوعي وتكنولوجيا المعلومات

بدر خضر

كاتب وباحث

مدير له: هندسة الطاقة

فهرس الكتاب

٧	مقدمة الكتاب
الفصل الأول: ثقافة تكنولوجيا المعلومات		
١١	تحت عدسة ثقافتنا العربية
الفصل الثاني: منظومة ثقافة المعلومات		
٥٥	تحت عدسة ثقافتنا العربية
الفصل الثالث: منظومة الفكر الثقافي العربي		
١٠٣	في حضن أمه الدافئ
١٦١	الفصل الرابع: ثقافة اللغة العربية
٢١٢	الفصل الخامس: ثقافة الإعلام وخطورته
٢٦٣	الفصل السادس: منظومة القيم والمعتقدات
٣٣٣	الفصل السابع: ثقافة الإبداع الفني
٤٠٣	المراجع:

مقدمة الكتاب

(لكي تتجنب النقد، لا تعمل شيئاً، ولا تقل شيئاً، ولا تكن شيئاً.)

((البرت هادر))

المقدمة: إن البنية الاجتماعية السائدة في مجتمعاتنا العربية تطرح منظومة من الإشكاليات والتحديات المعقدة، وتأخذ الثقافة العربية بمكوناتها التقليدية وبنيتها الأسطورية صورة مركبة تتقاطع فيها صورٌ مختلفة لواقع عربي غني بمشكلاته، وإذا كانت الثقافة العربية تشكل جوهر التحديات ومتطلباتها، فإن رصد هذه التحديات والإشكاليات التي يطرحها الواقع العربي المعاصر، ودراستها وتحليل مقوماتها ورصد مضامينها، يشكل واحداً من أهم التحديات المنهجية، فالثقافة أمرٌ جليلٌ وعظيمٌ علينا ألا نتركها بأيدي رجال السياسة، فهم لا يصمدون أمام الإغراءات والمناصب فيتنازلون عن مبادئهم تدريجياً.

والتاريخ يعلمنا بأن النهوض الحضاري للشعوب كان مرتبطاً بالثقافة الذي سجله إنسان الحضارات القديمة والحديثة، فنشوء الحضارات يركز إلى العقل والعقلانية، والتنوير بنظريته إلى الوجود والكون، ولا سيما الحضارات اليونانية والرومانية والعربية الإسلامية ثم الحضارة الأوروبية المعاصرة.

ويجمع كثيرٌ من المؤرخين أنه لتحقيق نهضة حضارية في أي مجتمع فإن ذلك مرهونٌ بقيام ثورة في نسق القيم والمفاهيم والتصورات والثقافة التي يتبناها المجتمع إزاء الوجود، فالحضارات الإنسانية بدأت بثورة معرفية وأسماء وعميقة، غيرت من نظرة الإنسان إلى نفسه ومجتمعه وإلى من حوله فالخصائص الحضارية لأي مجتمع كانت تتعدد بمستوى تطور الثقافة السائدة فيه، فثقافة التنوير الاجتماعية العلمية هي التي تحدد الأساس لنهضة اجتماعية حضارية متقدمة، وبالمقابل فالثقافة التي تتأخر بنفسها عن العلم والمعرفة تؤخر على تخلف المجتمع وانحطاطه في السلم الحضاري، وهكذا فإن الثقافة تتكامل مع المجتمعات المتقدمة، بينما تشكل الخرافة لازمةً طبيعيةً للمجتمعات التي تبعد عن الحضارة والتقدم.

كتب التاريخ على العرب أن يجثم الاستعمار على صدورهم دهرًا، ولكنهم استماتوا في الدفاع عن أوطانهم حتى نالت استقلالها، وكانت ما نالته الجزائر أكثر جدارة واقتداراً من شعوب كثيرة نالت استقلالها بفضل ترتيبات دولية

واليوم يقدم العرب على العالم حالة مستعصية مآزق صيرورتهم التاريخية، وحجم هائل من التناقضات في مكوناتهم الاجتماعية، فأنا لا أروم الإثارة ولكنه مطروح في وطننا العربي، إنه المآزق بين المفاهيم وسياقها. وقد تبين لنا الآن أننا لا نستطيع أن ندافع عن وجودنا وهويتنا إلا بعد أن نحدث تحولات عميقة في ثقافتنا وعقليتنا، كإيجاد صيغة علمية قادرة على حمل رسالتها في عالم تحكمه العقول الجبارة الطامعة على الإبداع والخلق، كما يتضح اليوم أن الشعوب لا تستطيع مواجهة التحولات العلمية والثقافية بثقافة تقليدية أسطورية، وإن فعلت فمحكوم عليها بالدمار والزوال. لأن المضامين العلمية الإبداعية تشكل في عالمنا المعاصر جوهر الرسالة الحضارية، فهي تشكل على وقود العلم وتكنولوجيا المعلومات، ومن هنا تتضح أهمية ثقافة التوير وتفجير طاقات العقل وإطلاق إمكانياته، وتعليم التفكير، وتوفير الأمن والأمان للطلاب والمعلم، وتقدير الذات والآخر، فلا لتربية الإذعان والقهر والحرمان.

عندها نحقق مكاناً لائقاً في ظل هذه الحضارة المتألقة، فقد تحدث فلاسفة السياسة وفقهاء الفلسفة، حول ما يسمونه بالعطالة التاريخية، وهذا لم يصدق كما يصدق على أمة العرب، فقد توقفت عجلة التاريخ التي كانت تدور حتى في ظل الاستعمار، وانحسرت في مآزقها منذ فجز الاستقلال هذه العطالة تثير الدهشة والتساؤل، بل تبعث على الحيرة، عطالة مغلقة بالمبث الوجودي تماماً كالضرس المسوس، ونتمساءل، لماذا لم تنجز دولة الاستقلال وعدها في تحرير الإنسان العربي من الخوف؟ إذن ما الفارق بين الماضي والحاضر؟ فالوطن العربي بين ما عليه وما في باطنه من ثروات، والعطالة جاثمة بثقلها فوقه، والعرب ينوسون بين الفقر والفتى، بل يقامرون بثروات أوطانهم، والعطالة نقرؤها في المشهد الفكري، ما بين الثقافة والمعرفة، والأمية المنتشرة في الوطن العربي تشهد على ذلك بعد كل هذه العقود من الاستقلال، والنخبة المثقفة عندما تبحث عن الوسائل والمناهج كي يفرصوا إلى جوهر القضايا، علماً أن ثنائية الماضي والحاضر لم تحل المشكلات.

فالماضي هو العدو الذي صنعه الآخر وزرعه بالمتفجرات، والزمن لا يسير بطريقة خطية، ولو كان الأمر كذلك لاحتاج الإنسان إلى عيين في مؤخرة رأسه، والمستقبل هو المجهول وهذا يحتاج إلى شجاعة وجرأة وإلى التسليح بالعلم لاقتحامه، كما لم تحسم إشكالية القراءة والتأويل، ولا حتى مسألة التفسير، وما زلنا نطرح أسئلة البدايات، هل الأرض كروية؟ هل تدور الأرض حول الشمس؟ وإلى متى تبقى ثقافتنا سجيئة؟ وهل العرب يرضون بذلك؟

فقد أكد ماكس فيبر في كتابه الشهير البروتستنتية والروح الرأسمالية: أن البروتستنتية أساس النهضة الحضاري للمجتمعات الأوروبية فمهدت للثورة الصناعية والنهوض في العقل الأوروبي، فهي أتت بنظرة جديدة إلى الكون، والإحساس بالمسؤولية الفردية واستثمار رأس المال، وتعميم التعليم والمساواة بين الرجل والمرأة، ورفض الخرافة والأسطورة وإعلاء شأن التجربة والعلم والمعرفة العلمية، وهذا بدوره أدى إلى تحولات عميقة وشاملة في بنية الثقافة الأوروبية، فقد ولدت ثقافة وروح نهضوية جديدة، تلخصت في التخلص من الموروث الهزيس الذي أشاع الحروب الدينية، وهذا يدل على قدرة العقل البشري على فك رموز الطبيعة والحضارة الإنسانية، ومنح حرية الاختلاف، والاعتقاد، والتعدد الفكري. كما يسجل التاريخ الإنساني أن زوال الحضارات وسقوطها، يترافق مع تراجع العقلانية والعقل في رؤيته للوجود، وهذه الحقيقة تنبئ عن نفسها في مراحل تدهور الحضارة الإسلامية، عندما كف العقل العربي عن التأمل، وعن الإبداع المعرفي خيم الجهل والتخلف، وانطلقت شحنة الحضارة الإسلامية. وهناك مشهد آخر للعطالة التاريخية ينبثق بين السياسة والاقتصاد والثقافة هو مأزق اللغة العربية على أيدي أبنائها وأهلها، إنه مشهد درامي يدعو للعجب والاستغراب، هذه العطالة التاريخية تحيط باللغة وتجثم فوق صدرها على مرأى من أصحاب القرار ومن يخططون للمستقبل، وأتينا على يقين، أن انفصاماً حاداً ينهض بين حضور الوعي العام في السياسة والاقتصاد والمعرفة، وغياب الوعي بالمسألة اللغوية لدرجة لم يعرفها العرب قبل اليوم، وما عرفتتها شعوب أخرى، وهذا الانفصال وتلك العطالة إذا دققنا في أمرهما، وتأملنا تجلياتهما، يكفيها مثلاً أن نقارن بين ما أنجزه العرب، بعد عقود من دولة الاستقلال، وما أنجزته شعوب أخرى في آسيا وفي أمريكا اللاتينية بل إفريقيا، أو بما بدأت تتجزه شعوب تحررت من سطوة الأنظمة الشمولية، في غرب أوروبا وشرق آسيا. إن العقيدة التقليدية، بما تتضمنه من الخرافات والأساطير وهيمنة المقدس والتعصب والتمركز حول الذات، تشكل نسياً فولاذياً أمام التقدم، فالقيم والدوافع بعامة تشكل التنمية الاجتماعية والفعل الاجتماعي، ومن هنا يمكن النظر إلى الثقافة في مجتمع ما أنها تحدد اتجاهه ومركزاته، وتأسيساً عليه يمكن القول: بأن الثقافة التي تحكم السلوك وتحدد النظرة إلى الكون، بل تحدد منهجياً مواقف التقدم وطريق النهضة، والمسألة الحضارية هي مسألة إنسانية ثقافية قبل كل شيء، ونحن بحاجة إلى تطهير العقل العربي من أدرانته،

وتصد عاتيه، ونسف مرتكزات تخلقها، وتحرره من الجمود العقلي ولا يد هنا من مراجعات نقدية وثقافية لثقافتنا وهويتنا وقضايا وجودنا .

والعرب سيظلون على هامش التاريخ إن وصلوا النظر إلى المسألة الثقافية كما هم يفعلون، ولا أمل من الخروج من هذا المأزق إلا بتكامل عربي إقليمي ثقافي معربي.

فكم أضعنا من مواردنا وأفكارنا وثرواتها الفكرية، وضاع منا الوقت ويشهد على هذا الماضي والحاضر القريب، بأننا عقلنا العقول وقتلنا أصحابها، فالمعذرة يا ابن المقفع ويا بشار بن برد وغيركم كثيرون، كأننا نعيش في ليل نهاوي كواكبها، مهلاً أيها الأقوياء.

واليوم يبدو وكأن أقوياء العالم ودعاة حقوق الإنسان، يصرون إلينا بحروبهم وصراعاتهم! لنخوض حروباً أهلية وصراعات عرقية ودينية، ونرضخ تحت نير استبعاد ويطالة وبكلمة واحدة: نتلقى كل كوارث الإبادة الجماعية. وآمل أن تدعم فصول هذا الكتاب ثقافة الوعي وأن تحفز القارئ المتفتح الذهن، وأن تزرع الشكوك في عقول المؤمنين بالخرافة والأوهام، فأنا عربي بالمعنى الإنساني وعلى الرغم من أنني منطقي جداً في العادة لكنني لا أستطيع ادعاء الحياد نظراً لأنني أكره الظلم والقهر والظلميان، وأغضب إذا اعتدي على شرف وكرامة أمتي، وأنا متمسك بالمقاومة ضد الأعداء، فالأرض والدم ليسا كأمسا من خمر. وخلاصة القول أن هذا الكتاب يسمى ليكون محاولة للفهم والمساءلة، وأمنيته أن يساهم هذا الجهد المتواضع في الحدث على تفعيل دور العقل ونقد، والتأكيد على ضرورة المعرفة بوصفها أساس كل تقدم. وأن الثقافة هي محور التنمية الاجتماعية الشاملة، وتكنولوجيا المعلومات أصبحت هي محور التنمية العلمية التكنولوجية، والحوار بين هذين المحورين هو المحور الأساسي وذلك بتداخلهما مع بعضهما فهو حديث خطوط التماس بما يعنيه من خطورة، وقد التزمنا منهجياً بتوجهين اثنين:

- توجه منظومي لكون الثقافة منظومة مكونة من منظومات فرعية أخرى، تتكون بدورها من مجموعة من العناصر الداخلية، وشبكة من العلاقات تربط المنظومة الفرعية بخارجها

- توجه التناول المزدوج: ويكون بطرح الخلفية العامة وهذه ضرورية لطرح المسألة من وجهة نظر عربية.

الفصل الأول

(لو عرفت أسباب جهالتني لصرت حكيماً)

جبران خليل جبران

منظومة تكنولوجيا المعلومات

تحت عدسة ثقافتنا

- تاريخها.... وتطوراتها لدى الغرب،

- تاريخها،

أ - تاهت القضايا الثقافية في التفاصيل الفنية، وطفئت المصطلحات على المفاهيم، عندما احتكر التكنوقراط الخطاب المعلوماتي وباتت هذه المفاهيم والقضايا تحتل مراكز مهمة على خريطة الفكر الغربي، وحظيت بالاهتمام الكبير من قبل منظري الثقافة وفلاسفة العلم واللغة والأخلاق وعلماء الاجتماع والتربية والإعلام وعلماء البيولوجيا، ليضيفوا مشهداً مشيراً لمشهد المعلومات: علمياً وفلسفياً وتكنولوجياً، وثقافة المعلومات هذه وليدة تكنولوجيا المعلومات، وقد مرت تكنولوجيا المعلومات بتطورات عدة منها:

صنع الإنسان آلة لتتوب عنه في بذل الجهد، سعى بعدها لصنع آلة تخفف عنه الجهد العقلي، كما بنى الآلة الحاسبة في القرن التاسع عشر، ولكن هذه المحاولات لم تكلل بالنجاح بسبب عدم توافر الأسس العلمية بل بسبب التناقض بين ميكانيكية العناصر وصلابتها ورهافة المعلومات وسيولتها وتدققها، وعندما توفرت الأدلة العلمية والوسيلة التكنولوجية المناسبة لبناء الآلة الحاسبة حتى تحقق الحلم المنتظر في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين، وولد الكمبيوتر الرقمي ثمرة التقاء الفيزياء والرياضيات المنطقية والهندسة الإلكترونية وأدى بدوره إلى ثورة في عالم تكنولوجيا المعلومات، وليدة الامتزاج الثلاثي: عتاد الكمبيوتر - والبرمجيات - وشبكة الاتصالات، وعبر

الستين عاماً المتحصرة تطور الكمبيوتر بصورة غير مسبقة، بسلسلة من
النفقات النوعية فتراحت أجيال من تكنولوجيا المعلومات، فهي تظهر بسرعة
وتموت بذات السرعة، بعضهم أسماها: بالعصر الحجري - والحضريات
الرمزية، نسبة إلى الوسائط البدائية لتبادل المعلومات، مثل الكروت المثقبة
وشرائط التيكز الورقية، وعناصر العتاد العتيقة من صمامات الكترونية،
وعناصر ذاكرة منطائيسية وإلى الأساليب المتخلفة، للبرمجة الموصومة
بالقطعية والخطية، علاوة إلى النظم التقليدية لمعمارية عتاد الكمبيوتر، ذات
الطابع المركزي المتلاحق الذي حد كثيراً من سرعة الآلة وحدة ذكائها الآلي،
وعدم المرونة واقتارها إلى الأسس المنهجية والهندسية. ١ - شق العتاد تمثل
النفقات النوعية من الكمبيوتر الضخم، إلى الكمبيوتر الميني، ثم الكمبيوتر
الميكرو، وهذه أبرز ملامح تطور عتاد الكمبيوتر، وكان السبب في تطور
الكمبيوتر هو العنصر المادي المستخدم في بناء ذاكرة الكمبيوتر ووحدة
معالجته المركزية التي تقوم بالعمليات الحسابية والمنطقية. وكان اختراع
الترانزستور أشباه الموصلات، في عام ١٩٥٧ (بداية في رحلة التصغير
المتناهي، وقضى هذا العنصر الصغير الحجم على الصمام الالكتروني
الضخم، وسرعان ما واجه الترانزستور نفس المصير بعد أن أجهزت عليه
الدوائر الالكترونية المتكاملة، وهي شرائح مصنوعة من السيلكون النقي
المستخلص من الرمال، ويمكن تمثيلها بمصفوفة متراسة من وحدات
الترانزستور. تنقش هذه المصفوفة على الشريحة الرقيقة بطرق تكنولوجية
معقدة تشكل من خلالها بنية بلورات السيلكون غير الموصلة للكهرباء، وفي
ثانياً هذه البلورات، يُوزع كمية محموية من الشوائب المعدنية الموصلة
كهربائياً، وهكذا تكتمل ثنائية أشباه الموصلات التي تعمل كمفاتيح، كهربية
وهي تتصل وتنفصل عناصرها الترانزستورية بإثارتها بتيار كهربي خافت،
وتمضي قافلة التصغير المتناهي قدماً بخطى سريعة، من الدوائر المتكاملة
ذات الكثافة المحدودة إلى الدوائر المتكاملة ذات الكثافة العالية، وهي غابة
كثيفة من مفاتيح أشباه الموصلات، أو بوابات الوصل والفصل، وفقاً

للمصطلح الفني وقد تضاعفت كثافة هذه الشرائح السيلكونية بفضل التضاعف التكنولوجي بمعدل سنوي عبر العشرين سنة الأخيرة، ونتيجة لهذا التطور المذهل في وحدة البناء الأساسية تقلص حجم الكمبيوتر وزادت سرعته من آلاف العمليات الحسابية في الثانية إلى سرعة النانو/ثانية أو بلايين العمليات في الثانية. وفي نهاية الثمانينيات أصبح كمبيوتر صغير الحجم بحجم راحة اليد يفوق كمبيوتر ضخيم، وهنا نهتدي إلى الفكرة الذهبية التي قام عليها عتاد الكمبيوتر وهي ثنائية الوصل والفصل بعد أن خضعت تماماً لتكنولوجيا التصغير المتنامي. فهذه الثنائية هي المقبل الفيزيائي الذي يمكن من خلاله تجسيد نظام الأعداد الثنائي القائم على ثنائية (الصفر والواحد) دون غيرهما وهو النظام الذي اكتشفه الفيلسوف الألماني /ليبنتز/ في القرن السابع عشر، وأخضعه من بعده للمعالجة الرياضية (جورج بول) الإنكليزي وكان يعمل في بداية حياته قسيساً فأصبح الأساس العام لتكنولوجيا المعلومات: عتاداً وبرمجيات واتصالات، ولاشك أن فيلسوفنا الألماني وفيلسوفنا الإنكليزي ومعهما البشرية كلها، يدينان بالفضل إلى هذا الهندي العظيم المجهول الذي اكتشف مفهوم الصفر الفاصل ما بين السالب والموجب، ونهل من فضله أحفاده هنود اليوم، الذين تزداد (أصفار يمين) نتائجهم القومي، من عوائد تكنولوجيا المعلومات.

ب - البرمجيات: كانت طبيعة الاستخدامات السائدة لنظم الكمبيوتر في عصره المتخلف (الحجري)، آلة حاسبة ضخمة لمعالجة البيانات، واقتصرت استخداماته على المجالات الإدارية والتجارية كسجلات الأهرام واستخراج قوائم المرتبات وكشوف الحسابات، وتطور الكمبيوتر بعدها ليصبح آلة لمعالجة المعلومات، وبذلك تجاوز العمليات الحسابية البسيطة الخاصة بمعالجة البيانات الخام ليبرز العلاقات بينها من أجل استخلاص المعلومات نقية مصفاة، على صورة كليات ومؤشرات وتحليلات إحصائية. ومن أمثلة تطبيقات معالجة المعلومات:

- نظم دعم القرار.

- بنوك المعلومات.

- والخرائط العلمية والثقافية. ومع تطور أساليب الذكاء الاصطناعي ارتقت هذه الآلة الصماء وأصبحت آلة لمعالجة المعارف، ويمكن القول: أن الفكرة الذهبية وراء تطور البرمجيات هي إدراك الفروق الجوهرية بين البيانات والمعلومات من جانب، والمعلومات والمعارف من جانب آخر. وهناك فرق كبير بين البيانات التفصيلية الخام والمعلومات الإجمالية المستخلصة الجاهزة لدعم القرارات وإجلاء التوجهات، وشقان ما بين المعارف والمعلومات، فالمعارف تسمو فوق المعلومات، فهي تضم إلى جانب الخبرات القدرة على الاستنتاج، واستخلاص الحكمة من موضوعات المعلومات، فمخرج إلى الوجود مفهوم (هندسة المعرفة) و(نظمها الخبيرة) التي تحاكي الخبير البشري مثل المستخدمة في تشخيص الأمراض، وتصحيح النصوص وتلقين العلوم وتوالت بعدها النظم الذكية، من نظم تقرأ وتسمع وترى وتميز المسافات والأشكال، ونظم تفهم، تحلل، وتحمل المسائل، وتبرهن النظريات، وتتخذ القرارات، بل تألف النصوص وتولد الأشكال. ومنها نظم ذكية ذات قدرة ذاتية لتطوير نفسها بنفسها، نظم تتكيف مع البيئة المحيطة وتتعلم تلقائياً من أخطائها، كما تتعلم من متغيرات ما يجري حولها، وعلى الرغم من عظمة الفكرة الذهبية للفرقة بين البيانات والمعلومات والمعرفة، تظل الفكرة دون الاكتمال إلا إذا أدركنا الفروق الجوهرية بين المعرفة والحكمة وكثيراً ما تتوافر المعرفة ونفيب الحكمة، أصفى رحيق يقطره عقل الإنسان.

ج - على جبهة الاتصالات: كانت النقطة النوعية باستخدام الألياف الضوئية النعيلة للغاية، وذات السعة الهائلة لنقل البيانات التي تفوق سعة أسلاك النحاس الأغلف بعشرات بل بمئات الآلاف من المرات، ويخطط بعضهم لبناء شبكات ألياف ضوئية تصل فيها سرعة تدفق البيانات عبرها إلى (بليون) نبضة في الثانية، وهي السرعة التي تتيح نقل مائة ألف صفحة لدائرة معارف - مثلاً - في ثانية واحدة، والأهم من هذا كله ستتتيح ضخ سلع صناعة الثقافة من إعلام مرئي وأفلام أغان وموسيقى، والتي تحتاج بحكم طبيعتها، إلى سرعة عالية لبثها، والنتيجة أن الفكرة الذهبية وراء تطور شبك الاتصالات، تكمن في استخدام التدفق الضوئي النقي ذي السعة العالية، بدلاً

من التيار الكهربائي المحدود السعة، والمُعَرَّض للتشويش والضوضاء والتقصت، مع المعدل الهائل في تبادل المعلومات الذي وفره الوسيط الضوئي، ولم تعد المشكلة هي (شح المعلومات) كما كانت الأمور في الماضي، بل (إفراط المعلومات) وهي مشكلة لا تقل صعوبة عن سابقتها.

د - اندماج العناصر الثلاثة: كان شق العتاد حتى الجيل الرابع يتألف من نظم الكمبيوتر والمعلومات صاحب الكلمة العليا، في مملكة تكنولوجيا المعلومات، وفي ذات الوقت كانت تعمل العناصر الثلاثة لتكنولوجيا المعلومات: العتاد، والبرمجيات، والاتصالات، بطريقة مستقلة عن بعضها البعض ابتداءً من الجيل الخامس وما بعده، اندمجت العناصر الثلاثة وانتقلت السيادة من شق العتاد إلى شق البرمجيات، وأصبح من يقبض على نظم البرمجيات هو الحاكم بأمره، وهكذا أنزوت (شركة أي بي أم) رائدة عاقلة العتاد لتبرز شركة (ميكروسوفت) رائدة مسيرة البرمجيات وبهذا انتصر العنصر الذهني، وارتقت منظومة تكنولوجيا المعلومات، مؤكداً ارتقاء الفكر عن المادة، وأهمية المعلومات كمورد تنموي يفوق في أهميته الموارد الطبيعية مادية كانت أم طبيعية أو مالية، وهنا تأهلت تكنولوجيا المعلومات للقاء الثقافة.

هـ - تنويع شبكة الإنترنت: بعد هذا الاندماج بين مكونات العتاد الثلاثة (العتاد، البرمجيات، الاتصالات)، تَوَجَّهَت الإنترنت ملكة، وكغيرها من شبكات المرافق توارت عن الأنظار تلك المكونات المندمجة في إطارها، وظهر ما ينقل محلها من خلال الشبكة أي المعلومات السائلة بين جنباتها، وطفئت على السطح كاشفة عن أسرارها، وأصبحت الإنترنت نافذة الإنسان على عصره الصاخب، والوسيط الجديد الذي يرى الإنسان فيه واقعاً ويتعامل معه ويمارس عن بعد كل أنشطته الذهنية والعملية وعن بعد: يشتري ويبيع، يعلم ويتعلم، يسترجع المعلومات وينشرها، يتفاوض ويتسامر، يقيم الصداقات ويعقد الصفقات، يفض المنازعات ويحشد تحالفات الوفاق والعداء، ومن خلال الشبكة يتنقل دون رحيل، فيشارك الآخرين أحداثهم وأعمالهم متحرراً من قيود المكان ومطالب التواجد المأفرا المعلن. وقد وفرت تكنولوجيا المعلومات ساحة مثيرة للعمل الثقافي ولقاء الثقافات، وقافاً كان أم صراعاً

والفكرة الذهبية وراء هذا النجاح المذهل الذي حققته الإنترنت في هذا الوقت القصير، تكمن أن تكنولوجيا المعلومات لا تحقق أهدافها إلا إذا انصهرت في الكيان المجتمعي، وهذا ما فتحت قنوات الاتصال إلى أقصاها، وشبكة الإنترنت هذه سادت غيرها من شبكات معلومات لا تملكها لسبب بسيط، فهي تكفلت في الربط بين الشبكات المتدرجة في إطارها، إنه الطفيلي الكبير يعلو فوق ما أقامه الآخرون، فهو همزة وصل.

و - الواقع الخائلي: تسعى تكنولوجيا المعلومات حالياً من خلال الذكاء الاصطناعي إلى العوالم الاصطناعية، ما يعرف بالواقع الخائلي لبناء عوالم خائلية، من أجل محاكاة عالم الواقع، أو إقامة عوالم خيالية لا وجود لها في دنيا الواقع، إنها عوالم وهمية تكونها الأرقام والرموز، يتغمس فيها المستخدم بفعل خداع الحواس ومؤثرات التفاعل الآلية، ليمارس خبرات يصعب عليه ممارستها في عالمه الحقيقي، كأن يتدرب على قيادة الطائرات، أو بجوب الفضاء الخارجي، أو يذهب زمنياً عبر العصور الجيولوجية مستحضراً عوالمها السحيفة، بأصناف حياة صناعية فيما ولى زمنه وانقرض، أو يتخذ من هذه العوالم الخائلية (حضانات معرفية) يتعلم عبرها ومن خلال التجربة والخطأ، دونما خوف من قيد، أو رقيب، وهنا تطرح تكنولوجيا المعلومات على الثقافة أسئلة غير مسبوقة، فيما يخص مكنى هذه العوالم الخائلية، وصلتها بعالم الواقع وما يترتب على ذلك من معارف أخلاقية ومسائل ميتافيزيقية.

- تاريخ موجز لتكنولوجيا المعلومات العربية،

ولكن ماذا يعني لنا هذا الموجز المثير من تطور تكنولوجيا المعلومات؟ إنه ينطوي على الكثير من الدروس المفيدة، بقدر ما ينطوي على تحديات جسام علينا مواجهتها، وأفاق مرتقبة علينا أن نندفع نحوها لاستغلالها، فتوالي أجيال الكمبيوتر وتسارعها سلاح ذو حدين فلكل جيل من هذه الأجيال أباطرته واقتصاداته، والنوعية الخاصة لعمالته وتطبيقاته، وكما قيل عن المعلومات إنها تتبّت في شقوق الاحتمالات، وفرصها تلمع بين فواصل النقلات النوعية. فمع ظهور كل جيل جديد، تلوح في الأفق فرص كثيرة. ونحن لا

نتحدث عن اليابان عندما استغلت التكلفة النوعية للإلكترونيات الميكروية لتلحق بأمريكا في مجال صناعات العتاد والاتصالات، إلى الحد الذي كادت أن تصبح معه صناعة المعلومات رهينة لإنتاج (المسابك) اليابانية لإنتاج الشرائح الإلكترونية، ولا نتحدث عن فرنسا التي كادت قبل ظهور الإنترنت أن تصبح رائدة العالم في إقامة مجتمع الاتصالات ونحن نتحدث هنا عن لعب الصغار في ساحة الكبار ولا نتحدث عن اللعب مع الكبار، وعلينا أن نتحدث عن سنفاقورة التي جعلت من تكنولوجيا المعلومات أحد المصادر الأساسية لدخلها القومي وتنميتها الاجتماعية، والعدو الصهيوني الذي أمن لنفسه موقفاً جيداً على خريطة تكنولوجيا المعلومات والهند التي نجحت في أن تصبح خلال فترة لا تتجاوز عشر سنوات ثالث دولة في العالم في صناعة البرمجيات بل يساهم علماءها في وضع الأسس النظرية لتكنولوجيا (البيوسيلكون) لدمج لعناصر البيولوجية مع شرائح السيلكون الإلكترونية، والتي يتوقع الكثيرون أن تحدث ثورة عارمة في صناعة الحواسيب الإلكترونية.

أ - أهمية السريع الصغير: إن ملحمة تطور تكنولوجيا المعلومات على مدى نصف القرن الماضي، تؤكد أن قدرة الصغير السريع، تمكنه من القضاء على الكبير البطيء الذي يعوق انطلاقته ثقل تنظيماته، وتصلب أفكاره، وتفضيل إدارته لنمط التطور المتدرج على النمط الثوري المندفع لمنافسة الصغير السريع. والصغير هنا لا يعني الصغير التنظيمي والاستثماري فقط بل يعني الصغير مبنياً، لأن صناعة المعلومات تقوم على اكتاف الشباب إدارة وتصميماً وبرمجة وتشغيلاً، وتدين تكنولوجيا المعلومات بتطورها السريع بالفضل إلى إبداع الشباب، لأن الشباب: كانوا هم مخترعي الدوائر المتكاملة وأسلوب البرمجة الجدولية وفنطرة (جيفرسون) للتوصيلية الكهربائية الفائقة، ذات الأهمية القصوى في بناء الحاسوب كمبيوتر، ولا ننسى هنا شركة كمبيوتر ميكروسوفت أكبر شركات البرمجة عالمياً، والتي أخذ (بيل جيت) في تأسيسها عندما كان في الرابعة عشر من عمره، فهل بعد هذا كله نستسمح شيوخنا بأن يفسحوا الطريق أمام الشباب؟ وهل نستسمح البيروقراط أن يفسحوا المجال أمام غير المختصين ليتقدموا بنا إلى الأمام، كما فعل قسيسنا

الإنكليزي (جورج بول) عندما استخدم الصفر والواحد فأخضعه للمعالجة، ليصبح الأساس العام لتكنولوجيا المعلومات وخاصة بإسادة أن مجتمعاتنا تصنف (بالرضيمة ديموغرافيا) (٤٣/ بالمائة أقل من ١٤ سنة). وهنا التحدي الحقيقي لنا، هل يمكن أن نقيم هذه النوعية من التنظيمات وقيادتها الشابة القادرة على متابعة هذا المسار المتنامي للتطور التكنولوجي الثاقفة؟ فلا ثورة بلا ثوار، ولا أمل سوى تلك التصور الطائفة والنادرة من (ديناموهات) التغيير، وهذه أثرت مبدأ السلامة، وأين لنا مثل هذا الانتظار؟ وعلينا أن ندرك مدى اختلاف تكنولوجيا المعلومات عن سابقتها وأن ننظر إليها كمرحلة من مراحل تطور التكنولوجيا، وسوف يجري عليها ما جرى على ما قبلها، وكما تكيفنا مع ما سبق، سنتكيف بالمثل مع ما سوف يجيء، إنه موقف متخاذل وخاطئ، صحيح ليس بمقدورنا أن نخوض بمواردنا المحدودة - والوقت يعصرنا - جميع مجالات التنمية المعلوماتية، وتركيزنا على شق البرمجيات لما له من أهمية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات، بعدما أصبحت صناعة العتاد بيد حفنة من الشركات المتعدية الأجنبية، فيصعب علينا الدخول إلى ملعبها، وعلينا أن نقف بحزم ضد احتكار صناعة البرمجيات، والتي يحاولون السيطرة عليها واحتكارها، وإذا خضعنا لذلك، فنتيجته كارثية على المدى البعيد والقريب، فيصبح إعلامنا وتعليمنا وإبداعنا وراثنا ولفتنا تحت رحمة عولة البرمجيات، وهنا مقتلنا بالفعل.

- أهمية التصغير والرقمنة القريبة،

١ - تحقيق المعادلة الصعبة: نجحت تكنولوجيا المعلومات ولأول مرة في تحقيق المعادلة الصعبة، فهي نجحت في أن تجمع بين الأكفا والأعلى قدرة، وبين الأرخص والأكثر سهولة في الاستخدام، لقد ارتقت نظم المعلومات على جبهات عدة من زيادة وسرعة تنفيذ العمليات الحسابية والمنطقية، إلى زيادة في سعة التخزين للوسائط الإلكترونية، ومن زيادة كفاءة ملحقات الطباعة وشاشات العرض ومولدات الصور، إلى زيادة إمكانات لغات البرمجة الراقية والتي تقارب مرونة اللغات الإنسانية وقدرتها الفائقة على التعبير، في الوقت الذي تتراجع فيه كلفة تكنولوجيا المعلومات بصورة غير مسبوقة؛ كلفة

الكمبيوتر وملحقاته، ومعدات الاتصال وإقامة شبكات الاتصال، بل كلفة إطلاق الأقمار الاصطناعية، بعد أن دخلت الصين أسواق المنافسة العالمية. ولم يقتصر الأمر على انخفاض كلفة اقتناء نظام الكمبيوتر والمعلومات، بل زادت سهولة استخدامها حتى أصبحت في متناول الأطفال من محدودى التعليم. وخير شاهد على ذلك سهولة استخدام شبكه الإنترنت، والتي تقرب من سهولة استخدام التلفزيون أو الهاتف النقال، وتمكنت تكنولوجيا المعلومات من تحقيق تلك المعادلة الصعبة، بفضل عدد محدود من مما أسميناه (الأفكار الذهبية) وتأتي على رأس هذه القائمة الذهبية على مستوى تكنولوجيا المعلومات ككل. فكرتان أساسيتان شديدتا الصلة فيما بينهما وهما (التصغير المتناهي) والرقمنة.

ب - أهمية التصغير: إن التصغير شمل كل شيء: وحدة البناء الأساسية الممثلة في شرائح السايكون فائقة الكثافة (مائة مليون ترانزستور في سم مربع واحد) وسعة التخزين حيث يمكن لقرص الليزر قرص (السي - دي) أن يتسع ما يوازي ألف كتاب بحجم القرآن الكريم، وعما قريب ١٠ آلاف كتاب في مثل حجمه، وطابعات بحجم علبة الكبريت، وعما قريب سوبر كمبيوتر في حجم راحة الكف، وحديقة ملاء مثل حديقة (والت ديزني) في مقصورة واحدة لألعاب الفيديو، يمكن برمجتها حتى تشمل جميع الألعاب ورحلات المفامرات، التي تشتمل عليها الحديقة الشهيرة المقامة على آلاف الأهدنة. والتصغير كان وراء سرعة انهيار تكنولوجيا المعلومات داخل كيان المجتمع، وأصبحت عن طريقه ذات قابلية للاندماج مع غيرها، من لعب الأطفال إلى مركبات الفضاء، ومن محطات توليد الكهرباء إلى منظمات دقات القلب، وهكذا تشارت (منمنمات) تكنولوجيا المعلومات في كل اتجاه، وظلت تقوى وترهف في أن واحد، حتى اخترقت جسد الإنسان وأوشكت اليوم أن تتفد خلال خلاياها، وهكذا التقت تكنولوجيا المعلومات مع منظومة الإنسان ومجتمعه، وأصبحت تكنولوجيا المعلومات قادرة على التعامل مع دخائل جسد الإنسان ومخه، إضافة إلى كونها عاملاً أساسياً في تنمية عناصر منظومة المجتمع: الماكل والملبس، المنتجات والأفكار. القيم والنظم. سلوك الأفراد وأداء المؤسسات والعلاقات بينهما.

وهناك من يعتبر الرقمنة آخر صيحة في الإنتاج الرأسمالي حيث جنبته قيود الزمان والمكان والعمالة وتوافر المواد الخام. وأدت الرقمنة بطابعها النبضي المتقطع إلى مظاهر أخرى من مظاهر التجزئة والتقطع، فكانت تجزئة بناء البرامج من وحدات برمجية صغيرة تقوم كل منها بمهمة محددة، وتشظي النصوص في هيئة (سلخ) متفرقة، ورزمنة رسائل الاتصالات بتقطيعها في هيئة رزم من (قصاصات) رقمية متعاقبة، عبر مسارات الشبكة المختلفة، ليعاد تجميعها لحظة استقبالها ويبحث بها متفرقة وكما أدى التصغير، إلى اندماج تكنولوجيا المعلومات مع خارجها كذلك الرقمنة وراء اندماجها الداخلي، ويقصد به ذلك الاندماج بين الكمبيوتر الرقمي وشبكات الاتصالات الرقمية، والبرمجيات بطبيعتها رقمية فكل شيء يؤول إلى ثنائية الصفر والواحد، والأهم هو اندماج أنساق الرموز التي أشرنا إليها وهو اندماج بعيد الأثر، يؤهل تكنولوجيا المعلومات كي تكون الوسيلة الفعالة لتحقيق الحلم الثقافي القديم حلم تكامل العلوم والفنون وامتزاج المعارف والخبرات وجميعها ذات أصل رمزي.

- أهمية التصغير والرقمنة العربية-

أ - انخفاض الكلفة: إن انخفاض كلفة تكنولوجيا المعلومات كان عاملاً حاسماً في سرعة انتشارها وإتاحتها لقطاعات شعبية واسعة، إن قدراً هائلاً لا يستهان به من هذه الميزة الاقتصادية يخضع بسبب تسارع الاستهلاك أو التقادم الفني، ويستغنى عن المنتجات لا بسبب عدم صلاحيتها الفنية بل لظهور نماذج أحدث وأكثر وأرخص. وكم من دول عربية اقتتست نظاماً للمعلومات طاعنة في عمرها الفني، سرعان ما تخلت عنها واستبدلتها بالجديد، وهذا يتطلب تنمية قدرات عربية تكنولوجية في مجال التقييم، لتعقب مسارات التطور الفني وتوجهاته الرئيسية كي لا تقع فريسة لتقلبات هذه التكنولوجيا الجامحة والتي لا ترحم، ومن جهة أخرى فإن رخص معدات استخدام تكنولوجيا المعلومات، يقابله ارتفاع كلفة بنيتها التحتية، ويكفي مثلاً شبكة طرق المعلومات الفائقة السرعة التي تبلغ كلفة إنشائها مئات المليارات

من الدولارات، وهو مازق اقتصادي كبير يتطلب حلولاً مبتكرة ومشاركة في الموارد من قبل جميع الدول العربية، وليس من المستبعد أن تكلف بعض الدول العربية الشركات المتعدية الجنسية إقامة هذه البنية التحتية الحيوية من (التخطيط، الإنشاء، التشغيل، التحديث).

ب - سهولة الاستخدام: فهي أيضاً سلاح ذو حدين لأن التعقد لا يُستَحدث وما ينقص منه على مستوى الاستخدام أو التعامل على مستوى السطح يفوص في أعماق المعدات، والتنظم تزداد تعقداً وانغلاقاً، فتتوازي الزيادة في سهولة الاستخدام، مع تفشي الصناديق السوداء، التي لا يستطيع فهم أسرارها إلا من قاموا بتصنيعها. وكم مرة استدعينا الخبراء الأجانب لأجل أمور تافهة ودفعنا مبالغ طائلة، واستعصت علينا لعدم امتلاكنا مفاتيح تلك الصناديق السوداء المنفلقة.

ج - ماذا عن رقمتنا؟ تعتبر الرقمنة أحد المحاور الأساسية للمحافظة على تراثنا العربي الثابت والمنقول والمتحول، المكتوب والشفهي وتزداد الرقمنة كلفة وتعقيداً وقد نضطر إلى مقايضة أحد كنوزنا الثقافية مقابل خدمات الرقمنة، وكل تراث لا تتم رقمته سيظل بعيداً عن المعالجة المعلوماتية الآلية، ليفقد تدريجياً قيمته إلى أن يندثر تماماً.

- منظومة تكنولوجيا المعلومات،

- ١ - الإطار العام للمنظومة؛ ويشمل التالي:
 - العناصر الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات.
 - شبكة العلاقات التي تربط منظومة تكنولوجيا المعلومات بما هو في خارجها من تكنولوجيات، وفئات اجتماعية، ومنظومات اجتماعية ومثالثنا على ذلك منظومتنا السياسية والاقتصاد.
 - عناصر البنى التحتية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات ومثالثنا على ذلك: سياسات المعلومات الوطنية والإقليمية، ومحتوى المعلومات الذي يمثل المادة الخام لصناعة المعلومات إضافة إلى الموارد البشرية من: مصممين ومخططين ومديرين لقواعد البيانات ومواقع خدمات الإنترنت.

- المكونات الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات الغربية،

تمثل ثلاثية: العتاد - والبرمجيات - والاتصالات. المحور الأساسي للعناصر الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات والتي اندمجت في شبكة الإنترنت، والآن نستعرض أهم توجهات هذه المكونات.

أ - العتاد: ويتقسم إلى قسمين رئيسيين هما الكمبيوتر وملحقاته، وبمقدورنا أن نلخص هذه التوجهات بالتالي:

- التوجه نحو الأصغر والسريع والأرخص والأسهل استخداماً سبق وذكرنا هذا التوجه

- التوجه الثاني: من المركزية إلى اللامركزية والتلاحق والتوازي وبقي بناء الكمبيوتر أسير المركزية القائمة على مركزية الذاكرة (ذاكرة وحيدة) ومركزية المعالجة الحسابية والمنطقية (وحدة معالجة وحيدة) ويسعى المهندسون إلى تخليصه من وصمة المركزية هذه، التي قلصت من سرعته ومن ذكائه الآلي على حد سواء، ويبغون من سعيهم هذا استحداث معمارية موزعة بين لامركزية تقوم على شبكة كثيفة من عناصر المعالجة الآلية، وعناصر الذاكرة المعمارية اللامركزية تعمل بأسلوب التوازي لا التلاحق، ويقصد بالتوازي هنا إمكان قيام الكمبيوتر بعمليات حسابية ومنطقية عدة في الوقت ذاته، والتعامل آنياً مع مصادر عدة للبيانات: دخلاً وخروجاً وبهذا تقترب معمارية الكمبيوتر خطوة أخرى نحو بنية المخ البشري، المكونة من شبكة هائلة من بلايين الخلايا العصبية المترابطة، ذروة اللامركزية والتوازي بلا منازع.

- التوجه الثالث: إن حدة التنافس تدور بين الكمبيوتر الشخصي والكمبيوتر الشبكي، حيث تجري اليوم معركة بين فريقين، أحدهما يتبنى فكرة أن يكون الحاسب الشخصي هو أداة المستخدم للنفاذ إلى شبكة الإنترنت، ويتزعم هذا الفريق شركة (مايكروسوفت)، وفريق آخر يتزعمه شركة (صن ميكروسستمز)، يرى أن الكمبيوتر الشخصي قد ولى إلى غير رجعة وما يحتاج إليه المستخدم هو الكمبيوتر الشبكي تتسم بالبساطة، بلا وحدات تخزين - أو نظم تشغيل معقدة، كمبيوتر يتعامل مع الإنترنت بشكل

مباشر باعتبارها مستودع معلوماته، يستدعي منها ما يشاء وما يلزمه من بيانات وخدمات معلومات وبرامج، وهناك فريق ثالث يتوقع أن يندمج الكمبيوتر النقال والهاتف النقال وشبكة الاتصال في شبكة معلومات شخصية، تربط الإنسان أينما كان بالشبكات المحلية والعالمية، لتمده بما يلبي رغباته ويتفق وأهوائه الشخصية ومعرفته ويبيعث إليها برسائله ويتصل بمن يريد .

- التوجه الرابع: هناك ملحقات طرفية أكثر كفاءة وتنوعاً، حيث تتطلب برامج التطبيقات الحديثة بصفة عامة والتطبيقات الثقافية بصورة خاصة، تتطلب ملحقات طرفية تتجاوز ثنائية لوحة المفاتيح والفأرة، ملحقات تتعامل مع النصوص والرسوم والصور والموسيقى والكلام، وشاشات عرض غنية الألوان عالية التحليل لتلبية مطالب فنون التشكيل، علاوة على ملحقات التعامل، مع نظم الواقع الخائلي.

ب - البرمجيات: مصطلح الشق الذهني ويقابله البرمجيات، يعني في مدلوله الواسع كل ما هو ذهني، أي ما ليس مادياً، وهو لا يقتصر على برامج الكمبيوتر، بل يشمل المخططات والدراسات والتصميمات ويشمل ما هو هام جداً وهو محتوى الموسيقى والأفلام والنصوص والتسجيلات المسموعة والمرئية وتنقسم البرمجيات إلى ثلاثة فروع رئيسية:

- برمجية التحكم في تشغيل الكمبيوتر وشبكات الاتصالات: وهي تناظر آلات التشغيل ووسائل الإنتاج في الصناعات التقليدية وتشمل: - نظم التشغيل ومثالها نظام (ويندوز) ونظم التحكم في شبكات نقل البيانات - أدوات برمجية: وتشمل لغات البرمجة وأدوات زيادة الإنتاج من نظم تنسيق الكلمات، وقواعد البيانات وبرمجيات العرض، وأدوات تصميم الرسوم، وتحرير الموسيقى

- البرامج التطبيقية: وتغطي من رؤية الثقافة مجالات أساسية هي: الوسائط المتعددة والنشر الإلكتروني ونظم خدمات المعلومات ومعالجة اللغة العربية آلياً.

ج - الاتصالات: لقد تعاظم دور الاتصالات داخل منظومة تكنولوجيا المعلومات وارتقى من كونه عنصراً مكملاً إلى دور الفعل المهم، وقد حولته شبكة الإنترنت، وطريق معلوماتها الفائق السرعة، مجرد وسيلة للاتصال إلى وسيلة نقل منتجات صناعة الثقافة وأهم توجهات الاتصالات هي التالي:

- رقمنة في كل اتجاه (هواتف رقمية، شبكات رقمية، معدات اتصال رقمية) وهو ما أدى إلى توسيع نطاق الخدمات الهاتفية وتنوعها.

- الانتقال من كابلات النحاس إلى الألياف الضوئية.

- انتشار المعدات النقالة من هواتف محمولة وحواسيب جيب وكتب ومذكرات إلكترونية.

- اندماج خدمات الهواتف مع خدمات الفاكس والبريد الإلكتروني والبحث عن المعلومات والترحال في الإنترنت.

- خصخصة مؤسسات الاتصالات، الوطنية وهذه ظاهرة انتقلت من أمريكا إلى الباسيفيكي والأطلسي إلى اليابان ومعظم دول أوروبا وبصحبة إطلاق المنافسة بين مؤسسات الاتصالات وشركات تليفزيون الكابل وشركات الكمبيوتر لتقديم الخدمات الهاتفية والمعلوماتية والإعلامية.

- المكونات الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات العربية،

أ - العتاد: يمثل تطور الكمبيوتر وعتاده أهمية كبيرة لتطبيقات الثقافة العربية منها:

- إمكان تطوير برامج تعليمية ذكية تتجاوز البرامج ذات الإمكانيات المحدودة المتوافرة بالأسواق.

- إمكان استخدام السرعة الفائقة والمعالجة اللامركزية المتوازية لتطور نظم ذكية لمعالجة اللغة العربية آلياً كالترجمة الآلية الفورية وتحليل مضمون النصوص، وفهم الكلام الإنساني أوتوماتيكياً.

- استخدام الإمكانيات العديدة لعتاد الكمبيوتر وملحقاته في دعم المبدع العربي والمحافظة على تراثنا الأدبي والموسيقى والتشكيلي وكذلك تراثنا الحي من أغان وأناشيد وطنية ودينية.

ب - البرمجيات: إن برمجيات التشغيل وأدواتها محتكرة من شركات تطوير البرامج، وعلى رأسها شركة مايكروسوفت، وكانت هناك محاولة لتعريب نظم التشغيل وتنسيق الكلمات، وقواعد البيانات، وهذه الجهود توقفت الآن، حيث يصعب للوطن العربي المناقضة الآن أمام الهجمة الشرسة لشركة مايكروسوفت التي تسعى للسيطرة الكونية، وجعلت منتجاتها قادرة على التعامل مع جميع اللغات، ويتم ذلك على حسب الخصائص القومية للغة، وتزداد الحالة سوءاً كلما اختلفت هذه اللغات عن اللغة الإنكليزية، كما هي الحال بالنسبة للعربية والصينية واليابانية. علماً أن نظم التشغيل تتعامل مع اللغة العربية شأنها شأن جميع اللغات على مستوى الحرف، مع زيادة تفاعل نظم التشغيل مع اللغة، وهذا توجه حتمي في المجال الثقافي، ولا بد من أن تتعامل هذه النظم لغوياً مع مستوى أعلى من الحرف مع الكلمة العربية صريحاً ونحوياً، وشركة مايكروسوفت ليس لديها الإمكانيات ولا الدوافع لدراسة اللغة العربية بمثل هذا العمق. وهناك واجباً قومياً لمساهمة الباحثين والمطورين والمستثمرين العرب في هذا المجال، لماذا لا نعلم صغارنا مبادئ البرمجة باللغة العربية نظراً للعلاقة الوثيقة بين البرمجة والفكر من جهة، والفكر واللغة الأم من جهة أخرى، وقد عريت لغات برمجة سهلة للصغار مثل (لغة اللوجو) ولغة (البيسيك) إلا أن جهود التعريب توقفت هي الأخرى، في ظل غياب الحماس للتعريب بصورة عامة، إضافة إلى الفهم الخاطئ عند بعضهم، أن تعليمات البرمجة تشبه إلى حد بعيد المعادلات الرياضية والكيميائية والتي تكتب باللغة الإنكليزية واللاتينية، وإن جاز هذا بالنسبة للغات البرمجة المتقدمة، لكنه لا ينطبق على المستوى الذي نقصده وهو لغات برمجة لاستخدام الصغار. وبالنسبة لبرامج التطبيقات فهناك شركات تطوير برامج الوسائط المتعددة والنشر الإلكتروني، ومعظمها من شركات تعمل لتطوير البرامج، وعدد محدود من دور النشر التعليمي والصحافي، وهناك جهود مثمرة فيما يخص معالجة اللغة العربية آلياً. وهناك الصرف الآلي والإعراب الآلي، والتشكيل التلقائي، وبناء قواعد البيانات المعجمية. وبالنسبة لخدمات المعلومات، فأقل ما يقال عنها أنها متدنية على الساحة العربية

لضعف الموارد من جهة، وضعف الطلب على مثل هذه الخدمات، وإما بضعف التسويق، أو بسبب ضغور البحث عن المعلومات عند المديرين والمهنيين العرب لأسباب تربوية وإدارية.

ج - الاتصالات: إن مجال نمو الاتصالات في الوطن العربي أفضل من نمو خدمات المكتبات والمعلومات في كل الوطن العربي، باستثناء بعض الدول العربية التي ما زالت دون الحد الأدنى في مجال الاتصالات عن بعد، وهي: الصومال، السودان، موريتانيا. وقامت دول أخرى مثل: مصر ودول الخليج، وتونس بتطوير شبكاتها القومية لنقل البيانات، ونأمل من الدول العربية أن تساهم بالمشاركة في الموارد وإقامة المشاريع القومية لإقامة البنية الأساسية لطرق المعلومات الفائقة السرعة، وبطريقة تتفق والأهداف القومية لاستغلال تكنولوجيا المعلومات في دفع حركة التنمية علاوة على الكلفة المالية العالية لإقامة هذه البنية والتي لا يقدر عليها إلا القليل من الدول العربية.

- علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بخارجها في الغرب،

نظراً إلى انتشار وانصهار تكنولوجيا المعلومات في الكيان المجتمعي، فإن علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بخارجها لا بد من دراستها بنفس أهمية العناصر الداخلية، لمنظومتها. ومما لا شك فيه أن دراسة هذه العلاقات لخارجية أكثر أهمية في إطار طرحنا الثقافي.

أ - علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بمنظومة السياسة، إن علاقة المعلوماتية السياسية تزداد وثوقاً بشكل مطرد، فلم تعد شاغل السياسات القطاعية: كالتعليم والإعلام والصحة والصناعة والزراعة، وصارت تحتل موقعا بارزا في فكر القيادات السياسية للدول. بل تجاوزت ذلك لتصبح أحد البنود الأساسية في أجندة السياسات الإقليمية والعالمية. ومن أبرز علاقات المعلومات بالسياسة هو ما يتعلق بالديمقراطية، مفهومها وممارسة ويقول بعضهم أن الإنترنت ستؤدي إلى إعادة النظر بالديمقراطية من أساسها، وقد وفرت الإنترنت ساحة جديدة للرأي العام تسمح بظهور أشكال جديدة للممارسات الديمقراطية، سواء في اتخاذ القرار أو في متابعة ما ينجم عنه من

نتائج إيجابية أو سلبية. وعلى مستوى السياسة العالمية من المتوقع أن تقاصر القوى السياسية الكبرى مؤسساتها الاقتصادية بممارسة ضغوط هائلة في المحافظ الدولية.

ب - علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بالمنظومة الاقتصادية: تظهر أهمية المعلومات اقتصادياً في ضوء تعدد الأدوار الاقتصادية لها، لأن المعلومات سلعاً اقتصادية بل خدمة اقتصادية، وبرامجها وبنوك بياناتها ومحتواها بمنزلة أصول اقتصادية، إضافة إلى كون المعلومات مورداً حيوياً يسند كل الأنشطة الاقتصادية الأخرى، وأدت تكنولوجيا المعلومات وفيضها الزائد إلى زيادة فيض الإنتاج مما حدا بالبعض إلى أن يتساءل: هل أصبحت الرأسمالية الجديدة منتجة أكثر من اللازم؟ لأن التوسع الهائل سيصاحبه تقلص فرص العمل، وارتفاع معدلات البطالة مما يؤدي إلى ضمور الطلب ثم الركود والكساد الاقتصادي، ومن أهم ملامح علاقة المعلوماتية الاقتصادية السياسية، هي:

- الاندماجات الاقتصادية الضخمة التي تتم حالياً في قطاعي الإعلام والمعلومات وما ينجم عنه من خلل في توزيع فرص العمل والإنتاج والإبداع والاحتكار.

- الأمور المتعلقة بالملكية الفكرية وتسعير خدمة الإنترنت فيما يتعلق بشق المحتوى المادة الخام لصناعة المعلومات.

- التغيرات الجذرية في اقتصاديات النشر الطباعي والسينما والترفيه.

- دائماً تكنولوجيا المعلومات تخرج إلينا بأشياء اقتصادية جديدة، وتفتح لنا آفاقاً معرفية جديدة وهو مفهوم اقتصادي جديد ونقصد به مفهوم (اقتصاد التركيز والانتباه) والذي يهدف إلى ترشيد استخدام الإنسان لحواسه البصرية والسمعية وقدراته على التركيز، واستغلال موارد ذاكرته القصيرة والمتوسطة المدى، وظهر هذا (إزاء حمل المعلومات الزائد) لقد زادت سرعة المعلومات، ومعدل تدفقها في حين ظلت حواسنا وقدراتنا الذهنية ثابتة كما هي وهذا يتطلب استخداماً أفضل لهذه الموارد حتى لا يتسحق الإنسان أمام إعصار المعلومات الجارف.

ج - علاقة تكنولوجيا المعلومات بالفئات الاجتماعية: بسرعة انتشار تكنولوجيا المعلومات، يزداد تعامل الفئات الاجتماعية المختلفة معها، ورغم هذا تبقى معظم الفئات الاجتماعية على المستوى السطحي، دون التغلغل في أعماق المجتمع الثقافية، وتبقى الغالبية العظمى من المستخدمين أسيرة ما ينعم عليهم موردو البرامج الجاهزة، وما عليهم إلا الضغط على المفاتيح والأزرار والتحرك في حدود ما تتيحه قوائم الخيارات. وعلى صعيد آخر، إن أسلوب الإدارة الذي وضعه (تايلور) لتكنولوجيا الصناعة على أساس دراسة حركة العامل والوقت الذي يأخذه في تأدية المهام التمهيلية لم يعد ملائماً لتكنولوجيا المعلومات، والتوجه اليوم نحو الهندسة السيكلوجية ضماناً لإنتاجية عمالة المعلومات الكثيفة المعرفة، والقائمة على الإبداع. وستؤدي تكنولوجيا المعلومات إلى ظهور نوعيات جديدة من العمل الوظيفي، بعيدة كل البعد عما أفرزته تكنولوجيا الصناعة، وسوف تزيل من الوجود كثيراً من الصناعات التقليدية، وفرض العمل أخذة في النقصان حتى كاد العمل أن يكون نوعاً من الترفيه، ولن ينعم به إلا القلة النادرة.

د - علاقة تكنولوجيا المعلومات بالتكنولوجيات الأخرى: بعد أن أصبحت تكنولوجيا المعلومات، تمتد بالفذاء كل أنواع التكنولوجيات الأخرى دون استثناء، ويتزايد الدعم الذي تقدمه تكنولوجيا المعلومات للتكنولوجيات ذات الصلة المباشرة بقطاع الثقافة، وهي تكنولوجيا التعليم والإعلام والفنون، ويشمل هذا الدعم: شبكات الاتصالات، والوسائط المتعددة، والنشر الإلكتروني والبرامج التعليمية والترفيهية ومعالجة اللغات آلياً، والبحث في النصوص والأرشيف الإلكتروني، إضافة إلى الأدوات البرمجية لدعم فنون التشكيل والموسيقى وغيرها من الفنون الأدائية. ومن أهم هذه العلاقات علاقة تكنولوجيا المعلومات بالتكنولوجيات الأخرى، هي علاقتها مع التكنولوجيا الحيوية القائمة على علم البيولوجيا الجزيئية والتي تتوثق باستمراراً وتكنولوجيا المعلومات في النهاية تلتقي بالفيزياء بذراتها وبلورتها وشرائعها السيولوجية. وعلم البيولوجيا يكاد يحسم المعركة لمصلحته العلمية

والتكنولوجية مع الفيزياء، وبينما البيولوجيا يستعير مناهجه من الفيزياء،
كتفسيره للعمليات الفيزيولوجية بدلالة تفاعل الكيمياء الحيوية، وفيزيولوجيا
الأعصاب بدلالة الإشارات الكهربائية، ونشاهد اليوم بوادر التحرك في الاتجاه
العكسي، وينظر اليوم بعضهم إلى الفيزياء كحالة خاصة من البيولوجيا،
حالتها الدنيا الخالية من الحياة، وتكنولوجيا المعلومات تستعد للقاء
البيولوجيا، كما يستعد هو للقائها، ويلوذ علم البيولوجيا الجزيئية الحديث
بالنهج المعلوماتي ليعينه على كشف أسرار الجينات ولفتها، ونصوصها
الوراثية الكامنة في كروموسومات نواة الخلية، وفي هذا الصدد تعتبر نظرية
المعلومات مدخلاً أساسياً فيما يطلق عليه (البيولوجيا الجزيئية الرمزية)
وكما هو معروف تقوم نظرية المعلومات بقياس كمية المعلومات على أساس
حصريها في نطاقٍ مقيدٍ، حيث الاحتمالات الممكنة تزداد كمية المعلومات
عكسياً، مع درجة احتمالها وتوقعها، وقد رأى علماء الوراثة في التوجه
الإحصائي المقيد تفسيراً أفضل لعملية التطور من ذلك التفسير على أساس
نظرية دارون الكلاسيكية القائمة على عشوائية الانتخاب الطبيعي ومبدأ
البقاء للأصلح، وفي المقابل تريد تكنولوجيا المعلومات محاكاة الوظائف
البيولوجية واستخدام الآليات الوراثية، خاصة فيما يتعلق بالتكيف مع البيئة
المحيطة، وهي خاصية أساسية في إكساب الآلة القدرة على التعلم الذاتي
وإضافة على ذلك، هناك توجه لاستخدام العناصر البيولوجية الحية كوحدة
أساسية لبناء كمبيوتر أكثر سرعة وذكاء ومرونة، ولأول مرة في التاريخ
البشري أمكن للتكنولوجيا أن تجمع ما بين الفيزيائي المتمثل في عتاد
الكمبيوتر، والذهني المتمثل في برمجياته، والبيولوجي المتمثل في استخدام
العناصر البيولوجية في بناء الكمبيوتر، ومحاكاة الآليات الوراثية في تطوير
برامجه حتماً، لقد تأملت تكنولوجيا المعلومات للقاء مثير مع الثقافة ولقاء
مثير مع الإنسان صانع هذه الثقافة وصنيعتها، وهناك لقاء لا يقل إثارة مع
مجتمع الإنسان الذي أفرز هذه الثقافة وتلك التقنية.

- علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات العربية بخارجها -

أ - علاقة تكنولوجيا المعلومات بالمنظومة السياسية: اكتشفت المجتمعات المتقدمة أنها بعيدة عن الديمقراطية السياسية الحقيقية اليوم، حتى عن تلك التي كانت سائدة في أثينا القديمة. أو تلك التي بشرت بها حداثة التنوير، وإذا كانت هذه حال من سبقونا في مجال التنمية السياسية، فما بالنا نحن وتدني مستوى الأداء الديمقراطي في معظم مجتمعاتنا العربية لا يحتاج إلى مزيد من التأكيد؟ وهل لنا الآن أن نتفائل مع من يزعمون أن الإنترنت ستسقط الحلقات الوسيطة بين الحكام ومواطنيهم، محققة بذلك نوعاً جديداً من الديمقراطية المباشرة التي يشارك فيها الجميع، في عملية اتخاذ القرار دون حاجة إلى تمثيل نيابي يوكل إليه هذه المهمة؟ أم هل لنا أن نقلق أشد القلق مع من يرى في ديمقراطية الإنترنت ضرباً من الفوضى سيؤدي إلى مزيد من تدخل الحكومة من أجل السيطرة على مواطنيها خاصة وأن الإنترنت توفر الوسائل العملية الفعالة لإحكام السيطرة، حيث تسجل للمواطنين مواقعهم وأفعالهم لتكشف عن أهوائهم السياسية والفكرية مما يجعلهم أكثر عرضة للرقابة الإلكترونية.

ب - علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بالمنظومة الاقتصادية: هناك العديد من القضايا الساخنة بين منظومتَي تكنولوجيا المعلومات والاقتصاد نوجزها بالتالي:

- ارتفاع كلفة البنى التحتية، وتكنولوجيا التعليم وتكنولوجيا صناعة الثقافة، فيجتاح هذا ضرورة المشاركة في الموارد على مستوى الوطن العربي.

- الأمور المتعلقة بالملكية الفكرية ولأن الوطن العربي مستورد لتكنولوجيا المعلومات أكثر بكثير مما هو منتج لها، علينا أن ننظر إلى الملكية الفكرية بعين المستورد من يدفع رسوم الاستخدام لا المنتج صاحب الملكية

- نزيف العقول العربية في عمالة المعلوماتية وما يعنيه ذلك من كلفة باهظة.

- التصدي لمحاولات إسرائيل لإختراق السوق العربية في مجال تكنولوجيا المعلومات والسلع الثقافية.

ج - علاقة تكنولوجيا المعلومات بالفتيات الاجتماعية: إن الإنترنت بآلياتها المعلومات والمعرفة للجميع، سوف توفر مناخاً أفضل لتحقيق العدالة الاجتماعية وتمنح فرصاً متكافئة للتعليم والتعلم، فتضيّق الهوة بين العالم النامي والعالم المتقدم، ويقلل من الفوارق الاجتماعية المختلفة. وعلى النقيض من ذلك، هناك من يؤكد أن الإنترنت ستزيد من حالة الاستقطاب الاجتماعي وتؤدي إلى ظهور نخبة جديدة، تجمع ما بين القوة المادية لرأس المال، والقوة الرمزية المتمثلة في المعارف والمعلومات. ويقول البعض إن الوظائف المتوفرة للعمال غير المهرة آخذة في الانحلال، وظهر من دراسة حديثة أن استثمارات الولايات المتحدة الخارجية لم تعد تجتذبها الأيدي العاملة الرخيصة (أنطوان زحلان ١٩٩٨) وما زال معظم الإعلاميين لدينا غير ملمين بالأبعاد الاجتماعية والثقافية لتكنولوجيا المعلومات، ولم ينجح التربويون العرب في دمج تكنولوجيا المعلومات في صلب المؤسسة التعليمية العربية، إضافة إلى ارتفاع نسبة الأمية، والتفاوت الشديد في الدخل يفرضان على واضعي السياسة المعلوماتية اتخاذ قرارات وإجراءات كافية وكفيلة تضمن ألا تصبح تكنولوجيا المعلومات وسيلة للاستبعاد الاجتماعي. وهنا لابد من السؤال التالي: هل ستؤدي الإنترنت إلى علاقة متكافئة وأكثر توازناً بين الرجل والمرأة لدينا؟ أم ستزيد من اختلال هذه العلاقة لمصلحة الرجل بحكم كونه أكثر نفاداً لشبكة الإنترنت؟ وفي ذات الوقت لا يمكن إنكار ما تتبعه هذه الشبكة من فرص لتسمية المرأة العربية في منزلها.

- منظومة الإنترنت (المنظور الثقافي).

أ - الإنترنت كظاهرة: كثيراً من الإعلاميين والمفكرين والفنيين تحدثوا عن الإنترنت، تلك الشبكة الكوكبية ذات الفضاء المعلوماتي الضخم وهو دائم الامتداد والانتشار تلك الغاية من المواقع في تبادل المعلومات، التي تخزن وتستقبل وتبث جميع أنواع المعلومات في شتى فروع المعرفة، من الفلسفة حتى قضايا الدين ومن الرياضة إلى معاملات التجارة ومن غزو الفضاء إلى الفن ومن الموسيقى إلى الهندسة الوراثية إلى الحرف اليدوية إلى البريد الإلكتروني

ومن المؤتمرات العلمية إلى الدردشة، فالإنترنت هي الشبكة الأم التي طوت في جوفها مئات آلاف من الشبكات في العالم، والتي تتبادل المعلومات، سواء كانت عالمية أو إقليمية أو محلية، ومهما فعلت وتضخمت وتشابكت، فهي كيان طقيلي تطفو فوق الكيانات المادية وغير المادية، من شبكات وبرامج وقواعد بيانات ليست لها، بل ملكاً لغيرها، وقد أقامت مجدها ونجاحها على وضع بروتوكول بسيط وموحد التزمت به الجماعة التي تريد الانضمام إلى عضوية الشبكة ضماناً لتدفق المعلومات فيما بينها، بالإضافة إلى الوسائل المبتكرة من أجل سهولة التنقل بين المراكز وما بين وثائقها، وانسياب موارد مرور البيانات عبر الشبكات بما يضمن أقصى استغلال لموارد هذه الشبكات والتي ظلت مهددة.

ب - الإنترنت كساحة ثقافية: رغم انتشارها الواسع وتعدد استخداماتها ما زالت الإنترنت في بدايتها. وهي تشكو من الاختناقات وفوضى المعلومات وتلوثها، ولا بد من ظهور جيل ثان من الإنترنت، يفوق جيلها الأول بنسبة كبيرة سواء في السرعة أو في الإمكانيات الفنية، وستوفر مسارات أوسع وأسرع بكثير لتدفق المعلومات، وذلك باستخدام الألياف الضوئية ذات السعة الهائلة وبهذه الطريقة تنقل البيانات بسرعة شديدة، وهي تنقل الأفلام ورسائل الإعلام الحية وصور الفيديو وفيض متدفق من المعلومات، ينقل إلى الفرد نبض الحياة اليومية في كل أنحاء العالم، أو ينقل حضور الفرد نفسه حيثما يريد أن يشارك في اللقاءات ويستمع إلى المحاضرات، إنه فضاء رمزي جديد يطلقون عليه فضاء (المسير) ويمكن أن نسميه فضاء المعلومات، إنه فضاء تقطنه الجماعات وتقام فيه المؤسسات وتمارس فيه الصفقات وتعد فيه التحالفات وتحاك المؤامرات، وترتكب من خلالها جرائم المافيات وسرقات الأموال، والأفكار والمعلومات وقد أصبحت الإنترنت نافذة للإنسان يطل منها على البشرية.

بحويتها وديناميتها الهادرة واشكاليتها المتشابكة المتجددة والمتراكمة، وهذه الشبكة تعيد صياغة العلاقة بين الإنسان وعالمه، بين الفرد ومجتمعه، بين ثقافة المجتمع وثقافات غيره فهي الآن قد أصبحت: ساحة مآخنة ووسيطاً إعلامياً جديداً، ومجالاً للرأي العام مغايراً لكل ما سبقه.

ج - حيرة المجاز: حارت اللغة تجاه ظاهرة الإنترنت الفريدة غير المسبوقة، ولا بد من دليل أمام اللغة بعد أن عجز معجمها ومصطلحها سوى اللجوء إلى المجاز، وذلك لتأكيد ألعاب اللغة الذي ستتضح لنا أهميته كلما تقدمنا في البحث عن ثقافة عصر المعلومات - الاستعارات المجازية في وصف هذه الشبكة الجبارة، من مجاز المكان، إلى مجاز الحشرات، إلى مجاز الكوارث، كل منها يرى وجهاً من وجوهها المتعددة، مجاز المكان: يراها واقعاً لخدمات المعلومات، وطريقاً سريعة لتقل رسائلها، وبوابات ومنافذ للتولوج إليها ومجالات ومدناً خائلية وساحات عامة، إنها طبوغرافيا القرية الإلكترونية، ويمكن أن نضيف مصطلحات مثل: معابر المعلومات وأزقتها وملاجئها ومخابئها وأحيائها، مناطق أرستقراطية ونوادي للمعلومات الخاصة ومناطقها العشوائية ومجاز المكان أو (الطبوغرافيا) يرى الإنترنت فضاءً رمزياً خائلياً موازياً لفضاء عالم الواقع، وتارة طريقاً فائق السرعة لنقل بضاعة الثقافة.

- مجاز الحشرات: فقد حظي بموقع الصدارة في وصف شبكة الإنترنت، وسميت بيت العنكبوت تشبيهاً للشبكة بهذا النسيج البالغ الرهافة، المكون من مسارات المعلومات التي تقطعها طولاً وعرضاً، وغابة حلقات الربط التي تصل بين مواقعها ووثائقها وناشريها ومطوريها ومستخدميها ومتاهة هائلة من مسالك التشعب وعلاقات الاندماج المتطايرة المتجددة.

- بلايين من خطوط الاتصال في رهافة خيوط العنكبوت، قد غزلت هذا النسيج الرمزي التي لا نعرف له بداية أو نهاية. ولم يقتصر المجاز على العنكبوت وإنما امتد ليشمل (النمل) ويشبهون قوافل الروبوتات المعرفية (بمملكة النمل) وهي روبوتات برمجية تجوب الشبكة ذهاباً وإياباً، تنقل المعلومات وتتبادلها فيما بينها وتوزعها وتحورها وتوظفها.

- استعارة الكوارث: تساهم هي الأخرى في مجاز المصطلح الرمزي لتضيف إلى قائمته عبارات، مثل: (إعصار المعلومات) و(زلازل البيانات) و(انفجار المعرفة) و(الفناء الرقمي) و(الداروينية الاجتماعية) و(الداروينية اللغوية) إضافة إلى قائمة الهلاك.

- الإنترنت كظاهرة عربية: إن جسامه التحديات العلمية والتكنولوجية التي يواجهها الوطن العربي لا تقل عن تلك التحديات الاجتماعية والثقافية المصاحبة لها، وهي تتيح لنا فرصة نادرة للإسراع بحركة التنمية العربية، وأثبتت أن أفكار المبدعين بأهمية الموارد الأخرى من أموال الاستثمار والموارد الطبيعية والمادية، وعلينا كمرب ألا نعمل اعتلاء أرجوحة التفاؤل والتشاؤم، فذلك قدرنا وعظمتنا، وتأرجعت بنا الآراء بين التفاؤل والتشاؤم منها:

- ديمقراطية أم مزيد من سيطرة الحكومات - عدالة اجتماعية أم استقطاب اجتماعي، إلفة جماعات الإنترنت أم غربة عن الواقع - حوار ثقافات أم صراع حضارات - معلومات أكثر أم معرفة أقل - إبداع الجديد أم اجترار القديم - ديمقراطية غربية أم مملوكرراطية بازعة - عمالة أكثر أم بطالة أكثر.

التوجهات الرئيسية للإنترنت غربياً وشرقياً،

نظراً للتطور السريع لشبكة الإنترنت ولا بد لنا من تعقب توجهاتها المحورية من المنظور الثقافي - المعلوماتي ومن أهمها: - من المنتدى العلمي إلى سوق التجارة الإلكترونية ومن تبادل البحوث إلى تسليع الثقافة ومزيد من الإنتاج إلى مزيد من الاحتكار ومن النصوص إلى التخاص ومن الخطية إلى التشعب ومن الإستاتي إلى الديناميكي ومن البحث البشري إلى الوكيل الآلي ومن الواقعي إلى الخائلي. وسنتناول كلاً من هذه التوجهات المحورية باختصار. ونسهولة القراءة سيأتي الطرح الغربي لكل من هذه التوجهات متبوعاً بالمنظور العربي:

أ - من المنتدى العلمي إلى سوق التجارة الإلكترونية: كانت الإنترنت منذ نشأتها بمنزلة المنتدى العلمي للربط بين المؤسسات الأكاديمية مثل لجامعات ومراكز البحوث، ووقف المؤسسون الأوائل ضد أي نشاط تجاري أو إعلامي أو إعلاني ولم تقدر هذه الطهارة المعلوماتية أن تستمر، لأن القوى الاقتصادية أدركت أهمية هذه الشبكة في قدرتها الفائقة على ربط مصادر الإنتاج بمنابع الطلب وباعتبارها وسيلة لنقل بضائع صناعة الثقافة، عبر

طرقها الفائقة السرعة، ولكن رأس المال والتجارة والإعلام وطبأت بأقدامها الثقيلة هذا (الحرم الأكاديمي) محيلة إياه إلى متجر إلكتروني، ويوق إعلاني، ومنافذ للتوزيع، ومساحة للتسويق.

- المنظور العربي: سيطرت التجارة الإلكترونية على الإنترنت، وأصبحت بنيتها الأساسية رهناً بما يقدمه التجار من دعم على صورة إعلانات، ومعلوم أن من يقبض على زمام البنية التحتية للشبكة، سيكون المسيطر على ما يجري فوقها من حيث نوعية الخدمات والمعلومات أو نظم تسعيرها، وما علينا إلا أن نطرح تلك الوجود المسرفة جانباً وشعاراتها (المعلومات كالماء والهواء وهي حق للجميع) وفي الوقت نفسه علينا ألا نرضخ لاستقطاب الشبكة نحو أمور التجارة الإلكترونية أو مجرد مقهى للدردشة وساع للبريد الإلكتروني، وأن نتمسك بمهمتها الأساسية في توفير موارد المعلومات اللازمة للإسراع في التنمية في جميع أرجاء الوطن العربي.

ب - من البحوث إلى تسليع الثقافة، جميع المؤسسات الاقتصادية تسعى إلى إكساب المنتج الثقافي والإبداعي طابع السلعة التجارية، وإلى إعادة تشكيل المؤسسات الثقافية في قالب النمطي للتصنيع والتنظيم الاقتصادي، وهذا يعتبر الفيصل في ميزان الربح والخسارة، فهو لا يعرف إلا القيم العينية قصيرة المدى ولا تعنيه القيم غير العينية، ولا الخسائر الاجتماعية طويلة الأجل.

- المنظور العربي: تقوم صناعة المعلومات على ثلاثة محاور أساسية وهي:
- المحتوى: ويمثل مواد التصنيع المعلوماتي.

- معالجة المعلومات: وتمثل أدوات الإنتاج وشبكات الاتصالات التي تمثل قنوات التوزيع. وأهم محور هو المحتوى، والذي يعني في حالتنا الراهنة موارد تراثنا الرمزي، من نصوص وموسيقى وقواعد بيانات والطاقات الإبداعية الخلاقة القادرة على إبداع المحتوى الجديد. إن صناعة الثقافة تتوقف في المقام الأول على التحكم في اقتناء مصادر المحتوى، خاصة فيما يخص التراث الذي ينظر إليه كمورد عالمي مشاع، وتقوم الولايات المتحدة الأمريكية ومؤسساتها العملاقة بجميع السبل إلى إحكام قبضتها على موارد المحتوى بصفتها المادة الخام لصناعة الثقافة، تحضيراً لوضع قيود صعبة وظالمة على

حقوق النشر والملكية الفكرية، وهكذا يضيق الخناق على الدول النامية، لتُحرّم من الدخول في علم التصنيع الثقافي، والذي يعتبرونه صنعة العالم المتقدم. ووسيلة لزيادة فرص العمل لديهم على حساب تصدير البطالة إلى شعوب العالم الثالث، وتجدر الإشارة هنا، إلى أن هناك محاولة لشراء التراث العربي الفني، من أغان وموسيقى وأفلام من قبل مؤسسات عالمية، هذا فيما يخص الموارد الثقافية والتراثية القائمة بالفعل، وأما فيما يخص إنتاج محتوى جديد، يكفي أن تشير إلى ما نعاني منه من إنتاج تليفزيوني وسينمائي. ناهيك عن إنتاج مواد الصحافة التي نستورد معظمها من وكالات الأنباء الأجنبية.

ج - مزيداً من الاندماج باتجاه الاحتكار: تشهد الساحة المعلوماتية حركة محمومة هذه الأيام نظراً لشدة المنافسة في مجال صناعة الثقافة لتزداد ضراوة لاندماج الأعمال والتكامل الرأسي، ما بين شركات البرمجيات وخدمات الإنترنت، وشركات إمداد المحتوى من دور نشر وإنتاج موسيقى وسينما وشركات التوزيع وخدمات المعلومات كشركات الاتصالات وفيديو الكابل، وهذا الاندماج يجر وراءه الاحتكار الذي ظننا يوماً أنه لن يطال أمور الثقافة بخصوصيتها وإبداعها، والإحصائيات تكشف عن وجهه البغيض.

- المنظور العربي: لا بد من تكامل معلوماتي إعلامي عربي، ينهض على حشد الإمكانيات والمشاركة في موارد المعلومات من أجل مواجهة التكتلات العملاقة، والتصدي للنزعة الاحتكارية خاصة في مجال صناعة البرمجيات، ومن المعروف أن أمضى أسلحة الاحتكار في المجال التكنولوجي، هو سلاح التوحيد القياسي، وهو غالباً ما يتم عن طريق فرض المعايير القياسية بحكم الأمر الواقع، من قبل الشركات المهيمنة على الأسواق وما أكثر هذه المعايير في شبكة الإنترنت، المتعلقة ببروتوكولات تبادل المعلومات، ومواصفات تسجيل البيانات من نصوص وموسيقى وأشكال وفيديو، وهذا يستلزم متابعة رصد التوجهات الفنية، واتباع أقصى درجات الحرص في اقتناء موارد المعلومات، واتباع أساليب مرنة في التخطيط والتصميم لضمان الانتقال السلس مع تغير المواصفات القياسية.

د - من النصوص إلى التناص، ومن الخطية إلى التشعب؛ إن تكنولوجيا معالجة النصوص آلياً أتاحت أدوات فعالة للبحث طويلاً وعرضاً في متن النصوص، وتحليل مضمونها، وكشف ما يخفى تحت السطح، من معانٍ وإيحاءات وعلاقات تربط الفاظها وجملها وفقراتها، فتحررت النصوص من الخطية الصارمة التي فرضها عليها الورق الجامد وثبات الطباعة، فليست النصوص كما تبدو في تلك السلاسل المتعاقبة من الحروف والكلمات والجمل والفقرات بل شبكة كثيفة من العلاقات المنطقية والتركيبية والموضوعية وتتجلى في صور مختلفة من انقراثن اللفوية معجمياً وصرفياً وتركيبياً ونحوياً ودلالياً ومقامياً.

وحتى يمكننا تتبع مسارات هذه الشبكة فقد استحدثت تكنولوجيا معالجة النصوص ما يعرف بتكنيك (حلقات التشعب النصي) وهذا التكنيك قضى على خطية السرد النصي ويمكن من خلاله الربط بين أي موضوع وآخر داخل النص أو الوثيقة، ومثالنا على ذلك يمكن أن نربط بين كلمة (خطية) التي تكرر ذكرها في أول الفقرة وفي وسطها وفي نهايتها، وذلك كمثال لعلاقة التطابق اللفظي، وأن نربط بين كلمات (الخطية) و(المتعاقبة) و(السلاسل) الواردة في مواقع متتالية من الفقرة ذاتها، كمثال لعلاقة الترابط بين الكلمات على أساس تقارب المعنى، ويمكن أن نربط بين صفة التقنية في بداية الفقرة، وكلمة (تكنولوجيا) في وسطها كمثال لعلاقة الترادف المعجمي إضافة إلى كشف مسارات التشعب داخل النص المفرد، وهناك وسائل عديدة لربط النص بخارجه أو ما يعرف بعملية التناص، وقد وسعت تكنولوجيا الوسائط المتعددة من مفهوم التناص والذي لم يعد مقصوراً على الربط بين وثائق النصوص، بل بينها وبين الوثائق الإلكترونية الأخرى من أشكال وأصوات وصور ثابتة ومتحركة.

- المنظور العربي: إن نصوصنا ووثائقنا شرانقٌ منغلقة على نفسها، طرقها مسدودة مقطوعة العلاقة بخارجها ويتضح هذا عندما نقارن نصوصنا الثقافية بغيرها، فهي نادرة حلقات التشعب ومسارات التناص، ونقلنا خطية السرد المطبوع إلى شبكة الإنترنت، وهذا يتناقض بشكل كبير مع

طبيعتها المصممة أصلاً للإبحار غير المحدود وهذا الانغلاق النصي يؤدي إلى انعزالية وثائقنا الالكترونية، وسرعة اندثارها، وضعف فاعلية مواقعنا العربية يعود السبب فيه إلى غياب علاقات التشعب والتناص وإلى أسباب عدة من أهمها: قصور خدمات المعلومات ونقص الدراسات التخصصية والمقارنة، إضافة إلى الاستبعاد المعرفي تحت دعوى التصدي للتغريب أو تفردنا الثقافي والحضاري، ولا يمكن أن ننسى هنا ما نعانيه من نقص في نظم الفهرسة آلياً والمقصود هنا المستخدمة في اختزال النصوص إلى كلمات مفتاحية والمفاهيم الأساسية الكاشفة عن مضمونها، وهي تربط عادةً بين الوثائق المختلفة. وأصبحت الفهرسة الآلية وسيلة لا غنى عنها بعد أن أصبح من المتعذر الاعتماد على الفهرسة اليدوية نظراً إلى التضخم الهائل في إنتاج الوثائق.

هـ - من الاستاتي إلى الديناميكي، كان تبادل المعلومات في البداية عبر الإنترنت من خلال تبادل الملفات والوثائق ذات الطابع الاستاتي، أو للعرض فقط ومع ارتفاع الشبكة هنياً، انتشر الطابع التفاعلي المتمثل في حلقات النقاش وعقد المؤتمرات من بعد، علاوة على تفاعل المتلقي ديناميكياً مع المادة المعروضة، فلم تعد الوثائق مقصورة على النصوص والأشكال الثابتة، بل يمكن أن تشمل أيضاً عناصر برمجة تسمح للمتلقي بالتفاعل معها.

- المنظور العربي: هناك فرق كبير ما بين المتلقي السلبي البارد، وحيوية لتفاعل الإيجابي، وستكون الغلبة في النهاية لصاحب الرسالة الثقافية المتسمة بالتفاعل، وتحت على المشاركة، وديناميكتها تكون على شكل رجوع الصدى، الذي يعكس مطالب المتلقين وأهواهم، وبناء عليه لم يعد كافياً نقل رسالتنا عبر الإنترنت، ويقتصر جهدنا على عرض الجوانب المختلفة لمادتها، بل مراعاة جاذبية تصميمها، ومداومة تحديث مضمونها، وأن نراعي كيف يتلقى المستقبل هذه الرسائل، وكيف يستوعبها، وكيف يدمجها في روتين حياته اليومية.

و - بين الباحث البشري والآلي الذكي: فتحت الإنترنت بوابات الفيضان المعلوماتي على مصراعيها، وكثرة المعلومات أصبحت مشكلة نواجهها، ومن

الصعوبة في مكان أن نُموّل على الوسائط البشرية وحدها لمسح الشبكة دورياً، بحثاً عن المعلومات المطلوبة، ولا بد من أتمتة هذه العملية باللجوء إلى الروبوت المعرفي أو البرمجي كوكيل آلي ترجع إليه الأمور بهذه المهام الصعبة والروتينية الشاقة، والروبوت المعرفي خادم الإنترنت المطيع الدؤوب الدائم التجوال بين أرجاء الشبكة، لتنفيذ المهام الملقاة على عاتقه، وهو يتمتع بقسط كبير من الذكاء الاصطناعي، يمنحه القدرة على الاستنتاج والتحليل والتوقع، وهو مستقل في اتخاذ القرارات وفقاً للسلطات الممنوحة له، وإقامة الحوار مع زملائه ليعملوا كفريق عمل واحد متكامل أقرب إلى مملكة النمل، نتيجة للمعدل المتزايد والمتسارع لزيادة ضخامة حجم المعلومات، ازداد اللجوء إلى الوسائل الأتوماتيكية للبحث والتحليل والتنظيم وأهمها التالي:

- آليات البحث الفائق التي تمزج بين البحث بمدخل الموضوع (البحث في العمارة الإسلامية) والبحث عن لفظ بعينه أو مجموعة ألفاظ بعينها، في متن النص مثلاً: نبحث عن لفظ (الكمبة) أو (الحرم المكي).

- منظمات المعلومات الفائقة السرعة التي تقوم بفهرسة المعلومات وتبويبها وتخزينها.

- روبوتات الأرشفة تقوم بأرشفة مواقع الشبكة.

- المنظور العربي: نحن نواجه في معركتنا الثقافية على شاشة الإنترنت جيوشاً جرارة من روبوتات المعرفة، التي تقتحم علينا مواقعنا عبر الشبكة، لتأخذ منها المعلومات تحللها وتبادلها، وتخفيف إليها، وتعيد صياغتها، وتكيفها وفقاً لأهواء أصحابها، وإسرائيل ربما تكون السباقة في استخدام هذه التكنولوجيا الرفيعة، في توظيف تكنولوجيا (الوكالة الآلية) لتموض عجزها الشديد في الطاقة البشرية، وعلينا أن نحصن أنفسنا ضد هذا (التطفل الإلكتروني)، ونحمي تراثنا بحيث لا يتهب في غفلة منا، من قبل (لصوص الليل)، وعلينا أن نبحث عن كيفية المواجهة بين هذا التلاحم العجيب بين الذكاء الاصطناعي وتكنولوجيا الوكالة الآلية، وأن نلحق بهما وهما مازالا في المراحل الأولى لتطورهما.

ز من الواقعي إلى الخائلي؛ يزداد استخدام مفهوم الخائلي في دنيا الإنترنت، ونظرا لحدائته وازدياد أهميته في المجال الثقافي سنخصه بقراءة مفيدة.

وهي التالي: - الخائلية: هناك جماعات خائلية ومؤسسات خائلية ومعابد خائلية ومعامل خائلية و(خائلي) هو كل ما يحاكي الواقع، إلى درجة يكاد يكون حقيقي وهو ما يتجاوز هذا الواقع وهو يؤخذ مأخذ الواقعي، ويتعامل معه على أنه في حكم الواقع فمثلاً: صورة المرأة خائلية لتناظرها مع الواقع والأفلام السينمائية التي تماثل الواقع، هي من النوع الخائلية والأسطورة المتجاوزة للواقع هي خائلية، مادامت رُسِخت في ذهن من يتداولونها، ومن هنا لكل عصر خائليته، يمارس بها الإنسان قهر الطبيعة، ويحلم بإرادة لا تتحقق له في دنيا الواقع. هذا وتنوع الخائليات وتعدد مصادرها، بين خائليات من صنع السحر أو وليدة خيال الشعراء، تلك من صنع طوبائيات الأيدولوجيا أو أحلام التكنولوجيا - ومن يحب تعقب الخائلية تاريخياً واجتماعياً من المحتمل أن يهتدي بنظرية (أوجست كوث)، عن ثلاثية التنمية الاجتماعية: من اللاهوت إلى الميتافيزيقي، إلى العلمية، ومن يريد أن يفامر ليصل (الخائلية) له أن يتعرض لها بكل دقة وكل حرص، إن عجبه حديث (محمد أركون) عن مراحل تكوين العقل العربي الإسلامي، ونقصد بها، ثلاثية المرحلة الكلاسيكية وهي: مرحلة التأسيس والبدائيات، والمراحل المدرسية وهي مرحلة تكريس التقليد والاجترار، والمرحلة المعاصرة لما يعرف بالنهضة الإسلامية، وهذه المراحل الثلاث لا يفصل بينها (محمد أركون)، فيعماد إنتاجها ويختلط فيها العقل بالأسطورة والخيال (عبد الله موسى ١٩٩٩)، إن (محمد أركون) قد يتعثر وهو يناظر بين العلمية في ثلاثية أوجست كوث، وأسلمت العلوم التي ينادي بها بعض مفكري النهضة الإسلامية، وإن جاز أن يكون لكل عصر خائليته، فلا وجه للمقارنة بين خائلية الماضي وخائلية عصر المعلومات، نظراً لقدرة التوليد الخائلي الهائلة لتكنولوجيا المعلوماتية، وهي قدرة تعود إلى قدرة هذه التكنولوجيا على التجريد والمحاكاة والتثيل الرمزي، وما توفره للتفاعل الدينامي مع الواقع، أو ما يحاكيه أو ما

يمثله من نظم ونماذج، واتخذت خائلية عصر المعلومات أشكالاً متعددة، ودرجات متفاوتة من خلال محاكاتها للواقع، من حيث البيئة التي تسكنها الكائنات الخائلية، فالإنترنت تمثل فضاءً عاماً تسكنه خائليات عدة جماعات، خائية تتآلف عن بعد، وتجارة إلكترونية للبيع والشراء عن بعد، ومعارض خائلية لبيع الكتب، ومكتبات رقمية خائلية تجمع فيها الوثائق الإلكترونية. إننا نعيش مرحلة (الهجرة إلى الخيال) إنها هجرة جماعية ينزع خلالها شباب الإنترنت إلى مواقعها العديدة، يتصفحونها ويتفاعلون مع ما تعرضه من خيارات ومعلومات، ورغم هذا الإبحار وما فيه من إثارة، يبقى هذا المستوى الخائلي قاصراً في جوهره، لأن الفروق كبيرة عندما تزور متحف اللوفر، مثلاً، من خلال تصفح مقتنياته والقيام بزيارة نموذج يشابه هذا المتحف باستخدام الأسلوب الواقعي الخائلي، لأنه يتقل خلالها الزائر بين ردهات المتحف، ويشاهد مقتنياته بصورة أقرب ما تكون إلى الخيال، كأنه يزور بالفعل المتحف وما أن يغير اتجاه مساره حتى يتغير المنظر بأكمله، وتكبر الصور عندما يقترب منها، وتصغر عندما يبتعد عنها، ويتغير منظر التماثيل عندما يغير حركة رأسه أو حركة عينيه، فالواقع الخائلي هو الرتبة الثانية، وهو يمثل ذروة ما وصلت إليه تكنولوجيا المعلومات، (المحاكاة الرقمية)؛ إنها ثمرة هندسة الخيال الجامعة بين العلم والفن والخيال والتكنولوجيا، مستغلة خداع الحواس من أجل إقامة عالم وهمي، وربما يظن البعض أن هذا من قبيل الخيال العلمي، كلا إنه واقع حقيقي عملي يمارسه الباحثون في معاملهم، فيندفع إليه الرأسماليون بسبب اهتمائهم بجدواه الاقتصادية؛ من ترفيه، إلى تصميم، من أمور العلاج والجراحة، إلى التعليم والتدريب.

- المجموعات الخائلية: إن نزعة التواصل مع الغير هي نزعة متأصلة لدى الإنسان، صحيح أن هناك حوار بين الإنسان والآلة والإبحار في محيطات الإنترنت، وليس هناك ما هو أروع من هذا الإنسان، وهو يقيم حواراً مع إنسان مثله، يشاركه همومه واهتماماته، ويتبادل معه معارفه وخبراته، ولم يعد هناك شيء لا يستطيع الإنسان أن يشارك فيه، غير، ومن الطبيعي أن تنمو عند الإنسان الرغبة في التواصل، لما نشاهده من اغتراب وانكفاء على

الذات وانقطاع الصلة مع جار السكن وجار العمل، بل الأسرة ذاتها فكلُّ تلقاؤه، وقد تفسر هذا: في سرعة انتشار الجماعات الخائلية في الإنترنت التي تجمع بين أصحاب الاهتمامات المشتركة وأهل التخصص الواحد وأصحاب الرأي وجماعات المنافع وجماعات السمر وتبادل المعلومات والنوادر ويمكن في هذه الحال لأي عضو في الجماعة الخائلية أن يثبت حديثه لجميع أفراد أعضائها دون استثناء، أو يخص به فريقاً أو إنساناً بعينه دون آخر، ويمكن للإنسان أن يقدم نفسه تحت أسماء مستعارة، ويمكنه أن يتكرر في شخصيات متعددة، وما أكثر ما تهمست النساء شخصيات الرجال، وتهمس الصغار شخصيات الكبار والمشاهير شخصيات النكرات. إنها بحق لعبة الذات الواحدة والهويات المتعددة كرنفالات عصر المعلومات وحفلاته التكرية في ضيافة وسيط الإنترنت للتواصل عن بعد. لقد تطورت أساليب الجماعات الخائلية بصورة كبيرة، من حيث أساليب الحوار وأماكن اللقاءات ومقارها؛ صالات الاجتماعات العامة، وغرف اللقاءات الخاصة، وأركان اللقاءات الثنائية، ويمكن للشخص أن يزور تلك القاعات دون أن يعلن عن نفسه، (طاقة الإخفاء الرقمية) أو يتواجد في أكثر من مكان في وقت واحد، أما فيما يخص الحوار بين أعضاء الجماعات الخائلية، فيتم عبر البريد الإلكتروني، ويمكن استخدام كاميرات الفيديو المركبة فوق شاشات الكمبيوتر لتحقيق التهاتف المرئي، وقريباً تضيف تكنولوجيا الأشكال المجسمة ثلاثية الأبعاد (الرؤوس المجسمة الناطقة)، فتتوب عن أصعابها أثناء لقاءهم الخائلي للحوار عن بعد. وهذا يجعلها قريبة من الواقع، ويرى بعضهم أن في ذلك ثورة حقيقية في عملية التواصل الإنساني فهذه شفاهة عصر المعلومات، وقد تخلصت من قيود المكان وقيود الجنس (ذكرا أو أنثى) وكذلك اللون والفوارق الاجتماعية الأخرى، وهنا تتطرق يد الفرد في إقامة شبكة علاقاته على اتساع العالم، وعلى الطرف التقيض من هذه النظرة المتفائلة، هناك من يشك في جدوى هذا النوع من التواصل، وهناك فرق كبير بين التواصل الحي الملمس بالانفعالات والإيماءات، والتواصل البارد من خلال التواصل الإلكتروني، الذي

يحد من قدرة الفرد على نقل أفكاره وأحاسيسه، إضافة على كونه عرضة للخداع والتكر وإمكان استغلاله لأغراض غير أخلاقية أو قانونية، والشعور بالانتماء إلى جماعة ما لا يتم بالتواصل فقط، بل من خلال الاهتمامات المشتركة، ومعايشة الظروف نفسها، وي طرح المتشائمون سؤالاً مضاداً: كيف لإنسان هذا العصر أن يتواصل مع غيره عن بعد في حين أنه غير قادر على التواصل مع جاره وشريكه وزميله بل أفراد أسرته، فكل منهم تلقاؤه، وذلك الإبحار في الفضاء المعلوماتي ألا يؤدي إلى انعزال الفرد عن واقعه ومجتمعه وجماعته الفعلية، تحت وهم الانتماء إلى جماعة الإنترنت الخائلية، وتصبح كأنها الواقع عينه، ويبقى السؤال هل التواصل خلال الإنترنت نافذة لتحرير الفرد أم هي درع تعفيه من التصدي للواقع أم هي مهرب لتفريغ شحنة إحباطاته من هذا الواقع؟

- **الواقع الخائلي:** هو مفهوم آخر يختلف عن المفاهيم المثيرة التي أضافتها تكنولوجيا المعلومات إلى حياتنا، فهو بيئة اصطناعية لممارسة الخبرات كما في دنيا الواقع، ومثالنا عليه هو تدريب الطيارين على الأرض قبل أن يطيروا في الجو، ولتقريب المفهوم إلى الذهن لابد من مقارنة ما بين نظامين، نظام يعمل بأسلوب النظم الخبيرة ونظام يعمل بالواقع الخائلي، فنظام الخبرة يسجل تجارب الطيارين المضمرة في الطيران وكيفية تصرفهم في المواقف الصعبة، وذلك بحياغة ما يتخذونه من قرارات وإجراءات في مجموعة من القواعد على النمط التالي: ماذا تفعل إذا حصل هذا الطارئ أو ذاك؟ فتخزن هذه القواعد في قاعدة معرفية، تستثار بواسطة طيار متدرب عن طريق توجيه الأسئلة وتلقي الإجابات، وشتان الفرق بين قاعدة المعارف الخبرة السابقة التسجيل والإحساس الفعلي بهذه الخبرات من خلال ممارستها عملياً باستخدام محاكي الطيران الذي يعمل بأسلوب الواقع الخائلي، وهو ببساطة نظام أرضي يحاكي كل ما يحدث في الجو، يضع الطيار المعنى في بيئة مشابهة للبيئة التي سيواجهها أثناء طيرانه. إن نافذة نموذج الطائرة في هذا المحاكي الخائلي ليحت زجاجاً عادياً، بل شاشات عرض متصلة بكمبيوتر مخزن فيه جميع بيانات الطائرة ومحركها. وكذلك

مسارات الرحلات الجوية وطبيعة الأجواء، وبيانات المطارات وممرات الهبوط والإقلاع وطرق الاقتراب إليها، أثناء تشغيل محاكي الطيران يتوالى عرض الصور على شاشة التافذة بشكل دينامي يتغير وفقاً لوضع الطائرة وموضعها ومعدل هبوطها وصعودها وتسارعها أو تباطؤها. والآن لنترك نافذة الطيران هذه، وتتحول إلى نظارة مركبة فوق قبعة متصلة بجهاز كمبيوتر، يرتديها الشخص المتفاعل مع النظام الخائلي، سواء كان محاكي للطيران أم لغيره. بالطريقة نفسها يتغير شكل ما يعرض على شاشة هذه النظارة مع تغير حركة الرأس وهو ما ينافر حركة الطائرة في مثال محاكي الطيران عندها يخيّل لهذا الشخص وكأن العالم يتحرك من حوله مع حركة رأسه. كما يحدث في الواقع، تمثل هذه النظارة الفريدة بداية لمنهج سلسلة من وحدات التعامل مع نظم الواقع الخائلي، التي تعمل بأسلوب المحاكاة الرقمية، ويضاف إليها القفاز لحساس ذا الأسلاك الذي يرتديه المتعامل مع النظام ليلمس أو يمسك به الكائنات الخائلية، والحلة الحساسة التي تنقل حركة جسده وأعضائه إلى النظام الذي ينقل بدوره إلى (الحلة الحساسة) ردود فعله لتضبط حلة البيانات على مواضع جسده وعضلاته، ويخضع البعض إلى استخدام هذه الحلة الحساسة وما يمكن أن نشارك فيه من أوهام، وما يطلقون عليه من الجنس الخائلي من أصحاب الأجساد الرقمية، ورغم تعدد أشكال نظم الواقع الخائلي وطرق التعامل معه، تبقى الفكرة المحورية لتكنولوجيا الخائلية هي مفهوم الشعور بالانغماس في تلك العوالم البصرية المبنية من الأرقام والرموز، وتعلق إدراكنا هذا بولد الشعور بالإحساس بعدم واقعيته، ويتولد الشعور بالانغماس بفعل ثلاثة عوامل متضافرة: - خداع الحواس - توليد الأشكال المجسمة ثلاثية الأبعاد - رد فعل الجسد ديناميكياً مع حركة الرأس - أو حركة العين أحياناً - وحركة الجسد ولأطراف - أو الأصابع. أما عن تعليق الإدراك: يكون بتوهم الخائلي كأنه حقيقي، وليس هو من الصعب فهي تجربة نفسية يمارسها الإنسان كثيراً، عند مشاهدته الأفلام أو المسرحيات أو قراءة الروايات، أو عند ما نتقبل النوادر والمباليغات، وهكذا استقطبت نظم الواقع الخائلي الحاجز الرابع. لينتقل صاحبها إلى ما وراء

شاشة الكمبيوتر، فيجوس عالم الوهم متحرراً من قيود الجسد، وقيود قوانين الطبيعة، وقوانين المجتمع، فلم يعد أمامه عائق من أن يخترق الجدران ويهوي من أعلى الشواهد ليرتطم بالأرض، دون أن يصاب بخدش، وهو يتجول في المضاعف النووي دون أن تصهره حرارته، أو يقتله شعاعه القاتل، وكما يُمكنُ الواقع الخائلي الإنسان من الإبحار في المكان، يُمكنُ من الإبحار في الزمن الغابر واقتحام أزمنة المستقبل القادمة أو الخلط بينها مما يسمى بالخلط الزمني، فتكنولوجيا الواقع الخائلي ليست تكنولوجيا أخرى، وإنما نقلة نوعية من مرحلة المعلومات إلى مرحلة أخرى أكثر تطوراً، أساسها نظم المحاكاة الرقمية، إنها المعلومات وهي تعمل، وقد تجسدت بصورة كائنات خائلية تدفع وتلمس ويضغط عليها، وقوى فعلية تجذب وتضغط، أصوات تلو وتنخفض وأصواء تترجج وتختفي. وحتى عندما انحازت الشفاهة على السمع، والطباعة إلى النظر، فإن الخائلية تستهدف هذا المزيج من السمع والبصر واللمس وهذه المحاكاة تتم من خلال نماذج رياضية أو من خلال تمثيل رمزي آخر، وإن دقة محاكاة النظم الخائلية من دقة نموذجها الرياضي أو التمثيلي دون طبيعة الواقع الذي تحاكيه، ورغم هذا الفارق تبقى نظم المحاكاة مؤثرة وفاعلة ومهمة، تماماً كما الطائرة مؤثرة ومثيرة، رغم أنها لا تحاكي الطيور في طيرانها، فهي ثابتة الأجنحة، بينما الطيور ترفرف بجناحيها، وكما كان الكمبيوتر مؤثراً ومثيراً، لكنه يعمل بصورة مختلفة جداً عن تلك التي يعمل بها المخ البشري، إنها تكنولوجيا المعلومات الانقلابية، ستغير كل شيء، كيف نحب ونفكر، ونعمل ونتواصل، وينذرنا الآخر من أن هذه الخائلية ستصبح كمقاهير الهلوسة نوعاً من الهروب من الواقع، ليقع المستخدم في فخ هلوساته، فخ ملاذه الرقمي، فتتسبب أوهامه حقائق الواقع ومشكلاته وتحدياته، وهناك من يبدي قلقه من استعمال العنف في مفامرات العوالم الخائلية ومعاركها الإلكترونية، دون أزع ولا رابط. وهناك من يتوقع أن عوالم الخائلية ستعاني مما عانى منه الواقع من استعمار وتهميش واستبعاد وصراع طبقي وتفارقة عنصرية وطبقية واستغلال. ونحن لا نستطيع أن نمتلك القوة - تكنولوجية كانت أم غير تكنولوجية - دون القبول بمخاطرها.

- تطبيقات الواقع الخائلي:

أ - محاكاة الواقع القائم: مثالا على ذلك: التدريب على المركبات، أو التجارب في المعامل الخائلية، فيمكن للطلاب أن يتعرف على خصائص دقائق الذرات والجزيئات والجينات، والتحليق ما بين المجرات، والفصوص في أعماق المحيطات، ويمكنه أن يقلص من حجمه ليسيل مع الدماء في شرايين الجسد، وعلاوة على ذلك تستطيع تكنولوجيا الواقع الخائلي، إقامة عوالم ميكروية أو حضانات معرفة، يمارس فيها الطلاب حرية التعبير والتعليم بالاكشاف من خلال التجربة والخطأ .

ب - خلق عوالم من صنع الخيال: لتحاكي، أو تعيد ما ليس له نظير في عالم الواقع، وهي قد تحاكي التطور البيولوجي عبر العصور الجيولوجية، أو تعيد بنا القصور القديمة أو الطقوس الجنائزية في المعابد القديمة، ويمكننا أن نفارق عالم الماديات لنقيم عوالم رمزية من أبجديات الأشكال والأرقام والمفاهيم وما شابه. لتتجسد تلك المجردات أمام أعيننا في حيوية ناشطة تكشف لنا عن أسرارها ومقارها وعلاقتها، وقد نستخدم هذا الأسلوب الخائلي الرمزي لتجسيد تقلبات البورصة وبياناتها ومعاملاتها السريعة التغير.

ج - تعزيز حواسنا وقدراتنا الجسدية: يمكن أن يمدنا الواقع الخائلي بعيون نرى بها الأشعة تحت الحمراء، أو الأشعة فوق البنفسجية، وبأذان لتتقط ما هو خارج نطاق الذبذبات المسموعة، وبأطراف نطال بها ما لا يطال، وبأصابع طويلة دقيقة نحيلة نمسك بها الدقيق والمائع، بل هناك تطبيقات عدة لتكنولوجيا الواقع الخائلي في مجال الفن، وتوفر هذه التكنولوجيا بيئة فنية طيبة تتسم بمرونة فائقة بالنسبة للفراغ أو الألوان أو الخطوط ومواضع الإضاءة والظلال. علاوة على الفن الخائلي الذي يتيح للمتلقي أن يرى العالم بعيون مختلفة ويضع نفسه موضع الفنان. أما عن تطبيقات الواقع الخائلي في الترفيه والفيديو فحدث ولا حرج، فهي أكثر المجالات جاذبية للاستخدام والاستثمار، وأجيال الصغار التي شبت في

صحبة الأجيال الأولى من ألعاب الفيديو الالكترونية، تتلف على شيء أكثر إثارة وأقرب محاكاة للواقع، وليس هناك أفضل من العوالم الخائلية، ليمارسوا فيها مغامراتهم في غزو الفضاء وسباق السيارات ومعارك الطائرات المقاتلة، وحكايات ألف ليلة وليلة والبساط السحري، أو لينطلقوا في دنيا الخيال العلمي، يلهون بكائناته الخرافية.

• الواقع الخائلي (مغزاه الثقلي):

تري ما هو المغزى الثقلي لتكنولوجيا الواقع الخائلي؟
تعميق معرفتنا بحواسنا - تعميق معرفتنا بذاتنا وبغيرنا - تعميق معرفتنا بعالمنا - المساهمة في معرفة المخ البشري - تنمية القدرات الذهنية - سرعة اكتساب الخبرات - كسر احتكار الصنفوة العلمية لظاهرة التعقيد، وسنتناول كلاً من هذه البنود كالتالي:

أ - تعميق معرفتنا بحواسنا: نحن نعرف الكثير من الدفين والدقيق والبعيد والسحيق والهيولي، فنحن لا ندرك أكثر الأمور الثمناً وأهمية لنا، فتحسن لا نعرف كيف تعمل حواسنا. على وجه الدقة؟ وكيف تعمل لغاتنا؟ ولا ندرك طبيعة العلاقة بيننا وبين أجسادنا، ناهيك عما تجهله من أسرار مخنا البشري، وعلاقته بتلك الأجساد والحواس واللغات، فبالنسبة للحواس ما زالت معرفتنا قاصرة عن فهم كيف تدرك العين الأشكال في تفاصيلها وكليتها؟ وكيف تتذوق الأذن الموسيقى في أنغامها وإيقاعها ومعماريتها؟ وكيف تشمر أصابعنا بتلك الضرووق الدقيقة بين ملمس الأشياء ودرجة استوائها؟ وفوق كل هذا كيف تتناغم هذه الحواس؟ وكيف تعمل متعاونة مع المخ البشري كي ندرك من خلالها العالم من حولنا ونتعامل معه؟ إن تكنولوجيا الواقع الخائلي يمكن النظر إليها بصفتها معمل تجريب لإعادة اكتشاف حواسنا في امتزاجها وتعاونها. وهذه التكنولوجيا تتعامل مع الحواس بصورة مباشرة، وتوفر في الوقت ذاته وسائل آلية محاكاة هذه الحواس وتعزيزها، وهذا يتيح الكشف عن مزيد من الأسرار.

ب - تعميق معرفتنا بذاتنا وبغيرنا: إن الخائلية تعمق معرفتنا باللاوعي نتيجة ممارسة الحياة دونما خوف أو خجل، نتيجة ممارستها الحياة في عوالم الواقع الخائلي فتبدو خفايا اللاوعي على السطح، وقد تحررت من قيود النفس والجسد وضغوطات المجتمع. أما علاقتنا بأجسادنا فقد حان الوقت لإعادة اكتشافنا لها، وأخذنا أجسادنا كقضية مُسلم بها لا نتذكر وجودها إلا إذا أصابتنا العلة، أو قُرِضَتْ علينا فرضاً، ونحن نمارس رياضة لياقتنا البدنية. إن الواقع الخائلي سيقوم علاقة مباشرة بين الكمبيوتر والجسم البشري، لنرصد نبض عروقه وفعل عضلاته وحركة أطرافه، وكيف يتأثر بالعوامل الخارجية، وردود الفعل الإرادية وغير الإرادية، وإن الواقع الخائلي سيدعونا لاكتشاف ذاتنا عبر العلاقات التي تربط بيننا وما هو خارجنا من كائنات خائلية وواقعية، وهذه العلاقات ستبرز وتتكشف من خلال وسائل التفاعل العديدة، التي توفرها تكنولوجيا الخائلية.

ج - تعميق معرفتنا بعالمنا: بفضل وحد المحاكاة وأساليبها، سنتمكن من خلال الواقع الخائلي، من تقديم العالم بطريقة يسهل علينا فهمها وتمثلها، سيضخم الصغير الذي لا تستطيع عيوننا المجردة رؤيته بدقة ومتابعته، ويقلص لنا الكبير الذي يتعذر علينا احتواؤه، ويطمس لنا التفاصيل ليسهل علينا استخلاص الجوهر، إن كانت شرطاً لاستيعابها، ويظهر تفاصيل الأجزاء إن كانت شرطاً لاستيعابها طبيعة الكل الشامل، وأساليب المحاكاة تساعدنا على التعامل مع القضايا بعرونة مع ثنائية الوجود (الزمان والمكان) مع متباهيات الكبر من الانضمامات الكونية إلى الأزمنة الجيولوجية، ومتباهيات الصغير من الجسيمات المادية والبيولوجية والزمني الصغير جداً، من وحدات النانو ثنائية والضمثو ثنائية، فيكون الواقع الخائلي وعوالمه الميكروية بمنزلة (ماكيت) نقيم فيه نماذج المستقبل، وتختبر فيه سيناريوهات توقعاتنا عما يحمله لنا هذا المستقبل. إن تكنولوجيا العالم الخائلي تجعلنا نرى العالم بصورة أفضل ومختلفة، وتخلصنا من أسر النظرة القديمة نظرة عصر

النهضة القائمة على الرؤية من زاوية محددة وثابتة، وهذا النمط ثبت بأذهانتنا وأصبحنا لا نرى الأشياء إلا من وجهة نظر واحدة، وعلى العكس من ذلك سيسمح لنا الواقع الخائلي أن نرى الأشياء من وجهات نظر متعددة ومتغيرة في الوقت ذاته، وقال لنا (آينشتاين) أن خبراتنا نسبية، أي ما نراه يتوقف على موضع المكان الذي ننظر منه وكذلك على موضعنا على محور الزمن. وقد حاول (بيكاسو) متأثراً بنسبية آينشتاين أن يرسم أشكالاً من مواضع نظر مختلفة: من الأمام ومن الجانب ومن الخلف، ومن الداخل أحياناً، ولكن كانت تحدهم في جهده هذا شبه المستحيل إستاتية لوحاته وفيزيولوجية عيونه وقدرات يده ومدى تخيله، وجميع هذه القيود من الممكن اليوم تجاوزها، لتتوفر لنا رؤية الأشياء من مواضع نظر متغير، بصورة ديناميكية لا متناهية، ويبقى السؤال رغم كل هذا: هل يمكن أن يغير هذا بالفعل من رؤيتنا للعالم ومن نظرتنا للآخرين؟

د - معرفة المخ البشري: إن تكنولوجيا الواقع الخائلي ستساعدنا على معرفة كيف تعمل حواسنا، وعلى رأسها حاسة البصر، وهي في هذه الحالة تساعدنا في فهم المخ البشري والذي تشغل وظائف البصر شطراً كبيراً من نشاطه الكلي، ويتعاون الذكاء الاصطناعي مع الواقع الخائلي الذي يعمل من جانبه لأجل الكشف عن وظائف المخ اللغوية، والتي تشغل هي الأخرى قدراً كبيراً من نشاطه، ففوق بذلك حاسة الإبصار، وبذلك نكون قد قطعنا شوطاً لا بأس به في فك طلاسم المخ البشري.

هـ - تنمية المهارات والقدرات الذهنية: إن الإنسان يفضل أن يتعامل مع المحسوس كروية وتجميد، ومهما قالوا عن الرقمنة ومرونتها ومزاياها وتقطعها، تبقى العين ترى الأشياء متدرجة متصاية مستمرة من دون تقطع فجائي أو تغيرات، وتعمدُ العالم هذا فرض علينا أن نجرده على شكل أرقام ورموز وعلاقات، ونبقى في حاجة إلى أن نمثل مضمون هذه الأرقام الناشئة، نراها أمامنا تنمو وتتزوي، لتراكم وتتلاشى، ونحن نريد أن ندرك معنى

الرموز ومغزاها، نراها مرة مقرونة بمعناها ودلالاتها داخل سياقها الفعلي، ونقتضي أثر العلاقات في نشأتها مرة أخرى وصيرورتها، وهي ترتفع وتنخفض كال موج، وتتفرع كسواقي المياه مرة أخرى وكم مرة قال آينشتاين أنه يرى أفكاره حول الطبيعة متجسدة أمامه قبل أن يجرد هذه الأفكار في صورة معادلات رياضية، وهذا حذوه عالم البيولوجيا (جيمس واتسون) عندما قام مع زميله (فرانسيس كريك) ببناء نموذج من الرقائق المعدنية والأسلاك لحلزونهم الثنائي الشهير لجزيء (الDNA)، قبل تجريده هذه الظاهرة البيولوجية في رمزية لغة الوراثة وأبجديتها الرياضية. نعم لقد أبدع العقل البشري وهو يحول المحسوس إلى مجرد، وحين الوقت لهذا العقل أن يمارس الإبداع المعكوس، والمقصود تحويل المجرد إلى محسوس، يعني كيف تتحول الأرقام والرموز إلى شواهد قائمة، والعلاقات عبارة عن جسور عابرة، والبنى المعرفية إلى بنى حقيقية، نتجول في سراديبها، نهبط ونصعد سلميات تراتيباتها. وقد حولت مطبعة (جوتبرج) الأفكار إلى نقوش غائرة في مادة الورق، وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتسلب من الورق ماديته بعد أن حولته إلى وثائق الكترونية. وسؤالنا اليوم هو: هل تكنولوجيا العالم الخائلي يمكن أن ترجعنا من اللامادي إلى المادي مرة أخرى؟ وهل ما نسمعه عن تكنولوجيا الطباعة (الطباعة ثلاثية الأبعاد) التي تحول الصور والأشكال إلى مقابلها الجسم، هي بداية رحلة العودة إلى عالم الماديات والمحسوسات؟ وهذا الترحال بين المحسوس والمجرد سيكون بمنزلة (تدليك ذهني) يحضظ للعقول حيوياتها، ويحميها ضد داء التقصيب والجمود، وريماً تضيق معه الفجوة البتي تفصل بين النظرية والتطبيق، وبين الخبرة والعلم، وبين الإبداع والتلقي. إن عالم الواقع الخائلي يمكن أن يكون مجالاً حصياً لفهم إشكالية المعنى اللغوي، التي حيرت الفلاسفة والعلماء عبر القرون. وقال لنا علماء اللغة وفلاسفتها أن المعنى ينشأ ويتطور ضيقاً واتساعاً، حرفياً ومجازياً، مرتبطاً بممارستنا الحياتية، واكتسابنا الخبرات العملية والذهنية، وأمكتنا فهم الظاهرة الطبيعية المعقدة من خلال

تبسيطها والتدرج من البسيط إلى المعقد، وعلى نفس الاتجاه نستطيع فهم ظاهرة المعنى التعليمية متدرجة، من خلال نماذج (أنطولوجيات) مبسطة نقيمها في دنيا الواقع الخائلي، تتدرج فيها العلاقات والظواهر من الأبسط إلى الأعقد، بصورة مدروسة ومخططة من خلال هذا التدرج الأنطولوجي، ينمو فهمنا بالتدرج لمعرفة كيفية انصهار المعاني في صلب أفكارنا وخبرات حياتنا، ومفهوم الأنطولوجيات المبسطة هذا يستخدم بالفعل، في بحوث المنطق الحديث الخاصة بالمعنى اللغوي.

و - اكتساب الخبرات: إن إنسان هذا العصر الذي تنهالك فيه الخبرات بسرعة تفوق اكتسابها، ليس لديه رفاة الوقت لاكتساب هذه الخبرات عن طريق الأسلوب النمطي لثلاثية: اكتساب الخلفية النظرية، ثم التدريب العملي، فإتقان المهارات من خلال التكرار والممارسة في الواقع العملي، علاوة على ذلك إن تعقد الخبرات واتساع نطاق فاعليتها، يجعل من ممارستها على أرض الواقع لا يخلو من المجازفة ناهيك عن الكلفة. إن الواقع الخائلي يوفر لنا مجالاً عملياً لسرعة اكتساب الخبرات، وتضييق الفجوة بين المعرفة وتطبيقها، وبين حقائق الواقع والوعي بها، مثلاً: سيسمح التدريب الخائلي أن يكتسب الجراح خبرة لإجراء الجراحات الدقيقة، والراقص خبرة القيام بالحركات الصعبة، والمدير خبرة اتخاذ القرار السريع والحرج، في بيئة تجريبية مرنة، يقومون فيها بتدريباتهم حتى يصلوا إلى درجة المهارة الواجبة. وقد دأبت لسيطرة الآلة ثلاثية: البيانات والمعلومات والمعارف، وأن الأوان للخبرات التي تقوم على هذه الثلاثية، أن تخضع هي الأخرى على لسيطرتها. وما أن نتجح في ذلك حتى يصبح باستمالة الإنسان تخزين خبرات البشر، وهي تعمل بنوك للخبرات الحية لا مجرد قائمة من الوصايا، يتركها المجربون لنير المجربين.

ز - كسر احتكار الصفوة العلمية لظاهرة التعقد: أصبحت المعرفة العلمية معقدة للغاية، لا يقدر على الإلمام بها إلا صفوة من المتخصصين، وفي

ذات الوقت أصبحت الثقافة العلمية من المطالب الأساسية للحياة في عصر المعلومات واقتصاد المعرفة. إن تكنولوجيا الواقع الخائلي يمكن أن تساهم في (دمقرطة التعقد) المعرفي بأن تجعله في متناول عامة الناس عبر المحاكاة، إن هذه الأساليب ستتمكن الإنسان العادي أن ينفذ ببصره وبصيرته داخل نواة الذرة، ويشاهد العمليات الكيميائية التي تحدث داخل الخلايا، ويتتبع مسار الإشارات الكهربائية التي تسري داخل الجهاز العصبي، وأن ينظر ببصره إلى أعلى ليراقب الأجرام في أفلاكها، ويلاحظ كيف تتغير البيئة من حوله. وكيف تتولد الأعاصير، وتتآكل الصخور، وتنشأ الزلازل، إن تكنولوجيا الواقع الخائلي هي لغة تواصل جديدة، لغة أكثر قدرة من كل اللغات على إيصال الحقائق وزرع المفاهيم الصحيحة، وإزالة المفاهيم الخاطئة، وهذه وسيلتنا للتخلص من السطحية وممارسة متعة التعامل المباشر مع التعقد الذي هو حق للجميع، ولا بد هنا من سؤالين هما: هل سيخفف سكنى الإنسان لعوالم الواقع الخائلي من قلقه القديم السرمدى الذي يفصل بين إرادته ورغباته وحقيقة واقعه؟ هل لنا أن نتنبه لهؤلاء الذين يتعدثون عن الخلود الرقمي وإعادة البعث الخائلي، بمعنى أن تفنى أجسادنا في عالم الواقع، ونظل مع ذلك أحياء خالدين (رقمياً)، بعد أن نخترزل إلى قواعد بيانات ومعارف، يسجل فيها كل تفاصيل أجسادنا وعقولنا وسلوكنا وأحداث حياتنا.

- الواقع الخائلي العربي:

إن الحديث عن تكنولوجيا الواقع الخائلي عظيم؛ لما تحقق منها على أرض الواقع، ولا شك أنها تقدم بخطى سريعة، ويتراجع كلفة تطويرها واستخدامها بمعدلات متزايدة، وفي الفقرات السابقة حاولنا أن نشير أهمية هذه التكنولوجيا الثقافية: تعليمياً وفكرياً وإعلامياً وترفيهياً وتراثياً. ويتوجب علينا أن نلحق بها من البداية، فكم هو مؤلم وموجع أن يسمع المرء أن جرب الخليج كانت أول تجربة عملية شهدها الكون لتكنولوجيا الواقع الخائلي

(نبيل علي ١٩٨٨) وهذه إسرائيل تعمل اليوم على بناء نماذج خائلية لمدينة القدس العربية وأن جامعة (كارنيجي ميلون) و(متحف اللوفر) يجريان تجاربهما الخائلية على كنوز مصر الفرعونية. وما أخطر أن يطول انتظارنا، لنجد أنفسنا في النهاية فتران تجارب لمقامراتهم الخائلية أو سوقاً مستهدفاً لصناعة الجنس الخائلي، بعد أضربوا أسواقنا بعري أفلامهم المحرمة، وأحاديث الفواية المدفوعة عبر الخدمات الهاتفية. ومدارس الوطن العربي بحاجة إلى معامل خائلية لتعويض النقص في المعامل الحقيقية، أو القيام بما يتعذر القيام به في تلك المعامل، ومتاحفنا بحاجة إلى بيئة خائلية لعرض مقتنياتها في سياق تاريخي ومعرفي أوسع، كي لا تبقى تلك المقتنيات سجيناً السناديق والجدران وكي يتحول التاريخ إلى مادة حية تساهم في صنع الحاضر وعقل حاضره، ونحن بحاجة أيضاً إلى اكتساب القدرة لبناء مدننا القديمة، وجوامعنا ومعابدنا وقصور خلفائنا وملوكنا، وإلا أعاد بناءها غيرنا في إطار مخططاتهم لصناعة سياحة خائلية موازية لسياحة الواقع. وفي النهاية نحن بحاجة إلى تكنولوجيا الواقع الخائلي، لتدريب الكوادر المتخصصة في تكنولوجيا المعلومات وغيرها من فروع التكنولوجيا المتطورة.

الفصل الثاني

(لو عرفت أسباب جهالتي لصرت حكيماً)

جبران خليل جبران

منظومة ثقافة المعلومات

تحت عدسة ثقافتنا العربية

- دور ثقافة المعلومات تاريخياً في الغرب -

إننا نجد المعلومات في كل شيء، في الخلية والمجرة والذرة، ونجدها في محيط الأرض وفي الكائن البشري وفي الخرائط الوراثية وفي بنية المجتمع البشري، سواء نظرنا إليه ككائن بيولوجي أم كعضو في مؤسسات الحكم والاقتصاد والدين والتربية والإعلام وأجهزة الرقابة والأمن والقانون، أو نظرنا إليه كنسق رمزي؛ معرفة ثقافية تسري داخل بنيته كأفراد ومؤسسات وجماعات. ولكن لو نظرنا إليه تاريخياً لوجدنا الحضارة الإنسانية كنظام للمعلومات فالإنسان يحيا ويموت، ولن يترك وراءه شيئاً سوى المعلومات، والكلمة هي التي تقاوم الزمن وعندما تموت الحضارة تبقى نظم معلوماتها ومعارفها، فالحضارة الرومانية تأسست أصلاً على فكر الإغريق وهو الفكر الذي لا زال يعيش بيننا حتى اليوم، وتكنولوجيا الرومان هي بالتالي وريثة الحضارة اليونانية، ومنظومة ثقافة المعلومات تتكلم بلسانها عن مراحل تطورها داخل المنظومة الاجتماعية، ولنبدأ بالكتابة الهيروغليفية؛ وتعني النقوش المقدسة بلغة المصريين القدماء، وقد سيطر عليها كهنة مصر الفرعونية. وأصبحت وسائلهم للسيطرة على الناس في دينهم ودنياهم، وفي توزيع الأراضي أو في معرفة أسرار التحنيط ودفن الموتى وطقوس المعابد، وهي كتابة سادت قروناً معتمدة على رسم الصور حتى عجزت عن الوفاء بأمور التجارة، في العصور القديمة، عندها خرجت للوجود الأبجدية

الفينيقية ملبيةً تلك المطالب، وعبرت هذه الأبجدية عن المفاهيم المجردة للريح والخسارة، كما سجلت المعلومات عن الملاحاة، وتستطيع القول أنه كان القصد من الفينيقية حفظ المعرفة عن طريق الكتابة والكهنة وهذا أدى بدورها إلى صعود الفكر التجاري على حساب سلطة الدين. وبقيت الأبجدية الفينيقية سائدة حتى ظهور الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر، على يد (يوهانس جوتنبرج)، ولكنه كان يجهل ما سيقعله صاحب المذهب البروتستانتي بآلة طباعته تلك، والتي وصفها بنفسه (أنها أعظم فضيلة للرب على عباده)، ولولا طباعة الإنجيل وتوزيعه مترجماً باللغات القومية ما تحررت أوروبا من هيمنة رجال الدين، القائمة على احتكار المعرفة الدينية، وكان فضل الطباعة قد غمر البشرية كلها، فبواسطتها انتشرت المعرفة غرباً وشرقاً، ولن تقف بعدها عند حدود حفظ المعرفة، فتهاوت على أثرها سلطة رجال الدين والإقطاع، وزالت سلطة المتحدث الأرثوذكسي على مستمعيه مباشرة لما قبل عصر الطباعة، وتهاوت نظم العبودية كلمية الدمونو، وتحقق للإنسان خلوته مع كتابه، فتمت لديه النزعة النقدية العقلانية، وتسارع محو الأمية، وتطور التعليم، وتوالت الاكتشافات العلمية، وأنتجت الطباعة أول نظام تكنولوجي لإنتاج الجملة وهذا ما تبناه أهل الصناعة فولدت بذلك الحداثة: - معتمدة على الطباعة - والإنتاج الضخم فأشاعت الطباعة: المعرفة وتكنولوجيا الصناعة التي ولدتها المعرفة، وقام المخطط على ثلاثة محركات: (الديمقراطية. والعلمانية. وحرية الفكر) وبعدها ظهر الكمبيوتر في منتصف القرن العشرين، وأظهر جدارته لمعالجة المعلومات ونشر المعرفة وتوظيفها، وبعد أن نجحت المعرفة عن طريق البرمجة في جعل المعرفة حية فعالة، لا معرفةً سجيئةً هزيلةً، راحت تعمل: في تصميم المباني والمحركات والرسوم وضبط الحسابات ومراقبة الميزانيات ودعم القرارات، ولا تعلم الصغار والكبار، وتوجه الصواريخ والأقمار الصناعية، وتضبط المقامات النووية. . وأنصهرت المعرفة في الكيان الاجتماعي بفضل نظم المعلومات، وعاد للمجتمع توازنه وإنسانيته ووفاقه مع نفسه وبيئته، وأتاحت للمجتمع وعصر المعلومات

حدثة جديدة قوامها : المشاركة الايجابية بدل الديمقراطية الشكلية والعلمية محل العلمانية بمعناها الإيديولوجي وحرية الثقافة الشاملة بدل حرية الفرد وصولاً إلى حرية المجتمع ككل . معنى ذلك : أن يتمسك المجتمع بثقافته ، وأن يحافظ على هويته ، واختيار نمط حياته وتنميته التي يريد وحماية بيئته ، عندها : تبطل سيطرة الأقوياء على الدول النامية - وهيمنة المراكز على الأطراف - وتنتهي سلطة النظم والمؤسسات - وهيمنة الإنسان على الطبيعة التي لوثت المياه والهواء والأخلاق ويتحرر المتلقي من قبضة الضان ويتحرر المشاهد من سلطة الإعلام وتنتهي سلطة المؤلف على قارئه . وأصبح مهندسو الذكاء الاصطناعي الذين نجحوا في إكساب آلة المعلومات القدرة على حل المسائل وبرهنة النظريات يسمون اليوم على إكساب هذه الآلة القدرة على التعلم ذاتياً (توليد المعرفة الجديدة) وقد دخلت تكنولوجيا المعلومات المجال الخائبي والتي تسمى بدورها على اكتساب الخبرات وتخزينها بنفسها ، أي (تعليم المعرفة) التي سبق توظيفها على شكل خبرات عملية تعمل رهن إشارة الخبراء لمواجهة المواقف الصعبة الطارئة ، مثل : حل المشاكل ، واتخاذ القرارات ، وهنا تنتقل المعلومات من السابقين إلى اللاحقين . ولا تفوق قدرة الإنسان لحل المشاكل إلا خلقها .

- فظرة طائر حزين سريعة على تاريخنا الثقلي -

لا بد من تفعيل المعرفة داخل منظومة المجتمع ، وهي حلقة مكونة من ثلاثة عناصر : - اقتناء المعرفة - استيعابها - توظيفها ، وفي الحقيقة هذه الحلقة المعرفية تكاد تكون مفقودة من مجتمعنا ، وبخاصة توظيف المعرفة في حل مشكلات المجتمع وتنمية الفرد ومواهبه ، وفي معظم الأحيان ينتهي الأمر عند اقتناء المعرفة دون استيعابها في إطار الظروف الاجتماعية وهذا لا يعود إلى التزعة اللا علمية فقط ومعاداة العلم والتشبه الزائف به ، بل يعود إلى ضعف امتصاصنا لرحيق المعرفة ، وذلك لأسباب عدة منها : تربوية - تنظيمية - سياسية - اقتصادية ، ولا نستطيع السكوت عن : الفوغائية الدينية - والإرهاب الفكري المتطرف ، وكلنا أمل في تكنولوجيا المعلومات وما تتيحه لنا

من تفتيح مسامنا المعرفية لاقتناء المعرفة واستيعابها وتوظيفها ولا عذر لنا بعد اليوم إن تقاعسنا في استقلال ما تقدمه لنا هذه المعطيات الجديدة، ونتيجة ذلك سيئة للغاية، سنأتي المعلومات وحل مشكلاتنا من مصادرها التقليدية، ويترتب عليها ترسيخ السلطة الكامنة ورائها بالإضافة على كبح جموحنا عن توليد معرفة جديدة لدينا، وعندها سنبقى نشكو من (انيميا معرفية) مهما تعددت نظم الكمبيوتر لدينا وانتشرت مواقعنا على الإنترنت والمعلومات بطبيعتها حرة ملقاة متغيرة دائماً، تموت لتتجدد، وقد ثبت بالدليل القاطع أن: حراس الدين، وبيروقراط الحكم، وتكنوقراط التربية هم الأشد حرصاً على تقييد حرية المعلومات وتداولها، حتى المعلومات لن نرحمنا أو تغفر لنا حرمانها من حريتها وحقها في الانطلاق. سندفع الثمن غالياً نتيجة المعاداة بين مجتمعنا وتكنولوجيا المعلومات. وعليها أن ندرس العوامل الاجتماعية المؤثرة في التنمية المعلوماتية من جانب، والآثار الاجتماعية المترتبة على هذه التنمية من جانب آخر، (وعافية المجتمع) لا تتوقف على تنمية موارد المعلوماتية بل تتوقف على قدرة الامتزاج مع عناصر قوة المجتمع، علماً أن للمعلومات قدرة هائلة لدفع عجلة التقدم نحو الأمام.

- كيف يرى الغرب ثقافة الإنترنت؟ -

لقد انتهى الحديث من جوانبها الفنية، ودخلت الجانب الاجتماعي والثقافي، وسرعان ما أسفرت عن وجهها بصفتها نادر للثقافة في المقام الأول، وهي بنية تحتية لصناعة الثقافة تتعامل مع جميع عناصر الثقافة من: تراث قومي أو إبداع شعري أو منتجة للسلع والخدمات والأصول الرمزية، وتساهم في تشجيع الوعي الاجتماعي، وتكامل منظومة الثقافة مع منظومة التربية والإعلام والاقتصاد، وهي تمثل حاضنة وبيئة حوارية لكل الثقافات، وكان اهتمامنا بالأمس فقط بالبيئة لحماية التنوع البيولوجي من الانقراض، بسبب التطبيق الأعمى لتكنولوجيا الصناعة، أما اليوم أصبح همنا كيف نحمي التنوع الثقافي من الانقراض هو الآخر، بسبب إساءة استخدام تكنولوجيا المعلومات وهيمنة سياسة القطب الواحد (الولايات الأمريكية) وهيمنة اللغة

الإنكليزية، وأصبحت هذه القضية المحورية شاغل الجميع، بعد أن التضح ما للإنترنت من إمكانات تؤهلها لتصبح أمضى أسلحة الهيمنة الاقتصادية والثقافية والسياسية والأمنية أيضاً. وقد انعقد بهذا الخصوص مؤتمر (استوكهلم ١٩٩٨) وخلص المؤتمر إلى ضرورة النظر إلى تكنولوجيا المعلومات من منظور ثقافي تنموي وضرورة تكاتف الشعوب والأمم من أجل التصدي لظاهرة التجنيس الثقافية الجاري اليوم على قدم وساق.

- كيف يرى العرب ثقافة الإنترنت؟

على الجبهات جميعها تمثل لنا الإنترنت تحدياً ثقافياً صعباً سواء في مضمونها أم في تراثها الثقافي وقيمتها العالمية وفاعلية ثقافتها الرسمية وغير الرسمية، وكذلك حوارنا مع الغير أو مع أنفسنا ونحن معرضون لثقافة داروينية أصبحنا من خلالها معرضين لفجوة لغوية خطيرة، تفصل لغتنا عن لغة العالم المتقدم تنظيراً وتعليماً واستخدماً وتوثيقاً، كما نحن مهددون بضمور في إنتاجنا الإعلامي والسينمائي وإبداعنا الفني، ومهددون بسرقة تراثنا من فنون شعبية وأغان ومقامات موسيقية وأزياء، وينفس الوقت أمامنا فرصة لتثبيت معالم ثقافتنا بصفاتها ثقافة إنسانية عالمية أصيلة وتعويض تخلفنا في كثير من المجالات، والعمل الثقافي يتطلب منا إعادة النظر في سياساتنا بصورة شاملة تجاوباً مع ثقافة الإنترنت في إطار إستراتيجية ثقافية شاملة وفقاً لتوصيات مؤتمر اليونسكو في (استوكهلم) وما أعدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وعندما تتصهر ثقافة المعلومات في مجتمعها تصبح ثقافة مفتوحة للمستقبل متفاعلة وفاعلة، ثقافة غير متغلقة على ذاتها، تشخص الماضي بأشعتها السينية، فتكشف عن مرض السيل الذي أصاب دسيجها ومنع تنفسنا من خلالها، فينتزع المواطن حقه وأن يرى بعينه ويسمع بأذنيه من منظور مختلف، يتحرر من سلطة القلقاز ومن زيئه والأعيه وتضليله الإعلامي، وثقافة المعلومات اليوم بقبضة الأقوى، يفرض بها عولته وأهمية قراره وكونيته. وعند تفعيل ثقافة المعلومات لابد لنا من الخطوات التالية: - نديرها، نملك حرية النفاذ إلى مصادرها، وأنمياها الحر، وذلك

لخلق ثقافة وعي جديد - كتب (مارشال سالي نزل) التالي في الثقافة: إن نمو الوعي الذاتي الثقافي يمتد ضحايا النظام الاستعماري السابق، هو أحد أكثر الظواهر إدهاشاً في تاريخ البشرية في القرن العشرين). وقد عبر مسئول إيراني سياسي رفيع المستوى، قائلاً: (إننا نعتقد أن التهديد الرئيس لمجتمعنا في الوقت الراهن هو تهديد ثقافي). وفي عام ١٩٩٩ أعلن صامويل هنتغتون: (يمكننا أن نتوقع صدام حضارات هائلاً، وكل من هذه الحضارات تمثل هوية ثقافية بدائية، من الواضح أن الاختلافات الرئيسية في التطور الاقتصادي والسياسي بين الحضارات تكمن جذورها في ثقافتهم المختلفة، وأن الثقافة والهويات الثقافية تشكل نماذج الاندماج والاضمحلال والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة. وفي هذا العالم الجديد تعد السياسات المحلية سياسات عرقية، أما السياسات العالمية فهي سياسات الحضارات والتنافس بين القوى العظمى حل محله صراع الحضارات)

أ - تعريف الثقافة: لقد أصر (اليوت) على التعامل مع الثقافات الأخرى وفق شروطها الخاصة بها فقال: (يمكننا أن نتعلم احترام كل ثقافة أخرى ككل متكامل، مهما بدت أدنى من ثقافتنا، أو مهما كنا محقين في أن نستعجن بعض سماتها؛ إن الهدم المتعمد لثقافة أخرى ككل، هو خطأ لا يمكن إصلاحه، وعلى الدرجة نفسها من شرور معاملة البشر كحيوانات والتنوع في الحضارات هو أمر يستحق التقدير. لذا فإن الحديث عن ثقافة عالمية عامة أمر رهيب فثقافة عالمية واحدة موحدة هذه ليست ثقافة على الإطلاق. ستنتج عنها إنسانية منزوعة الإنسانية. بل يجب علينا أن نطمح إلى ثقافة عالمية عامة لا تقلل من أهمية خصوصية الأجزاء المكونة لها). وإن الأديان المختلفة لا تشكل نزاعات بل ترضي الحاجات الضرورية لدى الإنسانية.

ب- أنواعها، بالنسبة لغزاها من منظور معلوماتي:

١- الثقافة كمنظومة من القيم: تتضمن - كنسق اجتماعي - المعتقدات والقوانين والعادات والتقاليد وبمط الحياة المعيشية والمعايير المختلفة الضابطة.

ب - الثقافة كروية أيديولوجية: ينظر من خلالها الفرد إلى نفسه والعالم والكون وإلى مجتمعه، وهذا يوضح لنا أن المعلوماتية هي منظور آخر نرى فيه العالم عبر الشاشات ولوحات القيادة بالإضافة إلى تكنولوجيا المعلومات أداة فعالة للحكم على الأمور بفضل إحصائياتها .

ج - الثقافة كعدسة كاشفة: عن الهوية، والانتماء، ومضامين أنماط الثقافة الخمسة (التدرجية، الفردية، القدرية، المساواتية، الاستقلالية). وهي بمضمونها تعبر عن الانتماء القومي. وتكنولوجيا المعلومات هي الحافظة على هذا التراث القومي الذي نعتز له، وبخصوص فهم التراث نوجز ما ورد في تقرير التنوع البشري الخلاق والذي رأى أنه يخضع لرؤية أحادية، تسيطر عليها المعايير الجمالية والتاريخية (جابر عصفور ١٩٩٧)

(رؤية ترى الأثر الضخم لا البسيط المكتوب أو الشفاهي، تهتم بالاحتفالي لا العادي وبالمقدس لا الدنيوي. وإن تغير هذه النظرة إلى التراث يتطلب سندا قويا من تكنولوجيا المعلومات بعد اتساعه وانتشاره، وبالتالي ترصد الثقافة الحياة اليومية، تقدم خدمات عظيمة للغة سند الهوية ورمز القومية.

د - الثقافة كتواصل: تنقل أنماط العلاقات والمعاني والخبرات بين الأجيال، وهنا يحصل اللقاء الأساسي والمباشر بين المعلومات ونظمها، فيتم من خلاله انتقال المعاني والرموز والخبرات.

هـ - الثقافة كسلاح ضد القهر: هي تدفع باتجاه الابتكار والإبداع وتصدى للظلم والعدوان وهنا يبدو دور تكنولوجيا المعلومات وشبكة الإنترنت كسلاح قوي بيد المقاومين الأحرار، ومن خلالها نسمع صوت الضعفاء والمهمشين، ونسمع بالمطالبة بعدالة توزيع الثروة، وفرص العمل التي أضاعته الشركات في غياب الدولة، وطالبت بلغة أكثر شفافية وأكثر تعبيراً عن الواقع في الإعلام، لا كما يتصورها منظرؤها، وتربية أكثر تصاقفاً بالألفية الثالثة.

- فالثقافة العربية كما عرفها الدكتور عبد السلام المسدي (أنها مناهج الشخصية العربية، ومستودع قيمها ووعاء حكمتها، وحقيقة هويتها

الحضارية، فهي ثقافة إنسانية أصيلة، شاملة لمظاهر المادة والروح، ذات عراقة تاريخية، تتميز بقيم فكرية عالية وقيم الحق والعدالة والمساواة واحترام المعرفة، ثقافة تتمثل الثقافات الأخرى دون إذابة أو ذوبان، تنضد بجهاز لغوي سليم ليس له مثيل في السعة والمرونة) (عبد السلام المسدي. كتاب العربي/ ٢٠١٠) لسنا وحدنا الذين نعتز بثقافتنا بل كل شعوب الأرض تعتز بثقافتها، ونحن ندرك أهمية تنوعنا الثقافي، في تقوية العلاقات الاجتماعية، وامتلاك القدرة على الحوار مع الغير بكل صدق، فالبيئة والمصير والعيش المشترك، والتحديات تصهرنا في بوتقة ثقافتنا العربية (وهذا ما أكد عصام الخفاجي بشأن خرافة تقول: إن الحديث عن التنوع يחדش الوحدة الوطنية والعربية).

ونحن ندرك أن الثقافة هي ما يبقى بعد زوال كل شيء، بينما المعرفة تتجدد وتبقى، كلما استهلكتها ازدادت عمقاً واتساعاً، يمكننا من بناء نموذجنا الخاص (مجتمع المعرفة) يعني تريبواً؛ خلق فرص للتعليم أمام الجميع. والتصدي لتهميش لغتنا العربية من قبل العولمة وإقامة بيئة إبداعية أمام الطلبة، والتصدي للاستبعاد وإخراجنا من دائرة الفعل المعرفية عن طريق طهية المعلومات؛ والتصدي لعملية انتهاك حقوق الإنسان فنحن بأمس الحاجة إلى تكنولوجيا الطاقة النووية وتكنولوجيا التعليم وتكنولوجيا اللغة العربية، وهذا رهن بقدرة مجتمعاتنا على اللحاق بمجتمع المعلومات.

والثقافة بحد ذاتها لا تقبل التهميش، لكنها هُمُتَّتْ من قبل العولمة، ولا أمل في إقامة مجتمع المعلومات بدون أن يكون الوطن العربي كتلة واحدة، وهذا تحد هائل لخلق ثقافة وبي عربي.

أكون قد رنا نحن المهتمين بالثقافة العربية في هذا الزمن القلق أن نتوزع داخل معسكرات متباينة متناقضة؛ لا يجمعنا خطاب مقاوم واحد في خندق واحد؛ لم لا يكون قدرنا وشرفنا أن نواجه هذا الفكر المدمر الإقصائي بفكر مقاوم احتوائي؟ فنحن نخوض معركة وجود أو لا وجود على صفوف الجبهة الداخلية، وأن نواجه الفكر الإلغائي التهميشي بالفعل الرفضي عندما نخوض غمار الحرب الحضارية على صفوف الجبهة الخارجية عندما نصون هويتنا

فنستحق بجدارة واحترام شرف الأمانة الثقافية. ب: ما العلاقة بين الثقافة والمعرفة؟ ليس أمامنا بعد كل ما هدرناه، إلا موارد المعرفة المتجدد الذي لا يقنى، وتوظيفها على يد العرب كل العرب مبدعين وتخب. وموقفنا من التكنولوجيا المتطورة سواء كان إحجاماً من قبلنا أو تحجيماً بفعل غيرنا، غير مقبول فهو تقاعس لا يمكن تبريره أو تفسيره.

- مجتمع المعرفة: إن الصناعة التي أفرزت مجتمعات مختلفة عن مجتمع الزراعة، والمعلومات التي أفرزت مجتمعات مختلفة عن مجتمع الصناعة، وهذه قفزة نوعية تفوق سابقتها كثيراً بالأمال التي تحملها أو المخاطر التي تتضمنها وتعددت التسميات من (مجتمع المعلومات) إلى (مجتمع المعرفة).

- مجتمع المعلومات: يعني الفيض الفزير من المعلومات والاستعمال الجبر لها، تنظيم الأفكار وتمثيلها رقمياً لسهولة الوصول إليها، ينشغل بالبنى التحتية التي توفر وسائل الاتصال للنفاذ إلى مصادر المعلومات.

- مجتمع المعرفة: يعني مجتمع قائم على المعرفة، تعتبر كأهم موارد للتنمية وهو مجتمع مغاير لسوابقه.

- الفجوة المعرفية: يرى خبراء الثقافة من تربويين واجتماعيين وفلاسفة وناشطي حقوق الإنسان ومناهضي العولمة ما يلي:

- التربويون: يرون أن القضية تربوية لا تحقق تكافؤ الفرص ولا المساواة، ولا تسمح بالنفاذ إلى مصادر المعلومات، حتى يحقق المتعلم التعلم ذاتياً مدى الحياة، وتنمية القدرات الذاتية للجامعات ومراكز البحوث باستغلال الإمكانيات التي تتيحها تكنولوجيا المعلومات وفي مقدمتها الإنترنت.

- الاجتماعيون: يرون الفجوة المعرفية، كعدم المساواة الاجتماعية عبر الدخل والسن والتنوع (ذكر/أنثى) والفارق بين المدينة والريف ومستوى التعليم، يرون لأبد من نظرية اجتماعية تقضي على الفجوة المعرفية.

- نشطاء حقوق الإنسان: يرون هذه الفجوة المعرفية، انتهاكاً لحقوق الإنسان، والعولمة تعمل على اتساع هذه الفجوة، بنسب نزعتها للسيطرة والاحتكار، فتحرم المتعلم من حقه بتنمية ذاته وقدراته، بحرمانه من النفاذ إلى المعلومات بالصيغة الأمريكية وحقه في التعلم في مواصلة تعليمه.

- مناهضي العولمة: يرون أن العولمة تعمل على اتساع الفجوة المعرفية، بسبب نزعتها الاستقطابية وحرصها على نهب خيرات العالم وأمواله.

- الفلاسفة: يرون الفجوة المعرفية مسألة أخلاقية أولاً وأخيراً.

ج- كيف تواجه الهيمنة الغربية؟ سؤال يطرحه الدكتور عبد السلام المسدي نحو وعي ثقافي جديد / ٢٠١٠ / (يقرأى لنا أن نقض الهيمنة الجديدة لا يتم فكرياً بنقض فكرة رأس المال، وإنما تتم مواجهتها من الداخل ببيان تناقضها طبقاً لقوانين رأس المال ذاتها وطبقاً لقانون المنافسة وما يستتبعه من أشراط تدور حول مشاطرة الأرباح، ووظائف التضخم المالي وقواعد تنشيط الاستهلاك، وتدور كذلك على معادلتين جوهريتين هما: توازنات القيمة بين المواد الخام الأولية والمنتجات النهائية، وتوازنات القيمة بين أموال المستثمرين وخبرات الفنيين، مما لا يحول أبداً بين طاقة الكفاءات البشرية على مستوى الخبرة المتخصصة ورغبة الإنسان في الالتحاق بركب المستثمرين انطلاقاً من خبرة عالية ودراية راقية ولا شك أن أرفع درجات الاستثمار في عالم اليوم هي التي يجتمع فيها مكونان: أن يكون صاحب رأس المال هو نفسه صاحب الخبرة التكنولوجية المنجزة، وظهر جلياً للجميع الآن أن رأس المال بجشعه الربحي، وباستسهاله تكديس الثروة بواسطة التعامل الافتراضي ينفلت من كل قيد أخلاقي فيجر الكوارث على الجميع، ولا مناص من إقامة تحصينات من قوانين الملاحقة والمراقبة. ولأول مرة نسمع من سادة الغرب دعوات تلح على الاستثمار المالي طبقاً لقوانين العولمة، وإذا لم يحصن بقيم أخلاقية عالية فإنه ينقلب إلى كوارث لا تصيب الذين سببوها وحدهم وإنما الجميع) نرى الهيمنة من خلال الاتفاقيات الدولية للتجارة، وشروط إمداد البلدان النامية بالقروض، والرقابة على صرف الميزانيات العامة للدول النامية، والوصفات العاجلة لإعادة تأهيل البنية الاقتصادية والنصيحة للعالم النامي كي يكف عن دعم الكتاب المدرسي ومؤازرة الكتاب الثقافي التراثي، وأمريكا منحت حق الحماية الثقافية لفرنسا عندما أرادت حماية ثقافتها، بينما رفضته عندما طلبته الدول العربية لحماية ثقافتها، وعلى كل حصيف

أن يقرأ: معنى الشراكة المتوسطة، والشرق الأوسط الجديد، تريد أن تلفي كلمة عربي، نلمس هذا في محاولة إخراج اللغة العربية من مجموعة اللغات المتداولة، وعندما تتعرض الدول المهيمنة لأزمات اقتصادية، مفروض على الدول العربية أن تدفع الثمن وتشتري نقايات السلاح الأمريكي، وتتشط الثقافة الكونية عبر أهمية القرار وعولة المال، وتنتهي هفرتنا هذه بصياغة: أن الوعي الثقافي من مكونات الوعي المعرفي.

د- بين الهوية والمعلوماتية:

لا مجال أمام العرب اليوم للانخراط بكفاءة واقتدار في المنظومة الإنسانية، بكل أبعادها إلا بجهة ثقافية عديدة ووعي ثقافي جديد يتجدد بتجدد المرحلة. فلا ثقافة دون هوية حضارية، ولا هوية دون إنتاج فكري. ولا فكر دون مؤسسات علمية متينة، ولا علم دون حرية معرفية. ولا معرفة ولا تواصل ولا تأثير دون لغة قومية تضرب جذورها في التاريخ تستشرف بعزة وإباء حاجة العصر والمستقبل.

- مفهوم الهوية: أعادت المعلوماتية طرح الهوية من جديد، وهي دائمة التشكل والتغير، تؤثر وتتأثر في محيطها وبخاصة الثقافة المهيمنة عالمياً، والمعلومات تشكل قناة للحوار مع الهويات الأخرى، وترصد بالتالي التغيرات الطارئة عليها، وهي مسألة تراكمية كيفية، واللوحة الذهنية للهوية تتبدل بحسب اللوحة الحضارية الإنسانية، نبعاً لشروط الزمان والمكان وتبعاً للمصادر المبدئية أو المنهجية. ويتم تشكيل هويات هائلة: كالهوية المذهبية والطائفية والعرقية والأثنية كما يحصل اليوم لتنفيذ مشروع الشرق الأوسط الجديد.

- لا داعي للانغلاق الثقافي: قد ينكر البعض للهوية حقها في التطور والنمو والتفاعل، فالأفكار يمكن أن تهجر من مكان إلى آخر. من سياقها الثقافي إلى سياق مغاير، كما أن النظرية العلمية تنتقل من مناخ فكري إلى مناخ آخر. وهي ليست بحاجة إلى جواز سفر ولا إلى هوية.

- الهوية بنت الماضي والحاضر والمستقبل: والمستقبل مرتبط بقدرتنا على اللحاق بالركب الحضاري المعلوماتي، يخصب التاريخ يحوله إلى حركة جذلية

وأعادة، وهو نقيض الماضي على المستوى الفردي والجمعي، لأنه يقيس على الحاضر في حركته على المستقبل الواعد، ولا يشغله الماضي إلا بوصفه عنصراً من عناصر الحاضر الذي يقبل التحول نحو المستقبل.

- تبقى الهوية هي الحصن والملاذ، تلجأ إليه الأمم والشعوب أثناء الأزمات فالعرب يؤمنون أنهم أصحاب ماضٍ عظيم، وارث تاريخي يفرض عليهم دوراً عالمياً، يثبتق من حضارتهم، وهم اليوم يواجهون كوارث الواقع وتغييراته الداخلية والخارجية، دون أي قدرة على التنبؤ والاستشراف والاستباق.

- الهوية تشغل الجميع؛ الفرنسي اليوم يسأل ما هي فرنسا؟ والياباني يتساءل اليوم عن هوية اليابان، السؤال نفسه طرحه بالأمس عقب الحرب العالمية الثانية، فوضعه في مقدمة الدول الصناعية، فهم خائفون على لغتهم وهويتهم من الانسحاق في ظل هيمنة اللغة الإنكليزية على شاشة الإنترنت، وانطلاقة المارد الصيني، تسانده ثورة ثقافية أصيلة توفر فرص التعليم بالتوازي مع فرص العمل، وما هو جدير بالملاحظة أن هذه الثورة انطلقت من تعاليم كونفوشيوس مدمجة مع تعاليم (كارل بوبر بحثاً عن عالم أفضل، القاهرة ١٩٩٩) فيلسوف العلم الشهير، عن كيفية بناء المجتمع المفتوح؛ القائم على إشاعة العلم والمعرفة، وحرية التعبير ومشاركة الجميع، من أجل بناء مجتمع ديمقراطي خطوة خطوة.

- المعلومات أداة الثقافة الغربية؛

١ - المعلومات أداة لمواجهة التعقد الاجتماعي؛ التعقد الاجتماعي سمة اجتماعية أساسية؛ وكذلك النظم الاجتماعية كنظم مفتوحة تتحرك باتجاه التعقد؛ وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتزيد الأمر صعوبة، وجعلت كل شيء في حياتنا إشكالية نريد لها حلاً؛ من الترفيه الإعلامي إلى اللغة إلى الهوية؛ من سلطة الحكم إلى الديمقراطية، ومنهم من رأى أن الكمبيوتر والمعلومات ستجعل حياتنا أكثر تجانساً، بل كانت مصدراً للاختلاف وزيادة في البدائل والاختيارات، نستنتج من هذا أن تكنولوجيا المعلومات هي الداء والدواء، وهي أمضى الأسلحة في مواجهة التعقيد بفضل قدرتها على التعامل مع الظواهر

المعقدة، واحتواء الكم الهائل من البيانات والمعلومات، كما توفر الوسائل العلمية من برامج وإحصائيات لمعالجة هذا الكم الضخم، لانتزاع الجوهر وخلق النظام من رحم الفوضى وقد آن الأوان كي نواجه التعقد على حقيقته وبهذا نضع أيدينا على الأيدي الخفية التي استسلمنا لها طويلاً.

ب - المعلومات والتكامل المعرفي: إذا كانت تكنولوجيا المعلومات عامل هدم للحواجز الفاصلة بين العلوم: طبيعية كانت أم إنسانية، وبذات الوقت تعمل على تضيق الحواجز والقواصل بين العلوم والفنون، وكذلك بين المعارف والخبرات، لقد ضاقت بنا حلقة الوقت كي نفهم ونمارس الخبرة أولاً، ونمارس المعرفة الكامنة وراءها ثانياً. وقد استطاعت المعلومات إحداث التكامل المعرفي، وتطبيق نظرية المعلومات في الفيزياء والبيولوجيا واللغة ونظرية الاحتمالات ونظرية الاتصالات، وعلم النفس والفلسفة وعلوم الكمبيوتر وعلم الاجتماع والنقد الأدبي والفني.

ج - المعلومات وتوازن المجتمع: فهي تعمل كوسيلة للضبط الذاتي، وهي كوسيلة للتغذية المرتدة وتنشأ هذه الأخيرة عن سريان المعلومات في مسارات مغلقة تربط بين القرارات والممارسات والنتائج وردود الفعل. وبما تحمله التغذية المرتدة تحس منظومة المجتمع مدى الانحراف عن الأهداف المرسومة أو المعايير المقررة لها. وبهذا كانت الدول المتقدمة أكثر تجاوباً مع نظم المعلومات والتكيف وتصحيح أوضاعه، وسؤالنا هل تستطيع نظم المعلومات وتغذيتها المرتدة أن تراب العرش في المجتمع البشري، بعد أن أصبح أكثر اختلافاً؟ لأن هناك انفصلاً بين الفكر والسلوك، وبين النظرية والتطبيق، وبين التعليم والتربية، وبين التنمية والمحافظة على البيئة، وبين التقدم الاقتصادي والرفاهية الحقة، وبين قدرة التكنولوجيا ونتائجها الحقة، وهذا ما يؤدي إلى انفصال الإنسان عن واقعه، وفي نهاية الأمر يتفصل الإنسان عن أخيه الإنسان، ومهمة نظم المعلومات الكشف عن هذه التناقضات الناجمة عن الانفصال. والكشف عن علاقات الترابط، كمطلب أساسي من أجل مجتمع أكثر توازناً وتكيفاً.

د - المعلومات وتصنيع الثقافة: تعتبر المعلومات أهم مقومات البنى التحتية لتصنيع الثقافة، فبجانب توفير موارد المعلومات الثقافية، إلى تمثل تكنولوجيا المعلومات الشق الأساسي في معظم التكنولوجيات الثقافية: تكنولوجيا التعليم وتكنولوجيا الإعلام وتكنولوجيا هندسة اللغة، وتكنولوجيا الفنون، وتكنولوجيا معالجة وصيانة التراث، واليوم يخضع هذا التراث إلى رؤية أحادية الجانب تسيطر عليها المعايير الجمالية والتاريخية (جابر عصفور ١٩٩٧) رؤية ترى الأثر الضخم لا البسيط المكتوب أو الشفهي، تحتفي بالاحتفالي لا العادي، وبالمقدس لا الدنيوي وتغير هذه النظرة إلى التراث يتطلب سندا من تكنولوجيا المعلومات.

هـ - المعلومات والتنظير الثقافي: لم تعد الثقافة خاصاً أكاديمياً، بل شاغلاً للجميع، بعد أن اتضحت أهميتها للتنمية، وهي من أهم صناعات عصر المعلومات، لقد تاهت إشكالية الثقافة في القرن العشرين بسبب عمق التخصص، وتم الانسحاب من الأسئلة العامة، والتي عادت إلينا لتطرح من جديد بفضل المتغير المعلوماتي، الذي يطرح من الصفر معظم القضايا الثقافية والاجتماعية، والتنظير الثقافي، هو مزيج من فروع العلوم بكافة، وهذا يتطلب سندا معلوماتياً قوياً، كي يمكن احتواء التداخلات الكثيرة بين الفروع المعرفية، والتنظير الحديث لا يستطيع الفصل بين ثقافة النخبة وثقافة العامة، ويدرس الثقافة وهي تعمل بصورة ديناميكية، في إطار الهياكل الاجتماعية والممارسات الاجتماعية في المجتمع، والتنظير الثقافي لا يملك القدرة على المواجهة الاجتماعية العريضة دون سند معلوماتي قوي على شكلة خرائط ثقافية، ومسوح إحصائية، وقواعد وبيانات لتسجيل الواقع الاجتماعي، والخصائص الثقافية للفئات الاجتماعية المختلفة عامة كانت أم نخبية، ثم تأتي العولمة لتضيف إشكالية أخرى تتطلب مزيداً من المعلومات فيما يخص الدراسات المقارنة.

- المعلومات أداة ثقافتنا:

أ - بين تعقد الغرب ومحاويره وتعقدا الخبيث: الفكر العربي يفكر بطريقة خطية بعيداً عن مهارات التفكير المنظومي، الذي يتعامل مع عدد من

العناصر والعلاقات، فمهارات التفكير الشبكي، تستطيع أن تتعامل مع تعدد المسارات وما يربط بينها، هذا، والفكر العربي يعشق الثنائيات وقانون العلة والأثر، وقد أراد الفكر العربي أن يجعل لكل قاعدة نحوية سبباً من داخلها وعلة من خارجها، تماماً كتزول آيات القرآن الكريم، وهذا الفكر خامل ساكن ومجامل، بحاجة إلى الدينامكية والتفاعل مع عصر المعلومات وليس لديه العدة الكافية للتعامل مع عصر المعلومات، لا على المستوى العام ولا الخاص، مشاكلنا معقدة كورم خبيث عصية على الحل، بينما المجتمع المتطور يحل مشاكله من خلال: التنظيمات والتشريعات وآليات قياس الأداء ومؤشرات الموارد القائمة والرأي وتقييم نتائج القرارات التي توجه الموارد الاجتماعية اللازمة والمناورة بها من أجل احتواء التعقد وإخضاعه للنظم القائمة وما أن يظهر التعقد حتى تتولد الخطابات التي تسمى إلى تفكيك مظاهره وتفتيتها ومحاصرتها، ولكن أين نحن من هذا التعقد الحميد المستأنس السريع الامتصاص، وهذا يمثل وجبة جهنمية من خليط التراكم والعشوائيات، وتشتت الاتجاهات وتضارب الأفكار، ويبقى التعقد معلقاً دون حل أو حسم مترعباً فوق البنى المعرفية والنظم الاجتماعية باستمرار، حتى يصل الأمر حد الانفجار، أو أن نقع في دوامة الدوائر الخبيثة، ولا نجد حلاً إلا تكنولوجيا المعلومات ولا يحل التعقيد إلا هيض من المعلومات يعمل على تحليله وتفتيته وإذابته، ونحن نراكم مشاكلنا نتركها للزمن ليعملها، وتصبح كريطة أفاعي لا تعرف رأسها من ذنبها. وقد أصبحت مواجهة التعقيد واجباً مهماً للفكر الثقافي العربي، وما أخطر أن نسلم قضايانا ومصائرنا للأقوياء بعد أن تجاوز التعقيد قدرتهم وقدرة من يقف إلى جانبهم، وسرعان ما تتحول هذه القضايا الاجتماعية والسياسية في أيدي هؤلاء الأقوياء إلى مسائل تكنولوجية يتكفلها أصحاب القرار والمستشارون والخبراء والبيروقراطي وهنيئاً للسلطة التي لا يحل التعقيد سواها.

ب - بين تكاملهم المعرفي وتشظيئنا: وإذا ألقينا نظرة طائر حزين إلى خريطتنا الثقافية وجدنا سلسلة متقطعة منعزلة متكورة على نفسها، لا

جسور تربط بينها، مليئة بالفجوات والمناطق المعتمة، وعصر المعلومات هذا أبدى عورتنا أمام العالم بتشتت المعرفة، وتشرذم فكرنا اللغوي، فلا حوار بين اللغويين والمعجمين، والتربويين والإعلاميين، وعلماء النفس والكمبيوتر وعلماء البيولوجيا، ولا حل إلا بالمعلومات. فلماذا فقدنا البوصلة؟

ج - بين توازنهم الاجتماعي واختلاله لدينا: لماذا فقدنا عصا التوازن؟ لن نتجع في توطين المعلومات في تربيتنا العربية، ما لم ننظر إلى تكنولوجيا المعلومات بأبعادها الفنية والعلمية والاجتماعية والتنظيمية، وأن نعمل على تطبيقها وتطويرها، أما إذا فشلنا في تحقيق ذلك لن نحل مشاكلنا، بل سنعقد وستزداد الفجوة بين من يملك ومن لا يملك، ومن يعرف ومن لا يعرف، ويزداد الانفصال بين الفكر والواقع، وبين الحاكم والمحكوم، وبين الثرية ومطالب العصر، وبين أجيالنا السابقة واللاحقة.

هـ - بين تنظيرهم وتنظيرنا: غاب التكامل المعرفي فغاب عنا التنظير الثقافي للخروج من مأزقنا، وبخاصة عندما تعددت الفروع المعرفية المغذية لعلم الثقافة، ولا زلنا نجهل ثقافتنا الشعبية، ونشك في تنوعنا الثقافي، الذي يصب في مسار الثقافة العربية ولا بد من المعلوماتية كسند لنا في حل مشاكلنا، ومواجهة العولمة التي تريد إذابتنا. كما يتطلب تنظيم قواعد البيانات اللازمة لثقافتنا الشعبية، ومظاهر تنوعنا الثقافي وخلاصة القول أن لا غنى عن المعلومات في مواجهة مشكلاتنا الثقافية وحسن استغلالنا لمواردنا.

علم الثقافة وثقافة العلم لدى الغرب:

أ - علم الثقافة: أصبحت الثقافة علماً قائماً بذاته، تساهم فيه فروع علمية مختلفة، وعلى رأسها علم الإنسان (علم الأنثروبولوجيا) الرمزية وعلم اجتماع المعرفة، وكلاهما ذو صلة وثيقة بالمعلومات، وعلم الإنسان يطبق الأسس اللغوية، والمنهج البنيوي؛ الذي يركز على علم اللسانيات في تحليل التراث الثقافي، نصوصه وبناء المعرفة، ومؤسساته الاجتماعية، - يقوم علم اجتماع المعرفة بدراسة علاقات الترابط بين المعرفة والسياسات الثقافية والاجتماعي اللذين أفرزا هذه المعرفة، وما يشغل دارسي علم اجتماع المعرفة،

تعقب المعرفة وقد تجسدت في تنظيم المؤسسات الاجتماعية، وتجلي هذا في أداء هذه المؤسسات وسلوك العاملين فيها، فلم يستقر علم الثقافة بعد على خريطة الوضع الإنساني، وهو بحاجة إلى زمن طويل، لأن الأمر يتوقف على مدى الشوط الذي قطعته العلوم الإنسانية المغذية لعلم الثقافة في طريقها للوصول للعلوم الدقيقة، ومن الصعب أن نصل إلى الموضوعية في العلوم الإنسانية وهو أصعب بكثير من العلوم الطبيعية.

ب - ثقافة العلم: وضعت الفلسفة القديمة العلم ضمن عباءتها، إلى أن انفصل عنها على يد اسحق نيوطن وكان كتابه الأسس الرياضية للفلسفة الطبيعية، بمثابة إعلان رسمي لهذا الانفصال (كارل بوبر ١٩٩٩) ورغم انفصال العلم عن الفلسفة لكن صلة بها لم تقطع، حتى أصبح للعلم فلسفته، وازداد تأثير العلم بالفلسفة، ومطالب (جون لوك) فلاسفة عصره أن يأخذوا في اعتبارهم الاكتشافات العلمية وأثرها، وصلة العلم بالفلسفة تزداد اطراداً ووثوقاً، وكثير من منظري الثقافة والفلاسفة يلجأون إلى النظريات العلمية ويلهون منها، وتستعين (جوليا كريستيفا) في نظريتها عن الشعر بنظرية فيزياء الكم (الكوانتم) كما يلجأ (جالك دريدا) في التفكيكية إلى الرياضيات المنطقية، (لكورت جودل). كثر هم الذين جعلوا من نظرية المعلومات ونظرية النظم منطلقاً لعملهم، وكاد العلم أن يتخلص من دوره كأداة للفلسفة ويصبح ضرباً من الفلسفة، وكادت التكنولوجيا أن تصبح نوعاً من فلسفة الأخلاق، والعلم نوعاً من الايدولوجيا، وما كتبه البعض عن (البيولوجيا كاييدولوجيا) حول (الدنا) (د. س لونت ١٩٩٧) وقد تعاظم دور العلم في الفكر الفلسفي، وأصبحت فلسفة العلم وفلسفة اللغة بشكل خاص، أصبحتا المحور الأساسي في الفلسفة المعاصرة وكادا أن يتطابقا، وفي حاضرنا الراهن، وعصر معلوماته، تطابق علم فرانسيس بيكون على يد (فرانسوا ليونار)، نستطيع أن نطلق عليه (معلوقراطية) مجتمع ما بعد الصناعة، حيث لمع (ليونار) في (شرط ما بعد الحداثة) في أن العلم لا يستوفي شرط جدارته العلمية إلا إذا دان العلم لمعالجة الكمبيوتر عندها يدخل

الجسم المعرفي الحقيقي الأشمل، وبعبارة واحدة أصبحت معالجة الكمبيوتر شرطاً لعضوية (النادي العلمي).

علم الثقافة وثقافة العلم العربي:

أ - علم الثقافة: إن المعرفة منوطة بالمناخ الاجتماعي التي تعيش في ظلها، وتنطلق منه، والثقافة مرتبطة بالعمل وتطبع المعرفة بطبيعة المناخ الاجتماعي التي تنطلق منه. (سامي خضبة ١٩٩٤) وكان (ابن خلدون) أول من أشار إلى معنى العام لمفهوم اجتماعية المعرفة. وعلم اجتماع المعرفة الذي ندعو إليه بمفهومه الحديث، هو المظلة المعرفية للعلوم الإنسانية وبخاصة التربية والإعلام والقيم، وتسمية التوجه النوعي وهذا يتطلب إنعاش الفكر الفلسفي، والتخلص من الثنائيات التي تنخر في جسم الثقافة العربية، ولا شك أن مازق فكرنا الفلسفي نتيجة طبيعية لانخفاض مستوى العلم والفكر في مجتمعاتنا، وما زال الكثيرون من العلميين عندنا، يعتبرون هذا العلم لا مبرر لوجوده، وقد ضاقت هؤلاء أنه لا بديل إلا الفلسفة إن عجز العلم عن مواجهة التحدي المعلوماتي، ولا ملجأ للعلم إلا الفلسفة. ويرى البعض أنه يمكن فصل العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية، واسلمة علوم الإنسانيات، اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وتربوياً، ولكن هذا غير ممكن نتيجة التداخل الشديد في خريطة المعرفة الإنسانية، وفكرنا الثقافي يسوده النقد الأدبي، وقد نجحت السياسة في تمزيق فكرنا الثقافي، فغاب التنظير الثقافي من: اجتماع واقتصاد وفلسفة علم ومعلوماتية. وللحق بقول لقد ضاع جهد أدباء ومفكرين عابرة للتنظير شبه المستحيل، كي تقيم من شتات الفكر الإسلامي والعربي صروحاً فلسفية ونظريات علمية.

ب - يؤس ثقافتنا العلمية: إن العقل الثقافي عقل نسبي، وهو متداخل مع ما في الكيان البشري من حقائق يصدقها الحمض ولا يستدل عليها ببرهان كالحب والجمال والفرن والهوى، بمعنى أن تكفر بالشيء أو تؤمن به. فالعقل الثقافي فيه ثوابت مطلقة وثوابت غير مطلقة، ثوابت عند قوم ومتغيرات عند آخرين، قيم تؤسس للفضيلة هي مهملات عند قوم آخرين لا تدخل في سلم

القيم. والعقلانية في القيم الثقافية نسبية بحكم الذات، والموضوع، والسياق. الذات: لأن فيها الأنا والآخر. ونسبية الموضوع: لأن المسائل فيه إما أن تترتب بحكم ما هو كائن أو بحسب الخصوصية. نسبية السياق: يتأثر في الزمان والمكان، وتوازن القوى بين الأطراف الداخلين عليها. والثقافة العلمية مازال الكثيرون يفسرونها بتبسيط العلوم والإلمام بآخر المنجزات العلمية، ويُدرج البعض ضمن هذا مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن، ويقصرون مفهوم الثقافة على مطالعها لتحتوي اختصاصهم الضيق لعدد هجوات الفراغ الفكري لديهم، علماً أنهم لا يعترفون بهذا الفراغ الفكري لديهم ويجعلون من اختصاصهم إيديولوجيا شاملة أحادية الأبعاد، ويفسرون العالم بناء عليه فيقعون في (فخ شبه العلم) والتسطيح الفكري وهكذا كثير من أهل الاختصاص بات بحاجة إلى تأهيلهم فكرياً وثقافياً يحررهم من اختصاصهم. (أسامة الخولي ١٩٩٨)، ونحن العرب نرغب بتثقيف غير العلميين علمياً، وتوعية العلميين ثقافياً، وهناك الكثير من علمائنا بحاجة إلى تثقيف علمي، ليخرجوا من دائرة اختصاصهم وسد ثغرات الفكر لديهم، وعلينا أن ننظر إلى الأشياء من الخارج، ككيانات قائمة بذاتها، منفصلة عنا يمكن ملاحظتها واخضاعها للتحليل والدراسة، لا كمتوحدين ومنفصلين منها، فتأتي أحكامنا تعبيرات ذاتية صادرة عن محاكمة وجدانية، ولهذا قيل أن العقلية البدائية سابقة على المنطق (يعني لها منطقها الخاص المختلف عن العقل الغربي، والثقافة العلمية تربط الزمان بالارتداد والكشف والتقدم، والنظر إلى الأمام طيلة الوقت، وهو أحد أهم أسباب التقدم العلمي بعكس الزمان الدائري التكراري، والثقافة اللا علمية تدعو إلى الاستقرار والسكون، والنظر إلى الوراء، وهذا يضع قيوداً قوية على التقدم والابتكار، فالعقل العربي خاضع بلا تحفظ لسيطرة الخرافات والنفيبات التي تشده إلى الماضي وتعيق مسيرته).

١ - علاقة منظومة ثقافة المعلومات بمجتمعها الغربي؛ وهو يشتمل على ثلاثة مكونات هي:

- العلاقات الخارجية: التي تربط منظومة ثقافة المعلومات بخارجها .

- العناصر الداخلية: لمنظومة ثقافة المعلومات .

- البنى التحتية: لمنظومة ثقافة المعلومات، وتشمل الثقافة السياسية

والإعلامية وموارد المعلومات الثقافية، والموارد البشرية التي تشمل عمالة صناعة الثقافة . وهناك علاقة تبادلية بين تكنولوجيا المعلومات والمجتمع الذي يقرؤها، وقد فقدت هذه العلاقة التبادلية كثيراً من توازنها نتيجة التطور السريع لتكنولوجيا المعلومات. ولا يزال المجتمع يلهث وراءها للحاق بها، وهناك فجوة كبيرة بين تطور تكنولوجيا المعلومات واستيعابها ومثالنا على ذلك أن هناك تقنيات تكنولوجية، أُرِجِيَّ العمل بها فنياً ليصبح المجتمع قادراً على استيعابها، أو توافر المناخ المناسب لتطبيقها، وهذا ما يفسر اهتمام الغرب بالعوامل الاجتماعية. والصحيح أيضاً أن المجتمع لا تشكله السياسة والاقتصاد بقدر ما تشكله وسائل نُظْمِ الاتصال، وهذا مؤشرٌ خطيرٌ يشير إلى تبعية الإنسان للتكنولوجيا وليس العكس. لنصبح عليها صقاتنا فنحن نريد تكنولوجيا إنسانية تربط الإنسان بإنسانيته وعقلانيته، عندها نكون بحاجة إلى نظرية اجتماعية جديدة، نظرية لا ترى الثقافة عاملاً مساعداً يدفع المجتمع صوب غاياته كما في نموذج (ماكس فيبر)، ولا تُخْتَزَلُ الثقافة إلى ناتج فرعيٍّ لطور الإنتاج السائد، كما في نموذج (كارل ماركس) ذي المبدأ الاقتصادي، أو شأنها شأن مؤسسات اجتماعية أخرى كما في نموذج (إميل دور كايم)، نحن نريد نظرية لا تتعامل مع (طور إعادة الإنتاج) بل تتعامل مع (طور المعلومات) وطور المعلومات يعني (طور إعادة الإنتاج) فكل ما ينتجه مجتمع المعلومات من موسيقى وبرامج وأفلام ونصوص قابل للنسخ، ويمكن إعادة إنتاج الخبراء والخبرات وما أن تخترع آلة تكنولوجية إلا وتصبح قادرة على تحويل مؤسسات المجتمع، وكلما تقدمت التكنولوجيا وارتقت المجتمعات كلما تطور المجتمع بسرعة، ومثالنا على ذلك شبكة الإنترنت وما تشهده من سرعة هائلة، وهناك من يعارضون السرعة الفائقة في عمل المؤسسات الاجتماعية لأنها تعمل وفقاً لمنطقٍ داخليٍّ يسيطر عليها نسقٌ راسخٌ من

المعايير والقيم. ومن المعروف اليوم أن تكنولوجيا الصناعة أفرزت الرأسمالية ومفهوم الدولة ومؤسساتها، والسؤال الذي يطرح نفسه بشدة: ما هو شكل المجتمع الذي ستقرزه تكنولوجيا المعلومات؟ ومن الصعب الإجابة عن هذا السؤال لكنه سيكون صيغةً وسطى ما بين العلمية والمحلية. إنتاج موزع، حكومات ضئيلة، إدارة لامركزية، مجتمع يبتعد عن التعامل مع الكتل المتجانسة مثال: إنتاج الجملة، إعلام جماهيري، تعليم مجموعات كبيرة من البشر، الإبادة الجماعية أثناء الحروب، ويقول (بيير ليفي): إننا نواجه ظاهرة اجتماعية جديدة تماماً هو الذكاء الجمعي الكلي، الذي يتضاعف بصورة كبيرة جداً، مع زيادة إنتاج المعرفة وتداولها واستهلاكها. وزيادة التفاعل المجتمعي، بين عناصر منظومة المجتمع، ويزعم أن هذه الظاهرة غير مسبوقة لا في الدين أو القانون أو الاقتصاد.

ب - علاقة الثقافة بالسياسة، من أبرزها إعادة طرح المفاهيم الأساسية للديمقراطية والعدالة الاجتماعية وحماية الخصوصية الفردية، كنتيجة للعلاقة الثقافية المعلوماتية وقد شُلت القوانين بفعل المتغير المعلوماتي، فهي غير كافية لفرض الالتزام في أمور مثل: البيانات والأمانة العلمية، واحترام الملكية الفكرية، والمسؤولية الأدبية للخبراء والمستشارين والعلماء وما شابه، وربما نلجأ إلى تقاليد المهنة والوازع الأخلاقي والرقابة الذاتية، وقد أشار تقرير منظمة اليونسكو إلى التالي: إن خيالنا السياسي والاجتماعي أصيب بالجمود والكسل وابتعد عن الطفرات التي حققها خيالنا العلمي، وأدى بدوره إلى قصور ثقافي بين العلم والتكنولوجيا من جهة، وبين مؤسساتنا الاجتماعية والسياسية من جهة أخرى (جابر عصفور ١٩٩٧) لقد حان لهذا الفكر أن ينزل من برجه العاجي، وأن يخلع عن نفسه منفعته الخاصة ويرودة انتجاويه مع مشكلات الناس، بحجة الحرص على سلامة المؤسسات وأن يتغلب عن أسلوب إدارة الأزمات.

ج - علاقة الثقافة بالاقتصاد: لقد فرضت ثقافة المعلومات وصناعتها، طابع إعادة الإنتاج الذي تقوم عليه هذه الثقافة وتلك الصناعة، فكراً

اقتصادياً مغالفاً، فيما يخص نظرية القيمة والملكية الفكرية وحساب الربح والخسارة الثقافية، فلم يعد يكفي في قضايا التنمية حساب العائد المباشر أو الكلفة المادية المحسوسة المباشرة وهذا ما يحسب على المدى القصير دون الطويل، وكما هو الحال في السياسة فالعالم يأسس الحاجة إلى نظرية اقتصادية مفارقة لا تحاكي مناهج علوم الطبيعية بل تنحاز إلى جانب علوم الإنسانيات، من أجل تحقيق الرفاهية الحققة للمجتمع والفرد. إن نظام الدولة نجح في عصر ثروات الأراضي والأموال، فهل سينجح في عصر الثروة المعرفية والعملية الذهنية؟ وهناك من يفترض فشل الدولة في حماية الملكية الفكرية مما سيؤدي إلى انهيارها فتغير بهذا دور الدولة من الحارسة المدافعة ضد التهديد الخارجي إلى الدولة الأمرة المنظمة للعلاقات بين الأفراد والمؤسسات، وهي اليوم كمديرة منزل لا أكثر ولا أقل، تحمي داخلها وما يفد إليها.

د - علاقة منظومة الثقافة بالثقافات الأخرى: لا شك أن عولمة الثقافة لازالت بأولها وما نقرأه أو نسمعه بشأن تأصيل الأسس الثقافية لظاهرة العولمة يبقى تصورات متسارعة للغاية، لأن الإنسان لا يستطيع أن يتخلى عن جذوره الثقافية بهذه البساطة، والقصد منها مساندة العولمة، ويمكن للثقافة النخبة أن تسرع عملية تكيفها مع العولمة، بينما الثقافات الشعبية لا يمكن أن تتكيف بذات السرعة وهناك من يقول إن الإنترنت هي التي ستعمل لتحقيق حلم البشرية في إرساء ثقافة قواعد السلام الإنساني، من تنوع ثقافات وتعددتها، وقالوا أن هناك وحدة من القيم والمعاني تسمح بوجود أخلاقيات عالمية، وكل البشر ترغب في تخفيف المعاناة وترفض وأد البنات، وحرق الأراذل، واستغلال عمالة الأطفال والسخرة الجنسية والعبودية (جابر عصفور ١٩٩٧) ولكن المسألة معقدة كثيراً فيما يتعلق بالثقافة الدينية، وهناك من يراهن على حتمية الصراع لا الوفاق، واستحالة السلم العالمي، ومن يقول أن الثقافة متجذرة بخصوصيتها المحلية، والإنترنت ستفصل بين الثقافات وبين الفئات الاجتماعية، وتفرز المجتمعات الإنسانية طبقاً لمعايير عصر

المعلومات، والعالم سيعاني من داروينية ثقافية متوحشة، تأكل الأخضر واليابس.

و - علاقة الثقافة بالذات الاجتماعية: تفرض علينا ثقافة المعلومات إعادة النظر بالعلاقة بين الفرد والمجتمع، وموقف التعددية الثقافية من منظومة الثقافة، وهذه تستدعي نظرة جديدة إلى الذات الإنسانية نظرة متحررة تتجاوز: الجسد - والفرائز والعقل والروح. لتخلق من النضوج النفسي نتاجاً للتفاعل الفيزيولوجي مع الرمزي، وتكون الذات الإنسانية مشروعا رمزياً يتحقق عبر التفاعل الإيجابي، مع عالم الواقع وعالم الفضاء المعلوماتي، وذلك من خلال الممارسة والمشاركة وتقبل المخاطر، والقدرة على اتخاذ القرار والوعي بالبدائل وهذه النظرة تجاه الذات الإنسانية تتعرض لعلاقة الإنسان بالآلة بعد امتزاجهما في عملية واحدة ذات طابع جدلي، تفقده السيطرة على آله وعلى عالمه وعلى ذاته، ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا إذا أدركت الفئات الاجتماعية جميعها: من قادة الرأي والإعلاميين والتربويين ودعاة الدين ماذا عليه ثقافة المعلومات بالنسبة للمجتمع ككل. أفراد ومؤسسات وجماعاته وعلاقاته وتحدياته وقال البعض قد تنحصر ثقافة المعلومات والإنترنت بأيدي قلة قليلة مهمشة، لكنها قوية، فتشكل خطراً على حقوق الأغلبية.

أ - علاقة منظومة الثقافة العربية بمجتمعها: من متطلبات ثقافة الوعي: - أن التعدد السياسي، قد يخفي وراءه توحداً ثقافياً كاملاً، والتوحد السياسي لا يعني بالضرورة توحداً ثقافياً، وصراع الهويات الثقافية لا يهزم التوحيد الثقافي الغاصب، والصراع السياسي بين الأنظمة لا يمكن أن يباعد بين الشعوب، إن كانت تؤمن بالانتماء الثقافي الواحد، ولا أدل على ذلك إلا تشظي الاتحاد السوفيتي، وانفلاق النموذج اليوغسلافي، وتوحيد ألمانيا، ولن ينال التاريخ من إحساس العربي، إنه أقرب إلى أي عربي من أي كائن ثقافي آخر.

إن علاقة مجتمعاتنا بثقافتنا حساسة جداً وسريعة العطب، وظهر هذا في مجال التنمية الاجتماعية، والتي تم حصرها في التنمية الاقتصادية

والتكنولوجية، علماً أن الثقافة هي مصدر كل قيمة، وتكنولوجيا المعلومات تعد النموذج الإرشادي للقائمين على التنمية، واليوم يبدو أننا دخلنا طور المراهقة الثقافية، ورغم كل هذا تبقى ثقافتنا هي الحارس الأمين لما يحيطنا بنا ويحضر لنا.

ب - علاقة الثقافة بما هو سياسي: لا تزال ثقافتنا وخيالنا السياسي خاملاً وكسولاً وقاصراً عما يجري حولنا من طفرة معلوماتية وثقافية، وهذا ما أدى بدوره إلى قصورتنا الثقافية. حجمت الدول المتقدمة حكوماتها نتيجة الخصخصة وازدادت مشاركة المنظمات غير الحكومية في صنع القرار السياسي والاجتماعي. والم سؤال هو: ماذا لو فعلنا نحن ذلك؟ ألا يمكن أن تتراجع الدولة في دعمها للرعاية الاجتماعية؟ ألا يصبح المواطن تحت رحمة القطاع الخاص والشركات المتعدية الجنسية؟ وكيف ننمى وصفات الصندوق الدولي، ووصايا البنك العالمي؟

وترتيبات المنظمة العالمية للتجارة؟ والنظام العالمي الجديد وحرية على الإرهاب، لغزو الشعوب ونهب ثرواتها، إنه نفس الدمع القديم لكن بترتيبات جديدة خطيرة. ونجاح مجتمعاتنا العربية في دخول عصر المعلومات؛ يكون في إعادة ترتيب العلاقة بين الثقافة ومنظومتها المعلومات والسياسة - والدور الذي تلعبه تكنولوجيا المعلومات في الحراك الاجتماعي وترسيخ الديمقراطية - وترشيد العلاقة بين المواطن والحاكم الذي يمارس التعتيم الإعلامي والسيطرة على التربية - وتسخير الدين لمصلحته - والمجتمعات العربية تريد المشاركة الفعلية بالعمل لا مجرد إتاحة المعلومات.

ج - علاقة الثقافة بالاقتصادي: في الوقت الذي نحن فيه بأمس الحاجة إلى الثقافة، تعاني الثقافة صغوباً متزايدة نتيجة الأزمة الاقتصادية التي يعاني منها الوطن العربي، فهي محور رئيسي في عملية التنمية، لإقامة صناعة ثقافية عربية، ولعل العامل الاقتصادي هو السبب الرئيس في الخلافات السياسية العربية. وبالقدر نفسه يصعب قبول الرأي الآخر والبقائل أن تراجع تدخل الدولة في أمور الاقتصاد سيحقق الازدهار ويزيد من فرص

العمل بمفعول التساهل ومقتضاه كما أوضح (إسماعيل صبري عبد الله، ١٩٩٨) في مقام رَفَضِهِ لَهُ، إنَّ تزايد ثراء الأغنياء ونمو نزعة فعل الخير لديهم سيصفي تدريجياً من ظاهرة الفقر، وسيضايق من قرص العمل، ويقتصر دور الدولة على حفظ النظام وتخفيف وطأة الفقر، وفيما يخص باقتصاد الثقافة فنحن بحاجة إلى مؤسسات ثقافية ديناميكية سريعة التكيف، تستخدم بمهارة فائقة وسائل الاتصال لاتخاذ الإجراءات السريعة، ووضع الخطط والأهداف موضع التنفيذ، بطريقة يمكن رصدها وقياسها وتصويبها، وتقويمها وتعيين العائد المباشر وغير المباشر، ونحن بأمس الحاجة: إلى مؤسسات لا تحتكر الثقافة، بل توزعها وتشرها - وتقوم بتصنيعها، لكن بأسلوب يختلف عن إدارة المصنع.

د - علاقة منظومتنا الثقافية بالثقافات الأخرى: يهنا في الحقيقة أن تستفيد ثقافتنا من الثقافات الأخرى، وأن تتلاقح أفكارنا مع أفكار عصر المعلومات، ونقوي ثقتنا بأنفسنا أثناء مواجهة الثقافات الأخرى، سواء عن طريق الحوار أم الوداع، ونحن نعتز بثقافتنا كونها ثقافة عالمية، تثير وجع العدو الصهيوني الأمريكي، والثقافة الأمريكية بصفتها الثقافة المهيمنة عالمياً على ثقافة عصر المعلومات، لابد من تفهم الأسباب التي أدت إلى المراجعة الشاملة لهذه الثقافة التي قام بها روادها ودرسوا أسسها: (الفكر الإغريقي والمسيحية).

كذلك دراسة التنوع الثقافي في المجال اللغوي (٢٧) لغة لدول الاتحاد الأوروبي وكيف يتصدون للثقافة الأمريكية وخاصة ظاهرة التنوع الثقافي، وأن نشارك الاتحاد الأوروبي تربوياً وثقافياً واقتصادياً، لنتمكن من المواجهة مع الآخر، ولكن القضية أعقد كثيراً خاصة ما يتعلق بعلاقة الثقافة بالعقائد الدينية، ونحن نشترك مع دول أمريكا اللاتينية، كونهم يتكلمون لغة واحدة هي اللغة الإسبانية والدين يغذي الثقافتين العربية وأمريكا اللاتينية، وعانت الثقافتين من مرارة احتجاج واسعة تحت شعار الدين أثناء عملية التحديث (محمد الشبني ٢٠٠٠)، والأهم من هذا كله كيفية مواجهة الضغوط الأمريكية

الثقافية، وأمريكا اللاتينية هي خط المواجهة الأول مع هذه الثقافة، وهناك علاقة تاريخية بين العرب وإسبانيا وهذا يسهم في توطيد العلاقات الثقافية بيننا وبين شعوب أمريكا اللاتينية والاستفادة من تجربة جنوب شرق آسيا في التوفيق بين ثقافتهم ومطالب التنمية وتكنولوجيا المعلومات.

هـ علاقة ثقافتنا بالمكونات الاجتماعية: إن الحكومات العربية تستطيع حماية نفسها ومصالحها في ظل الظروف الراهنة والصعبة لدخول عصر المعلومات، ولكن الإنسان العربي يفتقر إلى الحماية بعد أن انطلق الجبابرة من كهوفهم؛ من إعلاميين واقتصاديين ومردة الثقافة، والانتهازيين والمتلاعبين بعقول الأغلبية فمن يحمي حقوق الإنسان العربي بمفهوم عصر المعلومات إلا بتضافر الجهود من قادة الرأي العربي، ومن ورائهم التربويون والإعلاميون ودعاة الدين من ذوي النزعة الوطنية والقومية، ومن أولى المهمات: التخلص من الأمية الأبجدية، ومحو أمية عصر المعلومات، وهي: أمية الكمبيوتر والمعلومات، وأمية الشكل والرمز وأمية الثقافة العلمية، وتوفير المهارات والخبرات التي تلزم إنسان هذا العصر لتساعده على التكيف، وتوفير مطالب العيش. لقد خرجت السياسة والمال والمعرفة من زمن البطولة الفردية إلى زمن البطولة الجماعية، لتؤجج المنافسة والصراع من أجل البقاء على الهويات، فانتشرت ثقافة الإرهاب والإرهاب المضاد. فالسياسة تصنع القرار، وقطب المعرفة يحرك العلم نحو الأمام، والمال يصنع الثروة، فالسياسة يديرها فريق ملتف حول تصور محدد للاختيارات التي تعدها له مجموعة متكافئة، تصنع له الفكر السياسي، لتحقيق ما تراه المصلحة العليا للوطن، والعلم تأتي ثماره نتيجة لجهود فريق من العلماء الملتفين حول مشروع متناهي الدقة والمترامي الأطراف، ولهذا كله بات القلب المالي كارثي بل فاجعة، فتتغير المشهد الثقافي الإنساني واضطرب سلم القيم. ونحن العرب قامت قيمنا على الهوية والانتماء العربي ووحدة اللغة والتاريخ، واعتبرتنا الدين مؤازراً لمنظومة القيم، يستوي فوق معيار الهوية بهدف توحيد العرب بمختلف معتقداتهم. بينما تشكلت جبهة خارجية عالمية تعلي من حرية الإنسان الفردية بذاته،

وهذه لا تكتمل إلا إذا قضت على خمسة أشياء تمثل خمس مؤسسات قهرية: الأسرة، والدين، والدولة، والثقافة السائدة، واللغة الموروثة، لكن ثقافتنا رسخت الاعتراف بالآخر الذي نجني ثماره جميعاً على المدى الطويل والقصير، ولا يكون إلا بمحاربة التطرف والإجحاف.

وأعلن التنص المقدس: (إنا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) وأرسي الأساس العظيم للتفاضل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وهذا يعني أن المبدأ الأول هو: التنوع والمبدأ الثاني هو التفاضل الذي يعني التفاضل الخلاق ثم يأتي الشرح المكمل وهو نص السنة (ليس من فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)، وقد رد على الذي احتج بالشعار السلوكي (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) وفسره: (انصره ظالماً برده عن ضلالته)، هذا ميثاقنا العظيم الذي يعترف بالآخر، هذا الذي بفضل انصهرت الأعراق والأجناس ثم انسكبت منها عصارتها من العلوم والمعارف فتحولت اللغة العربية إلى منظومة ثقافية معرفية متكاملة، في العروض والنحو والصرف وعلم المعجم والأصوات، ساهم بتطورها نخبة من علماء الفرس وجميع الشعوب التي دخلت الإسلام، لقد انسجمت ثقافتنا مع قانون التاريخ في أن العلم إنساني، وعلى الثقافة أن تدمن له، وليس بوسع أية ثقافة أن تصنع مجدها إلا إذا اعترفت بالآخر، كان (أبو يوسف يعقوب الكندي)، قد خط رسالة من ذهب على واجهة الزمن الذي عاش فيه تدفعها محركات التخاصب بين الموارد في تنوعها، مقادها: (علينا باقتناء الحق وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المتباينة لنا، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينهني بخس الحق، ولا تصغير قائله، ولا الآتي به، فلا أحد يُخس بالحق، يل كل يشرفه الحق)، إن الكندي ينخرط كلياً في ميثاق الاعتراف بالآخر، ولا أروع من هذا، عندما يتبناه رجل اختص بالدين ومباحث العقيدة، فهو يقطع الطريق أمام كل إجحاف.

فالمسألة مبدئية وليست مقيدة بأي حقل إنساني؛ ليمتد وفقاً على سلوك ولا على أفكار، وليست وفقاً على نشاط فكري بأي مجال، اختص بزمان أو مكان، بدين أو فلسفة أو لغة أو منياسة، فالحق هنا رمز للمؤسسة الفكرية

النوعية بنفسها، ويقول الغزالي عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه في كتابه (المنقذ من الضلال) ((لا تعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله) والعاقل يعرف الحق ثم ينظر في القول نفسه، فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله ميظلاً أو محقاً، بل ربما يحرم على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال علماً بأن معدن الذهب الرغام). أما ابن رشد الذي أفتى في القضايا الفلسفية، التي بقيت معلقة من زمن أرسطو وورثت اللاتينية تركته المعرفية وتقرئه بالفضل (لئن كان الذي فسر الطبيعة هو أرسطو، فإن الذي فسر أرسطو هو ابن رشد) وكان ابن رشد آية حقيقية في تشييد ميثاق الاعتراف بالآخر، المضي إلى التسوع الحضاري، وهو من وصل الكيان الفلسفي للإنسان بكيانه الروحي، وربط بين التأمل والإيمان، وصاغ ميثاقه الجديد: (يجب علينا إن ألقينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات، واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم، وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرناهم) وهذا ما تحتاجه الإنسانية اليوم، فالعرب صنعوا حضارة عظيمة، بعد أن تحرروا من عقدة العرق وفي مقدمتها العقدة اللغوية.

ألم يقل الجاحظ: (والإنسان فصيح وإن عبر عن نفسه بالفرسية أو بالهندية أو بالرومانية وليس العربي أسوأ فهما لطمطمة الرومي من الرومي لبيان لسان العربي، فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح).

و- بين ثقافتنا ومواجهة الآخر: في هن الاستدلال المنطقي الاستباطي والافتراضي وفي علم التأويل، نحن أولى به من غيرنا، بل هو أولى بنا، إنه منطق مسلم الأولويات: فالحاجة التاريخية العاجلة بل الهدف الحضاري، هو بناء الوطن والأطمئنان على المجتمع، تبنيه على قواعد سليمة، ومركزات ثابتة، ليدخل مغامرة بناء المستقبل دخولاً مشرفاً يناهس الآخرين حق البقاء في هذا الوجود المغامر، ومن واجب مجتمعاتنا العربية أن تفض كل الإشكاليات الداخلية، والوطن اليوم إما أن يوجد أو لا يوجد، يصمد أمام

الضعف، وإما أن ينهار، وتهدم مرتكزاته، وأولوياتنا ترسيخ مفهوم الثقافة المستقبلية، عندها ندخل من بوابة استشراف الحضارة لنثبت وجودنا وندافع عن ذاتنا على الجبهة الخارجية، بعد أن تكون أثبتناها على الجبهة الداخلية، فيتأكد السعي إلى ثقافة وعي جديد، مدعوماً برؤية نقدية جديدة. وهذا عمل لا بد منه بعد أن تخلخلت كل المسلمات الفلسفية، وضاعت القيم الأخلاقية التي سادت تاريخ البشرية، والعولمة لا أخلاق لها، فإن تجرأنا على أن نتخطى بالشأن الثقافي مدارات المناورة واستشرقتنا تخوم العولمة اعتبرناه انجازاً يتصف بالإقدام والشجاعة، وفزنا في مرتبة الشرف الحضاري، وكسبنا تنقية ذهننا، وتحررنا من عقد الذنب ولم لا؟ فتحن نعيش في مجتمع المخاطر، هو إذا الوعي المضاد للعولمة، إن الوعي السياسي اليوم يمثل المدخل الضروري لثقافة الوعي فقد كان مسموحاً لرجل الفكر أن يمارس الثقافة بالاحتراف، وأن يمارس السياسة بالهواية. أما اليوم فإن الخريطة قد تغيرت على مستوى المفاهيم، ولم يعد مقبولاً منه أن يواصل عمله الثقافي في معزل عن فهم عميق للقضايا المصرية. والوعي السياسي أصبح بعداً فكرياً وعمقاً تأويلي لا من حيث هو مفهوم نضالي، أو التزام اتباعي، فهو عند المثقف ولدى الباحث والعالم والمربي تراء ترفاً وحلياً، يتزين بها كملايس تشع ضياء، لأنه مدرج الارتقاء إلى الثقافة العامة. وقد تسنى للشأن السياسي والمجتمعي الاقتصادي وتحت سطوتهما أن يحاصرا الشأن الثقافي، ونهياً للشأن السياسي أن يحاصر مؤسسة الفكر وقلمة المعرفة ليهددها بالنسف من الداخل وما أن انكشف عنه الغطاء حتى بدت جريمته اللا أخلاقية.

إن ثقافة الوعي من حيث هي عمق في المعرفة والتجربة، ومن حيث هي مستند لكل عمل في الشأن الجماعي، تجده عندنا لدى السياسي والمسئول وصاحب القرار استثناء يجلب الانتباه أو التتويه، وقد تحدث الصدمة، إلا مجال لثقافة الوعي خارج دائرة الوعي الثقافي؟ ومن هنا تتطلق إعادة النظر في المعايير الذهنية لتستجيب للتحدي التاريخي الجديد. وقد حقق النظام العالمي الجديد نصراً خفياً، لا يضاهيه خطورة وسلطاناً، نصر السلاح ولا

نصر المال؛ إنه التحكم في القدرة الإدراكية لدى الإنسان، بعد تقليص هامش الحرية في تحليل الخطاب أو في تفسيره وتأويله، أما تقدمه فلا يمكن التطاول عليه، لأنه سلاح الخطاب في الثقافة المتولدة عن عولة النظام الجديد، وإنما على أبواب فجر جديد، تذوب فيه آليات التلقي وتحل مكانها آليات (الحقن).

ز - هل تقوى ثقافتنا على تحقيق الاتحاد العربي؛ كان التغيير وما زال ظاهرة ملازمة للتاريخ البشري والحضارة الإنسانية، وهو خاصة من خصائص الحياة. هدمت الحواجز بين البشر من مكان وزمان، فازداد الحراك السكاني والفكري والتبادل الثقافي بين الشعوب والتدفق المعلوماتي والتواصل مع الآخرين.

العربي يشعر بقوة الدوافع التي تدفعه إلى التوحد الذي واجه مصاعب كبرى من أجل تحقيقه، وجرت محاولات: على المسار الأمني أو السياسي أو الاقتصادي. لماذا نجح الاتحاد الأوروبي وفشلنا، فهو يتضمن ٢٧ لغة، منظومته الثقافية متشظية ومنظومتها متماسكة، ألا يهدد اللغة الفرنسية خطر الذوبان بالإنكليزية؟ ألم تتحد دول شرق آسيا وتكون سوقاً تجارياً واحداً بعد أن تقدمت بثورتها الصناعية، وناهست في تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا.

الأتمتة اللغة والتاريخ والأصالة؟ ألا توفر لنا تكنولوجيا المعلومات ووسائل الاتصال وسائل إمكانات تحقيقه؟ فلا بد من التصدي لمحاولات تقويض الهوية العربية وأمتلاك الإرادة السياسية. وهذا يتطلب التالي:

- زيادة المواصلات والاتصالات بين البلدان العربية.
- التعاون الإعلامي والتربوي وبناء النموذج الإرشادي الموحد لدى العرب.
- وضع الأسس القومية والمحافظة على الهوية لغة وإعلاماً وتربية ومواجهة التشتت والفتن.

- بناء البنى التحتية التي ينشدها المشروع العربي.

- التركيز على المعلومات والمعرفة بأنواعها.

- العمل من أجل خلق بيئة إبداعية.

والسؤال المحير: كيف نفهم العالم الذي نعيش فيه حتى نفهم أنفسنا؟
والأهم: كيف لنا أن نتصالح مع التنوع بيننا ونحن نبحث عن وجه لكل الواتنا
وأطيانا؟

- إننا بعد قرن من الزمان أويزيد، ونحن نبحث عن هوية ثقافية، جرت
انقلابات وحرقنا المسافات، ومازلنا عند النقطة نفسها، فهل كنا نبحث عن
ثقافة لا وجود لها؟ أم تعريفنا للثقافة كان تعريفاً متعسفاً يبحث عن هوية
ذات قالبٍ أوحده؟ وهل كان يتجاهل تنوع الماضي وتنوع الجغرافيا وتنوع
الآصول وتنوع تفاصيل الحياة اليومية؟ لقد كانت الثقافة وما زالت فكرة
علمية راسخة وأعدة بلا حدود، فهي من حيث الأهمية كالجاذبية بالنسبة إلى
الفيزياء والمرض بالنسبة للطب، وبالتطور بالنسبة إلى البيولوجيا.

• العناصر الداخلية لمنظومة الثقافة الغربية،

تتضمن العناصر الداخلية للثقافة إلى جانب القيم والمعتقدات: الفكر
الثقافي، واللغة والتربية والإعلام والإبداع فالثقافة هي كما حددها المنظمة
العربية للتربية والثقافة والعلوم (١٩٩٦) تراثاً قومياً إبداعياً وأكدت على علاقة
الثقافة بالفتات الاجتماعية وتكاملها مع التربية والإعلام والاتصال.

١ - الفكر الثقافي: لقد نشطت كثيراً جهود التنظير الثقافي في أواخر
القرن الماضي لاستيعاب الظواهر المستجدة لمجتمع المعلومات الذي انتشر بين
ظهرانينا، وهنا نضع قائمة العلوم والنظريات والخبرات التي أسس عليها
التنظير الثقافي الغربي المعاصر على النحو التالي: فلسفة العلم - فلسفة اللغة
- فلسفة التاريخ - الرمزية - اللسانيات - سوسيولوجيا المعرفة -
سوسيولوجيا العلم - سوسيولوجيا الثقافة - هندسة النظم - الإحصاء
الثقافي - تخطيط المدن - ديناميات الجماعة - علم النفس - علم الاجتماع
- علم القراءة - علم البيئة - الاناسة الرمزية (الأنثروبولوجيا) - الجغرافيا
الثقافية - علم اللاهوت - علم العرقيات (الأنثروبوجرافيا) - الاقتصاد
السياسي - اقتصاد المساكرو والمساكرو - الاقتصاد الاجتماعي - علم
الاستشراف - نظرية النقد - نظرية التطور - نظرية الجمال - نظرية

المعلومات - نظرية الأدب - نظرية المصدر - نظرية الاعتماد - نظرية الاتصالات - نظرية النظم الاجتماعية - نظرية التربية - نظرية السياسة
نظرية السيطرة. ويضاف إليها تكنولوجيا المعلومات والهندسة الوراثية. وعلوم
الفقه والدين لما للدين من أهمية في صياغة عقولنا وبخاصة نحن العرب.

ب - لغة الثقافة: والمقصود بها لغة وصف الثقافة، وتشمل المصطلحات
العلمية التالية: - الاتصال الثقافي - الاحتواء الثقافي - الامتصاص الثقافي -
التقاطع الثقافي - التسمية الثقافية - الحتمية الثقافية - اجتماعية المعرفة -
ازدواجية اللغة - والتاريخ الكمي - الداروينية الاجتماعية وكلها ذات صلة
بتكنولوجيا المعلومات وثقافتها كما تشمل: لغة القنون - الموسيقى - التشكيل
- الشعر - لغة الأدب - لغة المسرح - لغة الأداء الحركي - لغة المعمار. وكان
من أهم نتائج تطبيق تكنولوجيا المعلومات في مجال الإبداع، خاصة تطبيق
الوسائط المتعددة، إبراز القواسم المشتركة بين لغات الإبداع في إطار علم
الرمزية.

ج - تربية الثقافة: أصبحت الثقافة علماً مستقلاً بنفسها وصناعة قائمة
بذاتها وزاد الحاجة إليها تنامي ظاهرة العولمة، وما صاحبها من تداخل أمور
الثقافة في أمور الاقتصاد والسياسة وهي تركز على توعية الفرد بالجوانب
الاجتماعية للتنمية المعلوماتية، ودور القوى الرمزية في أداء المنظومة
المجتمعية ككل، وأن يلتم بالفكر الثقافي المقارن ومناهجه، وما تمنيه مفاهيم
الأنثروبولوجيا فيما يخص الثقافة النسبية، ومنظومة القيم والقضايا المتعلقة
بعولمة الثقافة فيما يخص حقوق الإنسان والأقليات وانقراض اللغات، بجانب
الخلفية النظرية، يجب على المهني الثقافي في زمن العولمة، أن يمتحن مهارة
التفاوض والحوار من قرب وعن بعد عبر الإنترنت.

د - إعلام الثقافة: يغطي هذا الفرع الأمور المتعلقة بالثقافة العلمية
والمعلوماتية والثقافة اللغوية والثقافة الدينية وثقافة الفنون والتراث. كما
يحظى إعلام الثقافة باهتمام كبير من وسائل الإعلام. وتوفر تكنولوجيا
الوسائط المتعددة وسائل عدة لجعل الرسالة الإعلامية أكثر وقعاً وأشمل، فلم
يعد كافياً أن تُعرض روائع تراث ثقافة ما، دون طرحها في سياقها التاريخي

وأبرز صلتها بالحضارة الإنسانية، وإمكانيات مزجها مع تراث الثقافات الأخرى.

هـ - قيم الثقافة: إن ثقافة المعلومات وأهمها الحرية الثقافية، والمقصود هنا حرية الجماعات، أن تختار ثقافتها، وأن تحدد هويتها طبقاً لما تراه ملائماً لها ولتاريخها. وتتولد عن هذه القيمة قيم أخرى مثل: احترام ثقافة الغير، وعدم إصدار أحكام قيمية على هذه الثقافات، والحفاظ على التنوع الثقافي، وإشاعة قيم التسامح الثقافي.

و - إبداع الثقافة: ويقصد بإبداع الفكر الثقافي ذاته، أن أظهر لنا عصر المعلومات عن حاجتنا إلى هذا النوع من الإبداع ويشمل التالي: - استحضار تنظير ثقافي جديد، قادر على التعامل مع المتغيرات في عصر المعلومات.

- ابتكار مناهج جديدة في المزج بين الثقافات فكرياً - إبداعها - قيمها - لغتها، وكذلك فيما يخص حوار الأديان والمقارنة بين اللغات العالمية.

- كيفية بحث الحياة في التراث الثقافي لمساهمة في معترك الحياة المعاصرة وإعادة كتابة التاريخ الإنساني بتكنولوجيا المعلومات، وبخاصة الحداثي منها والوسائط المتعددة وهناك من يقول إن الإنترنت ستزيد من الإبداع عبر الإبحار اللامحدود في فضاء المعلومات، وتوفير وسائل التعلم الذاتي يساعد على نمو التفكير المنطقي والمنهجي، وتنمية القدرات الذهنية وخاصة من خلال التعامل مع النظم الآلية والبرمجيات، وهناك من يقول إن الإنترنت ستحيل الإبداع إلى نوع من الاجترار الذاتي، ليصبح الأدب وثائقياً، والتشكيل، كولاج (قص ولصق) والموسيقى، إلى مزج من الإلكتروني ويصبح إبحار العرض واستغلال إمكانات وسيط الإعلام عوضاً عن مضمون الرسالة، التي ينقلها تحقيقاً لمقولة (الوسيط هو الرسالة) التي أطلقها (مارشال مكلوهان) رائد التنظير الإعلامي.

المكونات الداخلية لنظومة ثقافة المعلومات العربية:

أ- الفكر الثقافي: حاول مفكرون عرب التنظير لثقافتنا لاستيعاب الظواهر المستجدة لمجتمع المعلومات، ولكن الصراعات السياسية حالت دون

تحقيق مآربهم، وفكرنا الثقافة يدور حول نفسه، كهر يلحن مبرداً يستطيع مذاق دمه، وي طرح على نفسه أسئلة قديمة جديدة: ما الأصالة؟ ما المعاصرة؟ ماذا وصلنا من الماضي؟ (عصام الحفاجي ١٩٩٩) هل الأرض تدور حول الشمس؟ ما التطور؟ أسئلة عقيمة لا تنتج شيئاً. ولكن ماذا لو دمجتنا أصالة الهوية بحياتنا اليومية؟ ماذا لو استجذت الثقافة بالعلم؟ ماذا لو استعنا بالعقل على حل مشكلاتنا؟ من يقبل منا أن نقف تائهين بين الماضي والحاضر غافلين عن المستقبل؟ عندها نصبح بلا تاريخ ولا أمل ولا أحلام. من يقف حيادياً إذا تهدد مستقبله ووطنه؟ وهذه اليابان ترفض اللغة اللاتينية عندما فرضها عليها المحتل الأمريكي عقب الحرب العالمية الثانية، وهي اليوم رائدة العصر بالتكنولوجيا. نعم استسلمت اليابان ولم تستسلم لغتها، وفي إحدى الحروب الأوروبية سقطت إحدى الجبهات المقاتلة، وتوقف إطلاق النار بين الطرفين، ولكن استمر أحد المواقع بإطلاق النار حتى نفذت ذخيرته، فأرسل قائد الجبهة مسلحين وأتوا بذلك المقاتل حياً، فسأله: لماذا تطلق النار وقد سكنت كل النيران؟ فأخرج من جيبه ورقة مكتوباً عليها بلفته رفعها أمام وجهه قائلاً: أقاتل من أجل هذا، إنها لفتي. الثقافة مشحونة بالمحاطة لأنها تكامل المجتمع ولها مكانتها. والفرد في المجتمع الحي يطور قدراته، يثقف ذاته باستمرار، والدين يعطي معنى للحياة ويقدم إطاراً للثقافة، ويحمي البشرية من اليأس، ومن مهمة الثقافة أن تمنح معنى وغاية للحياة؛ وبالثقافة وحدها تستحق الحياة أن تعاش. ونحن أينما ذهبنا في دول شرق آسيا تطالعنا: تماثيل بوذا وتعاليم كونفوشيوس. وهذا منظرنا القدير (عبد الصادق الفاسي الفهري): يجمع بين آخر ما وصل إليه علم اللغة وخصائص لغتنا العربية. ألم ينجح باحثو المغرب العربي في علم الخطاب وأقرانهم المصريين أن يطوعوا علم النص لما تتطلبه نصوصنا؟

ألم يثبت المترجمون في سوريا جدارتهم في الترجمة في جميع فروع المعرفة؟ ألم يثبت الطبيب السوري اقتداره في الاختصاصات جميعها. وثقافتنا مدعوة اليوم للتجاوز مع نقيضها بغية المراجعة والبحث عن روافد جديدة تختلط بها،

عندها تخلق أسلوباً جديداً لحياة المجتمع ككل، وباختصار شديد تتضمن الثقافة كل الأنشطة والاهتمامات المميزة لشعبنا العربي، وهذا هو الغرب ينبش ويبحث في تراث الماركسية رغم سقوطها المدوي، لماذا لا نتعامل مع فكرنا الفقيض النابع منا أو من عند غيرنا؟ لماذا أهملنا المدارس الفكرية الغربية وجعلناها في قائمة المحرمات؟ وبينما الغرب يستفيد من تجاربه ومن تراكماته العلمية لخلق منظومة اجتماعية إنسانية حديثة، تتكيف مع العصر الجديد، نشكو من غيبوبة، تمنعنا من إضافة مضامين جديدة، تنتزعها من حاضرنا لنضيفها على ماضي تولى. واليوم نريد فكراً ناهذاً متسامياً يعزز الإبداع الثقافي، وهذا يتطلب ضبط النفس وتحريرها من شهواتها. وما العقل إلا كالأرض البور، إذا لم تعدها للزراعة وتصلحها نبتت فيها الأعشاب الضارة وسكنتها الحيوانات المفترسة، أما إذا أعدتها واستقبلتها جيداً تغيرت طبيعة الأرض، عندها كل بذرة تضعها فيها ستنمو، فهل ندع ثقافتنا يتفسخ جسدها ويتعفن تحت ناظرينا؟، إذا لندعو الطبيب المختص قبل فوات الأوان، أليست هي الماء الذي يروي منظومتنا الاجتماعية؟ هل تصلبت شرابيتها أم أصيبت بخثرة دموية نتيجة الأعمال الجراحية المعقدة؟ ألم يدعي الأمريكي أثناء قصف العراق بأنه يقوم بعمليات جراحية معقدة ليشفي العراق من أمراضه المزمنة. لماذا لا تتمدد الرؤى وتتداخل التخصصات لدينا؟ لماذا لا نمزج بين المناهج الفكرية والخبرات والمعارف؟ ألسنا بمقادرين أن نرقى بخطابنا الثقافي من النص الأدبي إلى مناهج البحث العلمي المنضبطة؟

ب - لغة ثقافتنا: إن ثقافتنا تشكو نقص في المصطلحات والمفاهيم الأساسية، وقد أغنى روادنا الكبار أمثال: (ادوارد سعيد ومحمد عابد الجابري وعبد الرحمن بدوي ومحمد أركون) لغتنا بمصطلحات ومفاهيم تميل إلى الشمولية والدقة، لغتنا هي كياننا الحي، بها نعيش، وعليها نثري، ومعها نسافر في رحلة الوجود، نأكل بها وتلبس بها نفرح ونحزن بها، نحب ونكره ونعشق بها أيضاً، وعبقرية العربي تتجلى في لغته المكتسبة بالأمومة، لكن تكريس اللهجة المحلية حاملة للرسالة الثقافية بدلاً عن اللغة القومية

هو الانتحار الجماعي على عتبات التاريخ. ولو فعل أحدنا ذلك أو طلب منا برهاناً، نحيله إلى تجارب الأمم، وعلى مواقف سائر الشعوب وعلى قرارات جميع الأنظمة، ووعينا بلغتنا كسلاح حضاري بأيدينا، فإذا زهدنا فيه انقلب ضدنا، وغدا الرامي مرمياً، والقناص فريسة. وهذا يستوجب دق ناقوس الخطر وإطلاق صفارة الإنذار، وتشغيل الأضواء الكاشفة. أما بالنسبة للغة الإبداع ما زلنا بعيدين عنها لتخلفنا في جميع المجالات، وعلى وجه الخصوص القانون، وهنا يبرز (حمصام الدين زكريا) المهندس البحري، ليقدم إلى المكتبة العربية أول معجم لمصطلحات الموسيقى العالمية ومفاهيمها وأعلامها ويوثق تراثنا مع تراث الآخرين.

ج - تربية ثقافتنا: تحتاج المؤسسات الثقافية العربية إلى تطوير في كل المجالات الرسمية والشعبية، لتصبح قادرة على الحوار مع الثقافات الأخرى، وهذا يتطلب إعداد الكوادر والمناهج الحديثة والتركيز على مناهج التفكير والخروج عن النمطية المتخلفة، وإدراج علوم جديدة وفروع حديثة للمعرفة وثقافة المعلومات ضمن مناهج الدراسات العليا في الفلسفة والإعلام وعلم الاجتماع. ولا ضرر في ذلك، فقد كانت الشعوب وما زالت تقتبس من بعضها البعض، وليس من مجتمع يتطور في عزلة، بل كان يتأثر في تطوره بالشعوب والثقافات الأخرى وعلى مستوى التكنولوجيا، ليست تربية الثقافة تعالياً معيناً من الحياة، ولا ولماً مرضياً بالماضي، ولا اهتماماً بالأسلوب بدلاً من الجوهر.

د - الإعلام ثقافتنا: يبدي إعلامنا اهتماماً ملحوظاً بالثقافة سواء منها المرئي أو المسموع والمقروء، لكنه لم يركز بعد على المعرفة بأنواعها، ولا على ثقافة المعلومات، مجرد أحاديث إذاعية ومقالات أو ندوات يتناولون فيها القضايا بطريقة فجّة وخاطئة، ووسائل الإعلام هذه أصبحت أداة لتسطيح الفكر ونشر الأفكار البسيطة، وتعوزها العمق والجذبة والإحاطة ولا تترك أثراً يذكر في نفوس المشاهدين، وسرعان ما تنسى لأنها منزوعة من سياقها، تخضع لألاعب اللغة والتضليل، ولا تترك أثراً في حياة المجتمع، ونشرات

الأخبار أصبحت (للحقن) وألبرامج التلفزيونية يتوسلون بها الهجوم الشخصي، دون التعاون لإخراج فكرة مفيدة لمجتمعاتنا العربية.

هـ - قيم ثقافتنا: مما لا شك فيه أن الحرية الثقافية تختلف عن الحرية الفردية، فهي تخص الجماعة، ولا وجود للحرية الثقافية دون الحرية الفردية، وحرمان الإنسان العربي من حريته يعني حرمانه من حقوقه في التصدي لكل معتد آثم. بالثقافة وحدها يجد العربي هدفاً للحياة ويشعر بهويته من خلال استيعاب قيم ثقافته لتصبح قيماً إنسانية خاصة به، ولا حرية ثقافية في غيبة حرية أعضائها. وهل نفهم ثقافتنا من خلال نظرة المجتمع أم المجتمع يفهم بطريقة أفضل من خلال منظومة ثقافته؟

وتاريخنا يُنبئنا أن من قيم ثقافتنا احترام ثقافة الغير، ویمنعنا من تقييم أو اختزال ثقافة الآخر ويحضننا على إشاعة قيم التسامح الثقافي، فالثقافات ممتزجة مع بعضها تلبى حاجات الإنسان الطبيعية، فيما يخص حوار الأديان وليس صراع الحضارات، والتنوع الثقافي بدلاً من ثقافة سيدة مستبدة، هدفها كسب المال بالحد الأدنى من الجهد.

ثقافتنا على الإنترنت،

١ - ملامح الصورة البارزة: لا يمكن أن تكون صورة ثقافتنا العربية على الإنترنت، إلا صورة عن المشهد الثقافي الذي يسيطر على الوطن العربي بأزماته وحواراته، وهذا لا ينفصل عن المشهد الاقتصادي والسياسي وعن أحوالنا الداخلية، فهي مرآة كاشفة عن حيوية الشعوب، ونشاطاتها العلمية والثقافية، ولا ينشأ هذا من فراغ، فلا بد أن تتوافر لها البنى التحتية، القدرة على إنتاجها وإدامة تحديثها وما هي إلا أداة لطرح نتائج الفكر، وأنشطة المؤسسات العلمية والثقافية، وحصاد المؤتمرات والتدورات ومناهج الدراسات والبحوث. تظهر همة أفرادها وواقع ظروفها وخطابها الذي يتفاعل بداخلها، إذاً لا بد من مداومة تحديثها ورصد وتحليل ما يقوم به الآخر: الموالى والمعادى، المتقدم والنامي، ونحن نملك الإمكانيات الكافية لتحسين أدائها. ولا نقول أن خطتنا يجب أن تنتظر حتى تتوافر البنى التحتية والظروف

الاجتماعية المواتية، فهي عملية دائمة ومستمرة، ولدينا بطبيعة الحال إمكانات لتحسين الصورة بشكل جيد، ويمكن تلخيصها بالتالي:

- غياب عنصر التنسيق والمشاركة.

- مشهد حزين لثقافتنا العربية ناتج عن تقاعسنا وتكاسلنا أكثر مما يقوم به الآخرون لطمس جهودنا.

- تساهم في تشكيل ثقافتنا فرق متنوعة تختلف طبيعة أهدافها ورسالتها بصورة كبيرة.

- أبرزها مؤسسات الصحف والإعلام الرسمية العربية، وغرف التجارة ومواقع مجلات العربية، منافذ بيع الكتب العربية، وأشرطة الكاسيت والفيديو والموسيقى العربية، أقسام الإذاعات العربية في الإذاعات الأجنبية أقسام الدراسات واللغات الشرقية الآسيوية والإفريقية واللاهوتية بالجامعات الأمريكية والأوروبية، مواقع اتحاد الطلبة العرب بالجامعات الأمريكية، أفراد مسلمون غيرون على دينهم ينشرون مبادئ الإسلام. (نبيل علي، الشارقة ١٩٩٨) - تطنى الأمور المتعلقة بالعقيدة ونظام القيم وبخاصة الأوضاع المتعلقة بوضع المرأة في الإسلام، على كل النواحي الأخرى وباستثناء فنون الزخرفة والعمارة تظل غائبة تلك النواحي المجهولة والمهملة من ثقافتنا وحضارتنا، كالموسيقى والشعر والأدب والسينما والمصرح واللفة والتراث الشعبي والحرف، ويتركز معظم الحديث في تناول إسهاماتنا الثقافية والحضارية على الماضي وإغفال شبه تام على الحاضر.

- ما يُجعل في خطابنا على الإنترنت انعزالية معرفتنا التاريخية، فهي تنأى عن الدراسات التقابلية الجادة منطوية على ذاتها، لا تطرح قضايا في سياقات ثقافية وحضارية وإنسانية أوسع. هذا عن المضمون، أما عن أساليب عرضه فتتسم بالبدائية وعدم استغلال الإمكانيات العديدة التي تتيحها ثقافة الإنترنت.

- يتصف نشاطنا الثقافي على الإنترنت بطابع رد الفعل والانفعالية وتعوزه مهارات الحوار، ومناورات التفاوض وكله يتجاهل نوعية المتلقي.

- خطابنا الثقلي الديني ذو طابع صدامي.

- كثيراً ما يتناقض خطابنا الثقافي مع نفسه ليس لغياب التنسيق بل بسبب نقل البعض منا خلافتهم الداخلية إلى الساحة العلمية للجدل.

- غالبية اللغة على الإنترنت باللغة الإنكليزية، وكثيراً ما تعد أو تترجم من مصادر عربية من قبل بعض العرب المسلمين المهاجرين، وهؤلاء على الرغم مما لديهم من فهم عميق لعقيدة المتلقي الغربي، يعوزهم الفهم العميق والنظرة الشمولية لتجديد الخطاب الثقافي العربي، وليسوء الحظ مازالت معظم المحاولات الجادة لتجديد الثقافة العربية، حبيسة اللغة العربية، لضعف الترجمة من العربية إلى الإنكليزية، ومما يدمي القلب أن غالبية العرب الجادين مازالت صلتهم بالإنترنت ضعيفة. مقارنة بصورة العدو الإسرائيلي على الإنترنت.

- رصد العدو الإسرائيلي على الإنترنت: كما يجب علينا أن نرصد النشاط الإسرائيلي في جميع المجالات، ونحشد كل جهد عربي وقومي على مستوى التخطيط أو التنفيذ أو التقويم. وهذا الرصد يضاهي الشأن الأمني أو يفوقه، لأن إسرائيل تعمل على تشكيل صورة للثقافة اليهودية، تقوم بها مراكز بحوث مسيونية داخل إسرائيل وخارجها بالجامعات الأمريكية والأوروبية ومواقع الجاليات اليهودية في جميع أنحاء العالم واتحاد طلبة الصهاينة - ومواقع المعابد اليهودية في العالم وبعض مواقع الكنائس المسيحية داعية إلى حسم الخلافات بين المسيحية واليهودية. بينما نحن المسلمين لا ننسى بعض الإشكالات البسيطة القديمة، والتي مازالت كرهة من نارٍ نتقاذها بين بعضنا.

- يقطعي الخطاب الثقافي اليهودي خلال الإنترنت عناصر منظومتنا الحضارة والثقافة: من الفلسفة إلى الفولكلور ومن نظرية الأدب إلى قصص الأطفال، ومن معالم التراث الثابت إلى أيقونات المعابد ومن التاريخ إلى سحيقه وقديمه وحديثه إلى قضايا الحاضر، من شعر الجاهلية عند العرب إلى شعراء اليهود في إسبانيا ومن النواح والبكاء على ضحايا الهولوكست إلى طلب الدعم لأصدقاء الجولان، من المسكان اليهود والدعاء لهم بالخلاص من

عدوان سوري (لاغتصاب هضبة الجولان)، كما يعكس الخطاب اليهودي على الإنترنت الاهتمام الشديد بكل المراحل العمرية، والمشكلات الصحية لكبار السن إلى الأزمات النفسية إلى المطالب التربوية لأطفال الروضة ورعاية الشباب، وتظهر الصورة بوضوح بين مواقع بحث وتبادل معلومات الثقافة اليهودية عبر الإنترنت وهذا يدل على أن هناك إستراتيجية متكاملة يجري تنفيذها بدقة وتوزع من خلالها الأدوار.

- يتعاشى الخطاب الديني اليهودي المواجهة مع تظيره المسيحي، وهو يتحالف معه وينسق ضد التيار الإسلامي، ويتجنب نقاط الاختلاف، ويركز على عقلية المتلقي المسيحي وحدود معرفته، والمواضع الحساسة في عقله ووجدانه، والحوار المسيحي اليهودي ذو أهداف عملية، متعددة، فهو يسعى إلى انتزاع شوكة الخلاف، ويضغط على الكنيسة الكاثوليكية لإدخال تعديلات في التاريخ المسيحي لخدمة الإستراتيجية اليهودية.

- حشد التأييد الشعبي لليهود وقضاياهم، وذلك بإقحام العنصر اليهودي بالقوة في معظم الأمور لتعطي بالتعاطف العالمي. وكل ممارسة إنسانية ضد حقوق الإنسان يختلق لها شقها الخاص بمعاداة السامية، وهذا اللوبي الصهيوني يقوم بعملية حادة لتكثيف العداء ضد الإسلام والمسلمين، والربط بين الإسلام ومشاكل العصر، وكل ما هو سيئ ومرهوس يرجعونه للإسلام.

- تسعى إسرائيل إلى تحسين صورتها الثقافية على أنها (موازيك من الأفكار والثقافات واللغات)، وتقول أنها تجمع بين القديم (القدس) والجديد (تل أبيب) وبين صحراء النقب والوادي الخصيب في أرض الجليل، كما تجمع بين روحانيات الشرق وثقافة الغرب، وتزعم أنها مهد الحضارات وصاحبة التاريخ.

(علاقة ثقافتنا العربية بالزمن: يقول أرسطو: (لا بد من مسة جنون في عقل المفكر).

الزمن هو واحدة من أهم المشاكل التي تواجه الوجود الإنساني، وحركة الإنسان تتجه نحو المستقبل، ويشكل التغير الاجتماعي المسار الوحيد والثابت

في موقف الإنسان من الزمن، باندفاعه نحو المستقبل بلا حدود، ومن هنا يجري تصنيف الشعوب: تقليدية - معاصرة - حديثة.

فالتقليدية: تعيش في كهوف الماضي. أما الحديثة: فتعيش اللحظات الآنية التي تقتضي الإبداع والمبادرة والمغامرة، نحو آفاق وأعماق المستقبل. أما في المجتمعات التقليدية فالتغيير هو تهديد للأمن والاستقرار، وهذا يضمن الحماية الذاتية ضد كل ما يهدد وجودها، يساعدها على التكيف مع ثقافتها.

التغيير والديناميكية سمة المجتمع الحديث، والجمود قانون ثابت لدى المجتمعات التقليدية، وهنا نحن أمام ثقافتين: إحداهما حديثة تقبل التحدي والمجابهة، مرنة توليدية تلبي طموحات مريديها، والثانية لا روابط بين عناصرها، وتخاف الفقد وتمجد الماضي (عزالدين دياب ١٩٨١)، وحيث يزحف الماضي إلى الحاضر ويعيد إنتاج نفسه في المستقبل في المجتمعات التقليدية الجامدة، (ويقول الإنجيل: تكون الحكمة مع القديم) (آلفين توفلر ١٩٩٠)، وهذه ثقافة تنتمي إلى مرحلة سابقة يعيش فيه السحر والشموذة وأخذ الحذر من كل تطور وإبداع، والموقف من الزمن له أهميته في تاريخ الحضارات، حيث يشكل معادلة صعبة تواجه الأمم والشعوب في طريق حضارتها ولتقدمها، والتحرر من الزمن الماضي وسجونه الجهنمية يشكل بداية الخلاص والانطلاق إلى النهضة الحضارية، وثقافتنا تقدس الماضي الزاحف إلى الحاضر والمستقبل، وهذا يعني توقف التعليم والإبداع والتعلم وجموده هو الآخر، ولا نتحرر من قيود الماضي وخرافاته إلا بالتربية والتعليم، والفرد لا ينظر إلى نفسه والعالم إلا من خلال ثقافته، وعندما تتجمد هذه الثقافة ولا تتجدد تضمحل وتموت، وتحوّل بالتالي بين الفرد وبين إدراكه لذاته وغيره، وهناك صلة بين تجدد الفرد وتجدد المجتمع فكل منهما يجدد الآخر، (عبد الله عبد الدايم ١٩٩٨) وإليك حادتين تعبران عن الثبات والتغيير: الأولى يرويها (آلان توفلر) فيقول: (إن فتاة أمريكية راحت تبحث عن محل تجاري لبيع الحلويات كانت قد مرت به منذ يومين، وهو قريب من منزلها، وبعد طول عناء لم تستطع العثور عليه، فعادت وهي تبكي وتقول لأُمها: هدم المحل

التجاري واستبدل مكانه. والحقيقة لم تكن كذلك، فالفتاة قد تاهت عن المكان. أما الحادثة الثانية: فقد حدث لأحد الطلاب العرب في فرنسا، كان أثناء إقامته يتردد على مكان تباع فيه السيارات القديمة وكان المكان واسعاً. وبعد فترة من الانقطاع عنه، زاره مرة ثانية تحت ضغط الحاجة، وكان على معرفة ودراية جيدة بالمكان، إلا أنه لم يهتد إليه وأنه بالأصل ينتمي إلى ثقافة تقليدية، فسر الأمر بأنه قد تاه عن المكان الحقيقي، وتوجب عليه أن يسأل عنه من جديد، وأخيراً تبين لديه أنه لم يكن تائهاً عن المكان بل حدثت تفسيرات بنائية في المكان أدت إلى ظهور مبان جديدة. فلو كانت الفتاة الأمريكية مكان الطالب العربي لأدركت بسرعة أن التغير السريع هو علة غياب المكان، هذه نبضة في نمطية التفكير النمطي المتخلف.

وفي ما يلي يقدم لنا الدكتور (فؤاد زكريا) تحليلاً لواقع الثقافة العربية، ويضع لها وجهين، الأول: عجز الواقع عن اللحاق بالفكر حيث يكون الفكر متقدماً والواقع جامداً. أما الوجه الآخر: في أن يكون الواقع متطوراً أكثر من الفكر، وهذا ما يحصل في المجتمعات المتقدمة حيث يكون الفكر عاجزاً عن مواكبة التطور. أما أزمة ثقافتنا ليست هنا أو هناك إنها متكلسة (فؤاد زكريا خطاب العقل العربي ١٩٨٧). وبهذا يريد أنصار الثقافة المنغلقة عقلاً مخدراً نائماً مستلقياً، لا يسأل، معلوماً، وهم يريدون أن يقولوا لا نريد عقلاً لأنه ليس مطلوباً ولا مرغوباً لدينا، لأن ثقافتهم هابطة (المرجع السابق) يلونون ويشكلون واقعهم على مقاسهم، الماضي محنط لديهم وهم في داخله، (المرجع السابق) وقد قال أحد النقاد إننا نعيش بين سندان ثقافتنا ومطرقة العالم المعاصر وحركته السريعة. (تركي الحمد، ١٩٩٣) «العالم يتحول من حولنا وأمام أعيننا، ويقدم سيناريوهات تحول المستقبل متغيرة، ونحن أسرى البتنة الكبرى: صفين وكربلاء وحطين وعين جالوت (نفس المصدر السابق). العالم ينحدث عن المستقبل ونحن نجتر الماضي. وتنقسم حوله فتنة كبرى لا وجود لها إلا في ذهن من خان شرفه وكرامته لقاء مكاسب شخصية، فنحن أمة تنتمي إلى الماضي ذهنياً وتعيش في الحاضر مادياً ونريد السيطرة على

المستقبل أملاً وحلماً، دون أن نمتلك مفاتيح المستقبل فكيف يكون ذلك؟
(نفس المصدر) ألم تستقد أوروبا من التقدم العلمي الذي حققته الحضارة
العربية الإسلامية في إسبانيا في وقت كانت تعاني فيه أوروبا من التخلف،
فالاستعمار جاء نتيجة للتخلف العلمي الذي كان عليه العالم العربي وليس
سبباً لذلك التخلف، وهذا لا يبرئه في حرصه على استمراره لترسيخ التخلف
وتعميقه له، لأنه يخدم مصالحه، وكل هذا يعود إلى عوامل داخلية وخارجية
مناوئة لإحراز أي تقدم علمي، وقد تكون العوامل الداخلية أكثر فداحة.
ولكننا جميعاً: نميل إلى تحميل الخارج كل المساوئ لتبرئة أنفسنا - ونجد
الإنسان العربي يهتم بالبحث عن الأسباب والعلل - يعني بما هو ملموس
ومحسوس من الأشياء، بينما الفكر العربي:

- يرد الظواهر التي يعجز عن تفسيرها إلى أسباب غيبية أو إعجازية
هائكة للطبيعة.

- وهناك شبه إجماع من العلماء أن المجتمع العربي منذ سقوط بغداد بيد
التتار والمغول، دخل حالة سبات سريري.

- إن ظاهرة المحافظة ورفض التغيير والتجديد، هذا هو الورم الخبيث
الذي يجب اجتثاثه من جذوره لأنه يحمل جانباً قدسياً أو ضريباً نشوياً من
الماضي (عبد الله عبد الدايم. ١٩٩١). ويشهد (علي حرب) على معاناة
جمودنا الثقافي فيقول: ((إننا نقيس كل شيء على النص - الحياة - ولواقع
والفكر والعمل والحاضر والمستقبل. إن التحرر من النص شرط لقراءته قراءة
جديدة مغايرة وخلاقة، وشرط لاكتشاف الواقع، وباختصار شديد لا سبيل
إلى الإبداع ما دمنا نتعامل مع النص كأداة للعبادة. وكل من يعطي الأولوية
لنص على الحياة والمحافظة على التجديد يسيء إلى الحياة والنص معاً. فهل
ثقافتنا قاصرة عن مواكبة التكنولوجيا المتقدمة وبالتالي عاجزة عن التواصل
مع قيمها؟ وهنا نستطيع أن نقول أن ثقافتنا: تعاني من أزمة قيمية، فالقيم
العربية: (مزيج غريب من قيم الحضارة الزراعية وقيم البداوة، وقيم من
عصر الانحطاط، وقيم الاستهلاك التي يصدرها الغرب إلينا) (نطونيوس

كرم. عالم المعرفة. ١٩٨٢) ثم يستطرد الباحث قائلاً: (إنَّ العرب غير قادرين على الانصهار في حضارة العصر، لأنهم يحلمون بالحصول على انجازات العلم والتكنولوجيا بعيداً عن النظام القيمي، الذي يسمح بتطويرها، وأن العرب غير قادرين على تقديم البديل لأنهم يرفضون منطلق العصر ويدعون إلى منطلق الماضي، (نفس المصدر السابق).

والتطور التكنولوجي يجعلنا نقرب من حالة فريدة:

- لن يمر بها الجنس البشري.

- ويستحيل أن تبقى بعدها أمور البشر على ما كانت عليه، عندما يتم صناعة متاهية الصفر (القانو تكنولوجي).

- سوف يتم القضاء على كافة الأمراض والقلب على عملية الشيخوخة ذاتها.

- سيتميز الإنسان بقدرته على التغير السريع وتوسيع آفاقه إلى مجالات غير محدودة.

- ويدور الآن جدلٌ طويلٌ حول احتمال أن يصبح القرن الحادي والعشرون بالنسبة للأجيال القادمة مجرد مرحلة من التطور في حياة المجتمع، تماثل ظهور الحياة على سطح الأرض، نتيجة التقدم التكنولوجي الذي لن تحده الحدود إنها: (الضراة.أو التفرد). ويمكن الإشارة إلى أبحاث ودراسات متنوعة:

- مبادرة عن جماعات إسلامية معظمها يتهم الثقافة العربية الإسلامية بالجمود والاجترار المقيم.

- وإلى هيمنة الأفكار البالية.

- خلافات نشأت في عصر الأنحطاط.

- وإلى سوء فهم العلاقة بين الدين والسياسة. (جميل مطر. ١٩٩٨) ويتحدث زكي نجيب محمود: (بمرارة حضارية عن إشكالية الزمن في الحياة العربية المعاصرة، وأورد أمثلة مفرجة من عمق الحياة اليومية التي عاشها وخبرها حول مسألة احترام الوقت والزمن، وهو يرجع بملاحظته هذه إلى

كتاب الاستعماري اللورد (كرومر) الموسوم بـ: (مصر الحديثة) يقول: إنه على يقين بأن مصر لن تكون ولن تتحول في أي يوم من الأيام إلى بلد صناعي وذلك لسبب عجيب: - أن الصناعة تتركز في صميمها وأساسها على دقة الوقت في حين أن المصريين تنقصهم هذه الدقة في حياتهم العقلية. ١٩٨٩ / ويتابع زكي نجيب محمود (بأننا جميعاً نعيش في القرن العشرين بكثير من مفاهيم القرن العاشر - نعيش في عصر الصناعة والعلم بمفاهيم ما قبل الصناعة والعلم - ومن هنا يأتي التمزق والتفكك والخيرة - نعيش في عالم ونفكر في عالم آخر. (نفس المرجع السابق). إذا النظرة إلى الماضي تحدد موقفها من الحاضر والمستقبل التي تصبى إلى تشكيله وتحقيقه على أرض الواقع. ولو نظرنا إلى ثقافتنا نظرة متعمقة لوجدنا مشكلة الماضي تلتهم الحاضر وتغلق أبواب المستقبل. (في هذا الزمن العربي المحدد بشروطه التاريخية زمن يجمع بين أزمنة متعددة متقاطعة متصارعة دون أن يكون أقربها إلى القرن الواحد والعشرين أكثرها تأثيراً أو حضوراً، والزمن العربي النوعي يقارب بين أقصى مظاهر التقدم، وأقصى درجات التخلف، زمن من المتناقضات المتصادمة أفقياً ورأسياً في البنية الاقتصادية والاجتماعية والدولة بكل مسمياتها (السيد يسين - الفكر العربي - والزمن - أين نحن الآن من مطلع القرن ٩ عالم الفكر، المجلد ١٦ عام ١٩٩٨). ويرد جابر عصفور على السيد يسين (الفكر العربي والزمن. أين نحن الآن من نهضة مطلع القرن ٩) قائلاً: يتنين لنا: أن الماضي يختزن كل مشاكلنا التي نعاني منها، ويشكل خزان بؤسنا الحضاري - وأن التحرر من الآخر لا يكون إلا بتحررنا من ماضينا المعطل لحياتنا وهو ما يشكل الجانب السيم). ويقول (محمد عابد الجابري في إشكاليات الفكر العربي المعاصر ١٩٨٩): إن الوجه الذي يعكس التوتر والقلق اللذين يولدهما ويفنيهما في الوعي العربي الراهن، والشعور بمساوية وضعية انفصالية تنتمي فيه الأنا إلى الماضي، بينما ينتمي فيها الحاضر إلى الآخر). (وهذا يعني أن مجتمعاتنا تعاني من حالة ازدواجية في الصميم على مختلف مستويات وجودها، تتمثل في وجود قطاعين أو

نمطين من الحياة الفكرية والمادية: أحدهما عصريٌ مستنسخٌ من النموذج الغربي وتابع له. وثانيهما تقليديُّ (أصيل)، نموذجٌ تراثيٌّ متحجرٌ متفوقٌ، وتجسد النمطين يسيران بخطين متوازيين ومتداخلين ومتنافسين في حياتنا اليومية والاقتصادية والسياسية (نفس المرجع) وأن النهضة والتقدم لا يتمان إلا من خلال العمل وبناء روح التجديد وعقل الحضارة، ولا بد لكل نهضة من ثورةٍ أبيستمولوجيةٍ في الثقافة يُمكنها من تحرير العقل العربي من الجمود والتبعية والكسل، وهذا مرهونٌ بالتحرر من الموروث الخرافي. والغرب لن يستطيع التقدم إلا بربط الثورة التكنولوجية بالثورة الثقافية. وبعد هذا كله ألم نرض بالتبعية؟ لكنها لم ترض هي بنا!!

هناكفتنا: شعرٌ يموت، ومسرحٌ يحتضر، وكتابٌ بلا قراء، وسينما بلا جمهور وأسئلةٌ معلومةٌ بالأم الجروح، لعل زهور الأمل البيضاء تنبت في شقوق الظلام، لماذا لم نأخذ بالمدارس الفكرية كالبنوية (مثلاً) إلا بعد انحسارها؟ والمفجع كيف تركنا إسرائيل تلتف حول رفضنا المعلن للتطبيع معها؟ من خلال صيغ مختلفة من التطبيع الصامت. لماذا تركنا إسرائيل تقتنص اتصالاتنا؟ وكيف نجد بيتنا من لا يزال يرى الديمقراطية وحقوق الإنسان أمراً غريباً علينا؟ لماذا هذه الخصومة بين فكرنا القومي والفكر الديني والسلفي والعلماني؟ كل ما يجري بيننا يدل على احتضار الفكر العلمي لدينا. يتمثل هذا في عناوين بعض البحوث العلمية: التي عُرِضَتْ في جامعة الأزهر حول (تفسير علمي لأحد مظاهر التسبيع في الجوامع) وآخر جاء عنوانه: (نموذج في التوجيه الإسلامي لفيزياء النسبية: الحد الأقصى للسرعة الكونية) (نربيهام كما نريد أو كما ينبغي أن يكونوا عليه في عالم شديد التنافس، (أسامة أمين الخولي ١٩٩٧ - ١٩٩٨)، فالقضايا المطروحة في ثقافتنا العربية المعاصرة شبيهة بالتي كانت تطرح في العصر الوسيط البيزنطي حيث دارت معارك حامية الوطيس بين العلماء والكهنة يتساءلون عن جنس الملائكة؟ وعن عدد الملائكة الذين يستطيعون الرقص على رأس دبوس واحد في اللحظة ذاتها؟

- ثقافة تكنولوجيا المعلومات، إن إشاعة المعرفة وإتاحة المعلومات تزيدان من هدا علية المجتمع وحيويته فتتسع مساحة الديمقراطية وحصانته ضد الاستبداد . وحتى تحقق تكنولوجيا المعلومات هذا الدور الحيوي لابد : - من تحسين واستغلال مواردها - لا يتحقق الذكاء الجمعي يتوافرها وإنما على تحديثها وتنظيمها وأرشفتها - يتوقف على إشاعة قيم مجتمع المعلومات وأخلاقياته -- لا يمكن الفصل بين التنمية والقيم الأخلاقية مثل (توزيع الدخل، والثروات، والمساواة بين الرجل والمرأة وقضايا العمل). وتشير جميع الدلائل على أن صلة تكنولوجيا المعلومات بالأخلاق ستزداد قوة واطراداً، وبخاصة بعد لقاءها مع التكنولوجيا الحيوية، ونحن بحاجة ماسة إلى أن نتخذ من الثقافة منطلقنا وليس العكس. وربما فشلت التنمية العربية السابقة لأن الثقافة لم تكن هي القائدة. هذا بالنسبة للحاضر أما بالنسبة للمستقبل: يعتبر التقدم التكنولوجي أحد الخصائص السائدة في القرن الحادي والعشرين، ويدور الآن جدلٌ حول احتمال أن يصبح القرن الواحد والعشرون نتيجة التقدم التكنولوجي الهائل في مجال الآلات الذكية المفكرة التي تتجاوز قدرات الإنسان الحالي بكثير، فالمجتمع الإنساني يسيل إلى مرحلة ونظام يختلفان عن الماضي والحاضر لدرجة أن هناك من يرى الفارق بين هذه الكائنات الذكية المفكرة وبين الإنسان الحالي، شبيه بالفارق بين هذا الإنسان وبقية الكائنات الحية. إذاً ستستمر عملية التحول والتغيير، فلن يحدّها حدٌ أو يقف بطريق تقدّمها عائقٌ، وهذا ما يحدد ملامح الغرابة والتفرد في مجالات الحياة جميعها، ويصمب فترة تحديدها، كما يصمب قياس ما سوف نشاهده من تسارع في حركة التقدم والتحول في مجال النانو تكنولوجي والبيوتكنولوجي، وما يترتب عليه من اضطرابات في أسلوب الحياة والعلاقات المصطلح عليها بين البشر من ناحية وبين الإنسان والكون بأسره من ناحية أخرى، وهذا ما يترتب عليه خروجاً عن القوانين والقواعد والمبادئ المسلم بها في العلم، وتأثيره على الجنس البشري خلال المائة سنة القادمة، سيوازي ما يحدث خلال أكثر من عشرين ألف سنة بمعدلات سرعة التغيير الحالية،

وبمعدلات حجم التقدم الذي تم إحرازه خلال القرن العشرين، وهذا سيصيب الإنسان بالذهول والصدمة، ومهما زادت سطوة التكنولوجيا يجب ألا يكون المجتمع تابعاً لها، بل يجب أن تكون هي تابعة له الملبية لمطالبه المتوائمة مع قيمه، وهي تبدو وكأنها مستقلة بذاتها منصهرة داخل الكيان الاجتماعي، ولكن التكنولوجيا غير محايدة فهي لا تتحرر من القيم التي تعمل في داخلها، فهي لا تحميّننا من سطوة السياسة وتضليل الفكر، وتكنولوجيا المعلومات تتضح بالتعريف التي وضعتها منظمة الأمم المتحدة وهو: أن التنمية لم تعد تقاس بالتقدم التكنولوجي والاقتصادي بل إن الأساس هو توسيع نطاق العلاقات والخيارات أمام القائمين بالجهد التنموي) (جابر عصفور ١٩٩٧) وهذا يعني في المحصلة أن غياب المعرفة وعمّة المعلومات سيؤديان إلى تفكك المجتمع وتفسخه، وإن أي تنمية تكنولوجية منزوعة من سياق مجتمعي وثقافته هي تنمية بلا روح، لأن الثقافة هي التي تقود ولا تُقاد، وتحطم القيود، وفي هذا الزمن يقاس التقدم بمعايير جديدة وهي استخدام الطاقة: في البداية كانت عضلات الإنسان ثم الطاقة النباتية والحيوانية إلى طاقة الموارد الطبيعية (فحم - غاز - نخل) ومن أراد التقدم في هذا العصر فليس أمامه سوى الطاقة النووية فهي معيار العصر. فالغربة حالة غير مسبقة في تاريخ الجنس البشري، والتغيرات الهائلة التي ستحصل ستطلب قدرات مماثلة لتلك التغيرات اللا محدودة، تغيرات لا تنتمي للبيئة التي ألفناها، وهي بحاجة إلى فلسفة جديدة وأخلاقيات وعلوم جديدة لا عهد للإنسانية بها. عندها نتمكن من السيطرة على الرياح وحركة الأمواج وعلى الجاذبية وستتمكن البشرية من التحكم بقوى الحب. وبذلك نتمكن من اكتشاف سر جديد للنار أي سر الحياة (أسطورة برومتيوس).

الفصل الثالث

كن حكيماً كالأرض، ولا فادفن في جوفها كل ما درست في الكتب .

منظومة الفكر الثقيلة

آلات وتوجهات فكر ثقافة المعلومات،

أ - العقل الإنساني؛ إن هذا العقل حير العلماء والفلاسفة، ولا زال هؤلاء يسعون إلى إزاحة الستار عن المخ البشري ويتساءلون كيف يعمل؟ وكيف يدرك المعاني والحقائق؟ وكيف ينظمها على شكل كبسولات؟ وكيف يقيم هياكله المعرفية؟ كيف يؤكد العبارات؟ وكيف يقيم العلاقات مع الحواس؟ وكيف يدرك حقائق الواقع؟ وكيف يتعامل معها بصورة مرنة وكيف يكتسب المعرفة الجديدة؟ وكيف يدمجها مع سابقتها؟ وكيف ينظم تلك المعرفة ويوظفها؟ وما قدرة ذاكرته على حل المسائل؟ وما مفردات أبعديته الذهنية؟

في البداية جعله (أفلاطون) كمقسم هاتف يستقبل مكالمات السماء، ويأتي (أيمانويل كانط)، ليجعله ذا قدرة ذاتية قادرة على التعامل مع المحيط ومفاهيم الوجود، ويرقى بآلة الفكر الإنساني، من كونها لوحاً أبيضاً ذا طابع تسجيبي، تتعامل مع مفاهيم الوجود الأساسية مثل: الزمان والمكان، وإدراك السبب والأثر، ويأتي (هيجل) ليجعل منه آلة للمنطق الجدلي الديناميكي، ويجعل منه (كارل بوبر) آلة ناقلة للحقيقة من المقدمة إلى النتائج (استقرائية)، ويجعله علماء التشريح والكومبيوتر كمؤسسات المجتمع حيث نرى (ميرفين مينسكي) عالم هندسة المعرفة يتصور العقل مجتمعاً مكوناً من مؤسسات ذهنية متخصصة تذكر بالنموذج البيولوجي لكل قسم منه وظيفته المتفاعلة مع الأخرى، أما أهل الذكاء الاصطناعي ولید عصر المعلومات، فيرون المخ البشري شبكة كثيفة مليئة بعناصر الذاكرة، ومعالجة المعلومات في المخ شبيهة بالآلة الذكية، تستخدم مهارات اللغة الإنسانية، إذا لم تعد ملكة

الذكاء محصورة على الإنسان بل أصبحت موجودة لدى الآلات والنظم، ومجتمع المعرفة له ذكاؤه الجمعي وذاكرته الجمعية وشبكة أعصابه (الإنترنت)، ونستطيع أن نقرن تطور الفكر الاجتماعي بتطور العقل البشري، فمرحلة الحس الفريزي يقابلها مجتمع الأسطورة، والتعامل مع المحسوسات يقابله زمن الأحجار والمعادن، ومرحلة المجردات يقابله مجتمع المعرفة، والعقل اليوم يتعامل مع الواقع بطريقة غير مباشرة عن طريق المعلومات، ولكي ندرك كيف يكتسب الطفل لغته الأم في الإطار الذهني للعالم الشهير (نعوم تشومسكي) عالم اللسانيات الكبير، وهو النموذج الذي أطاح بالنموذج السلوكي (لسكينر) للمخ البشري متبينا فرضية (جون لوك) في كونه لوحاً أبيضاً، تسجل عليه المعارف اللغوية من خلال ثنائية الاستتارة والاستجابة، أما (ديفيد هيوم) فقد جعل من العقل مسرحاً لحوار الانطباعات، والأفكار آلة لتجميع هذه الانطباعات وتلك الأفكار من عناصر أصغر شعبية بأسلوب القص واللصق - وأظهرت البحوث في علم الذكاء وعلم النفس التريوي واللغوي، ضرورة الفوص في التفاصيل الداخلية للمخ البشري وآلياته الذهنية، ويتعاون هؤلاء جميعاً في تحليل ظاهرة الذكاء وسبر أغوار المخ البشري من أجل معرفة كيف تتولد التصورات والمفاهيم كخطوة أساسية لتحديد أنسب الطرق لتقديم مواد التعليم النظرية واكتساب المهارات العملية، وكيف تختزن أركيولوجيا المخ تراث الحضارة وقد ترسبت في طبقات اللاوعي الجمعي وفقاً لتصور (كارل يونج)، ولقاء علم الوراثة بجيناته سيزيد من أهمية دراسة المخ البشري.

ب - فكسر الآلة: لقد تمازج الطبيعي بالصناعي وإليك سلة من المصطلحات: ذكاء اصطناعي - حياة صناعية - عوالم خائلية - هندسة المعرفة - تكنولوجيا اللغة - هندسة السيكلوجي - تكنولوجيا الوعي - تكنولوجيا الأعصاب، وهذا يدل أنه سيأتي يوماً يحمل الإنسان قلبه ومخه على ظهره، وتكنولوجيا المعلومات خطت خطوات واسعة لصنع آلة ذكية، تسمع وتبصر وتستنتج، تحل المسائل، تبرهن النظريات، تجرد المفاهيم، تؤلف المقالات، آلة مزودة لفهم الكلام ألياً، تتطرق صناعياً، تجاوز الإنسان، وبهذا

تكون تكنولوجيا المعلومات كسرت احتكار ملكة الذكاء، لتعيده منشوراً على الآلات والأدوات والروبوتات، والنظم والمؤسسات وهنا ظهر (مجتمع لتعلم) الذي يتسم بسرعة تكيفه ونهمه الشديد للمعرفة وقدرته على إنتاجها، وهناك شبكة انترنت لها وكيل آلي ذكي، يلتقط المعلومات ينظمها، يرشحها، ثم يعرضها على الزبائن، وتحديثا للإنترنت عن (دويلير) خائلي ينوب عن الإنسان في حضور اللقاءات عن بعد، ويشارك هذا الجسم الإلكتروني برأسه المجسم، في حوار مع الحاضرين، موجودين بالفعل أم خائليين، وسيظهر الروبوت نباحاً أكثر ذكاءً وحكمة من الذي قبله، ويتعلم ذاتياً ويدرك بحواسه الصناعية العالم من حوله، وبهذا يكون للإنسان رفيقاً جديداً يقاسمه العمل، ولكن ما المفزى الثقافي من كل هذا؟ أن تكون تكنولوجيا المعلومات قد نجحت في إعادة إنتاج سلعها من برامج وأفلام، فإنها ستعيد إنتاج العمال أنفسهم، وقد تُسخَّروا في نظم آلية وآلات ذكية، بكل ما يعنيه ذلك من إعادة صياغة علاقات الإنتاج، ومواصفات الأعمال وحساب قيمتها . وهي متعاونة مع تكنولوجيا الأعصاب ومع الهندسة الوراثية، ومتعاونة مع ما بداخل الإنسان من دماغ، وتعزيز مخه بنسيج صناعي، وتوسيع ذاكرته بشرائح الكترونية، ولا يستبعد أن يأتي دور العضلات والحواس، فهي تعلم الحيوي بالصناعي، وتمزج البشري بالآلي، إن أهل التكنولوجيا الحيوية المعلوماتية وتكنولوجيا الإثارة الحسية يريدون أن يشقوا طريقاً مباشراً إلى المخ البشري من دون وسيط من المؤثرات الخارجية، كالمناظر وانعاقير أو الصور الخائلية، وكل هذا أصبح اليوم ممكناً، ولا يحد من استخدامها إلا النوازع الأخلاقي والخوف من المجهول، حاتم بقدر ما فيه من الإثارة فيه من المخاطر، عالم تتهاوى فيه الفواصل بين الإنسان والآلة، ويتغامز ذكاء الإنسان مع ذكاء الآلة. وتبدو فيه الآلات كالبشر، وهكذا دخلت التكنولوجيا إلى عمق الأنسجة والخلايا .

• آلة الفكر وفكر الآلة العربي:

أ - تجديد العقل العربي: إن مهمة تطوير العقل العربي مهمة صعبة وشاقة للغاية سواء على المستوى الأكاديمي أو التنويري وحتى الإعلامي،

لذلك لا بد أن تتضافر كل الجهود المبذولة مع تكنولوجيا المعلومات لتعميق وتطوير الفكر الثقافي وتوطين تكنولوجيا المعلومات وتقنيات التربية الحديثة ولا بد من التالي إذا أردنا تطوير العقل العربي:

- لقد تجاوز تجديد العقل العربي كونه مطلباً ثقافياً، وأصبح مقوماً تنموياً لتأهيل المجتمعات العربية لدخول عصر المعلومات.

- (ولا مجال للإتكاف، لا توجد عدة معرفية لدى عقول نخبتنا، تكفي لبناء مجتمع المعرفة والتعلم وحوار الثقافات.

- وتكنولوجيا المعلومات تتيح لنا الوصول إلى عضول تلك المكونات الاجتماعية، كي لا تقتصر مهمتنا إلى دراسة العقل العربي العام والمجرد.

- ونحن بحاجة إلى دراسة بيئة العقل العربي وتكوينه ومطالب تجديده، إلى تحليل نتائج هذا العقل، عندها تتضح ملامح الخريطة المعرفية العربية، ولا بد من التالي:

أ - حرية الفكر والرأي والإبداع، مثلاً: هل يمكن أن تكون شجاعتك في الحرب ضد عدوك صادقة وحقيقية، إذا لم تكن لديك شجاعة الجهر بالحقيقة التي تؤمن بها، بمعنى آخر هل إذا كذبت أو جينت في حياتك الوطنية بين مواطنيك يمكن أن تكون صادقاً وشجاعاً في حريك ضد عدوك؟ على من نطرح هذا السؤال؟ - (من يفضل الأمن على الحرية لن يلبث أن يفقدهما معاً كما يقول: (بينجامن فران كلين). ونحن العرب نفضل الأمن على الحرية، نعيش منذ قرون عديدة، في ثقافة وسياسة تفضلان الأمن على الحرية، وهذا بالضبط ما يجعلنا نعيش، منذ قرون فقراء إلى الأمن والحرية في آن، فلا بد من التالي:

ب - أن نعتمد إستراتيجية ثقافية، اللغة العربية فيها ركيزة أساسية.

في اللغة التركيز يكون على شقين: - المعنى ومواقع استخدام اللغة.

- تدريب الطلبة على استخدام الكتابة.

- نريد إعلاماً تنموياً يساعد التربية والتعليم.

- التخلص من عادة التلقين القاتلة للفكر.

- معالجة اللغة العربية آلياً للتنمية المعلوماتية.

الاستراتيجية الاقتصادية: النظر إلى المعلومات كمورد والثقافة كمورد اقتصادي وتَبَيَّنَ مبدأ المشاركة في الموارد، لم يعد تطوير العقل مطلباً ثقافياً بل هو مطلبٌ أساسي لتأهيل المجتمع العربي لدخول مجتمع المعرفة، وقد حاول كل من مفكرينا (محمد عابد الجابري ومحمد أركون وفؤاد زكريا ونصر حامد أبو زيد) الذين رحلوا إلى العالم الآخر في العام ٢٠١٠ م، والضعيف الأخضر، ونحن بأمس الحاجة إلى دراسة تفصيلية تتناول شرائح اجتماعية مهنية مختلفة مثل: البدوي والمدني والفلاح والحريّ والمدرس والطالب، ولا تهمل الثقافة الشعبية - بيئة علمية تحمي العلماء وتوفر أدوات البحث ودراسة نتائج هذا العقل، وبهذا تتضح الخريطة المعرفية للعقل العربي (عاطف أحمد ١٩٩٥). ويتطلب من العقل العربي أثناء مواجهته الآخر التالي: - استعمال الذكاء الاصطناعي بشكل واسع وبخاصة في معالجة اللغة العربية آلياً - دراسة أثر ذوي الياقات المعدنية في فرص العمل في المجالات الدنيا مثل: (عمالة البناء) - متابعة بحوث تكنولوجيا المخ والأعصاب - تجسير الهوة بين العلم وتكنولوجيا المعلومات والهندسة الوراثية. والجدول التالي يبين مدى الفروق بين: نمط الفكر الغربي ونمط الفكر العربي: (المضيف الأخضر ١٩٩٥) ونترك للقارئ الحكم على ما يمانيه فكرنا من علل وآفات وعثرات.

نمط الفكر الغربي	نمط الفكر العربي
فكر ابتكاري	فكر تقليدي
فكر توليدي	فكر الأمثلة
فكر مفهومي	فكر سطحي
فكر تواصل	فكر انطوائي
فكر منظومي	فكر دمج
فكر بدائي	فكر أحادي
فكر علمي	فكر لا علمي

فكر استشرافي	فكر رجعي
فكر حديثي	فكر قاطع
فكر مبادر	فكر سلبي
فكر محدد	فكر غير محدد
فكر متواز	فكر توفيقى
فكر جمعي	فكر فردي
فكر عولمي	فكر محلي
فكر حوسبي	فكر سردي
فكر تواصلتي	فكر انطوائي

ولا شك أن مهمة تجديد العقل العربي مهمة شاقة وصعبة على شتى المستويات بكافة: الأكاديمي - الإعلامي - والتثويري ولا بد من الاستفادة من تكنولوجيا المعلومات لتعميق الفكر الثقافي واستغلال هذا الفكر لتوطين تكنولوجيا المعلومات في التربية والتعليم العربية ولا بد لنا هنا من تحديد الاستراتيجيات التالية: السياسية والاقتصادية والإعلامية والثقافية والتربوية والمعلوماتية وفق ما يلي:

- الاستراتيجية السياسية: حرية التفكير.

- الاستراتيجية الاقتصادية: أن ننظر إلى الثقافة والمعلومات كمورد اقتصادي والمشاركة في الموارد.

الاستراتيجية الثقافية: أن تكون اللغة العربية المحور الأساسي.

الاستراتيجية اللغوية: التركيز على المعنى الضمني والاستخدام الصحيح للغة.

الاستراتيجية الإعلامية: أن يكون الإعلام تنمويًا لا ترفيحيًا.

الاستراتيجية التربوية: أن نتخلص من آفة التلقين السلبي، ونركز على احترام الذات.

الإستراتيجية المعلوماتية: معالجة اللغة العربية آلياً.

ب - العرب والنظم المصرفية: لن يواجه العقل العربي في حوارهِ أو صراعه مع غيره فكراً أعزل، بل سيواجه فكراً مزوداً بذكاء اصطناعي ونظم، وروبوتات معرفية بل ربما عقلاً أَدْخَلَتْ عليه أساليب الـيوجينيا (علم تحسين سلالة الإنسان) الإلكترونية. وعلينا أن نستعد لهذه المواجهة وهذا يتطلب منا: - التوسع في تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي في معالجة اللغة العربية. - دراسة أثر الروبوتات في فرص العمل المتاحة أمام أصحاب المهارات الدنيا كعمالة البناء.

- الاهتمام بدراسة بحوث تكنولوجيا المخ والأعصاب.

- إقامة الجسور العلمية والتكنولوجية بين المعلوماتية والهندسة الوراثية.

أ - نظرة عامة لفكر الثقافة الغربي: تشمل خريطة الفكر الثقافي الغربي المدارس العلمية وخطوط المواجهة ومناطق التداخل بينها، وهذا ما يؤكد الأساس المعلوماتي التي قامت عليه تلك المدارس من - البنيوية - إلى ما بعد البنيوية (التفكيكية) - ما بعد الحداثة - مدرسة (فرانك فورت) - ما بعد الكولونيالية - وكلها ذات صلة بما بعد الحداثة.

ب - الحداثة: هي وريثة النهضة وحفيد التنوير، تلك الموجة التي أثرت في فكر الغرب ومن بعده فكر العالم بأسره. لقد نجحت الحداثة في تخليص أوروبا من فكر العصور الوسطى، وعرف الوعي الأوروبي واقعه وَحَرَضَتْهُ أَنْ يلتقط ويحرّض وَيُقَنَّ ظَاهر الواقع، وأن يخلق أدوات معرفية حديثة للوصول إلى الحقيقة والكشف عن الزيف، وقد نسف فكر (ديكارت) جميع الدعائم التي قام عليها فكر القرون الوسطى حيث كان قوس قزح من قبيل المعجزات الإلهية التي لا تفسر لها، وأقام صرحاً فلسفياً متكاملاً، أساسه مطابقة العقل للواقع فهو يتطابق مع الأشياء بقدر ما تتطابق الأشياء معه، فقد ورثت الحداثة من الفلسفة الإغريقية العقل والعقلانية، ورأت الإنسان وعالمه في صورته الكلية، والحداثة جعلت من الإنسان أسمى المخلوقات بعد أن أنزله سقراط من السماء إلى الأرض وانطلقت شرارة الحداثة بعد أن أعلن الإنسان مسؤوليته عن مصيره، وأنه صانع تاريخه ويأتي بتوير كنهه ليبحث على تحمل هذه المسؤولية. وحرر العقل من جميع العوائق فلا شرط لإعمال العقل إلا

الحرية. وقد لخص (بيتر بريجر) الحداثة في نقاط خمس: الفكر القائم على الأفكار المجردة - الفردية - الليبرالية - التوجه المستقبلي - العلمانية. وقد تمادى الإنسان بثقته بعقله وقدراته فكان اليقين العلمي القاطع وموضوعية المعرفة العلمية التي لا يرقى إليها الشك. والتطابق الميكانيكي بين الفكر والواقع، والإضراط في عقلنة النظم والمؤسسات. فكل شيء يخضع للتقنين المنضبط من الحسابات الفلكية إلى قياس ذكاء الإنسان، من قوانين الطبيعة إلى قوانين السوق، ومن إنتاج الفرد إلى إنتاج الجملة، يعمل كالساعة تحت إدارة مركزية حازمة وموحدة، فكانت العقلانية المفرطة وأصبح شعار (المعرفة من أجل التكنولوجيا) هو السائد، بعد أن كانت (المعرفة من أجل المعرفة)، ووصلت القضية إلى شعار (التكنولوجيا من أجل التكنولوجيا) وغلبت الوسائل على الغايات، واضطربت الأمور وأصبح كل شيء غير قابل للتوقع، ولكن تكنولوجيا المعلومات خرجت للوجود لتهازأ بكل شيء، بعلاقات الإنتاج الصناعي وتخلخل الركائز الضرورية لمنظومته الاقتصادية حيث كشفت عن مدى الخلل في نظمه السياسية، في الوقت التي وفرت فيه تكنولوجيا المعلومات وسائل عملية للتعامل مع تعقد ظواهر الواقع، ظن فكر الحداثة في غمرة حماسه واندفاعه أنه قادر على احتواء تعقد تلك الظواهر التي كانت تشغله، ولكنه كان يعاقبها إن لم تدين له ولأدواته الذهنية وترتيباته العملية، وكانت نتيجة ذلك الاختزالية والحتمية وما جرت به للبشرية من ويلات وخراب ودمار، عندها كان لا بد من مخرج إما حداثة جديدة تطيل في عمر ما سبقها من حداثة، وإما ما بعد حداثة تقتلع تلك الحداثة البائسة من جذورها.

ج - ما بعد الحداثة: كما رفض (سقراط) فوضى الفكر اليوناني الذي كان سائداً في أثينا، رفض (ديكارت) فكر العصور الوسطى وفتح بذلك عصر التنوير أمام حداثة الغرب، وهاهم مفكرو ما بعد الحداثة ينسفون جميع الأسس التي قام عليها عصر التنوير، واستند هذا الفكر على فلسفة (نيتشه)، وفلسفته رفضت فكر الحداثة وما بعدها من تطور (فما بعد الحداثة) ترفض النظرة الميكانيكية للعالم وترفض المفاهيم السائدة عن الحرية والديمقراطية، والموضوعية والهوية وما شاكل، وترفض السرديات الكبرى التي قامت عليها

الحضارات الإنسانية، كما ترفض الصروح الفكرية التي أقامها (ديكارت وكانت وما ركنس وهيغل وكر كيجارد وسبينوزا)، كما ترفض مثالية (أفلاطون) ومنطق (أرسطو)، كما لا تقر بموضوعية ما قام على هذا المنطق من علوم وأفكار وطبقاً لهذا التوجه، رُفِضَتْ جميع النصوص التي قامت عليها الديانات السماوية بصفتها نوعاً من هذه السرديات، التي يتخذ منها الفكر مظلة عامة يلجأ إليها الفكر بحثاً عن المنطلقات وحسباً للتناقضات، يبرر فكر ما بعد الحداثة هذا التطرف من السرديات الكبرى، بأنها جميعها دون استثناء ما هي إلا نوع من ألعاب اللغة كما طرحها (لودفيج فيتجنشتاين)، وفي رأيهم مهما بلغت هذه السرديات من قدرة على التحليل والتوصيف والتعبير، تبقى عاجزة عن تجاوز التناقضات الجوهرية القابعة في قلب اللغة ذاتها، وفكر ما بعد الحداثة لم يحظ بهذه الأهمية لو توقف على الرفض، وإنما أرادوا بعملهم هذا أن ينسفوا فكر الماضي لتحرير الفكر الإنساني من هيوده، كي ينطلق في الأفاق لتأسيس معرفة قوية أكثر صلابة، وأن يمي الإنسان عالمه على حقيقته لا كما يصوره له فكر نخبته، وأن يتحرر من سلطة الخطاب وذلك بالكشف عن التكتيكات التي تلجأ إليها اللغة عند التعبير عن اللغة، وكيف يساء استخدامها في خدمة القوى الاجتماعية المسيطرة، إذا غاية ما بعد الحداثة هو البناء من الصفر، ولا يقصد بـ (ما بعد) - ولا بنيرها من أنواع الخطية - أن ما بعد الحداثة تتبع الحداثة من حيث الزمن، ولا يُقرُّ فكر ما بعد الحداثة بهذه الخطية الزمنية، ولا يضير في شيء أن يلجأ إلى ما قبل الحداثة منقياً مفتشاً عما يؤازر توجهاته، وفكر ما بعد الحداثة ينهض أساساً على التباين والاختلاف لا الإئتلاف والتوافق، ويرى أن تناقضات المجتمع الإنساني باقية ما بقي المجتمع، وهي عصية على الحسم، وكما يستحيل الوفاق بين طبقات المجتمع، كذلك الأمر ما بين ثقافات العالم المختلفة ولأن ما صلة ما بعد الحداثة بالمعلوماتية؟ هذه الصلة تتجلى على أحسن صورة لدى (جان بودليار)، الذي يتضمن خطابه الفكري مفاهيم الكود والشفرة والحوسبة والرقمنة وما شابه، إن (بودليار) يعتقد أن مفهوم الكود سواء كود

برمجة الكمبيوتر، أو الكود الوراثي، قد أحدث نقلة نوعية، ويقصد بذلك تلك النقلة من طور الإنتاج إلى طور إعادة الإنتاج، وفي طور إعادة هذه تنسخ جميع سلع المعلوماتية، من برامج وموسيقى وأفلام ونصوص وأفكار، ولا تتوقف إعادة الإنتاج عند حدود السلع، بل تمتد إلى نسخ العمالة البشرية من: روبوتات ونظم ذكية خبيرة، كما هو الحال بالنسبة لكود البرمجة، كما تعاد عملية الإنتاج البيولوجي من خلال آليات نسخ الكود الوراثي القائمة أساساً على الانقسام الجيني، كما تشير دلائل كثيرة على أن تكنولوجيا المعلومات ستدفع بطور إعادة الإنتاج إلى آفاق جديدة، وذلك فيما يتعلق بنسخ عالم الواقع عن طريق نظم المحاكاة الرقمية، باستخدام التكنولوجيا الخائلية، وفي ضوء ما سبق يتطلب طور إعادة الإنتاج نظرة مغايرة تماماً إلى مفهوم القيمة والملكية. وعلاقة المنتج بالمستهلك، وعلاقة صاحب رأس المال بعمالته ذهنية كانت أم يدوية، والأهم من هذا كله أن التطور الاجتماعي الجديد يتطلب مراجعة شاملة لعلاقة المعرفة بالقوى الاجتماعية المختلفة، ومصدر القوة لم يعد الموارد المادية بل الموارد الرمزية، من: إعلام وتربية وقيم وأفكار، وهناك من لا يرى بها بعد الحداثة جديداً، ومن يراها رد فعل مؤقت مثل (بيتر برجر) ولكن أخطر نقادها جميعاً وأكثرهم تأثيراً هو (بورجين هيرماس) ممثلاً للحداثة الجديدة كما طرحها مدرسة فرانكفورت، ويمثل السجال الفكري بين (هيرماس وفرانسوا ليوتار) رائد تنظير ما بعد الحداثة واحداً من أبرز ملامح المشهد الثقافي العالمي.

د - حداثة مدرسة فرانكفورت: إن فكر مدرسة فرانكفورت مزيج من الفكر الاجتماعي لدى (ماكس فيبر)، وفكر (كارل ماركس) ممثلاً في طور الإنتاج، وهو يرى أن الثقافة ناتج فرعي، أو بنية فوقية، لهذا الطور، إن حداثة مدرسة (فرانكفورت) كما يمثلها فكر (هيرماس)، تريد أن تخرج الحداثة الغربية من أزمتها الراهنة بتخليص الفكر الماركسي من محوريته الاقتصادية، بسبب متغيرات عصر المعلومات، خاصة فيما يتعلق بنظم الإعلام الجماهيري، لذا، إن حداثة مدرسة (فرانكفورت)، لا ترى الثقافة مجرد ناتج فرعي،

وإنما صناعة قائمة بذاتها، مؤسسة اجتماعية ذات درجة عالية من الاستقلالية، تتفاعل مع غيرها في إطار منظومة المجتمع، كما في نموذج (ماكس فيبر)، و(هييرماس) يريد أن تعمر الحداثة، لأن الحداثة لا ترتبط بمرحلة تاريخية معينة، ولكنها تتجدد كلما تجددت العلاقات بالقديم، والوعي بخصائص ما هو قادم، إن الحداثة لدى (هييرماس) هي الوعي بالمرحلة التاريخية التي تقيم علاقة مع الماضي، وهي لانهاية لها، وليس لها نمط نهائي معين، وهي في تطور مستمر منفتح على المجهول (نصر حامد أبو زيد ١٩٩٥) هذا ولا ينكر هييرماس وجود تناقضات وسلبيات في موقف الحداثة الغربية الراهنة، وفي المقابل يرى أن لا أحد ينكر ما قدمته الحداثة من إنجازات في العلوم والنظم والأخلاق والحرريات والقانون. إن هييرماس يعتقد بأن حل مسألة الحداثة هو المزيد من الحداثة بالاحتكام إلى العقل وتحقيق شفافية التواصل، بين المجتمع الواحد أو ما بين المجتمعات الأخرى، وتكنولوجيا المعلومات قادرة على تحقيق الشفافية المعلوماتية الاتصالية عبر رجع الصدى الفوري والمتجدد، وهذا - برأي هييرماس - يجعل المجتمع قادراً على تصويب أخطائه ذاتياً، والتكيف مع متغيرات المجتمع، ليلتقي فكر هييرماس مع كارل بوبر، ويقول بوبر على الرغم من كثرة أخطاء الغرب فهو الأكثر تحضراً وتحسناً من غيره لكونه الأكثر قدرة لتصويب أخطائه بنفسه (كارل بوبر ١٩٩٩).

هـ - ما بعد الكولونيالية: هو الموقف الذي اتخذته مفكرو العالم الثامن من فكر ما بعد الحداثة، وهم ينظرون بعين ملؤها الشك إلى الدوافع المخفية التي تحرك فكر ما بعد الحداثة، على الرغم من اشتراكهم معه في بعض التوجهات الرئيسية. إن فكر ما بعد الكولونيالية يرى بأن عينه في فكر ما بعد الحداثة نزعات استعمارية ورواسب امبريالية، بإمكاننا أن نسميها كولونيالية مجتمع ما بعد الصناعة، ويهتمون فكر ما بعد الحداثة بأنه يرمي إلى ترسيخ الأوضاع ليعيد صياغة وإنتاج المجتمع الرأسمالي، يطبقه وطبقاته وطابعه الاستهلاكي، وإن فكر ما بعد الحداثة يصطدم مع فكر ما بعد الكولونيالية في النقاط التالية:

١ - يتخذ فكر ما بعد الكولونيالية موقفاً مناهضاً للحدائثة الغربية، وبالمقابل يرى ضرورة استفادة المجتمعات النامية من إنجازات هذا الفكر بقرض الإسراع بعملية التنمية.

٢ - يلتقي فكر ما بعد الحدائثة بفكر ما بعد الكولونيالية على مبدأ الاختلاف والتنوع، لكنه يختلف معه بزعمه عن استحالة الوفاق والتواصل نتيجة الاختلاف، ويرى فكر ما بعد الكولونيالية في الاستحالة نوعاً من التهرب من الحسم يؤدي بنا كما تقول (ماري تيريز عبد المسيح) إلى الانغلاق في دائرة اللا حسم الذي يكبح إرادة التغيير، وهذا يؤكد دوام الحال مهما تغيرت الأحوال (مصطفى عبده ١٩٩٩)، معنى هذا أن ما بعد الحدائثة يخفي نوايا امبريالية متسترة في كل جديد.

٣ - يؤمن مفكرو ما بعد الكولونيالية بالتنوع الثقافي والنسبية الثقافية لكنه لا يصل إلى درجة النسبية المطلقة كما في فكر ما بعد الحدائثة، ومع إيمانهم بضرورة الحفاظ على الخصوصية الثقافية لمجتمعاتهم، إلا أنهم يؤمنون أن هذه الخصوصيات يمكن أن تمتزج وتتدمج لتصب في النهر الواسع للحضارة الإنسانية، والخلاصة إن مفكري ما بعد الكولونيالية يهدفون إلى مجتمع خال من الهيمنة والاستكبار أكانت خارجية أم داخلية، وعادة ما يلجأون إلى التفكيكية في تحليل خطاب السلطة وقراءة القرائن، وفي الوقت نفسه ينشدون حدائثة مدرسة فرانك فورت فيما يخص تشيئ ماركسياتها الجديدة في النضال والتحرير دون حتمية الثورة كأداة في التغيير.

و - البنيوية: قام (فرديناند دي - سوسير)، بتأسيس علم اللسانيات وكانت النتيجة ثورة معرفية شاملة في معالجة اللغة. فاللغة من بعده لم تعد ظاهرة سطحية، من الألفاظ والعبارات والنصوص، فتحت سطوحها توجد بنية عميقة متعددة العناصر والمستويات، نسق معرفي يربط بين الألفاظ والمعاني، وبين مكونات تركيب الجمل والفقرات، وبين المعنى والسياق، وبين

أصل اللفظ ومشتقاته، وبين تنعيم الكلام وتية المتكلم، وهذه ليست علاقات عشوائية اعتباطية، وإنما يحكمها عدد من المبادئ العامة التي تشترك بها جميع اللغات، وأصبح شاغل الفكر اللغوي بعد دي سوسير هو الكشف عن ماهية البنية اللغوية العميقة، وتفسير عمل الآليات الدفينة لمنظومة اللغة. وبهذا يكون دي سوسير زرع بذرة البنيوية في اللغة الإنسانية وقد امتدت نظرية اللغة إلى مجالات أخرى، لأن اللغة هي واسطة العقد في خريطة المعرفة الإنسانية، وكان أن طُبقت البنيوية في مجالات: علم النفس، وعلم الأناسة، ونقد الأدب ونظرية الشعر، - وفي مجال السياسة والتنظيمات الاجتماعية وهذا كان لا يطبق البنيوية على ظاهرة نمو الوعي لدى الأطفال، وأضاف شيئاً جوهرياً عدل به النظرية الفرويدية، عندما قال أن وعي الطفل لا ينمو من خلال علاقته بشدي أمه فقط، بل من خلال علاقته بلغة أمه، مؤكداً أهمية العلاقة النفسية الرمزية. وقد قامت البنيوية لدى دي سوسير على ثنائية الرمز والمدلول وبهذه الثنائية وجوهرها الثنائي المعروف، تتضح علاقة البنيوية بالمعلوماتية في فكر (ليفي شتراوس) مؤسس الأنثروبولوجيا الرمزية، وقام متأثراً بفكر دي سوسير بتطبيق البنيوية في تحليل أساطير الشعوب، ليثبت لنا أن هذه الأساطير ليست من شطحات خيال عقول الشعوب البدائية، بل هي بني معرفية متماسكة عالية الدقة والاتساق، وقد ذهب (شتراوس) إلى أبعد من ذلك عندما أعلن أن الأساطير شأنها شأن اللغة تعمل وفقاً لمبادئ عامة متمثلة في علاقات الاختلاف: - بين الوجود والواقع - والواحد والمتعدد - والحرية والاحتياج - والتطابق والتباين والخير والشر - والإنسان والطبيعة - والرجل والمرأة، وهذا تشترك فيه كل شعوب الأرض، فلا بد أنها في رأي (شتراوس)، تعكس ما يجري داخل عقل الإنسان وبعضه مؤكداً أن العقل يعمل بصورة ثنائية. أما (ميشيل فوكو) ينقل النهج البنيوي من منظومة اللغة إلى منظومة المجتمع ككل، فقد قام بتحليل علاقة ظاهر المؤسسات الاجتماعية بالبنى المعرفية الدفينة وراءها. وانشغل فوكو بالكشف عن علاقات السيطرة التي تحيكتها قوى السلطة داخل كيان المؤسسات

الاجتماعية، من: مصانع ومدارس وسجون ومشافي الأمراض العقلية وعن
الكيفية التي تستغل بها هذه القوى أسلحة المعرفة واللغة في تحقيق أهدافها
وتقوية مواقفها . كتطبيق عملي لتهجه البنيوي ودرس أساليب العقاب وكيف
تغيرت من آلات التعذيب إلى السجون والمعتقلات ثم إلى الحرمان من الحقوق
السياسية، وعلينا طبقاً لهذا النهج أن نتوقع أساليب جديدة للعقاب في عصر
المعلومات ويكون بحرمان الفرد من حقوقه الاتصالية ومعاقبته رمزياً عن
طريق برمجته ذهنياً، وكان هدف التحويل حث العقل على التفكير العلمي
المنهجي، ومنعه من تجاوز حدوده المنطقية. وجاء الفكر الماركسي ليجعل من
الفلسفة أداة تغيير الواقع لا مجرد رؤية نظرية مجردة، أما (ميشيل فوكو)،
الذي ينسب إلى البنيوية مرة وما بعد الحداثة مرة أخرى، فإنه يحصر فكره في
مراقبة السلطات ورصد مسار تطورها وهي تفرض على المجتمع ما يلائمها من
أساليب عقلانية والسؤال هنا هو: هل يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن توقف أو
تُرشّد نفاذ قوى السلطة قبل أن ترسخ وتعمق في كيان المؤسسة الاجتماعية.

ز - ما بعد البنيوية: قامت البنيوية على ركيزتين أساسيتين، هما وجود
علاقة عضوية بين الرمز اللغوي ومعناه، ومبدأ الفصل بين الموضوع رهن
التحليل البنيوي (أسطورة كان هذا الموضوع أم تنظيماً اجتماعياً) وبين وجهة
النظر الذاتية للشخص القائم على التحليل ضماناً للموضوعية، تختلف ما
بعد البنيوية عن هذين التوجهين فالرمز اللغوي - اللفظ على سبيل التبسيط
- لا يحيل إلى معنى معين كما في البنيوية، بل يحيل إلى رمز آخر ليظل يدور
في حلقة مفرغة يستحيل معه الوصول إلى معنى نهائي، وفي جميع الأحوال
المعنى مرجأ، بناءً على الاستحالة والإرجاء، أطلقت ما بعد البنيوية حرية
قراءة النص، فهناك عدد لا نهائي من القراءات المحتملة لكل نص، وفقاً
لخلفية القارئ وهدفه من وراء قراءة النص، وأخيراً انشقت البنيوية على فكر
(دي سوسير) الذي اعتبر اللغة المفوضة أساس التنظير اللغوي حيث نظر إلى
النصوص على أنها مقابل جراهيكي للأصل المتطوق. وهنا أعيدت الهيبة إلى
النص المكتوب، فكانت نظرية القراءة التي أسعها (جاك دريدا)، والذي أنشأ

منهجاً لتفكيك النص يكشف عن تناقضاته الكامنة وتقررات فكر مؤلفه ومناوراته اللغوية، وبعد التفكيكية انتقل إلى الفلسفة، واتخذ جاك دريدا من - نحو القراءة مدخلاً لمناقشة إشكالية الذاتية فلسفياً - معتبراً أن علاقة المؤلف بنصه مقابلاً لثنائية الذات والموضوع. أما عن توجهات الفكر الثقافي البنيوي علمياً كما تقول (فريال غزولي) يؤشر إلى تعددية المداخل النظرية بتجاورها وتفاعلها وتداخلها: وهذا يؤدي إلى إلغاء الحدود الفاصلة بينها (فريال غزولي ١٩٩٩) وتبدو معظم توجهات الفكر الثقافي الحديث كثيف اللسانيات كثيف المعلوماتية، وقد أثبتت اللغة والمعلوماتية أنهما أداة فعالة لإحداث التفاعل والتمازج بين التوجهات المعرفية المختلفة ووسيلة للسيطرة على تعددها، ومعمول هدم للحدود الفاصلة بينهما، ويسري هذا على جميع العلوم والفنون.

١ - تضاريس الفكر الثقافي العربي: صحيح أن المعرفة لا هوية لها وإذا اصطُفّت بالهويات فلا أمر طارئ يأتيها من الإنسان؛ حين يجعلها وحين يؤديها، ولكن الثقافة ذات هوية بالضرورة؛ فهي في مضمونها مجمع للقيم تطمح أن تكون قيماً مطلقة والهوية الثقافية: هي الخاص الذي من إثاره يريد أن يكون عاماً وهي النسبي الذي يسعى لتك قيوده عن النسبي ليشمل الآخرين فالمعرفة مطلقة والثقافة هويتها، وإن نحن أخذنا بأسباب العلم وتواضعنا على أن الثقافة لا توصد أبوابها أمام العلم المتسائل دائماً والمنقب باستمرار، والمعرض عن نزعات الذات ومفريات الوجدان، عندها يتسنى لنا أن نعيد ترتيب المسلمات التي ظلت ملازمة لنا، عسى أن نقيم بدل الآراء الظنية فيها آراءً يقينية، ونظرة سريعة على خارطة الفكر الثقافي العربي نجد صحراء جدداء قاحلة بتضاريسها وجبالها، حيث: الفكر الديني والفكر العلماني لا يفهم أحدهما لغة الآخر، ولا بقاء لأحدهما إلا بإلغاء الآخر، فهل الانفتاح للآخر يعني التصريط في الذات؟ (طارق البشري ١٩٨٩) والتيار القومي الناصري يأخذ موقعاً ليناً من التيارين الديني والعلماني. عبد الناصر رجل أمة كفاندي، قام بثورة تموز/١٩٥٢/ وأعلنت مبادئها: الحرية والوحدة والعدل الاجتماعي، فكانت صوت المظلومين والمحرومين في مجتمعنا العربي،

شجعت العلماء الألمان للهجرة إلى مصر وتمكنت مصر من بناء قاعدة صناعية ما تزال طائفة أسوان تشهد على ذلك، وعندما أعلنت التنمية شعاراً للثورة اعتبر (بن غريون) ذلك إعلاناً للحرب على إسرائيل، لأن التنمية (حرية) كما قال العالم الهندي الاقتصادي (أمارتيا صن) والحائز على جائزة نوبل عام ١٩٩٨ كما أسقطت حلف بغداد، وقامت الثورات العربية في أرجاء الوطن العربي مقتدية بالثورة الأم ثورة /٢٣/ تموز، التي كانت دُرْعاً للجماهير العربية وعوناً للثورة الجزائرية في مواجهة الاستعمار الفرنسي وأعداء الحرية والوحدة والعدل الاجتماعي والوعي القومي الثقافي وأعلنت قمة الخرطوم الشهيرة لإيائها الثلاث: (لا للمفاوضات - لا للاعتراف - لا للمصالح مع إسرائيل. وما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة).

وما زال فكرنا العربي مفككاً، يعاني مرضاً مزمناً يتفاقم مع الأيام، لا معلومات يتبادلها العرب فيما بينهم، على عكس الفكر الأمريكي الغربي الذي يتميز بكثافة المعلومات، ومما يبعث على الأمل أن كلا التيارين القومي والإسلامي يدرك أن التيار الآخر هو السبيل المتاح تاريخياً وسياسياً (طارق البشري) وأكد بدوره (أحمد كمال أبو المجد) على الحاجة الماسة إلى إيجاد صيغة تضبط العلاقة بين التيارين، والفكر العلماني بحاجة لأن يلتقي مع الفكر القومي وأن يجد صيغة لتزداد فاعليته في ساحة العمل تحت واقع الحمّية القومية. وإن الفكر العربي سيبقى مشلولاً عاجزاً عن الدخول في مواجهة التحديات في الساحة العربية، ما لم يتحول إلى فكر جذري قادر على صياغة أفكار ومفاهيم جذرية للواقع المأساوي الذي يعيش فيه، وهذا يتطلب إعادة تجذيره تاريخياً في الواقع العربي المعاصر. (حسن حنفي ١٩٩٥) ولا بد هنا من الاستعانة بتكنولوجيا المعلومات لتنجح عملية التأسيس هذه، ولا بد من القيام بالدراسات المقارنة والقياسية مع فكر الآخر وبخاصة الفكر الغربي، وألا يصبح نوعاً من التأسيس العشوائي عن طريق نقي الآخر (يمنى الخولي). ولماذا لا تطبق القواعد الفكرية للمدارس العالمية في كل ما نحتاج إليه؟ علماً أننا نطبقها في مجالات عدة مثل: اللغة والأدب والنقد الأدبي.

وهناك اتهامات متبادلة بين مجتمعاتنا العربية؛ الشوفينية والفرعونية (وهناك من يشكك بالأصالة العربية لبعض الأقطار العربية (مصطفى الفقي ١٩٩٩) (والباقر العفيف)، وكلها دعاوى زائفة وزائلة لا أساس لها من لصحة. وما يجب أن يؤخذ مأخذ الجد هو تعاون الفكر العربي في المشرق والمغرب العربي (عبد السلام المسدي ١٩٩٨)، والسؤال الذي يطرح نفسه بشدة والذي يدفع إلى القلق الحضاري ويفرضه الوعي الجريح.

د - (هو سؤال متصل بمؤسسة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم؛ إلى أي مدى أم إلى أي حد نحن واثقون من عملها؟ وهل هي تعمل؟ إن المنظمة قامت تشدد الوحدة الثقافية بين العرب، بمعنى أنها تعمل لإنجاز مشروع الوحدة الثقافية، فهو مهمتها ووظيفتها. وترسخ في الأذهان أن الوحدة الثقافية بين أبناء الأمة العربية هي: حلم منشود وليس واقعاً موجوداً، إذاً هي الحلم المؤجل كمشروع للمستقبل حلم منتظر وقادم. بينما كان يجب التسليم بأن الوحدة الثقافية قائمة بين أبناء الشعوب العربية، وبهذا خاصتنا التاريخ ولم تتصالح معه وإذا بالمنظمة ترسم لنفسها إنجاز مشروع ما هو منجز، ترى إلى هذا الحد يختلف منطلق الوحدة الثقافية القائمة عن منطلق الوحدة الثقافية المنشودة؟ إنه ضرب من اصطناع القضايا حيث لا قضايا أو مزايدة لفضيلة بل ضرب من تحقيق العقل للشيء الواحد، ولكن ما الذي يتبدل بالأمر أن المنظمة قامت على الوحدة الثقافية أو أنها قامت تشدد الوحدة الثقافية؟ هذا من باب المشاكسة، ليس الأمر سواء البتة إنه إشكال مرجعي وهو سؤال عربي كبير، وليس باستطاعتنا أن نطابق بين الثقافة والقرار الثقافي، وإنما هي بين الثقافة من حيث هي هوية حضارية، والثقافة من حيث هي صناعة إجرائية، كما تبدو في مراسيم التشريع الثقافي. أما من يحترفون صناعة الفكر فيدخلون بالنقد، ومن يعتبرون أن الثقافة جوهر يصوغ فلسفة الذات الفردية ويمتصر منها قيم الذات الجماعية، ومن يؤمنون بأن فلسفة الثقافة تقوم على تشكل الذات من منابت الفكر الخالص، فالأمر عندهم غير الأمر والموقف غير الموقف. وباستطاعتنا أن نقول أن المنظمة

أضاعت فرصاً من التاريخ منذ أُوكِّلت إليها مهمة إنجاز الوحدة الثقافية العربية، إنها وجهتان من النظر بل فلسفتان من الأشياء الأولى أن الوحدة الثقافية قائمة بالقوة بين العرب وعلمنا إخراجهما من حيز الفعل وهو التسليم الذي سارت عليه المنظمة حتى الآن.

والثانية: أن الوحدة الثقافية قائمة بالفعل بين أبناء الأمة العربية رغم العوائق التاريخية ورغم الحواجز الموضوعية الناجمة عن تعدد الكيانات السياسية، وبموجب هذا الاعتبار يجب التصدي للأعراض الموحية بغياب الوحدة الثقافية. فالتعامل العقلاني مع القضية الثقافية العربية يبدأ عندما - نتخلى عن استسهال القضايا - عندما نحتكم إلى سلطان الفكر، ونرى بعدسات مجهرية ما لا يراه الناظرون بعامة بالعين المجردة - ولا بد أن ترى أن من الحكمة: أن أهون على العقل وأقل ضرراً أن ترى الواحد متعدداً من أن ترى المتعدد واحداً، لأنك في الأولى قطعت نصف الطريق إلى الهدف وفي الثانية تكون قد قطعت الطريق على نفسك (عبد السلام المسدي).

ب - أزمة فكرية في جميع المجالات: في اللغة والتربية، والإعلام والفكر الديني والإبداع، وأزمة في القيم وتعاसे ويؤس الفكر الفلسفي والتنظير الثقافي، وهنا يتحول أنصاف المتعلمين إلى علماء وأنبياء، جمودٌ فكري وحضاري وحالة سبات أكاديمية وغياب الحوار والأصالة، وما يشيع عن ثقافتنا بأن العجز متأصل في صلبها نتيجة حكم الطاغية، وهي متهمة بالانغلاق على الذات والسلبية والأخروية، وهل لنا أن نلحق بالفكر الثقافي الذي فجره عصر المعلومات والمدارس الفكرية العلمية الحديثة، إن الثقافة تحتك وتتحول وتتلاقح في مناطق الاحتكاك، لهذا كانت تقيتها وتشذيبها عندما تنتقل من جيل إلى جيل، وهل لدينا القدرة والجرأة على مراجعة أصولنا الفكرية؟ حواراتنا على الشاشة الكونية يملؤها السفه والزيف بدلاً من التعاون للوصول إلى فكرة مقيدة. فالأرض والدم يشكلان تركيباً مجازياً قوياً، جسدياً: من الوطن الأب والوطن الأم، والإقليم العربي مشبع بالتوق إلى الكمال والوحدة والتكامل، فهل نعتنا أننا عرب هو الذي يحدد سلوكنا؟

والعرب لا يريدون ثقافة متخندقة، وإنما يريدون ثقافة فاعلة ومتفاعلة ترفض الذوبان والانحلال وثقافتنا عملية تاريخية لها بعدها الكوني.

ونورد في ما يلي خارطة للتفكير أكثر تعقيداً وأشدّ ارتباطاً بمحتوى فكري محدد بالقواعد المنطقية: - مفهوم الحركة الانتقالية من الأطروحة إلى نقيضها، ثم إلى المركب منهما - القدرة على فهم الأحداث أو المواقف باعتبارها لحظات في طور عملية ما - إدراك إمكان حدوث تغيرات كيفية نتيجة تغير كمي - القدرة على اتخاذ موقف فكري من النسبية السياقية - إدراك قيمة أطر فكرية عديدة عن مشكلة ما - إدراك مثرات النزعات الشكلية المبنية على الاعتماد المتبادل بين الشكل والمحتوى - القدرة على تمييز المفهوم العقلي للعلاقات المتقابلة في اتجاهين - القدرة على تمييز مفهوم ذاتية التحول - القدرة على تصور المنظومات في ضوء توازنها، تلك مبادئ منطقية ما بعد شكلانية.

- علاقة الفكر بمنظومة الثقافة: نرى هل يلتقي الفكر بالثقافة؟ إن فكر الثقافة عامل مهم وعنصر أساسي في منظومته، والفكر بالتأكيد يرتبط بعناصر منظومة الثقافة، من خلال العلاقات المتبادلة نوجزها في التالي: (لغة الفكر) - فكر اللغة (تربية الفكر) - فكر التربية (إعلام الفكر) - فكر الإعلام (إبداع الفكر) - فكر الإبداع (تراث الفكر) فكر التراث (قيم الفكر) - فكر القيم والمعتقدات. وسنتناول ما بين قوسين في هذا الفصل ونترك الباقي إلى الفصول القادمة.

- لغة الفكر الثقيلة الغربي،

أ - العلاقة القوية بين فكر اللغة والفكر الثقافي، هي أبرز علاقات الفكر في منظومة الثقافة بلا منازع، ولا بد للغة أن تكون نبعاً هاماً للفكر على اختلاف توجهاته ومجالاته ولهذا أقامت اللغة علاقات وطيدة مع جميع فصائل المعرفة الإنسانية: فلسفة وقتاً وعلماء وهندسة أيضاً، وحظيت اللغة بفرع للهندسة خاص لها يدعى (هندسة اللغة) ولحق علم اللغة بالعلوم الأخرى باحثاً عن مناهجه، واليوم وقد نضج الفكر اللغوي حتى أصبح نهجاً

عاماً، يتبناه غيره من العلوم، وكما لاحظنا سابقاً لم يكن علم اللسانيات الحديث مقصوراً على اللغة كما أسسه (فرديناند دي - سوسير) بل تجاوزها إلى جميع العلوم مثل: علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأناسة، ويمثل المفكرون من ذوي الخلفية اللغوية أعلى نسبة من منظري الثقافة، منهم: (إدوارد سعيد ونعوم تشومسكي وفردريك جيمسون وجوليا كريستيفا ورومان جاكيسون وجاك دريدا وإدوارد سابير). وكانت اللغة قديماً وحديثاً شاغل الفلاسفة على اختلاف مذاهبهم، ومعظم الفلاسفة بلاغيون في الدرجة الأولى، وكل إشكالية فلسفية لها مقابل أو شق لغوي، ونحن إذا أخذنا إشكالية (الذات والموضوع) سنجد مهمة اللغة الأساسية هي توصيل ما تفكر فيه الذات داخلياً إلى موضوع يعيه من هم بخارجها، وثنائية ضمير المتكلم وضمير المخاطب (أنا أنت) هي تجسيد لغوي لثنائية التوصيل تلك، وهذه الثنائية التي اتخذت منها (جوليا كريستيفا) مدخلاً أساسياً لإعادة النظر في مسألة (الذاتية) فلسفياً، وكدليل على محورية اللغة في الفكر الثقافي، تشير إلى أن فلسفة المعرفة، كادت أن تكون مرادفة لفلسفة اللغة، وهذه بدورها تشمل معظم فروع الفلسفة التحليلية، فالفلسفة في نظر (الوضعية المنطقية) مجرد منهج للبحث هدفه التحليل المنطقي للغة التي نستخدمها في حياتنا اليومية، وقد صرح (كارناب) بأن الفلسفة الحقيقية هي مجرد تحليلات تركيبية للغة (نجاح، محسن ١٩٩٨) وهناك روافد أخرى للشق اللغوي من تنظير ثقافي، مثل: نظرية النقد، نظرية الجمال، وسوسيولوجيا المعرفة وديناميات الجماعات، وعلم الاستشراق، ونظرية المعلومات، ونظرية الأدب، ونظرية السرد، ونظرية التربية، ونظرية الاتصالات، وتبدو العلاقة جلية بين اللغة وفكر الثقافة في الكثير من أوجه التقابل بينهما، منها: بين قدرة اللغة على التجريد والطابع التجريدي الذي يتسم به الفكر الثقافي، والتقابل بين لانهائية اللغة المتمثلة في لانهائية تعبيراتها، واستمرار التوسع في معانيها ومجازها، وبين لانهائية الفكر وديمومة توسعه، التقابل بين استحالة التوصل إلى المعنى النهائي للرمز اللغوي واستحالة اكتمال الفكر النظري، كما أثبتته

(كورت جودل) بمبدأ عدم الاكتمال الرياضي. وتأتي تكنولوجيا المعلومات لتجعل من اللغة سندريلا علم الكمبيوتر، فلم تعد اللغة أداة للاتصال أو نسقاً رمزي ضمن أنساق رمزية أخرى، بل أصبحت أهم العلوم المغذية لتكنولوجيا المعلومات وأخطر ظواهر مجتمع المعلومات ورابطة العقد بين جميع أنساق الرموز الأخرى، التي تجري في كيان المجتمع.

ب - هل اللغة وسيط معتم أم شفاف يأخذنا إلى الحقيقة، إن لمحورية اللغة في الفكر الإنساني والفكر الفلسفي بخاصة، فقد أصبح مدى مطابقة اللغة للواقع الذي تمبر عنه، ومدى نقائنها وصفائها كوسيط للتواصل الاجتماعي من أهم إشكاليات البحث الفلسفي والتنظير الاجتماعي، والثقافة والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل اللغة وسيط شفاف نقرب من خلاله صوب الحقيقة دائماً؛ من الصواب إلى الأصوب أو من الزائف إلى الأقل زيفاً، أم اللغة أداة للتضليل والزيف، تبعدا عن الواقع وتعزلنا عن الحقيقة في ظاهر الحال، وكما يمكن أن تكون أداة للتفسير والتوضيح والإبانة، يمكن لها أن تكون أداة للتضليل والطمس والاقتصاص من الحقيقة، وكل أنواع الخطابات الاجتماعية اللفوية؛ سياسية أم اقتصادية تربوية أم إعلامية كلها تجيد استخدام حيل اللغة وتكتيكها. هدفها توصيل ما نريد توصيله من رسائلها، والسكوت عما نريد أن تحجبه منها، وهذه الخطابات تعمم في مقام التخصص، وتخصص في مقام التعميم، وتصمت حين يجب الإفصاح، وتثير الضوضاء في مجال ما نريد أن نطمسه، وهذا الغموض استقر فيلسوفنا لودفيج فيتجنشتاين، وراح يضع اللوائح والضوابط التي تضبط اللغة وإجلاء اللبس من معاني الفاظها ودلالات تراكيبها. وفي رأيه (أن ما يجب أن يقال يجب أن يقال بوضوح) ودون ذلك ليس هناك إلا الصمت. وكيف نصل إلى هذا الوضوح وأن نزيل اللبس ونتحاشى الغموض وهذا أمر مستحيل، كما يقول كارل بوبر من خلال نقده لفكر فيتجنشتاين: لأن مهمة الفلسفة ليست فك الغاز اللغة وإزالة غموضها، على الرغم من إقراره بأهمية التخفيف من الغموض والتقليل من اللبس للاقترب من الحقيقة (كارل بوبر ١٩٩٩) وهكذا

يتكرر مشهد تأرجع وجهات النظر حول شفافية اللغة وظلمتها على المستوى الاجتماعي العام، والسجال الفكري الذي جرى بين هيرماس ممثلاً لحدثة مدرسة فرانكفورت وليوتار ممثلاً لما بعد الحداثة. يرى هيرماس إمكان تحقيق درجة عالية من شفافية التواصل الاجتماعي من خلال التفاعل والحوار والتصويب الذاتي، بينما يرى خصمه ليوتار تحقق تلك الشفافية ضرباً من المستحيل، وهذا الوفاق اللغوي ما هو إلا أضغاث أحلام. بينما قال الفيلسوف نيتشه بشأنها: إن اللغة تحمل في داخلها بذرة الغموض وعلة اللبس ومرض الزيف، حجته في ذلك إسراف اللغة في التضاد الثنائي مثل: (الماضي والحاضر - المعلوم والمجهول - الحرية والمجازي) وفي الوقت الذي تدعي فيه اللغة أنها تعبر عن الواقع الذي لا يعرف أصلاً هذا التضاد الحاد ولا يمكن إخضاع ظواهره لصرامة ثنائياته. لأن غالباً ما يكون الواقع طيفاً مستمراً من تنوعات الاختلاف، ومستويات التدرج التي تصل بين أطراف هذه الثنائيات. ومن وجهة نظر أخرى أن اللغة ترسخ في عقل مستخدميها أن لكل فعل فاعلاً، ولكل علة سبباً. وهي أمور في جوهرها ليست من صميم الواقع بل هي من مستلزمات اللغة ومطالب المنطق اللغوي، وذهب نيتشه إلى القول بأن هذا التناقض الجوهرى القابع في موضع القلب من منظومة اللغة، هو السر وراء أزمة الحداثة الغربية، وأشار نيتشه بإصبع الاتهام إلى اللغة ليقول بنبرة يشوبها الإلحاد: (إننا لم نستطع أن نتخلص من فكرة وجود الإله لأننا مازلنا نثق في النحو) إذاً لا لغة دون لبس وغموض ولا لغة أيضاً دون حشو زائد وإذا اتسمت اللغة بالشفافية وخلت من الحشو وكانت لغة اصطلاحية ميكانيكية لا حياة فيها كما لغة الكمبيوتر ولكن الشعر يبقى مزهواً بغموضه، قائداً لمسيرة تطور اللغة، فهو يلقي وراءه سحياً كثيفاً من الغموض بفضله مجازاً، وسماحة معانيه، ونستطيع القول أن جميع اللغات الإنسانية، ولغات الجينات الوراثية، أو لغة الإبداع الفني، تبقى مدينة للغموض والحشو الكامن فيها، بديمومة توسعها وتطورها وابتكاريتها ومرونتها وسرعة تكيفها مع الواقع.

- لغة الفكر الثقافى العربى -

أ - العلاقة السقيمة بين اللغة العربية والفكر الثقافى العربى، فى بنية العقل العربى التى أقامها على ثلاثية البيان والعرفان والبرهان، عمل (الجابري) إلى إبراز الصلة بين نظام البيان والعقل، وبين التصوص التراثية والفكر المولد لها، وكان لابد أن يؤدي به ذلك إلى إشكالية اللفظ والمعنى، وأن يتعرض إلى أسس تأصيل القياس البياني، إلى منطق اللغة والآليات اللغوية للتعليل والسببية (الجابري ١٩٩٧) وعندما تناول الجابري قضايا التراث اتخذ من اللغة مدخلاً منهجه البنيوي، أما (أركون) جعل من علوم اللغة ركيزة أساسية لإسلامياته التطبيقية، واتخذ منها (إدوارد سعيد) مدخلاً لكشف ما يستر وراء الخطاب الاستشراقي وموقف الإعلام الأمريكى المنحاز في استخدامه أسلحة اللغة ضد العرب والمسلمين وهنا يبدو ضعف مساهمة اللغويين الكلاسيكيين لدينا في علاقة الفكر باللغة وهذا بدوره أدى إلى ضعف شق (المعنى والدلالة) سواء في تعليم اللغة وتعلمها أو في جهود المجامع اللغوية، وهذا أدى بدوره إلى ضعف مساهمة اللغة في تنمية الفكر، وضاع المعنى في لفظية الصرف وصورية الإعراب وشكلية المحسنات البديعية. وما علينا إلا أن نقر بأن علاقة اللغة العربية بالفكر الثقافى ما زالت واهية، ولا بد أن نعي علاقة الدور العظيم التي تلعبه اللغة في الفكر الثقافى الحديث، ويأمل الكاتب أن يتصدى لهذه المسألة علماء اللغة وعلماء النفس لمعالجة الجوانب اللغوية المرتبطة بأنماط التفكير التي وردت في هذا الفصل.

ب - قدرة اللغة العربية على الشفافية والغموض، تتمتع اللغة العربية بقدرة هائلة على الإبانة، وينفس القدرة على التحلي بالغموض، ومظاهر اللبس والتوسع في المجاز. ويساهم الدارسون العرب، في مجال علم النص وتحليل الخطاب، كما يساهمون في تفكيك الخطاب السياسى والأدبى بهدف إبراز التناقضات والمفارقات الكامنة فيه، ولا شك أن جهدهم هذا يحتاج إلى دعم بحوث اللغة على المستوى التطبيقي والاستخدامي.

تربية الفكر الثقافى الغربى: يدور حوار صعب بين أوساط الأكاديميين الأمريكيين حول تربية الفكر الأصيل لدى الطلاب وهناك من يدين المناهج

التربوية، كونها أتلفت عقول الطلبة، وأفقدهم صلتهم بماضيهم، وقدرتهم على رؤية حاضرهم، واستشراف مستقبلهم، ويطالب هذا الفريق بالعودة إلى الأصول، وتدريس تطور الفكر الإنساني، وقراءة أمهات الكتب، فهي بمثابة المنارة التي نرى من خلالها الكثير من عالمنا وذواتنا، أما الفريق المعارض لهذا التوجه، فيرى ضرورة أن توضع الأسئلة الكبرى جانباً، ويركز على إشكالية الثقافة الراهنة، من قبيل تلك المتعلقة بالثقافة العنصرية، والعرقية، والبطالة، والقضايا النسوية وحقوق الإنسان وخلافه، ولا شك بأن واضعي مناهج تعليم الفلسفة والإنسانيات يمكن أن يجدوا صيغة وسطى لا غنى عنها للتوفيق بين هذين الموقفين المتناقضين.

- **تربية الفكر الثقافي العربي:** بالحقيقة نحن نواجه تحدياً في تدريس علوم الإنسانيات والفلسفة بخاصة، من مناهج أقسام الفلسفة وعلوم الاجتماع وأقسام اللغات عندها لا بد لهذه المناهج أن تغطي الخلفية الأساسية من علوم اللغة وفلسفتها، ومناهج الفكر الحديث وفلسفة العلم ونظرية النظم، ونظرية المعلومات وبغض النظر عن تفاصيل المناهج والمقررات، يبقى التحدي في توافر كوادر هيئات التدريس القادرة على عبور حواجز التخصص، واستيعاب المتغير المعلوماتي، واللتحاق بما يجري حالياً في تطوير مناهج البحث في علوم الإنسانيات. ومن جانب آخر علينا التصدي بحزم وشدة ضد تلك الفئة العاجزة والقاصرة لفهم أسلمة المعرفة من بين أعضاء هيئة التدريس، فهؤلاء يلغنون طلبتهم ما يعتقدونه لا ما يحتاجه هؤلاء الطلبة.

- **إعلام الفكر الثقافي الغربي:** يحظى الفكر الثقافي الأوروبي، وخاصة في فرنسا وألمانيا بقدر كبير من الاهتمام الإعلامي، وقد أقامت فرنسا وألمانيا قناة ثقافية تلفزيونية مشتركة هدفها اغناء الحوار الثقافي الفرنسي الألماني وكما هو معروف فقد لعب الفكر الفرنسي الألماني دوراً مهماً في نهضة أوروبا وصراعاتها على حد سواء، أما في الولايات المتحدة فتسود أمور العلم والتكنولوجيا ساحة الإعلام الثقافي، وكما هو الحال مع غيره من أنشطة الإعلام الأمريكي، تسيطر قوانين السوق على الإعلام العلمي التكنولوجي، تراه يركز على الجوانب الفنية والإيجابية، من دون التطرق على الجوانب

الاجتماعية والآثار السلبية، حرصاً منه على علاقته بعمولي الإعلانات من عمالقة مؤسسات الصناعة، خاصة في مجالات صناعة الأدوية والهندسة الوراثية وشركات الاتصالات، وقد أدرك العلماء في عصر العلم المؤسسي الضخم، أهمية العلاقات العامة في صناعة صورتهم الإعلامية من أجل اكتساب الدعم الجماهيري والحصول على مصادر التمويل، وكاد العلماء أن يصبحوا مثل رجال السياسة نجوماً إعلاميين، وهنا أصبح للعلم ثقافته وطابعه الإعلاني، ورسائله الإعلامية المقتنة الخاضعة لقواعد هندسة الصورة ومعايير الجدوى الاقتصادية.

إعلام الفكر الثقافي العربي: إن الأدب والنقد الأدبي يحظى بالقسط الأكبر من الاهتمام من إعلامنا الثقافي، ولكنه في الآونة الأخيرة نحا إلى التوسع في مجال الإعلام العلمي، وتعتبر المعلوماتية والهندسة الوراثية من أكثر المواضيع جاذبية في مجال إعلام الثقافة العلمية لدينا. ولا زال إعلام يسوده طابع الانبهار والإثارة والسماتازيا. من دون محاولة لتقطير المفاهيم الأساسية في أذهان الناس قراءً ومستمعين ومشاهدين بسبب عجز علمائنا عن تبسيط المعرفة العلمية، باستثناء عدد قليل من البرامج الثقافية المسموعة والمرئية، والأبواب الثقافية الثابتة العلمية في الصحف والمجلات نتيجة التقعد الزائد، وعلى علمائنا أن يجمعوا بين أصالة المعرفة ودقة المصطلح وسلاسة الأسلوب العلمي والأدبي.

- إبداع الفكر الثقافي الغربي: كان إبداع الفكر الغربي مقتصرأ على الابتكارات العلمية والتكنولوجية. في القرنين الماضيين وهذا القرن هو إبداع الفكر الثقافي، والمطلوب مزيداً من هذا النوع من الإبداع وستزداد فرصه ووسائله لأسباب عدة منها: - هناك العديد من المشاكل الثقافية تنتظر حلولاً مبتكرة، وجميع فروع الثقافة بحاجة إلى إبداع جديد في: اللغة والقريبة والإعلام والفنون، وتجديد التراث وصولاً إلى نظم القيم - تبحث علوم الإنسانيات إلى الدخول في مجال العلوم الدقيقة عن: مناهج جديدة تختلف عن مناهج العلوم الطبيعية - إن تكنولوجيا المعلومات ستوجد وسائل عدة لدعم إبداع الفكر الثقافي، وتمثل الإنترنت تجارب لاختيار نتائج هذا الإبداع -

تزايد الاهتمام بصناعة الثقافة كمورد أساسي للدخل القومي وهذا بدوره سيؤدي إلى زيادة الطلب على إبداع الفكر الثقافي من أجل إنتاج سلعة ثقافية مبتكرة.

- إبداع الفكر الثقافي العربي: لا شك أن للمبدعين العرب فرصة أكيدة للإبداع الثقافي وسيجد المجتمع العربي تحديات كثيرة لم يسبق له أن تعرض عليها بقساوتها، ولن تجدي معها الحلول المستوردة، ولن يحلها إلا إبداع أبنائها، للتوفيق بين نقص الموارد وأهداف التربية الاجتماعية. وهذا يعتبر مدخلاً حقيقياً لتنمية الإبداع، ولا شك أن اللغة سيكون لها دور في إشعال جذوة الإبداع.

- أثر المتغير المعلوماتي على الحوار الديني الفكري في الغرب:

أ - حوار الدين مع الفكر: يرتبط الدين بالفلسفة والعلوم والفنون، واليوم يوطد علاقته مع التكنولوجيا بعد أن عرفت أبعادها الأخلاقية وهناك كثير من الكتب والأدبيات تناولت العلاقة بين الدين والفكر الثقافي، ولكن كيف تطورت وجهة نظر الفلاسفة إلى الدين وصولاً إلى الوضع الراهن، ولكن فيما يخص تأثير المتغير المعلوماتي على الحوار الديني الفكري: كان فرنسيس بيكون قد قال: إن ضحالة الفكر تؤدي بالإنسان إلى الإلحاد، والتعمق فيه ينتهي بالعقول إلى الإيمان، أما (جون لوك) فكان يعتقد بقدرة عقل الإنسان على إثبات وجود الله، في حين كان (ديكارت) يعتقد بوجوده كبدئية، ويسأل من أين تأتي الأفكار المثالية إن لم تأت من الله فلا يمكن أن تأتي من الإنسان المحكوم عليه سلفاً بعدم الاكتمال. وقد حاولت الفلسفة المسيحية التوفيق بين النظر العقلي والمعتقد الديني. فالمقل ينظرها سابق على الإيمان، والإيمان بدوره سابق على العقل، وجاء (كانط) وفصل فصلاً تاماً بين الفلسفة والدين، وفي رأيه أن استخدام العقل في دراسة اللاهوت محاولة عقيمة لا جدوى منها. أما (نيتشه) فقد بلغ به التطرف المفاهض للدين إلى حد اعتبار الدين والمعرفة كالماء والنار لا يجتمعان أبداً، واليوم يأتي فكر ما بعد الحداثة لينزع عن النصوص السماوية، كثيرها من السرديات الكبرى مشروعيتها، وهكذا أصبح كل شيء باطلاً وقبضة الريح، ويبقى عقل الإنسان ومصيره معلقاً بالهواء، بلا

سند من روح أو فكر، وفجأة تخرج إلينا المعلوماتية - ومن دون صفارة إنذار - تخرج إلينا لتضيف لمسة إبداعها باستعلائها وجبروتها الرمزي ويعوالمها الخائلية، التي تستثير العقل البشري وتحضره كي يعيد النظر في وجوده، علاقته مع أرضه وسمائه ودينه وآخرته. ونستطيع القول: أن البروتستانتية كانت سندا ودعماً للنقد الهائل الذي عصف في بريطانيا وأوروبا بعد التخلص من القيود التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية. (مامي خشبة ١٩٩٤).

ب - حوار القيم مع الفكر: تماماً كالمنهج الذي اتبعناه في الفقرة السابقة سنأخذ تطور علاقة نظام القيم مع الفكر الفلسفي وصولاً إلى الوضع الراهن. فيما يخص قيم ثقافة المعلومات، وهذا الحوار يدور حول ثلاثة أسئلة هي: هل القيم مطلقة وخالدة أم نسبية تختلف من مكان إلى مكان ومن زمن إلى زمن؟

- هل القيم منزلة من السماء أم هي من صنع الإنسان الكائن على الأرض؟

- ما مصدر الإلزام الأخلاقي؟ الإنساني من داخله، أم قوانين المجتمع وأعرافه من خارجه؟ كانت الأخلاق في فلسفة (سقراط) معايير لانهاية مطلقة على خلاف مع السفسطائيين الذين يرونها متغيرة من مكان إلى مكان، ومن جيل إلى جيل، وتمضي القرون حزينة لتأتي بعدها فلسفة الأخلاق (لـسبينوزا)، وتفترض عالماً خالياً من القيم في نشأته، وعلى الإنسان أن يملأ هذا الفراغ الأخلاقي، فالإنسان هو الذي يضيف هذه القيم على الأشياء. أما (كانط)، فكما جمل الإنسان هو مركز المعرفة، فهو جملته في أعلى عليين في مركز القيم، والإنسان في رأيه هو مشرع للأخلاقيات، تماماً كما هو مشرع قوانين الطبيعة وهناك من أمثال: (لوك وهيوم) يعتبرون اللذة والألم، هما مقياس كل قيمة، في حين يعتبر البرجماتيون المنفعة هي أساس القيم، و(كارل بوبر) حاول أن يجمع بين أخلاقيات الماضي وأخلاقيات عصر المعلومات باعتباره الحقيقة الموضوعية هي أعلى قيمة أخلاقية، وهي أهم القيم على الإطلاق، واعتبر كارل بوبر أن تحرير الذات باكتساب المعرفة والوعي، هي الوسيلة لإضفاء معنى على الحياة، ويستطرد كارل بوبر بقوله لم نولد أحراراً

ولكن ولدنا وعلى عاتقنا مسؤولية حرية القرار. (كارل بوبر ١٩٩٩) ترى ما العمل في ظل البدائل العديدة التي يطرحها عصر المعلومات؟ وهذا سؤال أخلاقي في جوهره، فالأخلاق في عصر المعلومات هي فن ممارسة الحياة، ترى وكيف نحدد غايتنا في وسط هذا الكم الهائل من الغايات والبدائل التي تطرح نفسها بشدة؟ ومن جهة أخرى فإن أخلاقيات عصر المعلومات لا تقوم على الإكراه والإلزام بالقوانين بقدر ما تقوم على أساس أن ضمير الفرد هو سلطته الأخلاقية العليا، ومن هنا تضطلع أخلاق المهنة، ومواثيق المنظمات غير الحكومية، بدور مهم في بلورة الأسس الأخلاقية لثقافة المعلومات والتي تشمل التالي: - عدالة توزيع موارد المعلومات، واتساع الفوارق في الدخول والثروات وفرص العمل وعدم إساءة استخدام سلطة المعرفة من قبل الخبراء والمهنيين - تجنب الآثار السلبية لتكنولوجيا المعلومات فيما يخص تهديد التنوع الثقافي وحماية الإنسان من استغلال نظم المعلومات واستغلالها كسلاح إيديولوجي.

- حوار الدين والقيم مع الفكر العربي:

أ - حوار ديننا مع الفكر الحديث: كثيرون غيرنا تناولوا حوار فكرنا مع الدين، وكل ما نريد قوله هو إغناء حوارنا مع ديننا في ظل المتغير المعلوماتي، ولا بد من معالجة القضايا التالية:

- إنهاء الخصومة المفتعلة بين ديننا وتوجهات الفكر الثقافي الحديث، وعدم التسرع في إعلان القطيعة معه.

- أن نتصدى للذين يزعمون أن الدين الإسلامي مضاد للعقلانية.

- حسم علاقة الدين الإسلامي بالفنون المختلفة خاصة فن الموسيقى والتشكيل والأداء، وأن نلقي الضوء على أهمية المعرفة التي تكمن وراء تلك الفنون ومن دونها يتعذر تحقيق التكامل المعرفي في عصر المعلومات، كما توفر تكنولوجيا المعلومات منطلقات جديدة لإغناء حوارنا الديني الفكري.

ب - حوار قيمنا مع الفكر: سنطالع هنا لعلاقة بعض القضايا بنظام القيم والفكر:

أن نتصدى جميعاً للتحالفات المعلنة وغير المعلنة، بين السلطات الدينية والسياسية، والتي تعمل على الحد من الحرية الفكرية.

- أن تنمي الشعور بالمسؤولية الاجتماعية لدى الرواد من مثقفينا تجاه جماهيرنا، وهي تواجه التحديات الكبيرة التي يتطوي عليها عصر المعلومات.

- أن نشيع قيم الأصالة الفكرية والتصدي للسرققات والفساد بكل أنواعه، وأن نشير دوماً إلى مصادر المعلومات. أن نتصدى للانتهازية الفكرية التي تنمو في فترات الانتقال وفي غمرة الثورات العلمية والتكنولوجية العاصفة.

- منظومة فكر ثقافة المعلومات: الإطار العام لمنظومة فكر الثقافة؛ ويتضمن التالي: - العلاقات الخارجية التي تربط منظومة فكر الثقافة بخارجها - العناصر الداخلية لفكر الثقافة - عناصر البنى التحتية لمنظومة فكر الثقافة وتضم:

- الموارد البشرية من مُنظِّرين. وأخصائي معالجة المعلومات الثقافية التالية: اللغة والتربية والإعلام. موارد المعلومات الثقافية: قواعد بيانات. ذخائر النصوص والخرائط الثقافية، وسنتناول التالي:

- العلاقات الخارجية لمنظومة فكر الثقافة الغربي:

١ - علاقة الفكر بمكونات المجتمع ككل: إن (فرانسيس بيكون) أول من بشر بأن العلم وتطبيقاته سيحققان للبشرية الرفاء والرجاء، ودفعت البشرية الثمن باهظاً نتيجة تسويق هذه الأفكار، فما أكثر الحروب والصراعات والكوارث التي حلت بالبشرية، ومظاهر العداء الذي سببها الفكر الفلسفي وهو يمضي في طريقه لا يلتفت على أحد، يفرض تصورات وأفكار وأحلامه وانحيازاته وأخيلته، على هضاب الواقع وتضاريسه وغاباته، وهذا ما عبرت عنه (ديستوبيا هاكسلي وجورج أورويل) وتعبيرية (جويا)، وعبثية (كافكا)، وتجريدية بيكاسو. ولطوبائية بيكون (العلموقراطية) نسختها (المعلوقراطية) فيزداد ضجيج عصر المعلومات وعولته مبشراً بمجتمع الوفرة المادية والمعرفية ويملام عالمي دائم، بفعل الوفاق الرمزي والشفافية المعلوماتية وهذه أحلام لا تزال تجترها البشرية. فهل أصبحت التكنولوجيا بديلاً عن

الإيديولوجيا إن إيديولوجية الرأسمالية وعولمتها تحيط بنا من كل جانب فلا فكاك من الإيديولوجيا . ولم تكن العلاقة بين الفكر والمجتمع أخطر مما هي عليه الآن . فقد تسالت المعرفة وانسابت في كل المجتمع الإنساني، ودخل الفكر والمعرفة في علاقة جدلية مثيرة مع كل قوى المجتمع بطبقيته وفتاته بصورة واعية أحياناً ولاواعية أحياناً أخرى، وأنقنت هذه القوى فن التهذيب وخففت من فجاجة السيطرة السافرة، مستبدلة بأكثرها فاعلية وسائل رمزية مستتيرة، وهذا ما يستوجب رفع الغطاء عن هذه العلاقات الخفية بين الفكر والمجتمع وذلك باستخراجها من أعماق اللاوعي الاجتماعي، لتبدو ظاهرة للعيان، وهو ما يسمى إليه علم اجتماع المعرفة، فكل مجتمع بل لكل فرد نظامه المعرفي، والمعرفة ظاهرة اجتماعية ونفسية، ورسالة علم اجتماع المعرفة هي الكشف عن ارتباط المعرفة بالواقع الاجتماعي، وتوصيف الآليات التي تمارس من خلالها المعرفة تأثيرها الاجتماعي. شأنها شأن كثير من العلاقات الثقافية الاجتماعية وتعتبر علاقة الفكر بمنظومة المجتمع إشكالية وتراوحت الآراء بشأنها ما بين إنكار وجود علاقة أصل، وبين التطابق التام بينهما، وكذلك ما بين كون المجتمع هو الذي يولد فكره ونظمه المعرفية، وبين كونه صنيعة هذا الفكر وتلك النظم وقد عجز الفكر الإنساني حتى الآن عن تقديم جواباً شافياً للسؤال المحوري وهو: من من أين تنشأ الأفكار؟ فهي مرة تسقط علينا من السماء وأخرى وليدة العقل الإنساني المقامر. يقول (كانط) إن المعرفة متأصلة في العقل، تنمو كما تنمو النباتات من البذور ويراهها الصينيون نماذج عليا تسمى إليها كل الثقافات، وما يعترض عليه بشدة أهل النسبية الثقافية، بأنواعها: نسبية تاريخية ترى لكل عصر فكره وأنماط معرفته، ونسبية طبقية: تصنف العالم إلى عالم بروليتاري وعالم برجوازي وعالم أرسقراطي، (عادل السكري ١٩٩٩) ونسبية إيديولوجية: تقسم صنوف الفكر إلى فكر اشتراكي، وآخر رأسمالي، وفكر إسلامي، وفكر مسيحي. هناك كثير من المدارس ترى أن الفكر وليد منظومته الاجتماعية، وأن الوعي الاجتماعي انعكاس للوجود الاجتماعي وهذه الطريقة يُؤلد إيديولوجيته بنفسه وليس كما يعتقد أهل الحتمية التاريخية أن المجتمع

مسوقاً إلى غاية بعينها ولا بد أن يصل إليها طال الزمن أم قصر، ويرى (كارل ما نهايم) أن الظروف السائدة هي التي تحدد النماذج المعرفية العليا. والمقولات في نموذج المجتمع (لإميل دور كايم) ذات أصل اجتماعي، وهذا ينطبق على جميع المقولات دون استثناء حتى على مقولة الزمن وتقسيمه إلى سنوات وفصول، ويراها دور كايم إلى إيقاع حركة المجتمع المتمثلة في مواسم حصاده ومناخه وطقوسه الدينية وأعياده الوطنية، (عادل السكري ١٩٩٩) وعند التجريبيين كل معرفة تستمد من التجربة، من خلال التفاعل بين الفرد والمجتمع. أما البرجماتيون لا يعنيهم تفاعل الفكر والمجتمع بل كل ما يعنيهم الآثار والنتائج العملية لتطبيق الآراء والأفكار في البيئة الاجتماعية، وتصل تبعية الفكر للمجتمع إلى أقصاها في النموذج الماركسي، وهنا تبرز ثقافة المجتمع وحصاد أفكاره، وهو ناتج فرعي تطور إنتاجه ونمط اقتصاده، ويرى (أوجست كونت) أن تطور المجتمع تابع لفكره، ويحدد ذلك بثلاثة مراحل للتطور:

١ - التطور البدائي أو الديني.

٢ - التطور الإعلائي أو الميتافيزيقي.

٣ - التطور الوصفي أو العلمي. وهو ما أكده سان سيمون عندما ربط بين النظم الاجتماعية ونظم المعرفة، فالنظم العسكرية ترتبط بالنظم الدينية. في حين ترتبط النظم الصناعية بالنظم الفنية ذات الطابع التكنولوجي، (عادل السكري ١٩٩٩) وإن نُظِمَ ما بعد الصناعة مرتبطة بالمعرفة الرمزية المجردة، ويوجد من منظري علم الاجتماع من يقول: أن هناك توافق تام بين الواقع الاجتماعي والنسق المعرفي السائد، وبناء عليه يتبع الفكر تطور الإنسان بالقدر الذي يتبع تطور فكره. فتحددت أوصاف الإنسان عبر الأزمنة: من الإنسان القنّاص إلى الرعوي إلى الزراعي إلى الصناعي (عادل السكري ١٩٩٩) وفي عصر المعلومات كدنا أن نصفه بالإنسان الاتصالي، وهناك من يصفه بالإنسان النحوي تأكيداً للدور الذي تلعبه اللغة في وراثة الإنسان. لا خلاف أن علاقة الفكر بمنظومة المجتمع ليست أحادية الاتجاه لأنها ذات طابع جدلي تبادلي عنيف. وهنا ربما يمثل مبدأ التآخي الاختياري موقفاً

وسطاً ليناً بين الموقف الذي يرى الفكر صنعة مجتمعه، والموقف الآخر الذي يرى المجتمع صنعة فكره (سامي خشبة ١٩٩٤) وفقاً لمبدأ التآخي الاختياري هذا، فإن نشوء الأفكار ليس مرتبطاً بشروط اجتماعية معينة، فالأفكار يمكن أن تكون نتيجة العقول المفامرة، وفي جميع الأحوال لا بد من توافر شروط اجتماعية معينة حتى تكون هذه الأفكار فعالة ومؤثرة، ونرى أن مجتمع المعلومات يمثل بيئة صالحة للتحقق من صحة مبدأ التآخي الاختياري، بعد أن أصبح الأداء الكلي لمجتمع المعلومات متعلقاً بأفكار المفامرين الجدد، أصحاب: النظم والأفكار والبرامج، ويتوقف نجاح هذه الانجازات التكنولوجية على توافر الطلب الاجتماعي، ويبدو كلما تقدم المجتمع وتسارع إيقاعه، أصبح أكثر قابلية لدمج الفكر بنسيجه، وقد أثبتت الإنترنت صحة هذه الرأي في الدول المتقدمة إعلامياً.

ب - علاقة الفكر بمنظومة السياسة: لقد أقام (أفلاطون) الفلاسفة حكماً في جمهوريته لأنه كان على علم بما للفكر من أهمية في السياسة، وبعد أن أصبح السياسة من غير الفلاسفة راحوا يبحثون عن سند فكري يؤازر قراراتهم وممارساتهم من أجل الحفاظ على القيم والعقائد فوجدوه بسند الفكر الديني، ومرة في الفكر العسكري من أجل الدفاع عن الوطن المقدس، وأخرى في الفكر الاقتصادي من أجل الإسراع في التنمية، وأخيراً اهتدى رجال السياسة إلى الفكر العلمي وسيلة لعقنة ممارساتهم وتمير قراراتهم وبرعوا في أن يجعلوا من شبه العلم ومن بريقه وسائل للتضليل والتشويش، ولكن ما أن صارت المعرفة والفكر في خدمة السياسة حتى برز السؤال التالي: المعرفة ممن؟ ومن أجل من؟ وبالحقيقة يفاجئنا الفكر السياسي الحديث بطابعه البرجماتي، من كتاب الأمير (ماكيافيللي) إلى آخر كتاب في الفكر السياسي، يتخلف الفكر السياسي عن تطور المجتمع الإنساني، ونحن بأمس الحاجة إلى مراجعة شاملة لعلاقة الفكر بمنظومة الفكر السياسي، ونحن بحاجة إلى فكر سياسي جديد، يكشف عن وجه الديمقراطية المزيف، (ليحرر سجناء الهواء الطلق)، كما قال (أدورنو) الذين يعتقدون أنهم أحرار وما هم بأحرار، يساقون إلى صناديق الاقتراع كالقطيع وتحصد آراهم ومواقفهم إحصائيات

قياس الرأي العام، وتتعدى على معاناتهم إدارات تلقي الشكاوى، ونظم الرد الآلية على رسائل المواطنين، والفكر السياسي أصبح رهينة للفكر الاقتصادي، خادماً لأباطرته، وحان لهذا الفكر أن يبحث عن فلسفة اجتماعية جديدة ترد له اعتباره الأخلاقي، ليتسنى للسياسة القيام بدورها لفرض حد أدنى من النظام، وسط فوضى لن ترحم أحداً، ينذر بوقوعها مجتمع المعلومات، والعولمة السياسية الآن تحاول جاهدة أدلجة رأسماليتها المتطورة، ويتأرجح الفكر السياسي كغيره بين الحداثي وما بعدها، ويعتقد الكثيرون أن الفكر السياسي الحداثي بحاجة إلى تغيير، ويؤمن غيرهم أن (ما بعد الحداثة) مازالت بحاجة إلى نظرية سياسية أكثر تماسكاً وواقعية.

ج - علاقة الفكر بالاقتصاد: لقد ارتقت علاقة الفكر بالاقتصاد نتيجة عصر اقتصاد المعرفة وصناعة الثقافة، وصارت الموارد الرمزية أكثر أهمية من الموارد المادية، وفاقت أهمية رأس المال الذهني ذلك رأس المال المادي، ونحن ننتظر في هذه التغيرات التي مستلماً على منظومة الاقتصاد من جراء ما فعله بها تكنولوجيا المعلومات، والتي مازالت تبحث عن الأسس التي قامت عليها هذه المنظومة، وخاصة عن مفهوم القيمة ومفهوم الملكية، والقيمة لم تعد تقتصر على (ثنائية قيمة المنفعة وقيمة التبادل) وأصبحت المعلومة ذات قيمة يمكن قياسها وحساب عائدها، واتسع مفهوم الملكية ليشمل الملكية الفكرية بكل ما ينطوي عليها من قضايا اقتصادية، تحتاج إلى فكر اقتصادي جديد، فكر مناهض لفكر عولمة الاقتصاد، والذي يتم اليوم إعادة بلورته ليعاد إنتاج المجتمع الرأسمالي ونحن بحاجة إلى اقتصاد يعمل على تحقيق تنمية مستدامة، بتطبيقاته وتناقضاته وسوء توزيع ثرواته وموارده وطابعه الاستهلاكي، ونحن لا نريد فقط تعظيم العائد المادي وزيادة الكفاءة الإنتاجية على حساب فرص العمل ورفاهية العمال.

د - علاقة الفكر الثقافي بانسجام التفكير الأخرى: إن الفكر الثقافي يرتبط بالفكر الفلسفي والفكر العلمي والفكر الهندسي، وتناولنا في الفقرات السابقة علاقته بالفكر الفلسفي والعلمي وقيمت علاقته بالفكر الهندسي واليوم أصبحت منظومة الثقافة في غاية التعقيد، وتعرف الهندسة بأنها فن

التحكم في النظم المعقدة. ومن هذا القبيل يمكن أن تزداد صلة الفكر الثقافي بالفكر الهندسي ويدت في الأفق بواحد هذا اللقاء منها: هندسة اللغة، هندسة الحوار، هندسة الخيال.

هـ - علاقة الفكر الثقافي بالمكونات الاجتماعية الأخرى: وهنا يجب كسر احتكار النخبة للفكر الثقافي وإتاحته للعامة من الناس في صور مختلفة ومستويات متدرجة. وفيما يخص النخبة من مجتمعاتها: هناك من يرى أن المجتمع يجب أن يوجه فكر نخبته الثقافية القادر أن يسمو بنفسه فوق واقع مجتمعه، متجاوزاً تناقضاته، محققاً طموحاته وتوقعاته، وفي رأي هؤلاء أن تسليم الأمور إلى النخبة الثقافية ضرورة من ضرورات المجتمع الديمقراطي، ويرى فريق آخر أن تسليم الأمور إليها شيء منافي للديمقراطية، ويؤدي إلى حرمان الأكثرية من حقوقها الثقافية. وقد قال (ميلان كون ديرا) الأديب التشيكي الذي كان مرشحاً لجائزة نوبل: لقد اختزلت أوروبا نفسها في خمسين عملاً عبثياً لم تضمها أبداً، انتبهوا جيداً إلى هذا التفاوت المثير للحق، ملايين من الأوروبيين لا يمثلون شيئاً، مقابل خمسين اسماً يمثلون كل شيء، التفاوت الطبقي حادثٌ ضئيلٌ إذا ما قورن بهذا التفاوت الميثافيزيقي، الذي يحول البعض إلى ذرات رمل، بينما ينسب إلى البعض الآخر معنى الكائن.

- علاقة منظومة الفكر الثقافي العربي بخارجها:

أ - فكرنا الثقافي ومنظومة مجتمعاتنا: قد كان (صاعد الأندلسي) أحد أهم كبار علماء الشريعة في الأندلس وهو أول من وضع حجر الأساس لعلم اجتماع المعرفة في (كتاب طبقات الأمم) لتفسير العلوم والمعارف بالرجوع إلى الواقع الإقليمي والجغرافي (عادل السكري ١٩٩٩) ويقول ابن خلدون أن التقدم الحضاري مرتبط بالتقدم العلمي هذا عن السلف أما الخلف: فيقر بصعوبة ملاحقة فكرنا بمنظومة مجتمعاتنا العربي وذلك بسبب: - عدم وضوح خارطة الثقافة العربية - انعدام الاهتمام بالفن والموسيقى والتشكيل وجميع فنون الأداء، هذا على جانب الفكر، فعماذا عن المجتمع؟

يصعب الحديث عن أي فكر بسبب الاضطراب الاجتماعي وضبابية الرؤية والحساسية التي يصعب امتيعها، وقبل هذا يجب أن تخضع مجتمعاتنا لتحليل منهجي دقيق. فما دور فكرنا الثقافي بأدائنا الاجتماعي؟ ما هو دور التربية والتعليم في الأداء الاقتصادي؟ وأين اللغة العربية من أدائنا السياسي والتفاوضي؟ لماذا لم نستطع تفسير القرار/ ٢٤٢/ الصادر عن مجلس الأمن عقب هزيمة ١٩٦٧؟ هل تمكن فكرنا الديني أن يصوغ ثقافتنا أو يصنعها؟ إذا كانت هزيمة /١٩٦٧/ بسبب عدم تمسكنا بديننا، فهل كانت إسرائيل عصاً بيد الله سبحانه لتؤدب العرب؟ وهل إسرائيل ملتزمة بالدين؟ وكلنا سمع وقرأ ما أعلنه حاخامات إسرائيل بالسماح للمرأة الإسرائيلية بمضاجعة العربي إذا كان ذلك يخدم مصلحة إسرائيل، وهنا نحن بحاجة إلى جهد قومي كبير لإعادة اللحمة بين مؤسساتنا الاجتماعية وفكرنا الثقافي المحاصر داخلياً وخارجياً.

ب - علاقة فكرنا الثقافي بالسياسة: إن التنوع السياسي يشري الرؤية الاجتماعية، فكلما تعددت طرق الرؤية قل ما لا يرى. ولا نستطيع الإبقاء على الفكر العربي دفين التراب، وقابلية الفكر العربي للحياة تعتمد في توليده لثقافة الوعي عن طريق ممارسات وسلوكيات وخلق أنماط حياة بقيم ومعتقدات جديدة، وأولويات في ممارسة التنوير، وشأننا في هذا كراكب الدراجة الهوائية، لكي يبقى متوازناً عليه أن يبقي الدواسات في حركة مستمرة. ونحن نميل إلى (برنار باربر) ونشاركه الرأي في أن هناك (ميلاً في المدارس الحديثة لإعطاء مزيداً من الاهتمام لتنمية الأفكار أكثر من مجرد نقلها بشكل فعال للغير) (وكذلك تحديد) كيف تعد تلك الأفكار استمراراً لتطورات سابقة. ونخلص إلى القول بحقيقة معروفة للجميع: إن تطور فكرنا الثقافي وثقافة الوعي مرتبطان بتوفر الحرية السياسية ولا ينمو الفكر العربي إلا بتوافر الطلب عليه وعلى منتجاته وخدماته، ونمو الطلب عليه مرتبط بمفكرين قادرين على تسويق منتجاتهم الفكرية والإبداعية. كان أرسطو على حق حين بيّن عندما قال: أن التوازن بين الثقافات (أنماط الحياة) هو مفتاح تحقيق الحكومة الجيدة، وكلما استبعدت الحكومة أنماطاً من الحياة

تخسر الحكمة، فتزيد من المتاعب لنفسها، والنظم السياسية التي تشجع تنوع الثقافات (أنماط الحياة) تزيد كثيراً فالتنوع وحده يحفظ الحياة (نظرية الثقافة ١٩٩٧) فهل العرب هم الصابرون الذين يرثون الأرض؟ أم كما قال لنا أحد قادة الصهاينة: (لكم السماء ولنا الأرض). وفكرنا الثقافي في مهمة صعبة عليه إنجازها:

١ - التصدي للمشروع الإسرائيلي الذي يستغل أسلحة الثقافة والقوة العسكرية لدعم سياساته التوسعية.

٢ - أن يشتبك ويحاور السياسة الداخلية ليحصل على حرية الفكر والرأي.

٣ - أن يشارك في وضع منظومة سياسية قومية لا تستثني أحداً.

٤ - أن يوسع من مفاهيمه وأفكاره في علوم اللسانيات الحديث، وهكذا فكرنا الثقافي مستقطباً سياسياً، وسياستنا مستقطبة في دوامة الصراع العربي الإسرائيلي وهذا الاستقطاب المزدوج يبقى إلى أن ينسى فكرنا الثقافي جوانب عدة في علاقته مع منظومته السياسية وخاصة ما يتعلق بأجهزة الإعلام.

ج - علاقة فكرنا الثقافي بالمكونات الاجتماعية: فكرنا الثقافي فكر نخيوي، يتوجب عليه أن يفتح قنوات للحوار بينه وبين فكر ثقافته الشعبية، وإلا سيكون مصير هذا الفكر الفشل في الحوار والأداء، وهنا بيت الداء، كيف يخلق هذا الفكر قنوات غير رسمية للحوار مع الجماهير الواسعة؟ وهل يوجد أفضل من الإنترنت؟ بالإضافة إلى الندوات والمحاضرات ووسائل الإعلام، لأن فكرنا هو فكر عاجز عن التواصل، وهذا ما يجعله في مهب الريح.

د - علاقة فكرنا الثقافي بأنماط الفكر الأخرى: هيمنت علاقة فكرنا الثقافي بالأدب على علاقته بأنماط الفكر الأخرى، وبخاصة الفكر العلمي، كما سيطرت الثنائية الثقافية بين فكر العلوم الطبيعية/ وفكر الإنسانيات، ونأمل أن تساهم تكنولوجيا المعلومات في التخلص من هذه الثنائية، وهناك بعض المبادرات لهندسة اللغة العربية لتأهيلها للمعالجة بواسطة الكمبيوتر وتشمل: معالجتها: نحويًا ورياضياً ومعميًّا وقواعديًّا وشبكات دلالية.

هـ - علاقة فكرنا الثقافي بالاقتصاد: تمكنت السياسة من استقطاب فكرنا الثقافي على حساب علاقته بالاقتصاد، وهذا ما يجب تداركه في ضوء عصر المعلومات ومتغيرات العولمة وتزايد أهمية صناعة الثقافة، وعلى الفكر الاقتصادي العربي مراعاة الجانب الاجتماعي والأخلاقي لمنظومة الثقافة وتجديد الحوار مع الفكر الاقتصادي الإسلامي من منظور معلوماتي، وطريقة تفكيرنا مرتبطة بالجانب الاقتصادي، فمجتمع الآلة مرتبط بالوقت، بينما القلاح لا يعنيه الوقت، فحياته مستقرة في حضيض الزمن، والزمن هو الذي يأتي إليه ليحرقه.

العناصر الداخلية لمنظومة الفكر الثقافي العربي:

الفكر الثقافي، يمكن أن نشطره إلى شطرين، الأول: فكر ثقافي قائم بذاته وهو ما تعرضنا له في الفصل السابق، والشق الثاني هي روافد فروع فكر الثقافة المختلفة: فكر اللغة - فكر التربية - فكر الإعلام - الفكر الديني - فكر معالجة التراث - فكر الإبداع والذي يغطي الفنون جميعها وسنتناول في الفصول القادمة كلاً من روافد الفكر الثقافي هذه، ويمثل رافد فكر اللغة أهم روافد الفكر الثقافي. وسيتصدر حديثنا على بعض الخصائص العامة التي تشترك فيها هذه الروافد كلها وأهمها هي: فكر غير خطي - فكر غير استاتي - فكر غير ثنائي - فكر غير تخصصي. أهم خصائصها:

أ- فكر غير خطي: اتسم الفكر الماضي بالطابع الخطي، وذلك الذي يرى معظم الظواهر في هيئة سلاسل متلاحقة متدرجة تتحرك من نقطة بداية باتجاه نهايات محددة مسبقاً وفكر الإنسان ينمو خطياً من التفكير الحسي الفريري إلى إدراك المحسوسات، ثم التعامل مع المجردات. ومعرفة المجتمعات هي الأخرى ترتقي خطياً من الأسطورة إلى السحر إلى الميتافيزيقا إلى العلم. وعلى صعيد علاقة التكنولوجيا بالمجتمع فقد طرحها الفكر الماضي بطريقة خطية، مثلاً: العلم يكتشف، والتكنولوجيا تطبق والمجتمع يتكيف معها. وأما خطية الفكر التاريخي وأصحة في أحداثه المتعاقبة، وسرده ذي التتالي الزمني والمتسلسل، وتأتي فلسفة هيجل لتضيف الغائية إلى الخطية وإحالت التاريخ

إلى مسار جدلي متصل يتحرك خطياً نحو غايات مطلقة، إنها النزعة الخطية التي سادت في فكر الماضي والتي يرجعها البعض إلى تكنولوجيا الطباعة، ونصوصها ذات التسابع الخطي الصلب: من الحروف إلى الكلمات ومن الكلمات إلى الجمل والفقرات فالنص الكامل. ويمثل الطابع الخطي تناقضاً جوهرياً مع الواقع فمعظم ظواهر هذا الواقع ذات طابع غير خطي حيث النقلات الفجائية والتغيرات العشوائية ومسارات التفكير المتوازية والمتداخلة. ويعتقد الكثيرون أن تكنولوجيا المعلومات قادرة على تخليص الفكر الإنساني من ميكانيكية التفكير الخطي، وقوانين العلية والأثر الكامنة وراءه وينبوا اعتقادهم أن تكنولوجيا المعلومات لا تتعامل مع النصوص فقط، بل مع الصور والأشكال أيضاً، وهي غير خطية بحكم طبيعتها، توفر نُظُم معالجة النصوص آلياً وسائل عدة للقفز فوق خطية النصوص مثل حلقات التشعب النصي التي تسمح بالتبقل الحر من أي موضع بالنص إلى موضع آخر.

ب - فكر غير استتائي: سريع التكيف مع الواقع قادر على استيعاب ظواهر الأزمنة الكبرى: تاريخية - جيولوجية - بيولوجية، وظواهر الأزمنة الصغرى فهو يتعامل مع ظاهرة الزمن بصورة مرنة، فهو يرى التاريخ من منظور الحاضر، ويحاصر المستقبل بسيناريواته وبدائل احتمالاته، ويمكنه استيعاب خلط الزمن الذي يجمع ما بين الماضي والحاضر، والمتوقع، ويمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تخلصنا من الفكر ذي الطابع الاستتائي، بعد أن طوعت عنصر الزمن، فباستطاعتها تفتيته ووضعته في وحدات متناهية الصغر، أن تقبض عليه وتلعب فيه طويلاً وقصيراً عبر المحاكاة الرقمية.

ج - فكر غير ثنائي: يرى الظواهر في سياق متصل، يستطيع أن يحدد مسار التدرج بين أطراف الثنائيات التي رسمت في أذهاننا، من قبيل مثلاً، ثنائية المثالية والمادية، وثنائية الذاتية والموضوعية، وثنائية العلوم والفنون، وهناك فارق بين تكنولوجيا المعلومات وغيرها من التكنولوجيات فهي تحطم كثيراً من الثنائيات، وأهمها: - ثنائية المادي وغير المادي - ثنائية العضوي وغير العضوي - ثنائية الجوهري وغير الجوهري - وثنائية الواقعي والخيالي

- وهناك العديد من هذه الثنائيات مثلاً: ثنائية الإنتاج والاستهلاك - ثنائية الرمز والمدلول - ثنائية المجاز والحرف - ثنائية المكتوب والمنطوق - ثنائية البشري والآلي - ثنائية التعليم والتعلم - ثنائية التعليم والتربية - ثنائية المدرسة والعمل - ثنائية الفرد والجماعة - وسيطرت علينا هذه الثنائيات في الماضي مرة تجعلها هدفاً لنا وأخرى وسيلة للوصول إلى الهدف، وكان لهذه الثنائيات كبير الأثر على تفكيرنا مُتَطَلِّقاً وَمَخْرَجاً، فهي كانت تصوغ غايتنا وتوجه أداءنا وتشكل علاقاتنا وتصوراتنا، عن عالمنا وذاتنا وهي خادعة في عملها تجعل التفكير بين بديلين لا ثالث لهما، تقضي على الطيف المعرفي الموجود بينهما، فيتعذر فهم الطبيعة الجدلية بينهما .

د - فكر غير تخصصي: قادر على اقتحام كل الحواجز بين أنواع المعرفة المختلفة، ومعاصرة كل التداخلات التي تربط بينها، ولا تزال تكنولوجيا المعلومات تعمل لكسر الحواجز المعرفية، بسبب المعالجة الآلية لفصائل المعارف المختلفة، وهذا يتطلب مستويات أعلى من التجريد، وكلما ارتقى التجريد تلاشت الفوارق بين المعارف المتخصصة، وأصبحت هذه المعرفة أكثر قابلية للتلاقي والتلاقح.

ـ العناصر الداخلية لمنظومة فكر الثقافة العربي

إن الفكر العربي ينزع إلى الخطئية المفرطة، لأنه لم يكتسب مهارات المنهج المنظومي حيث بمقدوره أن يتعامل مع عناصر متعددة بعلاقاتها، ومهارات التفكير الشبكي القادر على التعامل مع المدخلات والمخرجات وتعدد المسارات التي تربط بينهما، بالإضافة إلى تعلق الفكر العربي بالثنائيات وحببه الشديد لقانون العلة والأثر، ومثالنا على هذه النزعة الفكرية ما ذهب إليه فكرنا اللغوي في إحدى مراحلها ليجعل لكل قاعدة نحوية علة من خارجها، وربما يكون لذلك صلة بأسباب نزول الآيات القرآنية. أما فيما يخص تعامله مع الزمن فالفكر العربي ذو طابع استاتي يقتصر إلى الدينامكية المطلوبة للتكيف مع الإيقاع السريع لعصر المعلومات.

- هل يغادر فكرنا الثقاية حضن أمه الدافئ؟

لقد استقر فكرنا الثقاية في حضن أمه ولم يجرؤ على الخروج منه، ونحن بأمس الحاجة إلى تحفيز وتنوير فكرنا لمواجهة الفكر الغربي، ليضمن له الحضور في عالم الإبداع والابتكار والتجديد، عندها يتطهر من أدران التخلف ويخرج من دهاليز العتمة إلى قدام التنوير والحدأة، فالتغير والتغيير هما الرافعة لتغيير نظرتنا إلى الحياة وإلى محيطنا بل إلى داخلنا، فلا أحد يتطور في انعزال عن المحيط به، والمزيد من المعلومات يغير نظرتنا إلى الماضي والمستقبل، فلا إله يرمي النرد. والواقع يثبنا إليه بتغييراته الاجتماعية السريعة: (فوضى - لا استقرار - تنوع - لا توازن - علاقات لا خطية - ومدخلات صغيرة تعطي نتائج مذهلة. حساسية متعظمة لمجريات الزمن) والحقيقة أن الكون يكبر في العمر، وترتفع درجة حرارته، وهناك فقدان للطاقة لا يمكن تفاديه وبهذا تضعف قدرتها على دعم بُنى أخرى، ولكن التنظيم هو بالضبط ما يغطي منظومة التنوع الداخلي. وهنا تفقد نظرية دارون روعتها ودقتها. (بريفوجين وستجر ٢٠٠٨).

ونود هنا أن نصوغ الخصائص العامة لروافد فكر الثقافة في صيغة النفي (السلب) والشواش، لأن الفكر العربي وحيد الاتجاه في سمته العام، يبتعد عن التعامل مع ظواهر (السلب) النفي والشواش لإنتاج نظام جديد.

فكرنا العربي يستأنس بالنفي (السلب) والشواش،

إن عالم النفي الساحر الذي يستهل بـ(لا) مثل: اللاوعي - اللاتهاهي - مدارس بلا معلمين - كتابة بلا ورق - رحلة بلا انتقال. وكلمات أخرى تحمل نفس المعنى، مثل: الوجود والعدم، الإغفال والإلغاء، المعارضة والرفض، الغير والضد، النقد والخلاف، الهلامية والتعقد، ونحن لا ندعو إلى الفوضى أو إلى العدمية وإنما هدفنا دمج ما هو إيجابي بما هو سلبى بدون إسقاطه من حساباتنا، لنحصل على جواز سفر للدخول في الأماكن التي يتعذر دخولنا إليها، كالمناطق المهجورة والأماكن المحرمة، وتجميع الجسور فوق الفجوات، ونحن نهدف إلى إدراج النفي في تفكيرنا لما له من أهمية، ولا نسقطه من حساباتنا بل نعبد الهيبة إليه.

فهي دعوة للتكامل والتوازن حتى لا نواجه عصرنا وتحن معاقون لا نستطيع التصدي أو اللحاق بالركب الحضاري، هنا يحضرنا ما قاله نيتشه: (نحن ننزع إلى السلب ولا بد لنا من فعل ذلك، لأن ثمة أشياء بداخلنا تصر على البقاء، وتصبو إلى الإيجاب) ويكفي فكرنا الثقيل أنه خضع لكل ما هو إيجابي عبر تاريخه الطويل بإنجازاته وإنحيازاته، فهو فكر قطعي، محدد، موجه، يخشى كل ما هو زائغ أو متداخل أو متشابه، يتفر من الفموض والاختلاف يهوى الإجماع، ولا يقوى على الصبر أمام المشكلات، يحمي نصوصه من حرية التأويل وتعدد القراءات، يمنع استعمال: (النبوية التفكيرية والحدثة). من أين لنا أن ندرك ألعيب السياسة والإعلام واللغة واحترام البيئة؟ وفشلنا في فهم البنى الاجتماعية والفوقية والفكرية وجميع الظواهر، وهل يمكن أن يكون للفوضى نظريتها الناعمة؟ وللتعقد آليته وهيكله ونسقه واتساقه؟ لقد سقطنا أسرى وحيارى إزاء البساطة المفرطة، وهناك مظاهر عديدة لا تخضع للحس الطبيعي ولا للمنطق أو قانون العلة والأثر، ولا للفعل ورد الفعل، ناهيك عن قائمة الثنائيات: الشكل والمضمون، والرمز والمعنى، السلفية والمعاصرة، وتمسكنا بهذا يعني أننا فقدنا بصيرتنا وبصيرتنا، والفكر الغربي تخلص من هذه الثنائيات عندما انطلق، فهي وسيلة لتنظيم الفكر ولا غاية لها، وهكذا استرحنا منعمين في حضن وعي ممرق زائف وما علينا إلا أن نلحق بقوائم العيب والفوضى كل ما يتجاوز قدرة عقولنا: من نظم ومعلومات واشكاليات، وليس لنا إلا أن نحتمي أنفسنا من تيار الفكر الهادر، وبهذا تتراكم طبقات الجهل لدينا. ولا يهدأ بال بعضنا إلا وهو يرمي الآخرين بوصمة الجهالة، حتى تأتي إليه من ذوي الجهالة هؤلاء الحقائق والمعارف والنظريات القائمة على استيعاب ظاهرة النفي هذه، وقد اندرجت في إطار الخطط والاستراتيجيات وتشكلت على هيئة وسائل عملية في كل ما يمارس علينا.

رحلة التنقيب عن النفي (السلب): والآن نجوب حقول المعرفة الإنسانية المختلفة من الفن إلى العلم، من التربية إلى الإعلام، من الهندسة إلى الفلسفة ليتضح لنا دوره في اغناء المعرفة الإنسانية على اختلاف مراحلها، ولا بد من

التساؤل في نهاية كل فقرة لاستدراج العام إلى الخاص العربي لمواجهة الفكر الغربي.

نتائج رحلة التنقيب عن النفي (الشواش):

الشواش ونظرية الوراثة: احتل الشواش مكاناً متقدماً في نظرية الوراثة، لأنها تقوم في الأساس على (الشواش) والعشوائية في الصدفة حيث قامت على فرضية الانتخاب الطبيعي، وقد رفض الكثيرون هذه العشوائية كتفسير لتطور الكائنات الحية، وقد حاول البعض وضع نماذج رياضية تحاكي عملية التطور باستخدام الكمبيوتر لإثبات عدم صحتها إحصائياً، وبقي عنصر الشواش يبحث عن رفيقه ليكمل ويتكامل معه إلى أن حمله إليه علم البيولوجيا الجزيئية، واكتشف سر الكود الوراثي الذي أودعه الخالق (كموسومات) نواة الخلية، وهو يتألف من كلمات ومقاطع تصيغ التعبير الوراثي، يختزن بدوره معادلات توليد البروتين، مادة الحياة الرئيسية، وأثبتت دراسات البيولوجيا الجزيئية أن النم، الوراثي الكامن في النواة يحتوي طائفاً أو حشواً زائداً، وفيه تكرارٌ وكبسٌ وإشكاليةٌ، وثبت أنه سبب (الخطأ الوراثي) المؤدي بدوره إلى تنوع الكائنات وتطورها، لكن عملية التطور نفسها ليست بالعشوائية المحضة، وإنما شكل من حرية التعبير الوراثي، محكومٌ بقواعدٍ نحويةٍ دقيقةٍ، تحدد مجال الحرية، وتجعل معالجة المعلومات الوراثية تسير في هذا الاتجاه ولنفس الغاية الممينة وهو السر وراء تنوع الحياة وارتقاء الكائن البشري، والنم الوراثي للإنسان يتضمن طائفاً لغوياً أكثر غزارة ومرونة من غيره من الكائنات، ونحوه الوراثي أكثر بلاغة من غيره، وهذا ما يزيد في احتمالات الصدفة، ويزيد في قدرة الكود الوراثي على التعبير (البيولوجي) وعلينا أن نعي مغزى الفواسم المشتركة بين لغة الجينات واللغة الإنسانية، ونعي أن تطور الكائنات ولید هذا المزج بين (الشواش) و(الايجابي) بين عشوائية الصدفة والانتظام بالنحو، بين حرية التعبير والقيود التي تحكم الاحتمالات الممكنة، فلا تعارض بين ما أوردناه وقوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) وما أروعها من قدرة إلهية عظيمة في أبهى

صورها متمثلة في هذا الكائن الإنساني. وكيف انبثقت العضوية من اللا عضوية؟^(١) وكيف انتظمت بقدرته الإلهية عشوائية الحين؟

ب - الشواش والدماغ البشري: الشواش عنصر ملازم لمخ الإنسان في تطوره أو وظيفته أو في بنيته أو بطئته المميز في تطوره عبر العصور الجيولوجية، أو أثناء نموه الفيزيولوجي من الولادة حتى فترة النضج، والحيوان يولد ومعه مكتمل، بينما الإنسان يحتاج إلى سنوات عدة، ليتجاوز الفعل ورد الفعل والمؤثرات مثل القدرة على التخيل والتجريد وقراءة الرموز، عندها يتأهل للقيام بالعمليات الذهنية الراقية هذا عن صيرورة نضجه، أما عن بنيته فهو يختلف عن مخ الحيوان بانشطاره إلى شقين مختلفين: النصف الأيمن والنصف الأيسر ولكل شق مهامه وكيفية تنظيم تلك المهام، بينما دماغ الحيوان متماثل، والإنسان ليس بحاجة إلى هذا التماثل وربما كان الحيوان بحاجة إلى هذا التماثل ليتعاشى مهاجمة الحيوانات المفترسة، وعدم تماثل مخ الإنسان يجعله أقل حذراً من الحيوان، ولكن هذا السلب (عدم التماثل) هو نوع من التكامل.

- وظائف الدماغ البشري: له القدرة على التخيل والحدس والمنطق والمزج بينها، يساعد الإنسان على التكيف مع محيطه وبيئته، والتعامل مع (الشواش) والسلب ملازم لمخ الإنسان في تطوره ونموه أو بنيته العامة أو وظائفه، وهو بطيء في تطوره ونموه، والمخ البشري يدين لهذا البطء بتميزه في تطوره عبر العصور الجيولوجية أو في نموه الفيزيولوجي من ولادته حتى اكتمال نضجه، وإذا كانت الحيوانات تولد بمخ مكتمل النمو، فالإنسان يحتاج إلى سنوات عدة ليتأهل للقيام بالوظائف الذهنية الراقية، فيتجاوز غريزة الفعل ورد الفعل ويمتلك القدرة على الخيال والتجريد والتعامل مع الرموز هذا فيما يخص نضجه وتطوره، بعد أن كانت تعمل الشبكة الدماغية في حدها الأدنى بمبدأ الإثارة والإحباط، لأداء الوظيفة الذهنية الأولية، وهو يختلف في بنيته، عن

١ - التراب والطين يعتبران من المولد العضوية، ولكن نقول خلق الحي من الميت وخلق الميت من الحي.

مخ الحيوان في عدم تماثله فيختلف نصفه الأيمن عن نصفه الأيسر من حيث
 المهام الموكلة إلى كل منهما، أو الكيفية التي تنظم بها هذه المهام، والإنسان
 ليس بحاجة إلى هذا التماثل خلافاً للحيوانات التي هي في أمس الحاجة إليه
 ليقبها ما يسكن القابات، حيث يمكن للمعتدي أن ينتقض عليها ويعتبر هذا
 التماثل كجهاز رادار يحدد مصدر الاعتداء المرتقب، وذلك من خلال مقارنة
 الإشارات التي يتلقاها نصفاً المخ المتماثلان. ولهذا كان الإنسان أقل ترقباً
 وحذراً من الحيوان ولكن سلبية التماثل نوع من التكامل، وتكامل النصفين
 هذا يكسبه المرونة والقدرة على المزج المنطقي والحدسي والخيالي والواقعي
 والتعامل مع الشيء ونقيضه، فما هي وظائف المخ؟ إنها تؤهل الإنسان على
 التكيف مع مطالب الحياة وبيئتها وواقعها، وهذه كلها تجعل من التعامل مع
 السلب أمراً أساسياً، وبإمكاننا القول أن وجودنا قائم على التعامل مع السالب
 والموجب، وعنصر السلب يساهم في وظائف المخ على جميع مستوياتها : الدنيا
 والوسطى والعلية، في المستوى الأدنى تعمل الخلايا العصبية - وحدة البناء
 الأساسية للمخ - بمبدأ الإثارة والإحباط، وأداء الوظائف الذهنية الأولية،
 وبالتالي هو حاصل تفاعل السلب والإيجاب، تلك موجب الإثارة وسلب
 الإحباط، وثبت عملياً أن عدد الخلايا العصبية المحيطة أو المطفأة، تفوق
 الخلايا المثارة أو المتوهجة، إنه اقتصاد الفيزيولوجي يعمل على ترشيد
 استخدام الموارد البيولوجية. تمثل معالجة المخ للمعلومات سواء تلك الوافدة
 عبر الحواس أو التي تنتقل إليه من الذاكرة الآلية - الأساسية التي يعتمد
 عليها المخ البشري في تأدية وظائفه الوسطى. وقد قال عالم اللسانيات
 الأعصابية (ميشيل واتكا)، مبيناً لنا الدور الحاسم الذي يلعبه السلب
 (النفي) الشواش في تأدية وظائف المخ الوسطى (إن قدرة العقل على معالجة
 المعلومات تعتمد بصورة أساسية على (فقد) المعلومات لا الاحتفاظ بها)
 فقدرة العقل على التجريد تقوم على حذف التفاصيل من أجل إبراز الجوهر
 واستخلاص المغزى من الشواش والوضوء التي تغلفه. إن الفقد الذي نعنيه
 هو عملية الاختزال التي تصوغ المعلومات العقل في هيئة بنى وأنماط
 مفهومية لأن المفاهيم هي لبنات المعمار الفكري التي يمكن لها أن تتفاعل فيما

بينها . لتوليد معرفة جديدة، وهذه خاصية فريدة لمخنا البشري، تلك التي تحيل السلب: فقداً واختزالاً إلى الانتظام: بناءً وأنماطاً لتزيد من قيمة المعلومات وتفاعليتها وهي تلك الخاصية التي يحلم بها مهندسو الذكاء الاصطناعي في محاولتهم إضفاء نوع من الذكاء الاصطناعي على آلتهم الصماء، وهم اليوم منشغلون كيف يكسبونها نعمة التعميان، حتى يمكنها التعامل مع الواقع خارجها بمنطق إحصائي منطوق (الكذب النبيل) الذي يحمله التعميم الإحصائي الذي يخفي تفاصيل الحقيقة بحثاً عن الكليات والمؤشرات، وذلك بتجاهله الشارد وغير المطرد واختزاله للمتواتر والمتقارب، وفي ذروة إبداع العقل: وهو يكتشف، يخترع، يبادر، يزداد تعامل المخ البشري مع عنصر السلب يقول علم النفس أن الإبداع هو: (وليد ذلك التوازن بين الالتزام بالقواعد وخرقها، وإقامة الفروض وتقنيدها وتحطيم ما هو قائم، وإعادة بنائه، إنه الإبداع ينتج عن التضاد عندما ينتقل العقل خلالها ما بين التركيب والتحليل والعكس). وكيف لنا أن نحجز بلايين الخلايا العصبية عن التنقل من القسم الأيمن إلى القسم الأيسر، ومن حقها أن تلهو بموجبها وسلبها لتبتعد عن أحادية الفكر ودوجمائيته واستاتيته؟ وهل من تعارض بين ذلك والمهمة التي أوكلها إلى الإنسان خالفه العظيم؟ لتبدع كما شاء لها الخالق (سبحانه وتعالى).

ج - المشواش والفلسفة: إن تاريخ الفلسفة وتطورها منذ عهد أرسطو وأفلاطون يعتبر مثلاً للتأرجح بين الانحياز إلى الإيجاب كما نراه في فكر فلاسفة: مثل: وسبينوزا وبرجسون، ونشاهد الانحياز إلى السلب: في فلسفة هيغل التي قامت على صراع الأضداد، وفلسفة نيتشه التي قامت على إلغاء ما قبلها من الصفر، والفلسفة التي أخذ بها فكر ما بعد الحداثة هي: مبدأ التباين، وعلى نقيض فكر الحداثة: مبدأ التطابق. نلاحظ مدى جدية العقل لفرض هيمنته وجبروته ليصبح حلمه واقعاً، وبين ارتداد صاعراً، يؤرقه الشك مُقراً بضعف النفس وحقائق الواقع وقوانين الكون، وفي تأرجح الفكر هذا يبقى الفكر سالكاً مساره الحلزوني المتصاعداً، نحو الأعماق والأصدق والأشمل، ليؤكد قدرة الإنسان للإمساك باليقين الذي ظل يفلت منه دون

لحاق أو اكتمال وقد قيل في علاقة السلب مع الفكر الكثير من قبيل (إن سقراط أكثر الناس حكمة لأنه أكثرهم جهلاً) ترى أننا بحاجة إلى فكر فلسفة جديد، يمارس حقه في التنقل بين جميع أنواع العلوم بين الإيجاب والسلب، بين العلم والميثولوجيا، بين نظرية النظم ونظرية الفوضى، بين نظرية المعلومات ونظرية النقد، بين نظرية التربية ونظرية السيطرة، بين العولمة والعولمة المضادة؟ وقيل حديثاً (من لم ينتقد لا يعتقد) ألا يكفي ما قلناه سابقاً عن أهمية النفي أو (السلب) دليلاً على رسوخه في عالم الفلسفة؟ وكيف لنا أن نواجه عالم اليوم بعدتنا المعرفية المتهالكة؟

د - السلب (النفي) الشواش وتاريخ العلم: إن رحلة العلم هي رحلة أخطائه كما ذكر (توماس كون ١٩٩٢) في كتابه (بنية الثورات العلمية) حيث جعل من الخطأ شرطاً لعملية العلم، وكما قال كارل بوبر: لا يعد العلم علماً ما لم يكن قابلاً للتفنيد، ويحمل في طياته بذرة تخطئته، كما رفض (كارل بوبر) وضعية مدرسة (فيثا) التي ترفض كل ما يندرج في نطاق العلم، إلا ما يمكن إثباته علمياً، والعلم ليس رهينة الإثبات، وهو يتقدم من خلال إقامة الفروض ونقضها أو تقضيها بالسلب، ويقصد إثبات الشيء باستعالة إثبات ما يناقضه، وثبت أن المعرفة تحصل بالتجربة والخطأ، وخطأ النظرية (كما يقول لا كاتوش) لا يعني رفضها بل نحتفظ بها حتى يحل محلها أخرى صحيحة، أو لنقل بأقل خطأ، فالنظريات لا يحكم عليها بمعيار الخطأ والصواب، والمهم أن تبقى في حالة بحث دائم عن حقائق جديدة لدعمها أو تقويضها، وقد ثبت أن العلم لا يتطور بطريقة خطئية، كما أوردت (يمنى الخولي ٢٠٠٠)، يسير في طريق وعرة، وكل عقبة تقهر، تتبعها قطيعة معرفية، مع الفكر القديم انطلاقاً صوب الجديد وتري (يمنى الخولي) أن كل قطيعة معرفية تعتبر تجسيدا وبلورة متألقة لفعل الإنجاز والإبداع وإضاعة جديدة وخطورة إلى الأمام (محمد عابد الجابري ١٩٨٧). ولعلنا نسأل: كما سأل (د. فؤاد زكريا) عن مدى الخطورة عندما نضع النص القرآني بإعجازه العلمي في مطابقة بعض تصوصه بمقولات العلم والمحكوم عليها سلفاً أنها لا تقوى على الصمود ولا بد من أن تجد من يقوضها. فالعلم حمال أخطاء فكيف نستقله

على القرآن الكريم وهو حمال أوجه كما أرشدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه؟

هـ - السلب واللغة: تنتشر مظاهر الشواش والسلب في منظومة اللغة على اختلافها في الجملة، والصوت، والسياق، والحرف، وفي محاولة علم اللسانيات الحديث الارتقاء باللغة إلى مستوى العلم الدقيق، اهتدى بعلم الصوتيات الذي اهتدى بدوره بعلم الفيزياء، وصنفت الأصوات: كالجهر، والهمس، ساكن ومتحرك، الشدة واللين، الصائت والصامت، كما طُبِّقَ في فروع لغة الأخرى: الجمود والاشتقاق، في الصرف، والتقديم والتأخير في النحو، والحرف في المجازي في الدلالة، والأصيل والدخيل في المعجم، هذه أدوات اصطلاحية لصياغة ظواهر اللغة بطريقة منضبطة، وصورية، حتى تخضع للتنظير المنطقي والرياضي ومعالجة الكمبيوتر. لكن بظهور علم اللغة الحديث عن طريق (دي - سوسير) تجاوزت اللغة مستوى الاصطلاح أو ما يسمى وصف اللغة، ودخلت إلى علاقة الدال بالمدلول، وعلاقة الرمز بمعنى، وهي علاقة محورية تحكم أداء المنظومة اللغوية جميعها، واللغة بصفتها وسيلة لنقل المعنى، وقد حررها (دي - سوسير) إن الفكرة العتيقة الماضية التي تزعم أن الرمز غلافاً يحوي المعنى في طياته، ومعنى الرمز تحدده العلاقات التي تربطه بخارجه وليس بداخله، وبكلمة واحدة معنى الرمز: هو مجموع اختلاف مدلوله عن مدلولات باقي الرموز، فمثلاً كوكب القمر نعرفه من خلال معرفتنا للفروق بينه وبين الأجرام السماوية الأخرى التي قد تكبره أو تصغره، وهي فروق تؤدي بدورها إلى معرفة تلك التي تفصل بين الأجرام السماوية وموجودات الكون الأخرى، وللتوضيح نقول: قطعة الحصان في لعبة الشطرنج تحدد اختلاف حركته عن حركات القطع الأخرى مثل الفيل، إذا ليس هناك معنى محدد بداخله، وإنما يحدده اختلافه مع غيره، لقد ذهب الشواش في طريقه ليصل إلى آلية أساسية في التوليد اللغوي والاستيعاب، كما في اللغة الوراثة التي تعتمد مفهوم الفائض أو الحشو، أما في اللغة فيقصد بالفائض اللغوي: تلك العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدالية والمقامية التي تربط بين الحروف والكلمات والجمل والفقرات، التي

يمكن غض النظر عنها لكونها فائضاً، واحتفاظ النص اللغوي بقدرته على نقل المعنى. إن فائض العلاقات والقرائن التي يحتوي عليها النص، يُمكننا من قراءة المعنى بسهولة، وهذا الفائض ليس عيباً بل هو سند لرونتها ومصدر قوتها، يحصنها ضد التشويش والخطأ والغموض، كما يساهم في قلب المعنى، جاعلاً من الوعد وعيداً ومن المديح ذمّاً، ليبقى المعنى متواصلاً بين المتكلم والمستمع، وهذا الفيلسوف (هيتجشتاين) يواجه مشكلة إشكالية المعنى اللغوي من الإغريق وحتى اليوم، وكان الباب الذي ولج منه هو الانطلاق من السلب أو (الشواش) عندما قرر وضع نظرية للمعنى دون شرط مسبق لفهم الجوهر. وسؤالنا كيف نبعث النسخ في جسم لغتنا الرائعة ونعدها لعصر المعلومات في التنظير والتعليم والتربية؟ وعلم اللغة لا يخضع للتخصص وإنما إلى الرياضيات والمنطق والإحصاء والبيولوجي والسيكولوجي وعلم الاجتماع وعلم الكمبيوتر. وعلينا تحرير لغتنا من متخصصيها ونزعتهم التي يغلب عليها الطابع التقريري، وذلك بعد أن أصبحت إشكالية اللغة من الشمولية بحيث يستحيل تناولها من خلال التخصص وهذه كلها مجالات مليئة بالسلب.

و - الشواش والفيزياء: نحن لا نقصد بالشواش أو السلب، الفعل ورد الفعل في الميكانيكا أو الكهرومغناطيسية، نقصد أعماق المادة التي تساهم في تشكيل بنيتها وسلوكها وتفاعلها. وتحت تأثير نظرية نيوتن القاطعة لحساب حركة الأجسام وسرعتها، شاعت النظرية بأن العالم يتحرك وفقاً لقوانين محكمة يعمل كآلة بنظام ويايقاع ثابت ودائم وإن لم يطرأ أمر ما حتى جاء (آينشتاين) وقلب قوانين نيوتن على رأسها، وكما أن سرعة الأجسام تتوقف على كتلتها، فالكتلة هي الأخرى تتوقف على سرعتها، وجعل من الزمن الذي طال ثباته، متغيراً هو الآخر فولدت النسبية لتموت قطعية فيزياء نيوتن، وكل ما جرت به وراءها: من حتميات البيولوجيا، والجغرافيا والتاريخ واللغة والثقافة، ليت الأمر وقف عند هذا الحد ليخرج إلينا (هيزنبرج) بمبدأ (عدم اليقين). لتفسير سلوك الجسيمات في حركتها المرتعشة ويستحيل تحديد سرعتها وموضعها بصورة قاطعة. وهذه الطريقة أصبح عدم اليقين أساساً لتفسير الظواهر الطبيعية وهكذا انتصر (السلب) الشواش في الفيزياء وحقق

موقعاً متميزاً في نواة الذرة (وحدة البناء الأولية في مواد الكون) وبتأسيس (هيزنبرج) لنظرية (الكوانتم) يرفع بالشواش إلى أعلى عليين عندما أطاح باستمرارية الموجات والأطياف مستبدلاً بالاستمرارية عنصر المفاجأة والتدفق المتقطع، فلم يعد الضوء في جوهرة ذلك الشعاع الموجي الساري المتصل بل تدفقات متقطعة متعاقبة تتألف من مزيج للطاقة والكتلة، هذا على المستوى الميكرو المادي، أما على مستوى الماكرو، فجميع النظريات المختلفة لنشأة الكون تبني معظمها مفهوم المادة والمادة المضادة، وهكذا حصل انقلاباً في رؤيتنا للكون الذي لم يعد تلك الآلة التي تعمل في خطية واستمرار، بل هو نظام يعمل بظل قوانين غير خطية وهذا ما يجعله عرضة لعدم الاستقرار والتقلبات والنقلات النوعية والتعدد، وهذا ما يجعلها تبدو فوضوية لفرط اضطرابها، ولكن هذا الكون يبقى مستقراً بفعل نظامه الداخلي وآليات التصحيح الذاتي الكامنة داخلها، إنه ذلك اللقاء بين السلب والعشوائية والانتظام، وتتوالى هذه المشاهد في الكيمياء ومن الميكانيكا إلى الديناميكا الحرارية، والسؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف لعدم اللا يقين ألا يخيفنا عندما يخفي هنا رؤية الواقع بصورة أعمق؟ وكيف نحكم بالخلاف الذي يفتله البعض بينه وبين يقين العقيدة واستمرار القانون الطبيعي؟

ز - الشواش (السلب) والرياضيات: الإيجاب والشواش (السلب) تقوم عليهما مادة الرياضيات والمنطق والحساب والجبر أو الإحصاء الرياضي، ولم تكتمل المنظومة هذه إلا بعد اكتشاف الصفر، وما كان للجبر معنى لولا اكتشاف الموجب و(السالب) التي تسبق حدود معادلاته وتكافؤاته ولم تنفذ مادة الرياضيات إلى عالم الفيزياء الموجبة (كهرباء - صوت - ضوء) إلا بعد اكتشاف الأرقام غير الحقيقية والتخيلية، أما مقولات الرياضيات المنطقية فمآلها إلى الحكم بكونها صواب أو خطأ، وهل لنا أن ننسى فضل أهل القمار على تطور علم الإحصاء الرياضي الذي اتخذ من لعبة النرد وعجلة الروليت مدخلاً أساسياً له، فمن يستطيع أن يوقع السلب حقه في عالم الرياضيات لو اقتصر دوره في صياغة الأبجديات الرياضية، دون أن نتناول علاقة لسلب مع جوهر الإشكال الرياضي، والذي كشف لنا عن طبيعته (كورت جودل)

مؤسس علم الرياضية المنطقية وهو العلم الذي لعب دوراً أساسياً في تطور الكمبيوتر ونظام المعلومات وياكتشافه مبدأ (عدم الاكتمال) ثبت لانهائية الإشكال الرياضي بمعنى ما أن تقوم نظرية جديدة لحل إشكالية معينة إلا وتنتج عنها إشكاليات رياضية جديدة، وهكذا أطاح مبدأ عدم الاكتمال بأمل راود علماء الرياضيات هو الحصول على معادلات أو قوانين جامعة مانعة، لكن مبدأ (عدم الاكتمال) فتح الباب أمامهم - أي علماء الرياضيات بل العلماء بكافة - كي يتطلقوا في فضاء معرفي لانهائي بحثاً عن الصواب أو الأقل خطأ والأعمق والأقل ضحالة ومبدأ (عدم الاكتمال) ذاع صيته في جميع أنواع المعرفة الإنسانية وفي جميع فروع العلوم: البيولوجي والسيكولوجي من الفيزياء إلى الفلسفة، ومن علم الاجتماع إلى علم الفلك، ومن نظرية المعلومات إلى نظرية النقد وعلم القراءة، وهنا يمكننا القول بعد اكتشاف مبدأ (عدم الاكتمال) أو السلب في روعة اكتماله أن لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة في أي من المجالات المعرفية الإنسانية، فالبشرية أسقطت من قاموسها كلمة (نهائية) فالإبداع هبة الخالق لكل البشرية والسؤال هو: عن مدى تقبل كهنواتنا العلمي والثقافي لما يعنيه مبدأ (عدم الاكتمال)؟ ومتى يخفف الماضي من قبضته علينا؟

ح - السلب والمنطق، للمنطق الصوري علاقة أساسية مع عنصر الشواش لأنه ميزان الحكم على صدق المقولات أو بطلانها، والمنطق المعكوس؛ استخلاص المقدمات من النتائج وكذلك إثباتها بالنفي، وهذا يؤكد الموقع الحصين للشواش، في الحقل المنطقي، وشأن السلب والمنطق لا يقتصر عند حدود هذه الأمور التفصيلية بل يتجاوزها لما هو أبعد وأشمل، والمنطق الأرسطي طهر مدى قصوره في التعامل مع: القضايا الذهنية، واللغوية، والهندسية، والاجتماعية. بسبب قطعية المنطق الصوري الذي يتعامل مع المجرد واللازمي والمحدد، فإما القضية لديه خاطئة أو صائبة، ولا شيء بينهما لا يعيز إلا الأبيض أو الأسود دون طيف للتدرج الممتد عبرهما وبسبب استنباطيته وصرامته وصسوريته قطع صلته بالواقع المعيش: احتمالاته ودينامياته وزمنه، كما ثبت قصور منطق الرتبة الأولى لأرسطو في التعامل مع

اللغة: حذفاً وليساً ومجازياً وفوائضها وهنا تنازل عن مثاليته مقراً بضرورة التعامل مع مظاهر السلب وعدم الاكتمال ومبدأ عدم القطع. ونحن نقدر عالياً هذا المنطق الجديد في جميع مجالات: اللغة والفيزياء وعلم النفس وعلم الاجتماع والكمبيوتر والدفاع الجوي ونظم التسليح وإقامة نظام المحاكاة في التخطيط والاختبار.

ط - السلب وعلم النفس: ينطوي علم النفس على السالب والموجب، فهو يناقض الأنا بالآخر، والوعي باللاوعي، انفتاح وانطواء، خير وشر، والاشمور واللامحسوس، واللامضوي، واللاإرادي، هذه منفياته، وقد هذبت نظرية رمزية الوراثة من شواش الانتخاب الطبيعي، وهذب (لا كان) من بدائية الفرائز وعشوائيتها التي ركز عليها (فرويد) أثناء تحليله للنضج النفسي، ويضيف إليها بعداً آخر جاعلاً من النضج الاجتماعي نتيجة تراكم وتداخل فعل الفرائز مع نمو ملكة اكتساب الأنساق الرمزية؛ من لغة وموسيقى ومجردات.

ولولا التقاء الشواش مع الإيجاب لما تعلم الطفل لغته الأم حيث يساهم في النضج الذهني والسؤال المدهش كيف يكتسب الطفل بهذه السرعة لغته الأم برغم تعقدها وصعوبتها، والكلام العشوائي عن الكبار والصغار المملوء بالأخطاء والضوضاء والاقتضاب والتغير والتنوع. ورفض (نعوم تشومسكي) تفسير علماء النفس السلوكيين لهذه الظاهرة، على اكتساب الخبرات عن طريق المؤثرات السلوكية وردود الفعل، وقال: إن الطفل يولد بملكة لغوية أو حد أدنى من المبادئ العامة للغة المشتركة بين جميع اللغات، وبهذا يستطيع الطفل أن يكتسب أنماطاً من اللغة ومفرداتها من خلال الاستنتاج المنطقي والتفكير المنهجي، موجهاً هذا العموم اللغوي بما يتفق ومطالب لغته الأم. والسؤال لماذا اتخذنا هذا الموقف السلبي من علم النفس؟ وكيف يتم هذا مع ما نشاهده من تدخل علم النفس في علم الاجتماع والإعلام واللغة والإدارة والهندسة الوراثية والذكاء الاصطناعي؟ وماذا لو طبق علم تحسين السلالة البشرية إنجازات الهندسة الوراثية وعلم النفس الحديث، وجعلوا مورد الذكاء

هو الآخر مصدراً لطبقية جديدة أساسها الذكاء هذه المرة لتضاف إلى قائمة اللوائح التي تقتك بنا فما هو مصيرنا؟

ي - الشواش (السلب) والفن: يستأنس الفن بالشواش وبفكرة الانبعاث من العدم والانطلاق من اللاشيء، وقد ارتبط الفن التشكيلي في علاقته الحميمة بالشواش بحكم كونه أكثر تمرداً وانطلاقاً، كان هدف الفن التشكيلي هو تصوير الواقع الجسم ثلاثي الأبعاد، ونقله إلى مسطح ثنائية الأبعاد، والتسطيح يعني إلغاء البعد الثالث إما بالإيهام بوجوده بخداع المتظنون، وإما بإسقاطه تماماً، ويظهر لنا السلب في تألقه بانتقال الفن التشكيلي إلى التجريد وسعت التجريدية التحليلية إلى تحطيم الأشكال، وإعادة ترتيب حطامها حتى سميت بالأ موضوعية وعلاقة السلب بموضوع الفن التشكيلي لا تقل إثارة عن علاقته بأسلوبه. وظل الفن في عصر النهضة مقتصراً على ما هو جميل وسام ومتسق، يغدو ويروح بين الكنائس خادماً لها، وسرعان ما رمى الفن بعيداً ذلك التقليد الجمالي وتخلص بالتالي من وظيفته، وأصبح للقبح نصيبه بين جدران المتاحف والمعارض، ورأينا تلك اللوحة الجميلة ذات الوجه القبيح لـ (رامبرانت) وما أروع تصوير الهولندي العبقري في توازنه بين (سلب) الظلال و(إيجاب) الضياء، وهذا الفيلسوف (نيتشه) يحترم القبح، ليأتي (بيكاسو) هذا العبقري في الفن التشكيلي ليجعل من القبح غايةً تبتغي وقد قال: (إن كنت بصدد انجاز عمل فني مهيب عليك أن تخطط من البداية بحيث يكون مآله في النهاية القبح) ولهذا أصبح الفن يحتفظ بنظرته البريئة واليوم أخذ الفن يحاكي فنون القبائل البدائية ورسوم الأطفال، ألم يقل بيكاسو: (لقد احتجت إلى ١٢ عاماً لأرسم كرامبرانت و٦٠ عاماً لأرسم كطفل) وما بعد الحداثة قام الفن على أساس (الجليل) المقزز والمروع، وكل ما يستفز المتلقي. الشواش في مجال الأدب: وتفصح اللفظة (لا) التي أصبحت لازمة في مصطلحات النقد الأدبي والفني أدب اللا أدب، مسرح اللامعقول، قصة بلا حبكة، وهناك مصطلحات أخرى مثل: مسرح العبث، أدب الصمت، الفن ضد الفن، موت المؤلف وموت الرواية، وكان أدب (كافكا) أكثر قدرة على التعبير عن الواقع من غيره، مما يطلقون عليه الأدب الواقعي وهذا يشير برأي

البعض إلى رفض الأدب لواقع العصر، والحاحه على تغييره، فلم تعد وظيفة الأدب ملء الفراغ بالوهم المصنوع أو بالكاذيب المريحة، وتبقى وظيفة الفن هي: الانتهاك كما قال: (لورانس داريل)، وتبدأ الحداثة مع البحث عن أدب مستحيل كما قال (رولان بارت)، وعلى الأدب أن يرفض النظام المفروض أو المكتشف، وكل ما هو مفروض عليه، والفن يصبح فناً عندما يصبح ضد الفن ذاته، وأن نتساءل دوماً ما الفن؟ وفي الأدب غدت النظريات الحديثة تستكشف ما وراء النص ودلالات مواضع الصمت، وكشف النقاب عما سكت عنه الكاتب، وما تبطنه معاني ألفاظه وعلاقات جملة وفقراته، ألم يحزن الوقت لنستدعي الحمقى بسلبهم (وهذا أرازموس بكتابه (في مديح الحمافة) من الكوميديا اليونانية مروراً بالجاحظ وشخصية الأحمق وذكائها الفطري، وطيبتها ونقدها اللاذع، مستخدمة الكشف عن رذائل الادعاء والكبرياء الكاذب، ولا أخلاقية المجتمع ووحشيته (سامي خشبة ١٩٩٤) وكل لاعقلانية فيها عقلانية، وكل عقلانية فيها لاعقلانية.

أما بالنسبة للموسيقى: فهي أرقى الفنون وأكثرها تجريداً، وقد ظلت تعزف بأنساقها ونغماتها على مدى العصور، وهذه مدرسة (فيينا) بزعامة (أرنولد شون بيرج) تسمو بالموسيقى سلباً حتى طورها اللا نغمي أو اللا مقامي، فإن موسيقى اليوم تتخلص من ألنها، بعد أن أصبحت مركبات الأصوات التي تعمل بالكمبيوتر قادرة على توليد أنغام الآلات المعروفة، واستحداث أنغام لم يسبق لآلات أن أخرجتها . موسيقى بلا نغمات وبلا آلات ولم يرض أدينا الكبير (العقاد) عن الموسيقى ولا عن الشعر الحر، وله عذره في ذلك فهذا (سقراط) لم يرض عن اختراع نظام الكتابة، وفضل عليها أسلوب الشفاهة الذي كان سائداً في زمنه.

ك - الشواش (السلب) ومنظومة المجتمع: منذ نشأة علم الاجتماع انقسم العلماء إلى فريقين: فريق يؤمن بتطور المجتمع ونظمه، من خلال الوفاق وذويان الخلافات، والتوفيق ما بين الآراء السائدة في المجتمع، بالتفاعل والبحث عن القواسم المشتركة والفريق الآخر: يصر على حتمية الصراع بين الطبقات والقوى الاجتماعية المختلفة واستحالة الوفاق

الاجتماعي. ويرى كارل بوبر: أن المجتمع الذي يخلو من الصراع هو مجتمع لا إنساني. هذا على مستوى معينة، والآن لنبحث عن الشواش (السلب) والاضطراب بين الهيكلية الاجتماعية: - القوى الرمزية - القوى الاقتصادية - القوى العسكرية - القوى السياسية - القوى الرمزية: كل ما يتعلق بالإعلام والتربية ونظام القيم والثقافة. والقوى العسكرية: الجيش والشرطة، وظيفتها مسلية تقوم على القمع والردع في الداخل والخارج وفرض الواقع بقوة السلاح. أما القوة السياسية: فلها أساليبها الخاصة في استخدام الشواش (السلب) ويعد أن حالت إلى أختها القوة العسكرية بخلطتها وهمجيتها وصرامتها، تلجأ هي إلى الحيل والكذب والتضليل والتمويه وأقنعة الكياسة، تراوغ وتخادع، تتآمر مع الحليف، تساوم وتقايض من هو بين الحليف والخصم، فهي تقنصُ الممكن لمصلحتها ما بين موازين القوى والقانون والقيود، ولا تقرب الفضيلة، فمضى كانت السياسة تخضع للفضيلة؟ وخاصة في عالم اليوم، وفيما يتعلق بالاقتصاد فالسلب (الشواش) هو اليد المخفية التي تحرك الاقتصاد بسلبه (الاستهلاك) وإيجابه (الإنتاج)، وآليات السوق المستترة تضبط طريق المعادلة، ويكفي الاقتصاد شواشاً أن التقدم الاقتصادي لا يعني بالضرورة تنمية اجتماعية حقيقية. والشواش أو (السلب) يعسكر في ساحتي الإعلام والتربية والمتلقي مخدراً تحت رايته مسترخياً، فالإعلام يخفي عن الناس ما يشاء بصمته، وكذلك التربية تخفي بمناهجها ما شابت من المعرفة التي لا تريد لنشائها معرفتها، نحن لا نريد الإعلام هراوة بيد السلطة بل نوراً للمواطن، ولا نريده بوقاً لخدمة التاجر، ولا نريد التربية لخدمة الحاكم، بل نريدها لخدمة الوطن والإقليم العربي، فهل بقدره علماء الاجتماع العرب وضع نظرية اجتماعية تستوعب متغيرات العصر وتميط اللثام عن مشاكلنا التي تغلي، وتفرغر تكاد أن تتفجر وكل المعطيات تقول أن مرحلة اجتماعية قد رالت ومرحلة أخرى طلت فهل هي مواجهة أم معانقة؟ إنها مواجهة شعبية مع الحكام الذين أقسموا يمين الولاء لإسرائيل وحماية حدودها، مقابل وجودهم في الحكم، بينما المقاومة العربية في سوريا ولبنان وحماس تهزم العدو

لإسرائيلي. نعم، صدق من قال (لو أراد العرب الانتصار على العدو الإسرائيلي لفعلوا).

ل - الشواش والتربية من أجل أن يسترد الإنسان إنسانيته والمجتمع عقلانيته واتساقه وتوازته، ارتفعت الأصوات عالياً تنادي بفلسفة تربية ليس هدفها الإبقاء على ما هو قائم بل تنمية النزعة إلى التغيير ونقد الواقع من أجل تصويبه واغتائه ولتتبع مظاهر الشواش في عملية التعليم ذاتها معلومات كاسحة وانفجار للمعرفة وتسارع حركة العلم، أصبح ضرورياً أن تتعامل متاحج التربية مع سلب الإهلاك، وتحت هذا الزخم والطوفان لأبد من إحلال الخبرات والمعارف والعلوم والمهارات بأخرى جديدة وذلك لسرعة تقادمها، وهدف التعليم هو أن نعلم الإنسان كيف يتعلم ذاتياً أبداً الحياة أي كيف يهلك قديمه ليستوعب الجديد ويمارسه؟ وفيما يخص بالسلب وعلاقته بجوهر عملية التربية والتعلم، إن علم النفس التربوي أثبت أن الإنسان يتعلم من خلال التجربة والخطأ، وهناك أنواع من التفكير تنطلق من السلب؛ كالتفكير الخلاق، والجانبى، والتفكير التقنيدي والنقدي، فما أشد حاجتنا لثورة تربوية شاملة تطيح بالمنظومة التربوية. وما أبعد المسافة بين ما ذكرناه وبين فلسفتنا التربوية السائدة، ونحن بأمس الحاجة إلى ثورة تربوية حقيقية، يقودها المعلم والمتعلم، لننظر ما يجري داخل فصول الدراسة ومنازلنا وإعلامنا، والساعات الخصوصية التي شوهت العلاقات الاجتماعية.

م - الشواش والهندسة: إن الهندسة هي وسيلتنا للتحكم في النظم المعقدة، بفضل تحويلها الأفكار إلى واقع ومع ذلك فتعاملها مع السلب شرطاً كي تتمكن من مواجهة التعقد من احتمالات واقع الاستخدام والمفاجأة والتشغيل، ويبدو موقع السلب في هندسة التحكم الثقائي، حيث تعمل نظم التحكم بمفهوم الدائرة المغلقة لقياس مدى الخطأ، أو الحيود بين الأداء المتوقع والأداء الفعلي، ويقاس الحيود من خلال ومبائل التقذية المرتدة ليفذي هذا الحيود أو الخطأ كما يسمى أحياناً، إلى آليات التحكم التي تعمل على تلاشي الفرق المتوقع والفعلي، وبسبب نزعة الهندسة العملية لا تفرض الهندسة اكتمال النظريات ولا القواعد الرياضية، وتغوض نقصها بإتباع

الأسس الامبيريقية التقريبية، التي رُسِخت بالخبرة، وهي تلجأ إلى الحدس إذا تعذر القطع، حتى أصبح الحدس عندها نهجاً مستقراً يسمى (الحدسيات) وليس عامل الأمان عندها إلا ضرباً من ضروب الجهل، وهي تتوق في حدائقها إلى مواجهة السلب صراحة ومباشرة، وذلك بتساق المبادئ الهندسية الراسخة، وكل هذا القدر من مزاحمة السلب لم يشف غليلها، وهذه هي الهندسة المعمارية التي كانت تقخر وتعز بتوازنها وتمائلها وبخطوطها المستقيمة، علماً أن لأشياء في الطبيعة مستقيم، إنها تحطم أشكالها، ويشدها الحنين إلى كل ما هو مائل وغير متماثل ومنحرف، وعلينا أن ننظر إلى الهندسة نظرة شاملة حيث كاد أن يصبح لكل فرع هندسته: هندسة اللغة - الهندسة الطبية - هندسة البرمجيات - هندسة الطاقة - هندسة البيئة - هندسة الزلازل - الهندسة المجتمعية كبديل ليبرالي للتخطيط المركزي.

ن - الشواش (السلب) والمعلومات: ليس هناك عمقاً أكثر من لقاء الشواش مع المعلومات: نظرياً وتطبيقياً، وتدلل عليها تكنولوجيا المعلومات ثنائية الواحد والصفر وكمية المعلومات التي تتناسب طردياً مع عدم التوقع كما حددها (كلود شانون) في نظريته، فكلما كانت المعلومات أقل توقعاً زادت كميتها والعكس، فهندسة الكمبيوتر وهندسة البرمجيات بالعديد من مظاهر السلب كاللامركزية واللامقطعية، والمعلومات تكاد تغير نظرتنا إلى مفهوم السلب وموارد المعلومات تزداد قيمتها - خلافاً للموارد المادية - مع زيادة استهلاكها، حيث يؤدي هذا الاستهلاك إلى توليد معلومات جديدة، وهذا يدل على قدرة العقل لتحويل السلب إلى إيجاب، فهل المعلومات نعمة أم نقمة؟

- لماذا نبجل الكبير ونستخف بالصغير وما هو دون؟

أ - أهمية الصغير: يتميز العلم الحديث باكتشافه قيمة الصغير وخطورته واستغلاله لقدراته الكامنة على المستوى المادي من خلايا وجزيئات وذرات وجسيمات وفيرومات وجينات، أو الصغير الزمني (زمنيات) المتمثل في تقلص وحدة الزمن التي يتعامل معها العلم والتكنولوجيا، وتقاس بالميكرو ثانية والنانو ثانية والقممتو ثانية، والصغير الرمزي من الأصوات: (فونيمات)

وسيسمات الدلالة وسمات النحو صعوداً إلى ذروة الصغير الرمزي، المتمثل في بناء الوحدة المنطقية متناهية الصغير (الصغير والواحد)، التي فجرت ثورة المعلومات وأدت إلى الإقرار بعظمة الصغير التنظيمي، بعد فشل التنظيمات الضخمة في التجارب مع طابع السرعة الذي يميز عصر المعلومات، وترتفع الأصوات حالياً عالياً بالعودة من العولمة إلى ما هو أصغر إقليمياً كان أم محلياً. - ما سلبيات الاستخفاف بالسلب؟ واليوم أصبح (السلب) فاعلاً ومتفاعلاً مع المادي واللامادي والفيزيقي والرمزي والفردى والجمعي، وهو بهذا الشيوع أصبح رابطة العنق بين كل مجالات المعرفة المختلفة حتى بين الإنسان وعالمه، هو السلب يعلن عدم اكتماله ليحثنا على العمل والسعي صوب الكمال، ويحمل راية الاختلاف، من أجل المزيد من الإبداع والاكتشاف، يفك يحطم من أجل تركيب أكثر اتساقاً، وبناء أكثر رسوخاً، ولا شك أن احتقارنا للسلب له أسبابه: التربوية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية، وما نود الإشارة إليه هو الموقف السلبى من السلب الذي أدى إلى الوقوع في الاستعارة الأنطولوجية كما يقول البعض، وقد خدع هذا البعض ظاهر اللفظ وراح (يُجَلُّ الكبير والكثير وما فوق)، ويستهن (بالصغير والقليل وما دون) ونقول لهؤلاء أنه لم يكن لحضارة اليوم أن تقوم لها قائمة لولا أن غيرت نظرتها إلى ثلاثية الاستهانة (الصغير - القليل - وما دون).

ب - أهمية القليل: انفصلت العلاقة بين القلة، وقلة الشأن، بعدما أثبت البيولوجي والفيزياء وعلم اللغة إمكان توليد اللامتناهي والمتعدد من القليل المحدود، ومثالنا على ذلك: سلسلة التفاعلات الكيميائية والانشطار النووي. على الصعيد المادي، ولانهائية التعبيرات اللغوية على المستوى الرمزي، فاللغة كما يعرفها أهلها: (هي الاستخدام اللامحدود لوسائل محدودة) وذلك بفعل آلية التكاثر والتفاعل، والتوليد الرمزي. ولم يعد القليل يشكو من الضالة بعد أن عرف طريقه إلى اللانهائي.

ج - أهمية ما هو جزئي وجماليات ثانوية: ظهرت أهمية ما هو تحت السطح وتحت النص، لفهم ما هو فوق، ولا يمكن فهم ما هو فوق دون اكتشاف

البنى العميقة والآليات الدفينة وراء هذه التجليات، وقد سعت النظريات الحديثة: البنيوية وما بعدها، والديناميكا الحرارية إلى اختراق التعقد الذي يفصل بين الظاهر والباطن (التعقد الذي يبدو قدر ثابت) والذي يغيب عن ظاهري الأشياء لا يضيع سدى بل يغوص ليستتر في طبقات باطنها وهذا يفرض علينا تتبع أثره أيا كان عمقه حتى يبيدي لنا فهم تجلياته. فمثلاً نجحت البيولوجية الجزيئية في عزل جزيئات خاصة تلعب دوراً مهماً في آلية الحياة. والحقيقة إننا نعيش في عالم غير مستقر غير متوازن، مضطرب إنه يخدم الوظيفة العليا للإبداع، مات عصر الآلة وتفتت مجتمعاتها، ويبدو أن الجنس البشري اليوم في طور التحول، وربما يلعب العلم دوراً مهماً في هذه اللحظة من الانفجار السكاني، ومن الضروري أن تبقى قنوات العلم مفتوحة على المجتمعات، وتطور العلم حالياً أخرج الغرب من المناخ الثقافي للمقرن السابع عشر الذي ولد فيه، والعلم في هذه الأيام يحمل رسالة عالمية أكثر قبولاً لتراثيات ثقافية مختلفة. ويقول (جاك مونو) أحد العلماء المعاصرين (يجب أن يستيقظ الإنسان من حلمه الألفي، ليدرك عزلته وانفراد، ويرى نفسه الآن كفجري يعيش على حواف العالم الغريب، عالم أطرش لا يسمع موسيقاه، ولا مبال لأماله ولا لألامه ولا لجرائمه) يا لها من نفمة تراجيدية. أليس العلم طريق للتواصل؟ أليس هو حوار مع الطبيعة؟ أليس العقل في طريق الانتصار؟

الفصل الرابع

(من الخطر أن تعيش دون خطر)

ثقافة اللغة العربية

أ - نظرة شاملة للغة: إن اللغة قائمة على قاعدتين هما: تفكيك الخطاب الذي هو وجه من وجوه تحليله، ولكنه يتميز بالكشف عن المضمّنات التي تقولها بنية الكلام، والقاعدة الثانية: هي إنتاج الخطاب وهو الوجه العملي من المعرفة، وإنتاج الخطاب هو شكل من أشكال التواصل مع سبق الإصرار بإبلاغ المقاصد التي يراد لها أن تنفذ إلى الحد الأقصى، وفيه امتزاج بين الفن والعلم وبين الموهبة ومهارة الاكتساب، وهذا يوصلنا بدوره إلى البعد التداولي، ولا بد هنا من استحضار المنطق، ومعلوم اليوم إن اللسانيات تتكئ على فلسفة الذهن وعلم النفس وعلى علم الحاسوب، وقد أكتسب البحث في الظواهر اللغوية قيمة بالغة، تلامس أسئلة كانت إلى وقت قريب محظورة ميتافيزيقياً، وهي الحقيقة الحاضرة في الواقع المتمين، والفائبة عن الوعي الأسر، حقيقتها بلاغة جديدة تنشأ في العقل.

إن لفتنا تحملنا في جوفها وهي الهواء الذي نتنفسه والرحم الذي يحضننا ويحيط بنا، والأداة التي نتعامل به مع الواقع وندرك بها العالم، هي قدرنا الذي يكشف عن ذاتنا الاجتماعية، تشكل حياتنا، تكشف عن جذورنا وعن عقليتنا، هي شائعة ومجهولة، تمارس سلطتها علينا، نحيل بها المحسوس إلى مجرد ونجسد بها المجرد، إنها الجسر بين الذات والموضوع، تترجم ما في ضمائرنا لتستحيل إلى أدوات تشكل الحياة كما يقول (ابن خلدون) وتوجه أدهم المجتمع وسلوك أفراد جماعات ومؤسسات. وأهم ما قيل في اللغة ما قاله (جابر عصفور ١٩٩٧) على لسان شاعر صقلية (اجنازيو بوتيتا): (إن الشعوب يمكن أن تكبل بالسلاسل، وتسد أفواهها، وتشرّد من بيوتها، ويبقون مع ذلك أغنياء فالشعب يقتصر ويستعبد ما أن يسلب منه اللسان الذي تركه

له الأجداد، عندها يضيع إلى الأبد) واللغة تعمل عملها في طبقات اللاوعي على اختلاف مستوياته، ونظراً إلى شموليتها وشيوعها فهي مسؤولية الجميع: مسؤولية التربية والإعلام والمنظمات الثقافية والنخب مسؤولية الشاعر والعامل والمدرس والطالب والكاتب، فاللغة هي الأم التي ترعى كل ناطق بها وكأنه طفلها الأثير. تزهر وتنمو إن تصرد عليها شعراؤها ولا تضيق ذرعاً بصلاية علمائها وتنفر تجاوزها.

ب - أهمية اللغة: اللغة هي الذات والهوية، وهي الأداة التي تصنع منها المجتمع، وثقافة كل أمة كامنة في لغتها في مجتمعتها ومعجمها ونصوصها ونحوها، وهي من أبرز السمات الثقافية، وما من حضارة إلا وصاحبتها نهضة لغوية، إن لغتي هي عالمي، وحدودها حدود عالمي، وما من صراع بشري إلا ويبطن في داخله صراعاً لغوياً، ويمكن أن نصيغ تاريخ البشرية على أساس صراعاتها اللغوية وحضارة اليوم تسعى لتلوين الكثير من اللغات بلونها ونحوها، من جوانبها السياسية والاقتصادية والمعرفية والأخلاقية، وجاءت تكنولوجيا المعلومات وهندسة الوراثة لتضع اللغة في قمة الهرم المعرفي، وما من فرع من فروع الفن، أو فرع من فروع العلم إلا وله صلته باللغة، وعلى صعيد السياسة والاقتصاد أصبحت اللغة أشد الأسلحة الإيديولوجية ضراوة، بعد أن فرضت القوى السياسية وقوى المال والتجارة سيطرتها على أجهزة الإعلام الجماهيري، التي أصبح وابل رسائلها تفعل ما كانت تفعله في الماضي منصات الصواريخ الموجهة. ولا يناظر ضراوة اللغة إلا صمودها، فهي القلعة الحصينة للذود عن الوحدة والهوية القومية، ولا يناظر جبروت اللغة إلا حنانها، وكيف لا؟ واللغة الأم هي شريكة ثدي الأم في إيضاح وعي الصغير، فهي راعية المتعلم، وملهمة المبدع وهادية المتلقي.

ج - تعددت الآراء بشأنها: ورغم هذه المحورية والأهمية لـ (اللغة) ورفقتها لحضارة ظلت اللغة لغزاً حير الفلاسفة والعلماء، فهي تقيع تحت طبقات اللاوعي ترتدي الغموض لباساً، ولما كانت هكذا، تعددت وجهات النظر بشأنها: بعضنا ينظر إليها كسلوك وبعضهم ينظر إليها شريزة نولد بها، وفريق يراها تجليات سطحية محسوسة، وقرائن سافرة، وآخرون يرون تحت هذا المظهر

السطحي بنية عميقة من: علاقات الألفاظ والتراكيب والنصوص، وهناك من يراها نظاماً للتواصل، ومن يراها آلة للفكر. ومראה للعقل، ومن يراها لعبة اجتماعية وراءها صراع القوى الاجتماعية المختلفة، ومع عصر المعلومات تعاظم الدور الذي تلعبه القوى الرمزية وعلى رأسها اللغة في صياغة شكل المجتمع الإنساني الحديث، وأصبحت اللغة بآمن الحاجة إلى منظور جديد، منظور يعيد النظر في منظومة اللغة جميعها من الجذر وحتى المرع.

- نظرة شاملة عن اللغة العربية،

أ - أهمية اللغة العربية: إن لغتنا العربية هي أبرز وأعظم ملامح ثقافتنا العربية، ترتبط بهويتنا ووجودنا، صمدت ودافعت / ١٧ قرناً / كسجل أمين لحضارة أمتها، فهي شاهد على ازدهارها وانكسارها، شاهد لنا من حضارة وإبداع ونحن نقود الحضارة، كما هي شاهد على تخلفنا وتبعيتنا للآخر، والحرص على لغتنا العربية ليس من أجل الناطقين بها، بل هو واجب إنساني وروحي تجاه المسلمين من غير العرب خاصة، وواجب قومي تجاه عرب المهجر، حيث أصبحوا يشكلون كتلة لا يستهان بها، تستطيع أن تخدم قضايا التسمية العربية والدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية من مواقع أكثر قوة، وما نشاهده اليوم من حملات مسعورة من أجل تقتيت التكتل الإسلامي في ظل العولمة، ولغتنا تشكل مترسة صواعق. إن الخطر جد فظيع يقربس بنا، تخطط لنا العقول الجبارة لإخراج لغتنا من دائرة الحياة.

ب - إعاقتنا اللغوية كمرب: تمشت ظاهرة إعاقتنا اللغوية وأصبحت عاهة دائمة لجميع عللنا وآفاتنا بسبب علل لغوية (تمزق وحدتنا، وتحرمنا من الدقة، وتبدد جهدنا، تعوق تقدمنا وتعاومي الروح والجسد والعقل والقلب) أمين الخولي كتاب، مشكلات حياتنا اللغوية). ورغم الجهود المبذولة تبقى مشاكل لغتنا عvisة على الحل، لأن معرفتنا بلغتنا قاصرة وسببها التالي:

- عدم الإلمام بالجوانب العديدة لإشكالية اللغة، فنحن نتناول المشكلة من جانبها التعليمي أو المصطلحي، إننا نذهب بعيداً عن المشكلة، نبحث عنها في الزمان والمكان الخاصين، دون أن نجرو على مع المشكلة في جوهرها، عندما

تتداخل قضية اللغة مع القضية الدينية أو الاجتماعية أو سياستنا الوطنية أو القومية، وهنا نقصفتنا الصواعق، ولا يروق هذا للحرس القديم من سدنة اللغة العربية التقليديين من حيث نبرته وفحواه.

- قصور العناد المعرفي لمنظرينا اللغويين بعد أن أصبحت ساحتنا اللغوية ساخنة يتداخل فيها الفلسفي والعلمي والتربوي والإعلامي بل التكنولوجي.

- القطيعة المعرفية التي يقيمها الحرس القديم بين اللغة والفلسفة الحديثة التي تولي اهتماماً للغة تنظيراً واستخدماً، وتزداد حدة القطيعة مع المدارس الفكرية مثل البنيوية والتشكيكية والحداثة وما بعد الحداثة، لموقفها من الدين (فلا توجد ثقافات خالصة ومميزة وثابتة فكل ثقافة تستقي من مشربٍ متنوعٍ وتعتمد على الاستعارات، والثقافة في حالة دائمة من التفاعل والاختلافات الثقافية، نجمت عن تحديات فرضتها البيئة والتواصل مع الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية والصفوط البيئية أو الهجرات أو التجارة، كل هذا كان ولا يزال خميرةً لتقدمنا العلمي والثقافي إن الثقافة هي التي تصنعنا وليس البيولوجي، إننا نفدو ما نحن عليه من خلال نمونا في إطار ثقافي معين، ولا نولد على هذه الشاكلة، فالعرق والجنس والعمر هي تركيبات ثقافية، وليست ظروفها غير قابلة للتغيير وهذا يشير إلى أننا يمكن أن نتغير نحو الأفضل - راقب طفلك في نموه - فكيف لا نأخذ بحصاد المدارس الفكرية السالفة الذكر رغم عدم إقرارنا بفكرها؟! وأين التنظير اللغوي العربي الحديث؟! - خطأ في التشخيص اللغوي: نوزع أخطاءنا يميناً ويساراً، إلى المدارس إلى الجامعات إلى الإعلام، حتى أدان بعضنا لغتنا الحبيبة التي لا تعيش إلا في حضن أبنائها الأوفياء لها، ياله من اتهام ظالم للغتنا، وحبان الوقت للتصدي لمثل هذه المفاهيم الخاطئة، ولا سبيل لذلك إلا من خلال التحليل الدقيق للعلاقة بين منظومة اللغة ومنظومة المجتمع من منظور ثقافي معنوماتي، وواقع اللغة العربية الراهن بأمر الحاجة إلى نظرة أشمل تتجاوز حدود الواقع اللغوي الراهن، سواء من قبل اللغويين وأصحاب المعاجم والمجامع من التربويين والإعلاميين. وإشكالية اللغة من التعقد والشمولية

بحيث لا يمكن تناولها من منظور التخصص الضيق، أو النظرة الاجتماعية القاصرة، ويصعب إرجاؤها أو تناولها بعيداً عن إستراتيجية محددة واضحة، في إطار خطة قومية شاملة.

- خطورة دور اللغة في عصر المعلومات:

أ - أهمية اللغة في منظومة الثقافة الغربية: إن الثقافة أصبحت محورية في عملية التنمية في مجتمع المعلومات، وأدت اللغة دورها كونها محوراً أساسياً في منظومة الثقافة، ونتيجة لذلك أصبحت معالجة اللغة آلياً عن طريق الكمبيوتر هي محور تكنولوجيا المعلومات، واللغة هي النبع الحقيقي التي تشرب منه هذه التكنولوجيا، واللغة هي التي تحدد الأداء الكلي للمجتمع، سواء بالنسبة إلى داخله أو من خارجه، والمقصود بداخله: أنماط إنتاجه المعرفي والإبداعي، وحصاد الإنتاجية الكلية وأفراده ومؤسساته، ونقصه بالخارج هي العلاقات التي تربط المجتمع مع غيره من المجتمعات، وهي العوامل الإستراتيجية التي تحدد ثقل هذا المجتمع في إطار التكتلات الإقليمية، هذا ولم يقتصر أهمية دور اللغة في المجتمع على التربية والثقافة، وهو الدور الذي لعبته اللغة على مر العصور، فقد خلقت لنفسها أدواراً جديدة بعد أن امتزجت مع التكنولوجيا، فبرز دورها الاقتصادي والسياسي، وهذه الأدوار المستجدة أصبحت من أهم العوامل في رسم الخريطة الجيو اقتصادية والجيو سياسية.

ب - اللغة والعولمة: إذا كانت العولمة صراعاً أو وفاقاً، فاللغة شأنها خطيرٌ وعظيمٌ، ففي حال انفاق: يكون للغة شأنٌ عظيمٌ في حوار الحضارات، وأنصار العولمة سيتخذون من اللغة عملاً مهماً في عولمة الثقافة، وهؤلاء لا يقرون بالخصائص الثقافية للشعوب والأمم، ويقفون بعثة ضد النسبية الثقافية والنسبية اللغوية مستدين على التنظير اللغوي الحديث، حيث تدرج جميع اللغات الإنسانية في إطار النظرية العامة للغة، فاستوعبت هذه النظرية جميع القواسم المشتركة للغة، ومواضع تباينها واختلافها، وقد تبنت هذه النظرية النموذج الذهني للغة، الذي يفترض كونها غريزة إنسانية يشترك فيها

البشر كافة، أما إذا كانت العولمة صراعاً، لنعود هنا لما قاله (محمود أمين العالم) في دفاعه عن الخصوصية اللغوية، يقول: شرعت العولمة السائدة، في ممارسة سيطرة تامة للغة من لغات هذه الدول المهيمنة في العلاقات التجارية والاقتصادية، وما ينتج عنها من سيادة ثقافتها وقيمها الخاصة، معنى ذلك تهيمش اللغات والثقافات القومية واحتوائها واستجرائها اقتصادياً وثقافياً (محمود أمين العالم ١٩٩٧) وهذا ما يؤكد المشهد اللغوي الكوني لاسيما في مجال الإعلام والمعلومات، ومساعدت الإنترنت في تدفق فيضان معلومات تطفئ عليه اللغة الإنكليزية، وهذا أمر أضرع جميع الأمم غير الناطقة بالإنكليزية، وقد انتابها خوفٌ شديدٌ على لغاتها القومية وهي توشك على الهزيمة أمام الإعمار المعلوماتي الإنكليزي تحت ضغوط اقتصادية وثقافية هوية، إنها الإمبريالية الثقافية، كما يمكن وصفها بالداروينية اللغوية).

ج - نزعة للتكتل الإقليمي عبر اللغة، رافق العولمة نزعة التكتل الإقليمي وهذا ليس مجرد المحافظة على الهوية، وإنما تحركٌ دوافع اقتصادية وسياسية وأمنية في المقام الأول، والساحة الأوروبية تشهد تيارين متناقضين، أحدهما يدعو للتنوع اللغوي، والآخر يميل للانغلاق في إطار التوحد اللغوي، والاتحاد الأوروبي يعتبر التنوع اللغوي مصدراً لقوته في مواجهة القطب الأمريكي، بأحاديته اللغوية. بينما تسعى ألمانيا إلى إقامة حلف مع النمسا وسويسرا، وللمجموعة الدول الاسكندنافية مشاريع مشابهة للتكتل اللغوي. وعلى مستوى ما فوق إقليمي يسود الساحة السياسية العالمية نشاطٌ متزايدٌ لإحياء التحالفات اللغوية مثل: الأنكلوفونية والفرانكفونية والاسبانوفونية، وثقف اليابان بلغتها صامدةً ضد هيمنة القطب الواحد، ويرقم إنجازات اليابان التكنولوجية في مجال صناعة الاتصالات والالكترونيات، فقد أيقنت أن مصيرها في عصر المعلومات والإنترنت رهن بمصير لغتها اليابانية، وراحت اليابان تعمل على الخريطة الجيو لغوية، وكانت البداية في مشروع الجيل الخامس في بداية الثمانينات، كردٌ فعل تكنولوجيٌ بهدف كسر هيمنة اللغة الإنكليزية وتوقف العمل بالمشروع نتيجة ضغوط أمريكية تكنولوجية اقتصادية سياسية. ولم يتوقف الجهد الياباني عن الذود عن اليابانية،

وراحوا يركزون على الجهد التكنولوجي لترجمة الآلية من جانب، واليوم من جانب آخر يركزون على استغلال تفوقهم التكنولوجي في مجال المعلوماتية من أجل انتزاع الزعامة اللغوية لتكل الدول غير الناطقة بالإنكليزية.

- تنوع التواصل اللغوي واتساعه:

إن التواصل اللغوي عن بعد عبر الإنترنت، قلب مفهوم التواصل اللغوي رأساً على عقب، سواء من حيث طبيعة العلاقة بين المرسل والمستقبل، أو من حيث النوع والشكل واتساع نطاقه وتعدد مطالب فاعليته، مثالنا عليه: التواصل كتابياً عبر الإنترنت من خلال البريد الإلكتروني، النقاش، الذي يدور عن بعد، يتم عن طريق الكتابة المحضنة والتي تختلف عن النقاش وجهاً لوجه، لسبب بسيط: إن شفاهة الحوار المباشر (الكلام) مملوء بالانفعالات تساعدنا وتؤازرها حركات مثل: حركات اليد، والعينين وخلاجات الشفاه وتغيير ملامح الوجه، وأوضاع البدن. وأسلوب الكتابة هذا يكشف عن منطلق لا زالت مجهولة حتى اليوم، في علاقة الشفاهة بالكتابة، وهي العلاقة التي لا زالت محصورة في الجوانب الإملائية، من دون التعرض للجوانب الأخرى الاتصالية، كالذهنية مثلاً، أو النفسية والمعلوماتية. ويتفق الجميع أن التواصل عبر الإنترنت الذي تسوده كتابة بدائية انتقالية، تمهد لتواصل أوسع، تواصل ما بعد الكتابة حيث يندمج المكتوب بالسموع، بالإضافة إلى المرئي من الصور الثابتة والمتحركة، نحن أمام ثورة في أسلوب الاتصال الذي اعتاده البشر منذ الأزل. وليس لدينا أي تصور عن طبيعته، وتوجهاته وآثاره النفسية والاجتماعية واستخداماته الشخصية وغير الشخصية، ولكنه بالتأكيد سي طرح العديد من الأسئلة المحورية حول العلاقات بين أنساق الرموز المختلفة: نصوصاً وأشكالاً وأصواتاً نذكر منها: العلاقات بين نبر الكلام وتنغيمه، وبين إيقاع الموسيقى ونغميتها. أو تلك الخاصة لمساهمة الصور في فهم النصوص، واستغلال تحليل النصوص لغوياً في فهم الصور ذاتها، وكثيراً ما تتضمن النصوص إيضاحات تساعد القارئ على فهم الصور. كما سيتجاوز الإنسان مع الآلة، وهذا سيفوق الحوار مع البشر. ولن يقتصر الحوار البشري الآلي على إنسان يسأل، أو يسترجع المعلومات وآلة تبحث عن

المعلومات فتظهرها على الشاشة، هو حوارٌ أعمق بكثير، حوارٌ تبدو فيه الآلة أقرب إلى النديم البشري، آلة: تغازل - تتاور - تجادل - تتجاوب مع أهواء متحدثها وتكتيكات حوارها، وهذا الديالوج (الإنس آلي) يتطلب فهماً عميقاً للعلاقة بين لغة الإنسان الطبيعية ولغة الآلة الاصطناعية، وهو الأمر الذي سيقضي تمعناً دقيقاً في كيفية اكتساب الآلة مهارات اللغة من جانب، وكيفية اكتساب الإنسان لفته الأم من جانب آخر. والأهم من هذا كله دراسة الأبعاد النفسية والاجتماعية لهذا التواصل يتقاسمه الإنسان والآلة، لقد أثرت تكنولوجيا الطباعة في الشفاهة والكتابة، وأثر التلفزيون في لغة الصحافة والحوار، وسيكون لهذا التواصل (الأنس آلي) نتائج التي يصعب التكهّن بها، يفسر ذلك الاهتمام الذي يبديه مهندسو اللغة، بفهم آليات المحادثة وتحليل بنيتها، للوصول إلى ما سمي بـ (هندسة الحوار)، والآن يحق لنا أن نتساءل، هل سيؤدي التواصل البشري هذا إلى ضمور التواصل بين البشر، أم سيعززهم في تشوقهم لحب الحوار مع نظرائهم من بني البشر؟.

أ - مازق اللغة العربية في عصر المعلوماتية: إن الراصد للغة العربية يرى حرباً صامتة ناسفة تتكشف حيناً وتتقنع أحياناً أخرى وتقفها أخطر من تكشفها، لأنه يستجد بسلاح المسكوت عنه، وهو أوقع في النفوس ولهذا الترصد أسبابه الموضوعية: لأن هناك قلق يساور الكثيرين من كبار المهندسين الكونيين الاستراتيجيين، وقد يصل بهم القلق إلى درجة الخوف، وبعضهم إلى درجة الفرع، أما حقيقة الأمر فهو احتمال تزايد الوزن الحضاري للغة العربية، في المستقبل المنظور فضلاً عن المستقبل البعيد، وهؤلاء يمتثلون بالحقيقة الموضوعية لأن اللغة العربية هي لسان ٢٢٠ مليون عربي وهذا يمثل مرجعية لـ ٩٥٠ مليون مسلم غير عربي كلهم تواقون لاكتساب اللغة العربية والجميع يناصرونها في أضعف الإيمان، واللغة العربية حاملة للتراث وناقلة للمعرفة وشاهد حي على الجذور التي استلهم منها الغرب حضارته الحديثة في جميع فروع العلوم، وهذا يخيفهم أكثر من اللغة الصينية ولا يغفل هؤلاء المهندسون الساهرون على البرمجة الجماعية الكونية للذهن عن الرسالة الحضارية والروحية التي حملت بها اللغة العربية وهم العارفون بأن التماهي بين الذات واللغة لم يبلغ تمامه في الثقافات الإنسانية كما بلغه عند العرب.

ب ونحن العرب نعاني حالة قديمة جديدة من غياب إرادة الإصلاح اللغوي، علماً أننا لم نقصر في إظهار الحمية على لغتنا القومية، لقد استلقينا وتخذلنا بين ذراعي لغتنا، فهل تنمو اللغة بشكل تلقائي وتتعافى من عللها دون تدخل من أحد؟ إننا نعاني أزمة لغوية على الصعيد جميعها (تنظيراً وتعليماً، نحواً ومعجماً، إبداعاً وتقداً وتوثيقاً) وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتضيف بعداً قديماً يتعلق بمعالجة اللغة العربية آلياً بواسطة الكمبيوتر، وقد أصبحت اللغة شرطاً أساسياً للحصول على عضوية (نادي المعلومات العلمي) ومظاهر مآزقنا عدة منها: - سياسة لغوية ميتة لم تر القور، ومما يدمي القلب قبل العين معارضة الكثيرين لعملية التعريب في الجزائر، إذاً لماذا قدمت الثورة مليون شهيد؟ وهذه مصر العروبة لا تستطيع فرض الالتزام بما أصدرته من قرارات وتشريعات بعدم استعمال اللغة الأجنبية في لافتات المحلات التجارية وإذا أردت أن تعرف مدى الفجوة الفاصلة بين سياستها اللغوية وواقعنا اللغوي ما عليك إلا أن تقارن تضمينات الخطة الشاملة العربية للثقافة التي أعدتها المنظمة العربية للتربية والعلوم، من توجهات وتوصيات وبين جدية الدول العربية في التنفيذ.

- المجامع هزيلة، سقيمة، ضامرة انتقائية في إشكالية اللغة العربية، تأخذ ما تقدر على تناوله لا ما تحتاج إليه اللغة بالفعل، وتجاوب هذه المجامع مع المتغير المعلوماتي ما زال في الحد الأدنى، وعن إقامة مجمع لغوي عربي موحد تكون له سلطة التشريع لا زال حلماً بعيد المنال.

- أهمية اللغة في التربية والتعليم: لا تعكس مناهج التعليم ولا استراتيجياته ولا سلوك معلميه وأداء طلبته، ما للغة من أهمية في التعليم والتربية، وينحصر الجهد الإصلاحي على مناهج تدريس اللغة العربية بدون مراعاة لعلاقتها بتدريس المواد الأخرى، وليت الجهد التربوي الإصلاحي بلغ الحد الأدنى من النجاح، ولم يعط إلا مزيداً من ابتعاد الطلبة عن لغتهم، وعدم تذوق ثمارها وفوائدها.

- تعريب فاعل في سوريا: يعارض كثير من الأكاديميين ورواد الثقافة عملية الترجمة، ولهذا صلة وثيقة بتقاعس الأكاديميين في شأن اللغة العربية،

وطريقة التلقين السلبية التي تعود طرق تعليمنا . فما الذي يمنع أن يتم التدريس بلغتنا الأم وذلك لترسيخ الفهم وتأسيس المفهوم، ويجمع الطلبة بأنفسهم المعرفة من خلال المراجع الأجنبية فيجمعوا بين اللغتين، فنحن نعيش عصر انفجار المعرفة، فلم تعد كافية مذكرات المعلم، وحصرها داخل قاعات الدرس، وتبارك جهود أطباء سوريا الذين تلقوا تعليمهم باللغة العربية، وتفوقوا على أقرانهم العرب ممن تلقوا تعليمهم باللغة الأجنبية، وذلك في الاختبارات التي تم اجتيازها للالتحاق بالدراسات العليا في الجامعات الأمريكية والأوروبية، وتحية إلى رواد تعريب التعليم الجامعي وإلى الهيئة العامة للكتاب التي أخذت على عاتقها ترجمة كتاب كل شهر ونشره.

- ضهور الثقافة اللغوية وغياها: تزايد أهمية اللغة العربية بسبب أهميتها للثقافة العلمية وغابت على أيدي أصحاب الأقلام وقادة الرأي لدينا، وهنالك وعي غير كاف لدى القيادات السياسية بخطورة المسألة اللغوية.

ج - جدارة اللغة العربية وتحديات العولمة: لقد أثبتت اللغة العربية جدارتها في أن تصبح لغة عالمية على مر العصور، وشهد التاريخ الإسلامي على سرعة انتشارها واندماجها في بيئات مختلفة، كما نجحت في أن تكون أداة فعالة بنقل المعرفة حتى قيل فيها: (عجبت لمن يدعي العلم ويجهل العربية) خصائصها من منظور فقه اللغة: - التزامها بالقاعدة الرائعة فيما يخص التوازن اللغوي والتوسط، - فهي تشترك بخصائصها مع اللغات الأخرى على مستوى فروعها جميعاً (كتابة وأصواتاً وصرفاً ونحواً وممجماً) وتتسم منظومة اللغة العربية بتوازن دقيق وتناغم بين فروعها جميعاً، واللغة العربية يمكن معالجتها آلياً من طريق الكمبيوتر، وبسبب جدارتها عالمياً وبفضل توسطها اللغوي يسهل تطويع النماذج البرمجية المصممة للغة العربية، لتلبية مطالب اللغات الأجنبية وعلى رأسها الإنكليزية (إمكان استخدام نظم الإعراب والصرف الآلية المصممة للغة العربية، في مجال اللغة الإنكليزية) وبعبارة واحدة يمكن القول: إن اللغة العربية لغوياً وحاسوبياً يمكن النظر إليها حاسوبياً ولغوياً بلغة الرياضيات، على أنها فئة عليا تتدرج في إطارها كثير من اللغات الأخرى، وفي هيمنة العولمة تتعرض اللغة العربية لحركة تهميش شرسة

بفضل طغيان اللغة الإنكليزية على المستويات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية من استتباعها واحتوائها اقتصادياً وثقافياً (محمود أمين العالم ١٩٩٧) وتواجه الآن حرياً ثقافية ضاربة تشتتها العولمة ضد الإسلام واللغة العربية لشدة الارتباط بينهما، وليس العربية وحدها وإنما لغات كثيرة من العالم.

د اللغة العربية بين النكتل والضياغ: ما يكسر ظهر اللغة العربية ضررتها اللهجات المحلية، وتباين اللهجات شرقاً وغرباً وقد ركز عليها الاستعمار والاستشراق، وجعل منها مرضاً خبيثاً ليفتت الكيان العربي، وعلينا أن نعيد النظر في هذه المشكلة من رؤية معلوماتية، وفي توجهات المنهج الحديث لعلم اللسانيات الاجتماعية وعلم الأناسة الرمزية، ولهجاتنا لا تقارن بعدد لهجات الآخرين وحدتها، ويمكن أن تغلب على هذه المسألة بالنكتل الثقافية العربي بمساندة وسائل الإعلام وإحياء اللغة الفصحى.

هـ - ما وظيفة لغتنا العربية في عصر المعلوماتية؟ نحن لم نستخدم لغتنا وظيفياً في الحياة اليومية الواقعية، أن نستخدمها في إبداء الرأي وأن ندافع عنها، في التفاوض والتبادل والهاتف والتراسل، يشهد على ذلك ضعف مهارات الاتصال لدينا: كتابة - وقراءة وشفاهة - واستماعاً) وليس هذا بسبب قصور لغتنا فهي تملك الكثير من المؤهلات لتكون لغة حوار فعالة، لأننا مازلنا أسرى اللغة المكتوبة غير ملمين بالعلاقات اللغوية التداولية التي تربط ما بين أدائنا الشفوي وأدائنا الكتابي. وقد ركز الغرب على دراسة لهجات اللغة العربية بغية تنميطها وكشف أنساقها إلى أن تهبأ كل شيء لنبيذ اللغة العربية، وإحلال بناتها محلها ليحصل اللغة العربية ما حصل للغة اللاتينية، فاللغة هي العامل للمنتج الثقافي، وهي الجسر الأعظم للمسوق الإعلامي، وهي السيف الأمضى في الاختراق النفسي، وعليها مدار كل تسلل إيديولوجي، واللغة هي أم المرجعيات: في تشييد الحضارة، وفي بناء صرحه الثقافي، وحرب اللغات خطط واستراتيجيات أهمها: ترويع منافع المدنية الحديثة - بمنتجاتها المعيشية وبمبتكراتها الفنية - وبإنتاجها التكنولوجي والرفاهة والدعة، ولا خيار للعرب إلا نهضة فكرية قوامها العقل الصارم، وساعدها المتين حرية في

الرأي وفي التعبير وفي التواصل القائم على التقدير المستو، وعلينا أن نعي الوظيفة الجبارة التي تؤديها اللغة القومية ولن يؤديها بديل آخر على وجه القطع والإطلاق، إننا نخوض معركة وجود، لا يقتصر فيها خطأ واحد البتة، لأن هذا يستدعي معه مضاربات من صنف الكاثر الهندسي، إنها حرب بين الثقافات، وتطاحن في الهويات، وهي في النهاية صراع على النفوذ اللغوي بلا هوادة. ولا تُخدع بما بين الغرب من تناحرات وتناقضات في المصالح، فما يريد الغرب تصفية حسابات قديمة معنا، ولا تنسى ما قاله الجنرال الفرنسي (غورو) عندما ركل ضريح صلاح الدين الأيوبي برجله وقال: (ها قد عدنا يا صلاح الدين).

- علاقة اللغة الأجنبية (بفروع المعرفة): أهمية اللغة على الخريطة الإنسانية؛ تمتلي اللغة التل، وتتظفر إلى خريطة المعرفة الإنسانية، فتزداد أهميتها يوماً بعد يوم، وهي ترتبط بعلاقات وثيقة مع الفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية، ومع الفنون بأنواعها، وقد وطدت علاقتها أخيراً بالهندسة، من خلال الذكاء الاصطناعي، التي تدعمه اللسانيات الحاسوبية، واللغة تتفرد بشبكة علاقاتها مع العلاقات المعرفية، وموقعها الفريد هذا على خريطة المعرفة الإنسانية يخولها أن تكون ركيزة أساسية للمعرفة على اختلاف أنواعها، وكونها وسيلة لفهم تاريخ تطور الفكر الإنساني، وتحليل حاضره واستشراف مستقبله، فاللغة قمة العلوم الإنسانية ورفيقة العلوم الطبيعية وقلب الفلسفة النابض بالمحبة ورابطة عقد الفنون والعلوم وتكنولوجيا المعلومات، وهندسة معرفتها، ولغات برمجتها.

- موقع لغتنا العربية على ساحة المعرفة: إن اللغة ترتبط بعلاقات وثيقة بالفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية، ومع الفنون بأنواعها، ومع الهندسة من خلال الذكاء الاصطناعي التي يساهم فيها علم اللسانيات، فاللغة عمود أساسي للمعرفة على اختلاف أنواعها ولا غنى عنها البتة في دراسة الفكر الإنساني ونحن يأمس الحاجة إلى نظرة شاملة للغة العربية وعلاقتها بفروع المعرفة، ومثألنا على ذلك - علم اللسانيات: إن عالم اللسانيات يعلم علم اليقين بأن اللهجة التي تنمت بالعامية أو بالدارجة هي

من أقوى الطاقات الثقافية الحاملة لخصائص الإبداع، في الشعر، اللغة أداته، وأداة السرد للأديب، وأداة الحوار. أما علاقتها بفنون الرمز: كالموسيقى والتشكيل ومع التقدم في اللسانيات والمعلوماتية يسعى بعضهم إلى وضع الأسس العلمية لما اعتدنا أن نسميه مجازاً بلغة الأدب ولغة المسرح ولغة الموسيقى ولغة الأداء الحركي، وهذا سيمكّننا من تحديد مدى شاعرية الشاعر وروائية الرواية، وبهذا نعرف خصائص كل جنس من الفنون عن الأجناس الأخرى، ويستقل الشعر عن النثر الأدبي، لأن هناك من يقيس شاعرية الشاعر بتوليد تراكيب لغوية جديدة تتجاوز التراكيب المختلفة، (السيد إمام ٢٠٠٠) وتبقى العامية حاملة للطاقات الثقافية الإبداعية: في الغناء وفي الشعر شعبياً أو ملحوناً أو نبلياً وفي النص المسرحي، وفي سيناريو الأفلام التلفزيونية والسينمائية، ولن يكون عالم اللسانيات مُخلصاً للمعرفة المتجردة، ولا منصفاً لحقائق التاريخ الموضوعية، لو أنه زعم أن على العرب أن يهجروا لهجاتهم المحلية في الأغنية وفي المسرح وفي السينما ليقفوا كل إبداعاتهم الفنية على الفصحى. ولكن الانحراف التاريخي هو في تلهيج الخطاب الثقافي بما هو خطاب يتحدث عن الإبداع، وبما هو كلام نصف فيه الإبداع، وبما هو كلام نصف فيه الفن ونحلله وننقده فهو لغة نتحدث فيه عن لغة، أما الخطاب الثقافي محمول على نظام لغوي، بينما الخطاب الواصف للثقافة أو الناقد للإبداع محمول على نظام مغاير له. كانت اللغات الأجنبية فيما مضى عدواً إيديولوجياً عندما كان الصراع الحضاري معتمداً على الاكتساح العسكري، وكانت المذاهب رأس الحربة، فإن اللهجات المحلية المهددة لبقاء اللغة العربية الفصحى هي العدو الثقافي الأشرس، لأنها تنتصب حليفاً موضوعياً للعوثة الأمريكية وحليفاً له وليس كأي حليف. والمثال الثاني: - العلاقة بين ميزان الصرف العربي وراثته الاشتقاقي الذي لا تدانيه لغة من لغات العالم، وبين علم البيولوجيا الجزيئية القائمة على لغة الجينات وعلم نفس الذكاء، فيما يخص التناظر بين توليد المشتقات صرفياً والتوليد البيولوجي وتوليد المفاهيم.

المثال الثالث: العلاقة بين هتون الخط العربي والفنون التشكيلية وهندسة الديكور والمعمار، وهذا يتطلب إعداد فريق من الباحثين قادرٍ على تجاوز التخصصات النوعية وتعددتها ولا بد من إعدادهم وتدريبهم على: علم اللسانيات - فقه اللغة العربية (تراثنا اللغوي) - هندسة النظم - فلسفة اللغة - تكنولوجيا المعلومات.

• اللغة الأجنبية بين أن تقود أو تقاد،

تختلف طبيعة علاقة اللغة بكل فرع معرفي، وفقاً لطبيعة هذا الفرع ومجال تخصصه ومناهجه. إلا أن مسار تطور العلاقة بين اللغة قد اتخذ نمطاً يكاد أن يكون موحداً في البداية، فيه تكون اللغة الطرف الخاضع لنهج الفرع المعرفي الذي تتفاعل معه، إلا أنها سرعان ما تنتقل من جانب الخضوع إلى جانب إخضاع فرع المعرفة ذاته لنهجها. وفي سعيها إلى الارتقاء إلى مراتب العلوم الدقيقة، كان من الطبيعي أن تستعير اللغة مناهجها من العلوم التي سبقتها في هذا المنهج. ولكن سرعان ما صنعت اللغة لنفسها نهجاً خاصاً بها، على درجة عالية من التأصيل والشمولية مما جعلها تستقطب الآخر، ولا عجب بذلك، لقد كانت اللغة وستبقى وراء كل معرفة وكل خبرة يكتسبها لإنسان. وبناء عليه لا يخضع العام اللغوي إلى الخاص المعرفي، ويبدو استيعاب الفروع المعرفية ضمن الأصل اللغوي العام متطيقاً جداً إذا لم يكن ضروري، وهذه الطريقة تتفاعل فروع المعرفة جميعها مع رابطة اللغة، في تناغم علمي تكنولوجي، وهكذا ارتقت اللغة من تابع علمي وفرعاً معرفياً متخصصاً إلى أن أصبحت نهجاً علمياً عاماً، يمكن تطبيقه على العديد من الفروع العلمية المعرفية، وفيما يخص ذلك سنستخلص الدلائل دعماً لما نفترضه من عمومية النهج العام للغة.

• اللغة العربية بين أن تقود أو تقاد،

أ - نعرض مثلاً واحداً عن علاقة اللغة العربية بالمنطق والفلسفة: قام العرب القدماء بإخضاع اللغة العربية لمنطق أرسطو وكانت خطوة جريئة لا تخلو من القسر والتعسف لأنها خطوة ميكانيكية قسرية، فاللغة العربية مرنة

متنوعة، والمنطق الأرسطي صارم وقاطع، وقد فعل ذلك ليوثق اللغة العربية بالمعرفة، ويعلمون القصة والدين بخاصة، ولكن المنطق كان قاصراً في ذلك الوقت على الرتبة الأولى، وتتصاعل اليوم لماذا توقف أكاديميو اللغة عن متابعة ما بدؤوا به وقد توافرت لديهم رتب أعلى وأكثر مرونة وسعة من المنطق الأرسطي أسوة بما فعله أقرانهم الأوروبيين، وبات للمنطق اللغات حاجة ضرورية لمعالجتها عن طريق نظم الذكاء الاصطناعي، وآلات استنتاجها المنطقي، أما بالنسبة للفلسفة: كان لقاءً مثيراً ومثيراً بين الفلسفة الإسلامية واللغة ممثلة في علم الكلام وفلسفة الإغريق، وسؤالنا هو كيف نعيد هذا اللقاء بين الفلسفة الإغريقية واللغة العربية؟ علماً أنه لم يحدث تراكم فكري يسمح لنا بالتعمق في علاقة الفلسفة باللغة، وهي العلاقة التي تعتبر من أهم منطلقات فكر ثقافة المعلومات بل من ركائزها ذي التمرکز اللغوي. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: هل الحل أن نستعير من الفكر الغربي مناهجه دون نتائج، أم نأخذ من هذا الفكر مضامينه التي تتلاءم مع تفكيرنا ونقيم عليها مناهج تخصنا؟ ولا نملك جواباً على هذا السؤال، ولكن لا بد من دراسة علم اللسانيات الحديث، ودراسة فروع الفلسفة والتوسع في تدريس الفلسفة وفي أقسام اللغات وخاصة نظرية المعرفة وفلسفة اللغة - تحليل دقيق للمدارس الفلسفية المعاصرة كالبنائية والحدائثة وما بعد الحدائثة والتفكيكية؛ والقصد من ذلك مضاهاة خصائص اللغة العربية مع الجوانب اللغوية التي مارستها تلك المدارس الفكرية - دراسة كيف نجح الفكر اللغوي الفرنسي والإنكليزي في إقامة صلات وثيقة بين لغتيهما والمنطق الحديث ذي الرتب الأعلى، متجاوزاً منطق أرسطو بصورتيه وقطعيتيه.

- علاقة اللغة الأجنبية بالفلسفة،

١ - رهضة مستدامة: إن علاقة اللغة بالفلسفة تتطلق من علاقة كليهما بالفكر، واللغة والفلسفة في علاقة حميمة جداً دامت ونمت على مر العصور، من سقراط إلى أرسطو وانتهاءً ببنائية (شترائوس) وتفكيكية (جاك دريدا)، ولعبة اللغة في فكر ما بعد الحدائثة، وخلال هذه الرحلة الطويلة نضجت

العلاقة بينهما من مستوى التبادل المعرفي المتمثل في ثنائية اللغة كأداة للفلسفة والفلسفة كأداة للغة، إلى أن وصلت إلى شبه الاتصهار الكامل.

ب - اللغة أداة للفلسفة: من الطبيعي أن تستقر الفلسفة في حضان اللغة كبديل لا غنى عنه للتعبير عن مقولاتها، قبل أن يرتقي الفكر المجرد الصوري سواء كان الرياضي أو المنطقي، حتى الدرجة التي تسمح بتطبيقه في المجال الفلسفي، وهكذا وجدت الفلسفة في اللغة أدواتها المثلى، لأن اللغة هي الوسيط بين الذات والموضوع، إن اللغة هي حلقة الوصل بين الذات العارفة، أو المعرفة، وما تسعى إلى معرفته من موضوعات خارجها. وكما هو معروف فإن إشكالية الذات والموضوع هي إحدى الإشكاليات الرئيسية للفكر الفلسفي. وتصور فلاسفة الماضي إمكان مطابقة العقل مع الواقع باستخدام الكلمات بصورة منضبطة ودقيقة، والدليل على ذلك انشغال فلاسفة اليونان برمز اللغة ومعانيها، وما قام به أرسطو من تصنيف أقسام اللفظ، ودلالات الأفعال، وهو ما يمكن اعتباره محاولة من الفلاسفة القدماء لإخضاع اللغة إلى نوع من التجريد والضبط، حتى تُسَلِّسَ للتحليل الفلسفي. ولكن هيهات، كيف المطابقة بين العقل والواقع؟ فقد ظلت مفصلة المعنى لغزاً محيراً للفلاسفة عبر الزمن، وكانت كل محاولة تتقلهم من إشكالية أضيق وأبسط، إلى إشكالية أعقد وأكبر. حتى جاء (فيتجنشتاين) ووضع نظرية للمعنى من دون الحاجة إلى معرفة ما هو المعنى. وعلى الرغم من كل هذا تبقى اللغة مدخلاً للفكر الفلسفي.

ج - الفلسفة أداة للغة الأجنبية: كي ترقى اللغة معرفياً إلى مصاف العلوم السقيقة كان لابد لها من اللجوء إلى حضان الفلسفة، فأوجد (دي سوسير) علم اللغة الحديث، من فلسفة (بيرس) الرمزية، مدخله لصياغة العلاقة اللفوية المحورية، التي تربط بين الرمز اللفوي ومدلوله، وأتى من بعده (نعوم تشومسكي) مؤسس أكبر مدرسة للتتظير اللفوي المعاصر، ليتخذ من فلسفة (كانط) أساساً لتتظيره اللفوي، الذي افترض وجود قدرة ذاتية خفية في العقل الإنساني، وهي فرضية بنى عليها نعوم تشومسكي نموذجاً الذهني، كبديل للنموذج السلوكي، الذي ساد قبله على يد (سكينر) وتابعيه،

وافترض تشو مسكي أن هناك غريزة لغوية تتوارثها البشرية، وفي عدم وجود وسائل وطرق عملية تثبت ذلك لجأ إلى التجريد الفلسفي ليبرر وجود مثل هذه الغريزة، ومن أجل تفسير الكيفية التي يكتسب بها الأطفال لغتهم الأم، قام بتطويع هذه الغريزة للمطالب الخاصة للبيئة اللغوية التي نشثوا بها. وما أن استعالت اللغة في هذا النموذج الذهني إلى غريزة بشرية حتى أصبح من الضروري أن تتصف هذه الغريزة كباقي الغرائز بخصائص عامة يشترك فيها كل البشر على اختلاف أجتاسهم ولغاتهم وبيئاتهم الاجتماعية. وهنا يبرز مفهوم (النحو الفلسفي) كما أطلق عليه بعضهم والذي وضع أسسه تشو مسكي، كأداة لتفسير هذه الغريزة اللغوية. وتأسس هذا النحو على عدد محدود من القواعد والقيود المجردة والمبادئ، يمكن من خلالها الحكم على صحة الجمل نحوياً، وكذلك تحديد القواسم المشتركة بين لغات العالم، وتفسير الاختلاف بينها جميعاً. لقد اتخذ من النحو أي (التركيب)، محوراً له، وهو المنحى النظري الذي يعارضه أهل الدلالة اللغوية، أمثال (فيلمور ومناجيو)، فهم يرون ضرورة اعتبار المعنى، لا التركيب، هو المدخل الطبيعي لتناول إشكالية اللغة. ومرة أخرى يعاود اللغويون اللجوء إلى الفلسفة بحثاً عن منابع جديدة لتناول معضلة المعنى، ودراسة المعنى تطورت على يد الفلاسفة أكثر من اللغويين.

د - اندماج اللغة الأجنبية والفلسفة: حاولت الفلسفة أن تلت من قبضة اللغة عن طريق توطيد علاقتها بالرياضيات، على أيدي فلاسفة من أمثال (ديكارت وليبنتز)، وعن طريق المنطق الرمزي، على يد (فريج وكانط)، ضاية الفلسفة أن تصنع لنفسها لغة مجردة خاصة بها، لغة تخلو من لبس اللغات الطبيعية وغموضها، وما ترسب في هذه اللغات عبر الزمن، من نطباعات تقترب من مستوى الإيديولوجيات. ولكن بعض الفلاسفة أسرفوا في تجردهم الرمزي، حتى وصل بهم الأمر إلى أن أحالوا الجماليات إلى رياضيات، وجعلوا للأخلاق نوعاً من الحساب، ولم تكن لهذه النزعة الفلسفية ذات الطابع (اللا لغوي) أن تستمر، فقد أتى (فيتجنشتين هو ورسل) ليعيدا اللغة مجدداً الفلسفي التليد، وقد جعلاً من ثنائية الذات

والموضوع ثلاثية محورها وسيط اللغة، هذا الوسيط المعرفي الذي لا يمكن تجاهل دوره في إقامة الصلة بين حقائق الموضوع والذات، التي تستوعبها وتعبّر عنها . وهكذا انتقل مركز الثقل المعرفي من المعرفة إلى اللغة، من دراسة الوجود إلى دراسة كيف ينشأ معنى الوجود، وأصبح بمعناه الواسع بديلاً للمنطق، وصار شاغل الفلسفة معنى الظواهر، لا الظواهر نفسها . وبعد هذا قال كارل بوبر، علينا أن نقيم فلسفة علم جديدة محورها البيولوجيا بدلاً من الحالية التي تتطلق منها الفيزياء . معنى هذا أن الفلسفة سنلتقي مع اللغة على جبهة أكثر سخونة وتفصيلاً، مع اللغة وهي تمارس سلطتها ليس على مستوى الأيدولوجيا وإنما على مستوى البيولوجيا الجزيئية ونفثة جيناتها، وبهذا انتقلت الفلسفة إلى كونها مدخلاً للبحث الفلسفي .

• علاقة اللغة العربية بالفلسفة:

أ - هوة العناق بين اللغة العربية والفلسفة: عملت الفلسفة الإسلامية لقاءً مثيراً وغنياً بين اللغة ممثلة في علم الكلام وفلسفة الإغريق، التي أحسن الفكر الإسلامي وصاها . وقد تناول كثيرون هذا الجانب من فلسفة السلف . وما يهمنا : كيف يعود الوصال بين اللغة العربية والفلسفة بعد طول انقطاع؟ وبالحقيقة لم يحدث تراكم فكري يسمح بالتعمق في علاقة اللغة العربية بالفلسفة، وهذه العلاقة أصبحت من أهم ركائز فكر ثقافة المعلومات ذي التمرکز اللغوي، والسؤال هو: هل الحل أن نستعير من الفكر الغربي مناهجه دون نتائج أم نقتص من مضمون هذا الفكر ما يتلاءم مع فكرنا ونقيم عليه مناهج خاصة بنا؟ وإذا كنا لا نستطيع الإجابة على هكذا سؤال، باستطاعتنا إقامة جسور بين فكرنا الفلسفي واللغة العربية، ومثالنا على ذلك: - التوسع في دراسة اللسانيات الحديثة في أقسام الفلسفة، والتوسع في تدريس الفلسفة في أقسام اللغة العربية خاصة نظرية المعرفة وفلسفة اللغة . دراسة كيف تجع الفكر اللغوي الفرنسي والإنكليزي الحديث في إقامة صلات وثيقة بين لغتيهما والمنطق الحديث ذي الرب العليا، متجاوزاً منطق أرسطو بصوريته وصرامة قطعيته - تحليل دقيق للمدارس الفكرية المعاصرة من منظور اللغة

العربية، والقصد هو مضاهاة خصائص اللغة العربية مع الجوانب اللغوية التي تعرضت لها تلك المدارس الفكرية.

ب - اللغة أداة للفكر الفلسفي العربي: - قليلون هم رواد الفكر الفلسفي العربي المعاصر أمثال: حسن حنفي، ومحمد أركون ومحمد عابد الجابري، وبقية المفكرين لم يتخذوا من اللغة ركيزة أساسية لهم رغم الدور الخطير الذي لعبته اللغة العربية في فكر العرب وتاريخهم. وكما قال كبيرنا أمين الخولي: (ما من علة في فكرنا إلا وراءها علة لغوية) وكانت اللغة أداة الهجوم على الفلسفة بمنطق الغزالي في (تهافت الفلاسفة) حيث انصب نقده على فكر ابن رشد في الجانب اللغوي، فتهاافت ابن رشد (كما يرى إمامنا) قضية لغوية، ومع تطور التكنولوجيا وقربها من المناطق الحميمية من مخ الإنسان ووجدانه وجسيماته، عندما تتقعر ساحات فكرنا قضايا فلسفية، ذات أبعاد لغوية، وهنا يتوجب علينا اهتمامنا باللغة من أجل دور فلسفي عظيم.

ج - الفلسفة أداة للغة: تكون حاجة الفكر العلمي للفلسفة كلما اقترب الفكر من مشارفه القصوى أو عندما يصطدم بعقبات منهجية موضوعية، يصعب احتواؤها في النظريات القائمة، وبالنسبة لنا لم تلحق بمد الثورة العلمية التي حدثت في الغرب في مجال علوم اللسانيات، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وفكرنا اللغوي سيبقى بعيداً عن عالم الفلسفة فلا شيء يحفز أو يحثه على اقتحام الفلسفة، فأين تلك المشارف القصوى وتلك العقبات؟ وما نريده ألا يستسلم لمثل هذه الاستنتاجات المنطقية وإن بدت كذلك، لأن معظم الفكر اللغوي الحديث خاصة ذلك الذي يدور حول نظرية نشو مسكي واتخاذ اللغة الإنكليزية نموذجاً لغوياً ونمطاً يقام عليه صرح اللغة العمومية التي تتفوق على جميع اللغات، أما الموقف بالنسبة إلى العربية أشد حرجاً كونها عضواً في أسرة اللغات السامية واللغات الهندوأوروبية، وتختلف احتلافاً جوهرياً: صرغياً ونحوياً ومعجمياً) ولا فكاك لنا من النهج اللغوي القائم على النموذج الإنكليزي، في تنظير العربية إلا باللجوء إلى الفلسفة بحثاً عن نظرية حديثة، ويشجعنا على ذلك، أننا لسنا وحدنا في هذا التوجه،

يشاركنا فيه كثيرون من المفاهضين لنعم تشو مسكي، ولهذا نهتم بالحوار الجاد بين فلاسفتنا ولغويينا حول مسألة المجاز اللغوي، فهي لم تحظ بما تستحقه من دراسة في فكرنا الحديث، وخاصة ما يحدث في مجال علم الدلالة وعلم النص وعلم المعاجم والتوليد المعجمي، وأصبح واجباً ملحاً حتى لا يبقى المجاز بصفته الوسيلة اللغوية الأساسية في توسيع المعنى، ويبقى الفكر بالتالي بعيداً عن تناول الفكر العربي الحديث، ولا يقل أهمية عنه إعادة قراءة تراثنا اللغوي من خلال نظرية حديثة، نريد أن نرى بلاغة (الجرجاني) وقد كشف عن أسرار اللغة ودلائل إعجازها، بوضعها تحت مجهر الدلالة الصورية القائمة على الرياضيات المنطقية، وأن نقارن بين فكر سيبويه المعتزلي وفكرنا اللغوي الحديث ذي الطابع الانعزالي.

- علاقة اللغة الأجنبية بالعلوم،

١ - علاقة اللغة الأجنبية بعلم النفس: أصبحت اللغة نظاماً لاكتساب العادات أو أي نوع من السلوك يكتسب من الخبرة أو التجربة والخطأ، ولا يمكن اختزالها بهذا، فهي تربط بين الثنائيات كما قال (سكينر)، فاللغة تختلف عن السلوك فهي تقوم كما أسس لها (دي - سوسير وتشو مسكي) على بنية عميقة قوامها نسق معرفي كامن في العقل، وتقوم على السؤال التالي: ما هو نسق المعرفة هذا؟ وغاية السؤال: ماذا يوجد بداخل عقل الإنسان من معارف؟ كيف نشأ هذا النسق المعرفي، بمعنى كيف يكتسب الطفل لغة الأم؟ حيث تمنحه أمه نسقاً غير منسقي أو مرتب ليصبح منهجاً. كيف يمكن توظيف هذه المعرفة بالنطق والكتابة وما السر وراء الصفة الإبداعية للغة وما الذي يجعلها قادرة على توليد التعبير اللغوي؟. إذاً هناك بنية عميقة في المخ البشري لمعالجة المعلومات اللغوية، بنية على مستويات عدة من حيث البعد والقرب من اللاوعي. ومن الممكن أن تصبح آليات الذهن اللغوية مدخلاً لفهم طبيعة عمل الآليات الأخرى: الإدراك البصري والحدس، ويمكن متابعة النشاط اللغوي من: النطق والسمع. توليد الكلام. الكتابة والقراءة. الخطأ والصواب. وهكذا أصبحت اللغة هي الأساس لعلم النفس المعرفي.

ب - علاقة اللغة بالبيولوجيا: من الطبيعي أن تكون علاقة اللغة بالبيولوجيا أكثر علاقاتها العلمية إثارة وأهمية، وذروة العلاقات المعرفية التي تتمثل في لقاء اللغة قمة العلوم الإنسانية مع البيولوجيات التي تتسّم عرش العلوم الطبيعية، وهي بهذا تمثل أقصى صور المواجهة بين اللامادي والمادي، وبين الرمزي والعضوي، واللغة تكمن في صلب العملية البيولوجية أي في صلب نواة الخلية وسادت اللغة فروع المعرفة الأخرى، ويسود العلاقة بين اللغة والبيولوجيا طابع التكافؤ مهيمنة في: لغة الوراثة، واقتضى علم الوراثة من اللغة كثيراً من أسسها، وقد جر الكود الوراثي وراءه كثيراً من المفاهيم اللغوية، وتوسل علم الوراثة باللغة في كثير من أسسها: النص الوراثي، الجملة الوراثية، لنحو الوراثي، الفائض الوراثي، المعجم الوراثي، الخطأ الوراثي، بلاغة وراثية ومُحسّنات بدعية وراثية، فالبيولوجيات تمتلك مفتاح كلمة السر اللغوي، وربما لا يكون سبباً إشكالية اللغة من خلال الرياضيات والمنطق كما يقول تشو مسكي، بل يكون من خلال البيولوجيا مطبقاً علم اللسانيات الأعصابية، بكشفه عمل الآليات الفيزيولوجية اللغوية، التي تمثل: عنصر العتاد (الشق المادي) الذي يبنى عليه (الشق اللامادي)، وهو الشق المعرفي اللغوي داخل المخ البشري، وكلنا أمل أن يمدنا علم اللسانيات الأعصابية بالشواهد العلمية والعملية التي تؤكد أو تنفي صحة الافتراضات التي قام عليها علم اللسانيات، ولا شك أن التقدم في فهم العلاقة اللغوية / البيولوجية، ستكون له آثاره العميقة في كثير من المجالات العلمية والتكنولوجية، هي التربية ونظم الاتصالات والكمبيوتر، وفي مجال التربية نجيب عن السؤال الصعب، وهو: كيف يتعلم الإنسان وكيف يدرك الأشياء؟ وكيف يذكر ويتذكر ويتناسى وينسى؟ وما أهم الوسائل التي تزيد من فاعلية التعليم؟ يعني بهدف، سراعته وزيادة قدرة المتعلم على استيعاب ظواهر التعقيد، أما على صعيد نظم الاتصالات والكمبيوتر فالتقدم رهناً بمدى فهمنا البيولوجية/اللغوية وقدرة مهندسي اللغة والكمبيوتر على محاكاة عمليات الذهن، وتطوير نُظم معلومات ذكية أكثر تجاوباً وحساسية.

ج - علاقة اللغة بالرياضيات: علينا أن نتخلص من سجن الرياضيات التقليدية كما علّمنا إياها إقليدس، ولننظر إلى الرياضيات بمفزاها الواسع، أي بصفتها علم التعامل مع المفاهيم الصرفة والمجردات والعلاقات التي تربط بينها، في الوقت الذي تزخر به منظومة اللغة من مفاهيم ومجردات وعلاقات، فاللغة تمثل تحدياً هاماً للرياضيات. والسؤال كيف تتعامل الرياضيات القاطنة مع اللغة الغامضة المتبسة ومع فوائدها وتميعها، فاللغة لم تخضع لمعالجة رياضيات إقليدس، وبخاصة ظاهرتها الإبداعية التي تكمن وراء قدرة الناطقين بها، وهي قدرة توليد عدد من الجمل، وترجع هذه الظاهرة إلى خاصية أساسية للتعبير اللغوي، يعبر عنها بمصطلح التداخل الحلقي، ويقصد به: أن الجملة الفعلية يمكن أن تتضمن شبه جملة اسمية، في الوقت الذي تتضمن شبه جملة فعلية أو أكثر، وظل هذا التكرار الحلقي عائقاً أمام تقدم أهل الرياضيات على تناول إشكالية اللغة، إلى أن جاء برتراند رسل ووضع أسس النظرية الصورية للغة وهذا بدوره كان مدخلاً لتطوير اللغات الاصطناعية لبرمجة الكمبيوتر، وبهدت الطريق أمام تشو مسكي ليقوم نموذج الرياضي للغات الإنسانية، لقد أحال النحو التوليدي الذي أقامه تشو مسكي النحو اللغوي إلى سلسلة من القواعد (المعادلات) التي يمكن من خلالها توليد جميع التعبيرات اللغوية الممكنة إلى عكس النحو التقليدي الذي يكتفي بإعطاء أمثلة من حالات الاطراد والشدوذ والتي مهما تعددت لا يمكن أن تعطي لانهاية اللغة.

د - علاقة اللغة بالمنطق: إن العلاقة وثيقة بين اللغة والمنطق، وتحدث كثيرون عن علاقة نحو اللغة العربية بمنطق أرسطو ذي الطابع القاطع والتي تعزى إليه النزعة الاطرادية لدى معظم نحائنا في سعيهم الحثيث إلى تفسير الشاذ اللغوي في إطار المطرد، وحتى يومنا هذا يحاول بعضهم دون فائدة تذكر إخضاع اللغة لمنطق أرسطو منطق الرتبة الأولى، فكيف يكون ذلك وفيه استحيل المقولات اللغوية إلى مجردات لا صلة لها بالواقع الذي تعبر عنه؟ إن منطق أرسطو ذي الرتبة الأولى فشل في التعامل مع اللغة بغموضها

واحتمالاتها وليسها، وأن يتناول الحدث اللغوي في زمنيته واتفاعلاته، والآن
لنتساءل: كيف لهذا المنطق الصوري الذي قطع صلته بالواقع أن يتعامل مع
اللغة وثيقة الصلة بهذا العالم؟ ترى كيف يفسر لنا علاقة المقام بالمقال؟
وكيف له أن يتعامل مع اعتبارية العلاقة بين اللفظ وما يدل عليه؟ نحن إذا
بحاجة إلى منطق ممتد يقيم كهمة وصل بين مجردات المنطق وواقع اللغة. -
وكيف لهذا المنطق الصوري القاطع أن يتعامل مع الظواهر اللغوية غير
القاطعة مع المحتمل. والمارض. والواجب والجائز. والمقروض والمتوقع ومع
الشك واليقين؟ إذا نحن بحاجة إلى منطق (طوري) يخفف من حدة القطع
التي يتسم بها المنطق الصوري الأول، منطق يقبل أفاضاً من قبيل: ربما. من
الجائز. في أغلب الظن. في المتوسط بقدر. يقل أو يزيد - وكيف لهذا المنطق
القاطع الذي يتعامل مع فعل الكينونة (الفعل المضارع) أن يعبر عن ظاهرة
الزمن في اللغة، سواء في ارتباط زمن الفعل ماضيه ومضارعه بزمن لحدث
منصرمه وراحته وقادمه، أو من حيث البنية الزمنية الداخلية للفعل ذاته وهو
الشروع في الفعل والانتهاء منه وتكراره واستئنافه وتدرجه، (مثل أمثلة:
الشروع أخذ يظهر الانتهاء. استنفذ الحلول والتكرار: تأرجحت الآراء) وهذا
ما يطلق عليه أهل اللغة السمات الجهوية فنحن بحاجة إلى منطق زمني.
وكيف يفسر لنا هذا المنطق الصوري القاطع اختلاف القصد؟ عندما نهجو
ونحن في حال المديح، وعندما نسخر ونحن في حال الجد، وعندما نستعظم
الصفات ذاتها على الرغم من اختلاف دلالتها وفقاً لما تقترب به من موصوفات،
فكيف نميز الفرق بين دلالة معنى (الصغير) في (فأر صغير) وقيل صغير ومعنى
الحدة في (سكين حاد) و(نظرة حادة) ومعنى العظمة في (دولة عظيمة)
و(حدث عظيم) نحن بحاجة إلى تفسير النوايا. وهكذا فرضت اللغة شروطها
على منطق أرسطو ليتخلص من قطعيته وصوريته ولا زمنيته وبرودته
وانعزاليته ويتعامل مع حرارة الواقع وتفاصيل أحداثه وكائناته، فتفرع منطق
أرسطو القاطع إلى فروع فأصبح شجرة مورقة. وهذا لا يعني أننا أصبحنا في
غير حاجة إلى منطق أرسطو الأصلي في تحليل بعض الظواهر اللغوية.

هـ - علاقة اللغة بعلم الإحصاء: تم استخدام الإحصاء منذ نهاية القرن الماضي في تحليل بعض الظواهر اللغوية البسيطة مثل: استخدام معدلات الحروف والألفاظ، والصيغ لتحليل أساليب الكتاب ووضع نُظمٍ لأغراض التعمية والتشفير وخلافه، على الرغم من هذه الأهمية العلمية لهذه الاستخدامات، إلا أن العلاقة العلمية، بين اللغة والإحصاء لم تنشأ إلا في منتصف القرن الماضي، عندما خرج علينا (كلود شانون) بنظرية المعلومات القائمة على الاحتمال الإحصائي، كأساس لقياس كمية المعلومات. فكلما قل توقع كمية المعلومات زادت كميتها، وكلما أصبحت شائعة ومتوقعة قلت كميتها مثالنا على ذلك: إن نبأ عن قتل جندي إسرائيلي طفلاً فلسطينياً يتضمن كمية معلومات أقل من نبأ قتل فلسطيني احتفى بحضن والده في حرم المسجد الأقصى. وقد سعى كثيرون إلى تطبيق نظرية المعلومات في المجال اللغوي، إلا أن اللغة لم تخضع للاختزال الإحصائي لنموذج شانون المتمثل في ثنائية (المرسل والمستقبل) وقناة الاتصال التي تصل بينهما ولاقت نظرية المعلومات نجاحاً باهراً على مستوى معالجة الإشارات الميكانيكية والكهربائية، وعجزت أن تتعامل مع مضمون اللغة الذي يتعذر اختزاله إلى مجرد سلسلة من الرموز وهذا أغفلت نظرية المعلومات عنصر المعنى بتركيزها على تجليات الظاهر المحسوس، أو شق المبني دون المعنى، وربما كانت نظرية شانون القائمة على ثنائية المرسل والمستقبل هي بمنزلة نظير معلوماتي منهج سكينر السلوكي القائم على المثير ورد الفعل، وتحت الحاجة إلى مطالب لغوية، ظهرت الحاجة إلى إحصاء جديد يستطيع أن يتعامل مع البنية للسياق اللغوي، ليكشف لنا عن علاقات الترابط والتماسك بين فقراته وجملته وألفاظه، وتلك التي تربط بين ظاهرات العبارات وما تبطنه من معانٍ وإشارات، وخرج إلى حيز الوجود علم اللسانيات القائم على ذخيرة النصوص، الذي يعدنا بإنجازات ضخمة في إيجاد المعاجم والإحصاء اللغوي وعلم الأسلوبية، ونظرية المعلومات ومجالات أخرى كنظرية الأدب ونظرية النقد وعلم الحدسيات.

- علاقة اللغة العربية بالعلوم: أكدنا في الفقرات السابقة على أهمية الدراسات عبر التخصصات في فكر عصر المعلومات، ولكننا نضيف أن تعدي التخصصات وتعددتها، فيما يخص علم اللغة، أكثر أهمية من غيرها من العلوم، وهذا هو الأساس اللغوي للمدخل الطبيعي لزراعة بذرة تعدي التخصصات وتعددتها، ولا بد هنا من إنشاء مركز بحثي متخصص في مجالات علاقة اللغة العربية بتكنولوجيا المعلومات، وتكنولوجيا الأعصاب والهندسة الوراثية، على أن تشمل خطة المركز البحثية، دراسة علاقات اللغة العربية بفصائل العلوم المختلفة.

- علاقة اللغة الأجنبية بالفنون: إن علاقة اللغة بالفنون تقع ضمن إطار لفكر العام، لعلم الرمز العام، وعلم السيمولوجيا الشامل، كما أسس له دي - سويسير في تناوله لثنائية الرمز والمدلول. إن علاقة اللغة بفنون الكلمة، كالشعر والأدب والمسرح، أسيرة ثنائية (الأداة والاستخدام): اللغة أداة التعبير للشاعر، وأداة السرد للأديب، وأداة الحوار لكتاب المسرح. أما علاقتها بفنون الرمز الأخرى كالموسيقى والتشكيل، ما زالت على مستوى التعميم فالتحليل العلمي الدقيق، ومع التقدم في علوم اللسانيات والمعلوماتية، يسمى بعضهم إلى وضع الأسس العلمية لما اعتدنا أن نعتبر عنه مجازاً بلغة الشعر ولغة الأدب ولغة المسرح، ولغة الشكل، ولغة الموسيقى، ولغة الأداء الحركي. ويتردد على أسماعنا حديث عن إعراب الأشكال والمقطوعات الموسيقية، مثلاً نعر بجمال اللغة، وهذا سيمكننا من قياس شعرية الشعر، وروائية الرواية، وسينمائية السينما، ويقصد بهذه المفاهيم المجردة التعبير عن الخصائص الجوهرية التي تميز كل جنس من الفنون عن الأجسام الأخرى، ليستقل الشعر عن النثر الأدبي. ويكون للسينما لغتها الخاصة، التي تتجاوز لغات الفنون المدرجة فيها، فعلى سبيل المثال هناك من يقيس شعرية الشاعر بقدرته على توليد تراكيب لغوية جديدة تتجاوز نطاق التراكيب المختلفة، التي يمكن أن يولدها نحو اللغة (السيد إمام ٢٠٠٠) وتحاول نظرية المعلومات أن تربط بين فنون الرمز باختلاف فروعها، بغض النظر عن الوحدة الرمزية التي يتعامل معها كل

فرع من هذه الفنون. فتظرية المعلومات لا تفرق بين كون الرمز رقماً أو حرفاً أو صوتاً أو لوناً أو إشارة كهربائية، وعلى صعيد تكنولوجيا المعلومات، فإن تكتيك الوسائط المتعددة يمثل أرضاً خصبة، لدراسة العلاقة بين اللغة وفنون التشكيل والموسيقى، وكيف تمتزج هذه الأنساق الرمزية مع بعضها البعض، وإن علاقة علم اللغة بنظرية الأدب، ستنمو في شكل علاقة تبادلية، غاية في الشراء، وأهل اللغة يحتاجون إلى نظرية الأدب لاغتناء نظرتهم إلى إشكالية المعنى اللغوي، في حين يحتاج أهل الأدب في تناولهم المعنى - خاصة فيما يتعلق بالمجاز - إلى أدوات لغوية كنظام السمات والحقول الدلالية التي يمكن من خلالها تفتيت معاني الألفاظ والجمل إلى عناصر أولية، كخطوة أساسية لتركيبها من جديد، بهدف إخضاع بعض الظواهر الأدبية إلى نوع من التحليل العلمي والحكم الأكثر دقة.

- علاقة اللغة العربية بالفنون: أهمل فكرنا الثقافي المعرفة الكامنة وراء الفنون، ويصعب على الكثيرين منا التصديق أن وراء فنون الشعر والموسيقى بل فن الرقص نوعاً من المعرفة لا يكتمل من دونه وعي الإنسان بحقائق ذاته وواقعه، وقد ضيقت تكنولوجيا المعلومات المسافة الفاصلة بين العلوم والفنون، وهذا ما جعل من فكر الفنون مقوماً أساسياً في فكر عصر المعلومات، ولا بد أن تكون اللغة وسيلتنا الأساسية كي تنقش تلك الظلمة التي تغطي جانباً واسعاً من فكر إبداعنا، إن التوجهات الحديثة لتحليل لغتنا، تمارض الفصل بين لغة الشعراء ولغة العامة، وبين المجازي والحرية، مثلما تمارض حالات أخرى من الفصل اللغوي المتمثلة في ثنائيات الاشتقاق والجمود، والفعلية والاسمية، والتعديّة وال لزوم، وأيقن الكثيرون أن هذه المتقابلات لا تمثل طريقاً نقيض بقدر ما تمثل طريقاً علاقة، يربط بينهما مسار متصل لا يمكننا من الإمساك بتلابيب المعنى اللغوي، إلا إذا تتبعنا تدرجات الطيف الممتد على هذه المسارات المتصلة، وعلينا أن نطرح جانباً ثنائية الحرية والمجازي، والتي ترسخت في أذهاننا، فالمجاز ليس حكراً على لغة الإبداع بل ظاهرة طاغية في حياتنا اليومية.

- علاقة اللغة الأجنبية بالهندسة: هي علاقة أقامتها اللغة مع الهندسة من خلال تكنولوجيا المعلومات، واللغة تمثل بالنسبة للهندسة موضوعاً متميزاً ومثيراً، إذا نظرنا إليها كنظام معقد متشابك، وإذا نظرنا إلى الهندسة بصمتها فن السيطرة على النظم المعقدة فولد بذلك مصطلح جديد (هندسة اللغة) كفرع متخصص من فروع هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي. وبالحقيقة تتميز الهندسة بقدرتها على تناول الموضوعات التي تفقد الأساس النظري المكتمل، وذلك بفضل أساليبها التقريبية وأغراضها العملية. وفي ظل هذا المفهوم، تصبح اللغات عموماً، واللغة العربية خاصة، في حاجة إلى الهندسة من أجل سد النقص النظري والعملي. فكما مهد الإحصاء اللغوي للإنتاج العلمي النظري الدقيق، يمكن للهندسة أن تسد بأساليبها التقريبية فجوات التنظير اللغوي، والتي ستبقى هناك مادام هدفنا المزيد من التعمق النظري، ومهندس اللغة لاتهمة في الدرجة الأولى أمور مثل النقص اللغوي، وأصالة الأسس العملية، بقدر ما يهمله تطبيق المتاح من العلم والخبرات بل الحيل الفنية أحياناً، بهدف تحقيق نتائج عملية، وربما يلجأ إليها المنظرون اللغويون لبلورة نظرياتهم واختبار فروضهم. وعلاقة اللغة بهندسة الكمبيوتر علاقة (هات وذن) وفي مجال اللغة يستخدم الكمبيوتر لإقامة النماذج اللغوية وتحليل الفروع اللغوية المختلفة، وهذه قائمة بتطبيقات الكمبيوتر في مجال علم اللسانيات: الصرف الحاسوبي - النحو الحاسوبي - الدلالة الحاسوبية - المعجمية الحاسوبية - علم النفس اللغوي الحاسوبي. وبالمقابل افترض علماء الكمبيوتر أثناء تطويرهم للغات البرمجة، الكثير من أسس اللغات الطبيعية، وهي اللغة التي يستخدمها الإنسان في حياته اليومية، وما زلوا يلهثون وراء التقريب بين هذه اللغات الاصطناعية واللغات الطبيعية، بهدف تسهيل التعامل مع الكمبيوتر دون وسيط مبرمج، والهدف الأسمى لبرمجة الكمبيوتر أن يتعامل معه الفرد مباشرة ويلفقه الطبيعية، لا من خلال لغات اصطناعية مثل: البيسيك والفورتران والكوبول وخلافه، وأصبحت معالجة اللغات الطبيعية آلياً بواسطة الكمبيوتر، أحد أهم المقومات الأساسية في

تصميم معمارية نظم المعلومات، ودليلنا على ذلك، أهم العلوم الأساسية التي قامت عليها معمارية أحدث أجيال الكمبيوتر وهي التالي: علم النفس، علم وظائف الأعضاء، المنطق، اللسانيات، وكل هذه العلوم ذات صلة وثيقة باللغة. وقال بعضهم: أن العلم الحديث لا ترسخ قواعده إلا بقدر تطبيقه على الكمبيوتر، هنا نقول أن علم اللغة الحديث، دخل مصاف العلوم الدقيقة، عندما قام على النموذج الرياضي للنحو التوليدي، وهذا يتميز بقابلية عالية للمعالجة الآلية والتطبيق الهندسي العملي.

- علاقة اللغة العربية بالهندسة: إن اللغة العربية أحوج من غيرها إلى الهندسة لكثرة الفجوات في نظيرنا اللغوي الحالي، وأن الهندسة بأساليبها العملية تستطيع سد ثغرات من الفراغ التخظيري، وإذا لم تفعل ذلك، سيطول بنا الوقت انتظاراً، لاكتمال الأسس النظرية لمعالجة اللغة العربية آلياً، إن هندسة اللغة العربية وتطوير التخظير لها، لابد أن يسيرا جنا إلى جنب، لأن كل منهما يتفدى على إنتاج الآخر، وهندسة اللغة لا تقتصر على المهندسين دون غيرهم بل من الممكن أن يساهم فيه التربوي واللغوي وعلماء الكمبيوتر.

.. - اللغة في إطار منظومة الثقافة:

أ - مواقع التقاء اللغة العربية بعامة الثقافة:

بالحقيقة أن موضع اللغة هي موضع القلب من منظومة الثقافة ونحن نتناول اللغة في الإطار الشامل لهذه المنظومة، وعلاقة اللغة بعناصرها المختلفة وهي - فكر اللغة ولغة اللغة - وتشمل المصطلحات اللغوية المستخدمة في فروعها المختلفة في تعليمها وتوثيقها ومعالجتها آلياً: - تربية اللغة - إعلام اللغة - اللغة وعلاقتها بنظام القيم والمعتقدات، إبداع اللغة.

- مواقع التقاء اللغة العربية بالثقافة: لا يمكن حل أزمة اللغة العربية دون دراسات واسعة لعلاقاتها بالثقافة ومستبقى أهمية علاقة اللغة بخارجها بنفس أهمية ما يجري داخل منظومتها إذا لم تزد عليها، فاللغة هي استخداماتها في الدرجة الأولى، وتكمن عظمتها في شيوعها وانتشارها، علاوة على كونها نسقاً رمزياً معرفياً، يقوم على العلاقات أصلاً (العلاقات الصرفية

والنحوية والمعجمية) ومن أهم مواضع التقاء اللغة بالثقافة، علاقتها الخاصة بالفكر، وهذا لم يحظ بما يستحقه من الأهمية من قبل الباحثين العرب.

- علاقة اللغة الأجنبية بالفكر: لا شك أنه توجد علاقة بين اللغة والفكر، تتضح لنا عندما نربط بين تجريدية الفكر وحقيقة نظام اللغة الذي يعمل على مستوى المفاهيم والمجردات من مقالات وعلاقات وتقابلات، وهي وسيلة لإدراك الظواهر الثنائية (الزمان والمكان) ثنائية الوجود الحاكمة، وبالتالي إدراك ظواهر الكون من حوله، ونحن نستشعر حركة الزمان من خلال اللغة، وهي تعبر في زمنيته عن الماضي والحاضر والمستقبل، وعن الشروع والانقضاء، وعن التوقف والاستئناف والتقطع والاستمرار، ونستشعر المكان حولنا من خلال اللغة وهي تعبر عن القريب والبعيد واللصيق وعن الغائب والحاضر وعن المحدود والشاسع وعن الامتلاء والفراغ، ويأتي المجاز بروعة صورته، ليجسد لنا إحساسنا بالزمان، جاعلاً من الوقت سيفاً إن لم تقطعه قطعك، ومن العمر قطاراً تدور به عجلات الزمن، من هبوط الليل رداء يرخي سدوله وتخيم علينا ظلمته، وبروعة التشبيه ذاته يجسد المجاز اللغوي إحساسنا بالمكان عندما يجعل من العزلة قمقماً، ومن الوجود سجناً، إن صبقنا ذرعاً بهذا الوجود، وعندما يسوغ لنا يبتلعنا اليم وأن نبكي الأطلال، وأن تعوي الرياح، وأن تنهب المركبة الطريق نهياً، إنها علاقة محيرة بين اللغة والفكر، وهناك مجموعة من الأسئلة نطرحها منها: هل اللغة تصنع الفكر أم الفكر يصنعها؟ - هل اللغة تقيد الفكر أم تحرره؟ - هل اللغة مرآة للعقل أم للعقل مرآة المتعددة؟ - وهل اللغة هي لغة الفكر الوحيدة أم أنها أهم لغات هذا الفكر أم هي مجرد واحدة من أهم لغاته المتعددة؟ وهذه التساؤلات الطبيعية تعكس علاقة اللغة بالفكر وكلنا أمل أن تساهم تكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا المخ والأعصاب في الإجابة عن هذه الأسئلة وعن سؤال: أ - هل اللغة تصنع الفكر أم هو الذي يصنعها؟ يقول أهل الحتمية اللغوية أن الثقافة وليدة اللغة، وهي تصنع الفكر، وهناك من يرى أن الفكر الأسطوري وليد التواصل اللغوي الشفاهي، والفكر النقدي هبة التواصل اللغوي المكتوب، لأنه سمح للقارئ أن يختلي بتصوصه ويعيد قراءتها، ويتمعن في مضمونها،

ويتهمنا الآخر - نحن العرب - بإهمال عنصر الزمن، وعدم احترام الوقت، وهذا ما يعتبرونه سبباً بل قصوراً في تعامل اللغة العربية مع خاصية الزمن، المتمش في شائبة الماضي والمضارع، مقارنة باللغتين الإنكليزية والفرنسية، ويكشف اتهامهم هذا عن عدم إلمامهم بالأساليب المتنوعة والتركيبية والصرفية المعجمية، التي تعبر بها العربية عن الزمن، وعلى النقيض من ذلك هناك من يقول إن اللغة هي اصطلاح من صنعنا، فكما خلقت الآلهة الأشياء بتسميتها، نحن بدورنا نهب الألفاظ معانيها ودلالاتها، ويبقى الفكر في أزمنة وتقدمه، يضع مفاهيمه ومصطلحاته في وعاء اللغة، لأن اللغة إبداع الكاتب، وخيال الشاعر، وابتكار العالم، وتحليل الناقد، وتصنيف المعجمي، وقرار المعجمي، وكما ذكرنا سابقاً علاقة اللغة بالفكر هي (هات وخذ) ودليلنا على هذا الكيفية التي نتعامل بها مع ظاهرة المجاز، وكذلك تلك التي يتعامل هو معنا بها. تدفع ممارسات الحياة المستجدة بالمجاز اللغوي إلى توسيع معاني الألفاظ، ومدى استخدامها، فهي تشبه حركة الاقتصاد مجازاً: بحركة الموائع، عندها نمر عن سيولة نقدية، وفيض نقدي، وتدفق أموال، وتشبه الإنترنت بيت المنكبوت، والحياة اليومية تولد المجاز، لتلعب هذه الاستعارة دوراً في تشكيل ممارسة الإنسان لحياته، وعندما نجعل من الاستعارة المجازية ومن النقاش حراً نخوضها، لمهاجمة الآراء والدفاع عن وجهات نظرنا، وإسكات الخصوم ومحاصرة الأفكار، تتحول مع تكرار استخدامها إلى أداة فعالة لتوجيه فكر الإنسان وسلوكه، ولا شك أن موقفنا من النقاش سيتغير بصورة جذرية، إذا تراءى لأهل المجاز تحول النقاش غزلاً بدلاً من الحرب، ليتهم يفعلون، عندها يحل التودد لشريك النقاش (لا لخصمه) والتآلف والتعاطف والتناغم وشقاوة المحبين محل الدفاع عن وجهات النظر والهجوم على آراء الخصوم، ومحاصرة الأفكار والمصنف الذهني، وتكميم الأفواه وتصفية وجهات نظر المعارضين.

- هل اللغة تقيد الفكر أم تحرره؟ تبدو العلاقة التبادلية بين الفكر واللغة، واضحة تماماً فقد يسمو الفكر بلغته أو ينحط بها، كذلك يمكن للغة أن تسمو أو أن تنحط به، ويشهد تاريخ الفكر أن اللغة من أشد الأسلحة

الأيديولوجية عنفاً، وهي الوسيلة للسيطرة على الفكر، ويكفي دليلاً على ذلك استغلال سلاح اللغة في متع تفسير النصوص الدينية مجازاً، ودليلنا على ذلك ما يقوم به بعض المصححين في دورنا الصحافية من قيود على كتابنا في استخدام المجاز، فهم يرفضون عبارات من قبيل: خلق الأفكار. وبعث التراث. ويذكرون هذا بما قام به (جورج أورويل طوبائيته ١٩٨٤) عندما وضع اللغة على رأس أسلحة القهر الأيديولوجية في يد الأخ الكبير، فصممت لغة الكلام الجديد كما أسماها أورويل بحيث تخلو من المجاز، وتضع قيوداً صارمة على معاني لألفاظه، فمعنى فقد الحرية يجب أن لا يخرج عن استخدام المعاني المناظرة كحبس الطير في قفصه) ومعنى القوة يجب ألا يخرج عن معنى الشد والإرخاء كما يقول علم الفيزياء، ولم تستهدف صرامة اللغة محاصرة العقول فقط وإنما كل بدائل التفكير الأخرى، وإن اللغة في سعيها الدؤوب للملاحقة التوسع المعرفي تتوغل في مصطلحاتها لتزداد تخصصاً وتحديداً، وتصبح من شدة انفلاقها حكراً على المتخصصين، وعائقاً أمام العامة، لاستيعاب معرفة عصرهم وإن إفراطنا في انفلاق لغتنا، تحديداً وتقنيناً، يساهم في انفلاقنا في الفكر وانعزاله، فاللغة قديماً وحديثاً تمارس سلطتها علينا بسحر أساطيرها أو بلاغة خطبائها، أو بتضليل إعلامها وزيف إعلانها، وتبقى الوسيلة الوحيدة لتعطيم القيود وتحرير الفكر والتصدي للظلم والزيف والجماد والتابع وكل ما هو غير أخلاقي وصحيح وأصيل، ومن خلال مجازها تحررنا من أسر الكلمات والمعاني السائدة، ومن ابتكاراتها تجميل من الإبداع حقاً مشاعاً للجميع، وبمرونتها نكتسب قدرة التعامل بين تناقضات الواقع ومتغيراته، يمكن أن تكون اللغة قيداً أو تحرراً، وعرفت اللغة بأنها الاستخدام اللامحدود لوسائل محدودة، ومثالنا على ذلك: تلك العبارة التي قالها هيروودوت (مصر هبة النيل)، والتي سيطرت على أفكار المصريين، واستسلموا لها، وظنوا أن مصر ستبقى مسجينة وادي النيل الضيق، فضاق الوادي بسكان مصر فتنادى المصريون بترديد شعار (أن مصر هبة الصحراء) وأنطلقت مصر تبحث في طيات رمالها وعن الحياة في بواديهـا.

- هل اللغة لغة الفكر أم للفكر لغته الخاصة: إن اللغة تمارس سلطتها علينا لمصلحتها، فهي مرآة العقل، وهذه مقولة أخاذة ونافذة، رسخت في الأذهان مفهوم التطابق بين اللغة والفكر، وبين بنية اللغة وبنية العقل أداة إنتاج هذا الفكر. فاللغة عند (كلود ليفي شتراوس) وكثيرين غيره، هي شكل من أشكال عقل الإنسان تماثله بنية وعملاً، وقد تأثرنا كثيراً بهذه المقولة، وراح كثير من علماء الذكاء نفسه يحاولون البحث بصبر عن مظاهر التطابق، وما أصعبه من تطابق لما بين هذين الزاويتين: زاوية اللغة، وزاوية الفكر. وهناك فريق يعارض بشدة انفراد اللغة كأداة للتفكير، معتبراً ذلك ضرباً من التمرکز اللغوي، وانحيازاً للغة على حساب الرموز الأخرى، وحين الوقت لزعة مفهوم تطابق اللغة مع الفكر، وهو المفهوم الذي يدافع عنه (نعمو تشو مسكي). ربما بحكم تمسكه بنموذجه الذهني للغة، ويحدوه الأمل في أن يصبح هذا النموذج نهجاً عاماً يمكن تطبيقه على أنساق الرموز الأخرى، مثل لغة الموسيقى والتشكيل، واعتبرت اللغة مدخلاً لسبر أغوار المخ البشري، وهذا قد انحسر اليوم بعد أن أوجد الباحثون مناهج علمية ووسائل تكنولوجية حديثة للكشف عن بنية المخ البشري، وهيكلية ذاكرته ويزداد الاعتقاد أن هناك أكثر من لغة للفكر، وإذا لم يكن ذلك فكيف نفسر وجود فكر سابق على اللغة في الزمن السحيق قبل أن يخترعها الإنسان لها، وهناك من يبشر بلغة - لغة ما بعد الكتابة - تجمع ما بين اللغة وأنساق الرموز الأخرى، كالتشكيل والموسيقى والرياضيات والمنطق والبرمجيات أيضاً، وربما يكشف لنا الزمن، أن العقل يعمل من خلال توزيع قدراته عبر مجموعة من ملكاته أو خرائذه الرمزية، ولكن اللغة ستبقى قادرة على مفاجأتنا لأنها بارعة في الانتقام لكرامتها ممن يتجاهلها أو يقلل من شأنها، وهي قد تخدعنا فتبدو وكأنها استسلمت ولكن لتنقض علينا فارضة سطوتها على الفكر الإنساني، فمن يضارع اللغة في مرونتها وسيولتها وقدرتها الفائقة على الجمع بين المتناقضات وبين الوضوح والغموض وبين الإستقرار والإضمار وبين الإيجاز والإطناب وبين الحشو والحذف وبين رقة اللفظ وفجاجته، وهي سلاح في يد القوي ودرع في يد الضعيف.

- علاقة اللغة العربية بالفكر: كل ما ذكرناه في السابق عن اللغة ينطبق علينا نحن العرب وعلى غيرنا، وقد اهتم بعض منظرينا بالعلاقة بين الفكر واللغة في مجال تناولهم لجذورنا الفكرية وتحليل بنية العقل العربي، والعقل المطلوب عادة في هذه الدراسات هو العقل المشيد للفكر، أي عقل القلة التابعة التي تمنع عقول الكثرة، التي يفترض أنها قادرة على دمج هذا الفكر في الحياة اليومية، وفي الواقع أن هذا الفكر الهابط من أعلى يبقى معلقاً بالهواء دون توظيف حقيقي على أرض الواقع، وهذا لن يحدث دون تحليل دقيق لعلاقة اللغة العربية بعقل الإنسان العربي العادي، وهنا تبرز أهمية علم النفس اللغوي، وهو لا يحظى بالاهتمام اللازم والجدير به لدينا، ويكفي هذا دليلاً على صدق زعمنا أن تلك المقولة الخاطئة التي استقرت وعسكرت في ذهنيتنا عن كيفية قراءة العربي لنصه غير المشكول، والتي تقول بشكل قاطع (أن العربية تفهم لتقرأ) فهي مقولة تتنافى مع أبسط قواعد علم النفس اللغوي، وهي تناقض الحس الطبيعي السليم. الغريب في الأمر أن عملية القراءة تلك على الرغم من شيوعها الهائل وأهميتها البالغة لم يتصد لها أي بحث جاد حتى الآن، يتناول جوانبها المعجمية والنحوية والنفسية، وكلنا أمل أن يقوم علماء النفس اللغوي عندنا بالمقارنة بين خصائص اللغة العربية ومواردها النحوية والمعجمية وبين آليات عمل المخ الأساسية، والتي تشمل التالي:

- القدرة على التعميم - التمييز بين الحواس - إكمال النقص -
- الاستخلاص من المشوش - الاستئناس غير الدقيق - الصمود إزاء التعقد -
- القدرة على الاستنتاج المنطقي والحدسي - عدم التطبيق الصارم للقواعد -
- التواصل والتعاون مع الذكي الآخر: بئراً كان أم نظاماً آلية - التوفيق بين الدوافع المتعددة والمتباينة - التكيف مع البيئة المتغيرة - الوعي بالذات -
- توليد الجمال وتذوقه - إظهار ردود الأفعال تجاه الأحداث والأشياء - إنها بحق: - منطقة بكر في انتظار من (يثير أرضها) ويقلب تربتها:

- فكر اللغة بشكل عام:

أ - قائمة بالمناهج اللغوية وتشعباتها: كان من إشكالية تشعب جوانب اللغة، وكنيجة منطقية لاتساع تداخلها مع فروع المعرفة وزيادة تعقدها، ونتيجة لالتقاءها مع تكنولوجيا المعلومات، ونتيجة لهذا تعددت المناهج اللغوية النظرية في تناول إشكالية اللغة والأساليب البرمجية لمعالجتها آلياً باستخدام الكمبيوتر، ومن هذه المناهج هي: - النهج التشريعي - النهج الأنثربولوجي - النهج التوليدي - النهج العقلاني - النهج الرياضي المنطقي - النهج الإحصائي، النهج الوظيفي. - النهج الملوكي الأم بريقي - النهج النصي - النهج الحاسوبي.

ب - النهج التشريعي: أن ننظر إلى اللغة كسلوك اجتماعي، وهذا لابد من الضبط من خلال تشريع لغوي، ومثالنا عليه النحو اللغوي العربي، ولا شك أن البعد الديني قد أضفى للغة احتراماً خاصاً على (التشريع)، وكان الاهتمام باللغة بسبب الحاجتين الدينية والتعليمية هذا ما أكده الزمن الحاضر والعصور الماضية (جوليا كريستيفا) فالنحو ميزان اللغة العربية - كما ذكر صبح الأعشى - والقانون الذي يحكم كل صورة من صورها، فهو قياس يتبع. أما الاطراد فهو يرتبط بالقياس، والغاية من النحو منع اللحن وحفظ النص القرآني كتابةً وتلاوةً - وهذا ما سبب طغيان النحاة (نبيل علي ١٩٨٨) فازداد نفوذهم الاجتماعي ولا زلنا نعاني من هذا حتى اليوم.

ج - النهج التوليدي: إن قواعد النحو والشذوذ والاطراد والأمثلة على ذلك وشروط الجواز والتفصيل، قد ضيقت على التعابير اللغوية وجعلتها محدودة جداً، مما أبعدنا عن الإبداع والابتكار، فكان النهج التوليدي الذي عمل على لانهائية التعابير اللغوية، والالانهائية هذه تعتبر أهم خاصية في منظومة اللغة، وهي السر وراء ابتكاريتها ومداومة تجددتها وتوسعها، علاوة على ذلك فإن أسلوب توصيف قواعد النحو عن طريق إعطاء الأمثلة لا يلبي مطالب معالجة اللغة آلياً بواسطة الكمبيوتر، وهذه المعالجة الآلية تتطلب الحكم على صحة التعبير اللغوي من عدمه، فكيف يتأتى لنا الحكم من خلال

أمثلة - مُمها كثر تظل محدودة العدد بحكم طبيعتها؛ وإنْ نظم المعالجة لأبد أن تتعامل مع اللغة على اتساعها، أي على أساس من لا نهائيتها، وهذا ما سعى النحو التوليدي إلى تحقيقه، ويقصد بالتوليد أن تصاغ قواعد النحو في صورة قواعد رياضية، يمكن من خلالها توليد العديد من التعابير المسموح بها في اللغة، تماماً، كما تولد المتواليات الهندسية والعديد العدد اللانهائي من هذه السلاسل، وكما تُولدُ معادلة الخط المستقيم في الهندسة التحليلية.

د - النهج الحاسوبي: يحاول علماء اللسانيات تطوير التنظير اللغوي إلى آفاق بعيدة المدى انطلاقاً من نظرية هندسة المعرفة، وإقامة نماذج لتمثيل أداء اللغة ويقوم هذا على: - نظام رياضي لكتابة قواعد النحو وفقاً للنموذج اللغوي المعمول فيه - تنظيم منهجي لكيفية تسجيل هذه القواعد وعلى مفردات المعجم التي تطبق عليها. وقد ظهرت نماذج نحوية عدة تمثل النتائج الفزير للتفاعل الشديد بين النحويين والدالين من جانب، واللغويين وعلماء الكمبيوتر من جانب آخر، نورد هنا قائمة بأسماء النماذج النحوية: نحو وظيفي - نحو وظيفي معجمي - نحو علائقي - نحو الحالات الإعرابية - نحو البنية العامة للجملة - نحو ترابطي - نحو توليدي تحويلي - نظرية الرابط العاملي - نحو مقولي - نحو شبكات الانتقال المعززة نحو بنية الجملة المعتمدة على الرأس.

- فكرة اللغة العربية: اللغة العربية أسيرة النهج التحليلي، القائم على إعطاء الأمثلة وهناك محاولات متواضعة لتطبيق النهج اللغوي والنموذج الحاسوبي على نطاق محدود، من نحو اللغة العربية، وقد قام الدكتور (نبيل علي) بوضع ٢٠ ألف قاعدة لغوية، يتطلب اختيار أنسب النهج والنماذج الحاسوبية بحثاً متعمقاً يضاهي بين إمكانات هذه النماذج والمناهج وبين خصائص منظومة اللغة العربية وكذلك التي تتبع لمنظوماتها الفرعية، والمقصود هنا منظومات: الصوتيات. والصرف والنحو والدلالة والمعجم. وبات الأمر في حاجة إلى مؤتمر قومي عربي أسوة بما فعله اليابانيون، من أجل اختيار أنسب النماذج اللغوية لتلبية مطالب اللغة العربية تنظيراً وتعليماً

ومعالجة آلية، ومع الأسف لم يحظ هذا الأمر بأي اهتمام من مجامعنا العربية، وتستطيع أن تحكم على هذه المبادرة العظيمة أقسام اللغة العربية في الجامعات والأكاديميات العربية، وكذلك دار العلوم وكليات الآداب.

- تربية اللغة بشكل عام: - تشمل تربية اللغة كل ما يتعلق بأمور تعليمها وتعلمها، سواء كانت اللغة للناطقين بها، أو غير الناطقين بها، وتشمل تنمية مهارات التواصل الأربع: القراءة. الكتابة. التحدث. الاستماع، ويحظى تعليم اللغة الأم بأهمية بالغة هذه الأيام بعد أن ثبتت أهمية الدور الذي تلعبه هذه الأيام في تنمية فكر الفرد، وتوطيد عرى تماسك الاجتماعي، علاوة على كونها هي الطبقة الأساس التي يبنى عليها تعلم اللغات الأجنبية، والذي يحظى هو الآخر بأهمية بالغة بفعل العولمة، وهناك ما يزيد عن ٥٠ مليون صيني يتعلمون اللغة الإنكليزية، والدليل على ذلك مواقع الإنترنت لتعليم اللغات وتعلمها، إضافة إلى توفير كم هائل من برمجيات تعليم اللغات ونظم تأليف المناهج.

- تربية اللغة،

١ - أزمة تعليم اللغة العربية: قيل الكثير عن أزمة تعليم اللغة العربية، سواء عن مستوى محتوى المادة التعليمية أو من حيث تعليم أساليب التعليم ومنهجياته ونتائجه. وأهم أوجه القصور: التركيز على الجوانب الصورية سواء في تعليم النحو والصرف، أو تنمية مهارات الخطابة والحوار. فقد غطت سطحية قراءة النصوص وضبط أواخر الكلمات على حساب عمق استيعابها والربط بين جملها وفقراتها، وإدراك هيكلتها الشاملة. - عدم الاهتمام بعنصر الدلالة أي الجوانب المتعلقة بالمعنى، وطفئت الوظائف النحوية (فاعل ومفعول. حال) على معنى التراكيب النحوية، فالطالب نراه عاجزاً عن معرفة التراكيب التالية: رأيت يخرج من الباب، ورأيت خارجاً من الباب، رأيت وقد خرج من الباب فالثلاثة هي أحوال. أما المعنى فهي بطن صاحب العبارة، والشيء نفسه في صيغ الصرف ويصعب على طلابنا تمييز الفروق الدلالية بين أزواج الألفاظ المتقاربة التالية: (تبهرج بهرجة) (سداد: تعديد) (جليل:

دو جلال) - إهمال الجانب الوظيفي باستخدام اللغة، وعدم تنمية المهارات اللغوية المطلوبة في الحياة العملية، والناس ينحازون إلى جانب الخطأ على حساب التواصل الفعال - عدم تنمية حاسة التذوق لماثر اللغة العربية شعراً أم نثراً أم تراثاً - عزوف الكبار والصغار عن استخدام المعجم في لغتهم الأم.

ب - تعلم اللغة العربية ذاتياً: هناك فارق بين تعليم اللغة العربية تلقيناً من خلال المدرس، وتعلمها ذاتياً في غيبة منه، وهو ما أصبح واجباً لعوامل من أهمها: - أهمية التعلم ذاتياً لتعويض أوجه القصور في تعليم اللغة تلقيناً - تلبية مطالب تجديد المعرفة اللغوية تمشياً مع مبدأ التعلم مدى الحياة - تعليم أبناء الجاليات العربية في المهجر الذين لا يتوافر لديهم معلمون للغة العربية وغالباً ما تنقص ذوبهم الخبرات والأسس المنهجية لتعليمها، وإذا أردت أن تتعلم اللغة ذاتياً، أو أن تتعلمها عن بعد عبر الإنترنت، تحتاج إلى جهود بحثية مضمّنة في مجال علم النفس واعداد المناهج وتقويم أداء لطلاب، وتصميم البرمجيات التعليمية.

ج - برمجيات تعليم اللغة العربية وتعلمها، مازالت برمجيات تعليم اللغة العربية قاصرة كماً وكيفاً، وتميل إلى استعمال أنماط التعليم التقليدية مثل: ملء الفراغات وأسئلة متعددة الخيارات وما شابه، فتحن بمسيس الحاجة إلى برامج تعليم ذكية، تستخدم أساليب الذكاء الاصطناعي والقائمة على نظم معالجة اللغة العربية آلياً: - الصرف الآلي - الإعراب الآلي - التشكيل الآلي - نظم التلخيص والفهرسة الآلية. ويتفاهل البعض بهذا الخصوص، لأنه يمثل معالجة للبنية التحتية اللغوية (صوتاً وحرفاً ومعجماً)، وليس مجرد تواتر واحصائيات للجمل والكلمات.

- إعلام اللغة الأجنبية: يمكن أن نلخص علاقة الإعلام باللغة في ثنائية (لغة الإعلام وإعلام اللغة) ولا بد أن يقتصر حديثنا على إعلام اللغة ويشمل التالي: الثقافة اللغوية كفرع متخصص - من الثقافة العلمية - تعليم اللغة عبر وسائل الإعلام.

- إعلام اللغة العربية: يولي إعلامنا العربي اهتماماً جيداً باللغة، وهو يركز على التالي: - عبقرية اللغة - تذوقها، - وصلة هذا بالبيان القرآني،

لكن الثقافة اللغوية في عصر المعلومات، تتطلب ما هو أكثر، وربما تكون دراستنا هذه تساعدنا في تحقيق المطلوب، ولكن هل يمكن للإعلام إنجاز هذه المهمة؟ مثلاً: أن تنقل الوعي باللغة من مستوى النخبة إلى مستوى العامة؟ ولا بد هنا من التالي: - أهمية اللغة في عصر المعلومات - أعراض أزمة - تراثا اللغوي - كيفية توظيف اللغة في حياتنا اليومية - موقع العربية على خريطة اللغات العالمية - التوعية بنظم معالجة اللغة العربية آلياً - علاقة اللغة بفنون الإبداع المختلفة - علاقة اللغة بمنظومة القيم والمعتقدات، ولا بد من التواصل الحي التفاعلي لتعليم اللغة ويعد شرطاً أساسياً لاكتساب المهارات اللغوية، وقد تكون الإنترنت أكثر نجاحاً في هذا المضمار، وعلى برامج تعليم اللغة إعلامياً أن تدمج في برامجها وسائط تعليمية جديدة، من وسائل إيضاح مرئية ومسموعة ومطبوعة.

- اللغة الأجنبية في عصر المعلومات، البعد الأخلاقي: استطاع عصر المعلومات أن يضيف بعداً أخلاقياً جديداً يتعلق بأمرين أساسيين هما: - ظاهرة الانقراض اللغوي الذي يهدد معظم لغات العالم - قضية حقوق الأقليات اللغوية باعتبار، حق التمسك باللغة الأصلية وهي أحد الحقوق الثقافية، وأن ظاهرة الانقراض اللغوي يمكن أن نسميها (بالإمبريالية اللغوية) أو مصطلح الإمبريالية الثقافية والذي شاع استخدامه حالياً وفضلنا أن نسميه (الداروينية اللغوية) لسببين ١ - إن مصطلح الإمبريالية قد ارتبط بأذهان العالم الثالث، ولكنه يخص الدول المستضعفة دون الدول المتقدمة، وهيمنة اللغة الإنكليزية قضية تهم فرنسا، وغيرها من الدول كما تهمنا نحن العرب، وتهم الدول الإسكندنافية، وأمريكا اللاتينية. وتهدد اليابان وتهدد قبائل إفريقيا وأستراليا - ٢ وبمفهوم الداروينية اللغوية) تشير إلى انقراض نصف لغات العالم حسب إحصائيات منظمة اليونسكو، وهذا ما شجع المنظمة الثقافية الدولية لإصدار ميثاقها الخاص في المحافظة على تعدد اللغات، ولاشك أن هناك علاقة بين الداروينية اللغوية ذي انطباع البيولوجي والتقارب الحاصل بين علمي اللغة الحديث وبين البيولوجيا الجزيئية.

وفي ظل (البقاء للأصلح) هو الأكثر شيوعاً يعني (اللغة الإنكليزية) التي تخفق غيرها من اللغات، وتكاد تخرج منفردة لغة عالمية (كأمر واقع) ويمكن معرفة أثر هذا من خلال المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي والعلمي، وجعلت شبكة الإنترنت العالم أكثر إدراكاً بطغيان اللغة الإنكليزية، والرصيد البشري الاستراتيجي الثقافي بات مهدداً، وتكنولوجيا المعلومات كادت تقضي على التنوع الثقافي، بقدر يفوق ما فعلته تكنولوجيا الصناعة بالتنوع البيولوجي، عندما أدركت أمريكا الأهمية البالغة لموارد المعلومات في اقتصاد ما بعد الصناعة راحت تشجع كل أسلحتها اللغوية تحضيراً لصراع دولي متوقع على الساحة الثقافية، ولهذا ربطت الولايات المتحدة بين هذا التوجه الاستراتيجي وما شهدته الساحة الأمريكية من تقدم كبير في علوم اللسانيات، وهندسة اللغة، منذ منتصف الخمسينات وشهدت تكنولوجيا المعلومات - الكثيفة لغوياً - تطوراً هائلاً للولايات المتحدة، وجعلت من شيوع اللغة الإنكليزية، رأس حربة في تنفيذ مخططاتها لسيادة العالم معلوماتياً وثقافياً واقتصادياً، وساعدها في ذلك شبكة الإنترنت التي طفت فوق لغات العالم نافذة ومترجمة، فاستعادت بذلك حلاً كادت تفقده، وسعت لتجمل من القرن الحالي قرناً أمريكياً لكونه قرناً (رمزياً) لا سلطة فوق سلطة اللغة. وتمارس اليوم الولايات المتحدة من خلال إعلامها واقتصادها وتكنولوجياها أساليباً مبتكرة من الضغط الدولي لا يرحم عدواً ولا صديقاً أو حليفاً كبيراً كان أم صغيراً، وهذه فرنسا منارة الأدب والثقافة، تترنح تحت ضربات الإغصار الثقافي الأطلنطي، وتكاد اليابان على مستوى التقانة، والتي تمثل مركز الصناعات الالكترونية عالمياً، أن تعلن انسحابها من صناعة البرمجيات، تحت ضربات برامج ونظم المعلومات الإنكليزية، والذي يرد إليها عبر الأطلنطي، وهذا ما جعل اليابان تهتم بأمور الترجمة الآلية أملاً في كسر عزلتها اللغوية التي فرضتها عليها لغتها الفريدة، ولا يختلف موقف ألمانيا عن بقية زميلاتها سواء على جبهة الثقافة أو التقانة، ولتتكلم الأرقام هنا عن سطوة اللغة الإنكليزية في مجال الإعلام عالمياً: ٦٥ / بالمائة من برامج الإذاعة باللغة

الإنكليزية. ٧٠ / بالمائة من الأفلام تاطقة باللغة الإنكليزية. ٩٠ / بالمائة من الوثائق المخزنة في الإنترنت بالإنجليزية. ٨٥ / من المكالمات الهاتفية الدولية تتم بالإنكليزية. أما على صعيد السياسة والاقتصاد تبقى الولايات المتحدة هي القطب الوحيد بلا منازع. ويعتبر صدى لمصالحها الإستراتيجية الداخلية منها والخارجية، فعلى الصعيد الداخلي تسعى الولايات المتحدة الأمريكية بحملة عالمية لفرض صيغتها الخاصة عن حقوق الإنسان بصيغة أقرب إلى الشكلية والدعائية المزيفة، المضللة بعيدة عن الجوهر لتطمس الظلم والقهر الذي يحدثه التفاوت الطبقي لذر الرماد بالعيون، وبينما تعلن عن ذلك تنكر على أقلياتها استخدام لغتهم الأم، وهل نسوا ما فعله (فرانكلين) في صراعه ضد أنصار اللاتينية، من أجل فرض لغته المحلية، ويستخدم النظام الأمريكي اللغة الإنكليزية كمصفاة للترشيح الاجتماعي، وكيف أصبح مستوى إجادتها وإتقانها وسيلة منيعة للحد من حركة الصعود الاجتماعي لهذه الفئات المضطهدة لغوياً، كما يحد من الفرص المتاحة أمامها، سواء للتنمية الفردية أم الجماعية، وكثيراً ما يبرر النظام الأمريكي أعماله القمعية هذه بالاستشهاد بالجار الكندي، وما أدت إليه الثنائية اللغوية من صراعات بين الناطقين بالإنكليزية والناطقين بالفرنسية، ويعتمد الكثيرون من المنظرين والساسة الأمريكيين في صدق الفكرة القائلة، بأن ليس هناك من تنوع لغوي إلا وله ضريبة اجتماعية باهظة. واللغة بريئة من هذه الافتراءات الظالمة، وهذا لا يصمد أمام التحليل الاجتماعي الدقيق والشامل، وكوامن الصراع الاجتماعي وأساسه الأسباب السياسية والاقتصادية والعنصرية، وكم من الجرائم ترتكب باسم اللغة البريئة، وكم من الضحايا سقطوا في العالم من أجلك أيتها اللغة في الشكل فقط، ولكن أسبابه في الحقيقة سياسية واقتصادية في المقام الأول. إن التنوع اللغوي يثير خوف الأمريكي البائس، الذي يتعثر تحت ثقل هزائمه في أفغانستان وباكستان وينهزم في العراق ذليلاً مكسوراً، يتوجع يستغيث بحكام النفط لتجديته مالياً بعد أن أعلن إفلاس بنوكه. وكيف ينسى الياباني و لعالم ما فعله القائد الأمريكي عندما وقعت اليابان وثيقة الاستسلام في

نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث أمر ذلك القائد الياباني باستخدام الحروف اللاتينية في كتابة اللغة اليابانية، زاعماً أن اللغة وراء عدوانية الشعب الياباني وهو بذلك يجمع وجهين من الحتمية، وهما: الحتمية اللغوية والحتمية البيولوجية.

- اللغة العربية في عصر المعلومات، (البعد الأخلاقي): قد يظن البعض أن اللغة في منأى عن الانقراض طبقاً للآية القرآنية (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فما وعدت به الآية الكريمة هو حفظ النص الشريف، ولكن كم من نصوص حفظت على مدى التاريخ واندثرت لغاتها، ولا نقصد من هذا الكلام أن اللغة العربية مهددة فعلاً بالانقراض، وقصدنا ضرورة تقوية تحصيناتنا اللغوية ضد اللغة الإنكليزية الشرسة، وأن ندرك ما يعنيه ثقافياً واقتصادياً وسياسياً، قرار منظمة التجارة العالمية بعدم اعتبار لغتنا العربية ضمن لغاتها الرسمية. وفي المقابل ما يعنيه من مزايا القرار الذي اتخذه المجلس الدولي للأرشفيف باعتبار اللغة العربية ضمن لغاته الرسمية، والأقليات اللغوية في الوطن العربي تمارس حقوقها، ولكن الغرب الحاقد حريص دائماً لإثارة الفتن وإحياء كل ما يفرق العرب، كما فعل عندما حاول إحياء اللغة الأمازيغية في الجزائر.

- إبداع اللغة الأجنبية: يمكن تقسيم إبداع اللغة إلى: - إبداع فنون اللغة، من أدب وشعر ومصرح - إبداع اللغة ذاتها. وأخيراً كثر الحديث عن إبداع فنون اللغة، ولم يحظ إبداع اللغة في ذاتها، بما تستحقه من الاهتمام، وعلى الرغم من إبداع فنون اللغة، فهو في جوهره، نتيجة إبداع اللغة بشكل آخر، سنتناول إبداع اللغة ذاتها، ونؤجل الحديث عن إبداع فنون اللغة، والمقصود بإبداع اللغة ذاتها، ذلك المختبئ في صلب منظومتها، ويمكن لكل ناطقٍ بها أن يمارسه، إن لغة ابتكاريتها الخاصة بها، ولا تتوقف الجماعات الناطقة باللغة عن ابتكار العبارات المستجدة، وإضافة المقدرات الجديدة إلى معجم اللغة، وإضافة معانٍ جديدة إلى مقدراتها القائمة بالفعل. ويبدو إبداع اللغة في أي صورة في بلاغة تراكيبها واستعارة مجازها، يمكن إبداع اللغة نحوياً في قدرتها

على توليد عدد لانهاثي من تراكييب الجمل، بفضل ما أسمىناه بالتداخل الحلقى، وأما إبداع المجاز فيمكن في قدرة صاحبه على هذا التنقل الحربيين الحقل الدلالية، فهو ينتقل من حقل العواطف البشرية إلى حقل النيران، فيجعل من العواطف لهيباً، يحرق شغاف القلوب، ويؤجج المشاعر، ويكتوي به قلب العاشق، ينتقل من حقل الوقت إلى حقل المال، يجعل الوقت ذهباً ومورداً يُدخّر، ينفق من ميزانيته ويبدد إسرافاً وتبذيراً، وينتقل بين حقل الشخصية وحقل البناء، فهو يجعل من الشخصية صرحاً لها مدخلها وسراديبها وأبعادها ودعائمها، ومثلها مثل البناء. تتحطم تهدم، تنهار، ويعاد بناؤها وترميمها، فالإبداع الكامن في اللغة هو (دمقرطة) لحق الإبداع، وهي أول قدرة إبداعية يتمتع بها الطفل خلال اكتسابه لغته الأم وهل هناك قدرة إبداعية أروع من أن يتعلم الطفل لغته دون مدرس، يستنتج قواعدها بمنطقه الفريزي، من تلك العينة العشوائية التي تنامي إلى سمعه البكر من لغة الكبار، إن إبداع اللغة يوفر جرعة الإبداع اليومية، فتضمن لعقولنا نموها وحيويتها ويحفظتها، ولكل مهارة لغوية إبداعها الخاص، فكما هناك إبداعاً للكتابة، هناك إبداعاً في القراءة تنفذ إلى قرار النص، وتعيد تأليف مؤلفه، وهناك إبداعاً في التحدث، وهناك استماع مبدع يستوعب ليتفاعل، يقبل يرفض في صمت، ويخلق الحكم مرجئاً للبوح به في الوقت المناسب. ولا شك أن عصر المعلومات يتطلب إبداعاً لغوياً جديداً، إبداعاً مختلفاً عن كتابة النصوص لتتألف وتتمهر في وسيلة الاتصال المتعددة مع أنساق الرموز من صور وأصوات، وإبداعاً جديداً في فن قراءة النصوص غير الخطية يلم شتاتها وشظاياها ويقتضي أثر تشعبها الداخلي، وثناصها الخارجي مع غيرها من النصوص، وإبداعاً جديداً في الحوار عن بعد، تحدثاً واستماعاً، ولا يرى الحوار نوعاً من عشوائية التقوى بالكلام، بل هو بناء يخضع لهندسة الحوار تتألف فيه الآراء وتتباعد. وتخلص فيه التوايا وتتأمر، وتحيل الأسئلة وردودها إلى ما قبلها لتمهد الطريق إلى ما بعدها وفقاً لغايات المتحدثين وتكتيكات حوارهم.

إبداعات اللغة العربية: الإبداع كثير في لغتنا العربية، من سخاء في اشتقاقها لا يضارعه اشتقاق في لغة أخرى من روعة نظامه وانتظامه، ونحو من وثرأ في التراكيب، وقدرة عالية المستوى في الإيجاز والإيمان، ومفردات وفيرة غزيرة المعنى، يفوقها تعدد مرادفاتها وكثافة المعنى، وفوق هذا نملك نصاً قرآنياً سماوياً جامعاً، ومرجعاً لقوياً متاحاً للجميع، وقد شارك السلف والخلف في لكشف عن روعة إبداع كتابة العربية بلاغة وفصاحة، واليوم طفت الكتابة الرديئة، وكادت أن تطرد الكتابة الجيدة. ونحن اليوم بحاجة إلى جرجاني جديد، يهدينا إلى الكتابة الجديدة، لا لتشخيص الكتابة الرديئة وإنما لحاجة ماسة إلى نظم الترجمة الآلية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، ونحن نحتاج إلى وقت طويل لنصل إلى درجات أرقى على سلم البلاغة، ويمكن أن تساهم تكنولوجيا المعلومات ليس في علاج الكتابة الرديئة، وإنما في دراسات الأسلوب لنماذج حديثة من الكتابة الجيدة، ومن أهمها نشر شعراء مثل: نزار قباني وأدونيس وغادة السمان، وتحليل الكتابات العلمية والمقالات الصحفية المؤثرة كمحمد حسنين هيكل. واقتصر إبداع اللغة العربية على مهارات الكتابة، دون المهارات اللغوية الأربع التي أشرنا إليها، إن القارئ العربي بأمس الحاجة إلى تحديث قراءته وفقاً لمطالب عصر المعلومات بمستوياتها الأربع المختلفة: - قراءة متعجلة - قراءة انتقائية - قراءة عادية - قراءة متعمقة.

- منظومة اللغة،

- الإطار العام لمنظومة اللغة: - مكوناته: مجموعة العلاقات الخارجية التي تربط منظومة اللغة بالمنظومات الاجتماعية، وهما منظومتا السياسة والاقتصاد، وعلاقة اللغة بالمجتمع، وعلاقة اللغة بمنظومات اللغة الأخرى، والفئات الاجتماعية المختلفة، والتي تتعامل مع منظومة اللغة.
- مجموعة العناصر الداخلية لمنظومة اللغة - عناصر البنى التحتية لمنظومة اللغة وتضم التالي: السياسة اللغوية. الموارد البشرية (منظرون موثقون محققون). موارد معلومات لغوية. ذخائر نصوص تراثنا اللغوية.

تعريف اللغة: لقد اختلف العلماء في تعريف اللغة، فهي في معظمها تبحث عن الأسس والأركان التي تؤدي إلى ضبط مفهوم اللغة في عمقه واتساعه، وقد عرف (اللاندر) الفرنسي اللغة، بأنها، (بمعناها الواسع هي كل نظم من الرموز والإشارات يصلح أن يكون وسيلة للتواصل) ويعرفها ساير (أنها وسيلة للتواصل الإنساني تحديداً، يهدف إلى توصيل الأفكار والعواطف والرغبات بواسطة نسق من الرموز) وقد ذكر (فتجن شتين) أن مهمة الفلسفة عبارة عن معركة ضد البلبلة التي تحدث في عقولنا نتيجة استخدام اللغة) هذه التعاريف تسمى لإيجاد تعريف يقف على اللغة بشكل سليم يعكس كُنْهَ عناصرها وحقيقة مكوناتها، (فابن جني) يعرف اللغة (بوصفها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم) ويعرفها آدم شاف (أنها تعني كل إنتاج متسق لأنواع الرموز والدلالات المؤدية لوظيفة حقيقية في كل خطاب إنساني) ونحن ندرك أهمية اللغة من خلال قول سقراط لجليسه (تكلم حتى أراك) والإنسان لا يستطيع أن يفكر دون لغة. وكان سقراط مدفوعاً بها جس فكر السفسطائيين القائم على ازدواجية المعنى والتعایل على اللغة، وهدفهم تحريل الحجة القوية إلى حجة تافهة، والتافهة إلى حجة قوية، كما يفعل نجار السياسة ورجال الميديا اليوم، بدلا من الدقة والوضوح (وهذا نفجز عن فهمه إلا من خلال الإلمام بالظروف الدينية والاجتماعية والسياسية التي نعيشها) (ستيس ولتر ١٩٨) فالمضللون يعتمدون على اللغة المراوغة التي تتأسس على البلاغة الساحرة والفصاحة التي تتوس بين الاستدلال والإفحام السريع المعتمد على الإيهار، وهؤلاء ليس هدفهم البحث عن الحقيقة وإنما هدفهم البرهنة على أية قضية بغض النظر عن اقتناع الفرد بها.

- مجموعة العلاقات الخارجية لمنظومة اللغة الأجنبية.

أ - اللغة هي التي تشبك المجتمع في شبكة من علاقات الوفاق تقيمها بين أفراد المجتمع ومؤسساته، فلا وفاق ولا مجتمع بدون لغة، وطرفا العلاقة يصوغان بعضهما، وتؤكد لنا الفلسفة اللغوية أنه لا يمكن التصدي للإشكالية

اللغوية ومعضلة المعنى، دون رصد اللغة أثناء عملها في السياق الاجتماعي. فتحن الذين نعطي الألفاظ معانيها من خلال قيامها بنشاطاتها، وكل نشاط اجتماعي يقابله (لغة لغة) كما يذكر (فيتجنشتاين) والبيع (لعبته الإعلان) وممارسات السياسة لعبتها الإعلام. والنشاط الاقتصادي لعبته دراسة الجدوى الاقتصادية ولغة الأرقام والإحصائيات. والنشاط العلمي لغته اللغة المتمثلة في الفرضيات وصياغة النظريات وحيثيات البراهين باستخدام المنطق والرياضيات، وتأثر الفكر اللغوي بفكر (داروين) وراح يقسم اللغات ككيانات حية بدائية وراقية ويخضعها لقانون البقاء للأصلح، يعني اللغة الأرقى، وظهر خطأ هذا المفهوم عندما اكتشف الأوربيون أن معظم لغاتهم انحدرت من اللغة السنسكريتية، وهي لغة أهل الهند القديمة، فقد أثبت التطور اللغوي الحديث أن مستوى التعقيد واحد في جميع اللغات، إن رقي المجتمعات وتخلفها لا يتوقف على بنية اللغة بل يتوقف على استخدامها من قبل الجماعة الناطقة بها. ومستوى تقدم مجتمع ما تحدده أنواع خطاباته وشفافيتها.

ب - علاقة اللغة الأجنبية بالمنظومة السياسية: اللغة مصدر للقوة وهذه حقيقة أدركها رجال الحكم والسياسة من عصر الفراعنة في مصر وحتى سياسة الرومان، وقد برع رجال السياسة باستخدام أسلحة اللغة؛ فهي تبطن أكثر ما تظهر - تستخدم المقولات المَقُولَة - تلهب مشاعر الجماهير - تخمد نار سخطهم - تسلبهم إرادة التغيير - تفرض التبعية على الشعوب المستعمرة من خلال فرض فرنسا اللغة الفرنسية على مستعمراتها، بينما تقتخر بلغتها الفرنسية، واعتبر المحتل أن اللغة العربية الفصحى لغة أجنبية في الجزائر، واليابان التي استسلمت ولن تستسلم لغتها، وهي نقصها حاولت فرض لغتها اليابانية على كوريا، والمخابرات الأمريكية تبدي اهتماماً بالغاً في ترجمة لغات العالم آلياً، بما فيها لغتنا العربية إلى اللغة الإنكليزية، هدفهم من ذلك كشف أسرار الشعوب وما يشغل أذهانها، ومن جانب آخر صار تأمين تدفق البيانات عبر شبكة الإنترنت والمحافظة على خصوصية البيانات الشخصية أحد

المشاكل السياسية التي تتطلب إجراءات عاجلة ورئيسية على المستوى التشريعي، ويعتمد تأمين المعلومات على فهم محتواها، ومساهمة اللغة بفهم كل هذا، كما هناك جهد آخر لفرض تسمية المعلومات للمحافظة على سريتها ولها شقها اللغوي هي الأخرى.

ج - علاقة اللغة الأجنبية بالمنظومة الاقتصادية: اليوم تمثل التكنولوجيا صلة الوصل بين اللغة والاقتصاد، ومع نشأة الصناعة وما صاحبها من حركة نزوح إلى المدينة، برزت أهمية اللغة كمورد اقتصادي، وظهرت الحاجة إلى وضع الضوابط ومواصفات التوحيد القياسي لتقنين عمليات التواصل اللغوي داخل المجتمع هذا شأنها فيما مضى، أما اليوم فتحتل اللغة موقعا ممتازا في المنظومة الاقتصادية كنتيجة منطقية باعتبار صناعة الثقافة وصناعة النشر تآنيان في رأس قائمة صناعة عصر المعلومات وكل هذا له علاقة وثيقة باللغة

د - علاقة اللغة الأجنبية باللغات الأخرى: نتيجة العولمة وسيطرة ثقافة المعلومات تزايدت أهمية العلاقة بين لغات العالم جميعا، واللغة بحكم طبيعتها تنزع إلى الشبوع وإلى العموم، فانشغل علم اللغة بالبحث، عن نحو عام تدرج في إطاره جميع لغات العالم. ونظام المعاجم ينحو بدوره نحو توعية اللغوي (نظام النحو)، يريد نقل المعجم من مستوى العرفة إلى مستوى علم المعاجم الدقيق، الذي يتناول إشكالية المعجم عبر جميع اللغات. وسيبقى يراود البشرية حلمها القديم بعالم يتكلم لغة واحدة، حتى أثبت الواقع مدى صعوبة تحقيق هذا الحلم، وهناك صورة حديثة لهذا الحلم البعيد المنال يؤكد عصر المعلومات وأدبيات اللغة والكمبيوتر، وهذا ما تردد في التوراة عن لغة أهل بابل، التي نطق بها أهل الأرض جميعا، والبشرية يحدوها عشق وحنان قديم إلى وحدة اللغة، ما يدل على شوق وتوق إلى شفافية التواصل، وإسقاط الحواجز اللغوية، وفتح الطريق أمام حوار الثقافات وامتزاجها لا صدامها، وبناء عليه فإن العولمة الحققة عبر اللغة تعني: التواصل وهذا ما تسعى إليه

تكنولوجيا المعلومات من خلال الترجمة الآلية. وتشمل علاقات اللغة بمنظومة اللغات الأخرى ما يلي: - الدراسات المقارنة والتقابلية بين اللغات في إطار النظرية العامة للغة - مظاهر الاحتكاك اللغوي من افتراض الألفاظ والأساليب وما شابه. - الترجمة بين اللغات - تعليم اللغات الأجنبية.

هـ - علاقة اللغة الأجنبية باللغات الأخرى: إلى جانب الأغلبية العامة الناطقة باللغة، توجد فئات من مستخدمي اللغة وتشمل: باحثين، معجميين، إعلاميين، كتابا، تربيين، معلوماتيين، طلبة، وكل منهم له مطالبه الخاصة من منظومة اللغة، وكذلك طبيعة مساهمته في صيانتها أو تقويضها، وأساس العلاقة بين اللغة وجماعتها في كون اللغة مسؤولية أهلها، ولا تجدي مراسيم الحكومات ولا قرارات المجامع ولا إبداع الكتاب في إحداث نهضة لغوية حقيقية ما بقيت الجماعة الناطقة بها عاجزة عن الوفاء بدينها الاجتماعي تجاه لغتها الأم.

- مجموعة العلاقات الخارجية: التي تربط منظومة اللغة العربية بخارجها:

إن علاقة اللغة العربية بمجتمعاتها، تتبع من علاقة العربية بالنص القرآني ويتوقف مصير العلاقة اللغوية الاجتماعية، على تجديد النظرة لعلاقة اللغة بالنص الشريف.

أ - اللهجات العربية وثنائية الفصحى والعامية: من أعقد القضايا في الوقت الراهن علاقة اللغة العربية بمجتمعاتها، ويقول بعضهم أن هذا التفرع يهدد تماسك الوطن العربي، وعقبة صعبة أمام توحده ووحدته، كما يمكن أن يكون هذا التفرع مصدراً للثراء الثقافي بشرط أن نستأنس مظاهره والوصول إلى قواسم مشتركة تربط بين هذه اللهجات، ونحن نقف بشدة وشجاعة ضد إحلال اللهجات المحلية محل اللغة العربية الفصحى، وذلك لتفرع اللغة العربية إلى فروع، كما اللغة اللاتينية التي تفرعت عنها اللغات الأوروبية. وقد ذكرت (نيللي حنا) في دفاعها عن استخدام اللغة العامية، حيث تقول: (إن

استخدام العامية في التعليم الأساسي نوع من التحديث الاجتماعي وأعطت دوراً مهماً لفئات اجتماعية بعيدة عن السلطة الحاكمة، ومنحتها فرصة المشاركة في الحياة الثقافية والإنتاج الفني والأدبي) (نيللي حنا ١٩٩٩).

ب - علاقة اللغة العربية بمنظومتها السياسية: ونوضح كيف يمكن للغة أن تصبح من أشد أسلحة الفعل السياسي في الخارج والداخل فهل تنسى (ال) التعريف في قرار مجلس الأمن الرقم (٢٤٢) (من أراض لا من الأراضي العربية) وكيف ذاع إعلامنا مصطلح دول الطوق قبل انعقاد مؤتمر مدريد، لقد قامت الدول العربية بترجمته وإشاعته دون وعي منها، فاستغله الإعلام الإسرائيلي والأمريكي، ونشره وقصد به تصوير إسرائيل المعتدية صاحبة الترسانة النووية والتي تفوق دول الطوق العربية مجتمعة في دخلها القومي (حمامة وديعة) مسألة تلك التي تحيط بها الصقور العربية من كل صوب، وهي دولة صغيرة يأسس الحاجة إلى سماحة جيرانها وتوزيع موارد المياه وإعادة رسم الحدود، وإعادة تخطيط القدس الشريف. أما بالنسبة لسياسة الداخلية فهم يستخدمون (توسيع نطاق الملكية) بدلاً (من خصخصة القطاع العام) وأمراض الصيف بدلاً من (وباء الكوليرا) ووصف التنمية الاجتماعية بالتآني بدلاً من الكساد والانكماش، وما أخطر ما فعلته في النفوس والعقول هذه العبارات، وهذه الجزائر: تمثل النموذج السياسي الأول باللغة العربية، تبنت حركة تعريب نشطة، واعتبرت اللغة العربية أحد الحصون القوية لصد المحتل الفرنسي، وكادت الجزائر حديثاً أن تحلّ بها ردة لغوية خطيرة في إطار ما يسمى اليوم حزب الجزائر وحزب فرنسا، (فهيم هويدي ١٩٩٣) وسوف يتصاعد ويتنامى صراعنا اللغوي مع إسرائيل، في حال حلّ نوع من السلام في المنطقة لتوظف المرحلة لمصلحتها، وهي تمارس حرباً عسكرية كاسحة وقد تنجأ إسرائيل إلى حرب ثقافية لغوية (سياسياً واقتصادياً وأمنياً) ويتمتع إسرائيل ببعض المزايا التنافسية علينا الإقرار بها، ليتسنى لنا المواجهة لها، منها : - محورية اللغة في الثقافة اليهودية، وقد أثبتوا قدرتهم في إحياء اللغة

العبرية بعد اندثارها، ونجحوا في إشاعتها داخل كياناتهم المنتصب، رغم تعدد العرقيات والثقافات والمستويات الاجتماعية - التنوع اللغوي داخل كيان العدو الصهيوني، وما يحمله من حوار الثقافات والترجمة بين اللغات. - العرب الناطقون بالعربية داخل الكيان الإسرائيلي.

ج - علاقة اللغة العربية بمنظومة اللغات الأخرى: تفرض علينا ثقافة المعلومات تأكيد العلاقة بين لغتنا العربية واللغات العالمية الأخرى، من خلال: - الاهتمام الكبير بالترجمة تبين لنا قلة المترجمين ما دفعنا للترجمة الآلية من اللغات الأجنبية (الإنكليزية والفرنسية) إلى العربية نتيجة التضخم الكبير في الإنتاج العلمي والفكري وسواء، وكذلك ترجمة العربية إلى الأجنبية. - توسيع الدراسات اللغوية المقارنة والتقابلية خاصة، لأن العربية تتسم بالتوسط والتوازن بين اللغات العالمية ويمكننا الاستفادة من ظاهرة العولمة بخصوص المشهد اللغوي العالمي، وهناك من يرفض إخضاع اللغة العربية للنظرية العامة للغة، التي تتدرج تحتها جميع اللغات الإنسانية حديثها وقديمها، وهذا ما استقر عليه التوجه العلمي منذ نصف قرن، وحببتهم أن العربية هي لغة القرآن، ولا بد من نظرية خاصة بها. وقد نسي هؤلاء ما نفتز به، وهي عالمية القرآن وعالمية لغته بالتالي. وهو ما يفرض أن تكون هذه اللغة من أوليات اللغات التي تنضم إلى النظرية الكونية.

د - علاقة اللغة العربية بالمنظومة الاقتصادية: أكدنا سابقا على أهمية اللغة كمورد اقتصادي تتعذر من دونه إقامة صناعة ثقافية ناجحة في مجال التعليم أو الترفيه أو التثقيف، وهناك جهات تتبنى استيراد المناهج والبرامج التعليمية في حالة عجزنا عن توفير حد مقبول من الاكتفاء الذاتي، ويات مفروضاً علينا إعادة النظر من منظور اقتصادي إلى قضايا تعريب لتعليم وما يتعلق به من أمور، والتوسع في المدارس والكليات التي تُدرّس باللغات الأجنبية، وما يترتب على ذلك من نزيف للعقول وزيادة ميزانيات التعليم. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما الكلفة المتوقعة من هذا الاستيراد؟

هـ - علاقة اللغة العربية بمستخدميها: إن ثنائية الفصحى والعامية هي أبرز مشاكل العلاقة بين اللغة العربية وفتات مستخدميها، وتفاوتت الآراء في علاج هذا الداء اللغوي، بين التشبث بالفصحى رغم التعلق بالعامية، والإقرار بسيادتها كونها اللغة الحية الشائعة والمخدمة. وتوزعت بين عربية السلف مروراً بالفصحى ثم القصيدة بعدها الوسيطة ثم العامية، وهناك من يتخذ موقفاً توفيقياً، مقترحاً أن يؤخذ من العامية ما يكتب، ومن الفصحى ما ينطق، ولا زال هذا خارج نطاق البحث المنهجي المتعمق؟ والسؤال اليوم هو: أين تلك الدراسات التي تناولت بجديّة علاقة منظومة اللغة بالمعجمي والإعلامي والكاتب والناقد والتربوي؟

العناصر الداخلية لمنظومة اللغة الأجنبية:

إن البنية الداخلية لمنظومة اللغة تقوم على أساس محوري، مكون: - من نظام قواعد يشتمل على قواعد الفروع اللغوية المختلفة، الصوتيات، الصرف، التركيب (النحو)، الدلالة ويضاف إليها قواعد نظام الكتابة - نظام المعجم الذي يشمل مفردات اللغة ومعانيها. - المعالجة الآلية للغة، ومجموع هذه العناصر الثلاثة تصب جميعها في عنصر الاستخدام اللغوي والذي أصبح المحور الذي تدور حوله منظومة اللغة خلافاً للماضي.

أ - علاقة النحو بالمعجم: إن العلاقة بين نظام القواعد والمعجم، إحدى الخصائص الأساسية التي تميز لغة عن أخرى، كانت النظرة إلى المعجم بالماضي تابعاً لنفياً لنظام القواعد. إلا أن أهميته ظلت تزداد باطراد حتى كاد الوضع يتقلب لتصبح اللغة بصرفها ونحوها ودلالاتها، كامنة في جوف المعجم، حيث يمكن استخلاص قواعد الصرف والنحو والدلالة من شبكة العلاقات الكثيفة التي تربط بين مفردات المعجم ومعانيه، وتصاغ قواعد النحو وفقاً للنموذج أو المنهج اللغوي المتبع، وتتفاوت النماذج اللغوية في درجة اعتمادها على المعجم. عن طريقة تنظيم مداخلته ومحتواه، وفي جميع الحالات لابد أن يولي المعجم بمطالب الفروع اللغوية المختلفة: مطالب الصوتيات، فيما يخص

كيفية نطق الكلمات، ومطالب الصرف، فيما يخص الاشتقاق والتصريف، ومطالب النحو التركيبي، فيما يخص أنماط السياق الذي ترد فيه المفردات، التي تحدد معاني الكلمات، فمعاني الفعل (أصاب) تختلف نسبة للسياق الذي ترد به، كما في (أصاب السهم الهدف) بمعنى اخترقه، أصاب فلان فلاناً في مقتل بمعنى قتله، (أصاب فلان بقوله) بمعنى صدق فيه.

ب - المعالجة الآلية للغة، وتتضمن شقين أساسيين، هما: الشق الأول، ويشمل نظام البرمجة المستخدمة في المعالجة الآلية بواسطة الكمبيوتر للفرع اللغوية المختلفة، مثل: نظام الصرف الآلي: الذي يقوم على تحليل الكلمات إلى عناصرها الاشتقاقية، والتصريفية، أو يعيد تركيبها من هذه العناصر، مثال، تحليل كلمة (يايحادها) حرف الجر: (الباء) والضمير المتصل (ها) وسبق الكلمة (إيحاد)، والذي يحلل إلى الجذر (وجد)، على صيغة (إفعال) - نظام الإعراب الآلي: الذي يقوم بإعراب الجمل آلياً. نظام التحليل الدلالي الآلي: الذي يستخلص معاني الكلمات استناداً إلى سياقها. ويحدد معاني الجمل استناداً إلى ما يسبقها وما يلحقها من جمل. إضافة على قواعد البيانات المعجمية والقواميس الإلكترونية ومنهجيات هندسة اللغة. الشق الثاني: ويشمل التطبيقات التي تقوم على النظم اللغوية الآلية التي ذكرناها، وتشمل بدورها - الترجمة الآلية - التدقيق الهجائي والنحوي - الفهرسة والاستخلاص الآلي - البحث العميق داخل مضمون النصوص - فهم الكلام ونطقه آلياً.

العناصر الداخلية لنظومة اللغة العربية:

أ - نظام وقواعد اللغة العربية: لازالت اللغة العربية كما هي عليه منذ قرون عديدة، فهي أسيرة الجمود وحالات الاطراد والشدوذ وشروط النحوي والوجوب والحواز والتفصيل. وغاب عن العرب الثورة العلمية في مجال علم اللسانيات والمنهج التوليدي لا التحليلي، وهناك قلة من الباحثين العرب في الولايات المتحدة يقومون بمساهمات ممتازة في تحديث التنظير للغة العربية.

تعلن عن نفسها في أدبيات جمعياتهم العلمية التي أقاموها بصورة سنوية مستفيدة من الثورة المعلوماتية والعلمية.

ب - نظام المعجم: وقد شمل الجمود والتكلس حتى نظام المعجم منذ قرون، وقد يدخلون إلى المعجم كلمات ومفردات جديدة، دون المس بنظامه العام ومحتوى بياناته، التي توصف من خلالها مداخلاته. وقد اهتم معجمنا العربي بالخاصية الاشتقاقية التي يتميز بها صرفنا العربي ما تستحقه من عناية، إلا أنه أغفل مطالب الفروع اللغوية الأخرى، وبخاصة في مجال النحو التركيبي، بسبب اعتماده على الجذور، والمعجم العربي يمثل بنية معقدة، ولكن هذه البنية التقليدية اليدوية عاجزة عن تناول مثل هذه البنية متعددة المستويات. فهو يمثل شبكة كثيفة من علاقات الاشتقاق والمتراپطات والترادفات، والأضداد. فلا بد من اعتماد الأساليب الحديثة في بناء قواعد البيانات.

ج - معالجة اللغة العربية آلياً: هناك مبادرات عدة لتطوير معالجات آلية لفروع اللغة العربية المختلفة صوتاً وحرفاً ونحواً ومعجماً. تمثل تلك المعالجات اللغوية الأساسية البنية التحتية التي يمكن أن تقام عليها نظم أعمق لمعالجة اللغة العربية مثل: نظم الفهم الآلي العميق لمحتوى النصوص ونظم التلخيص الآلي التي تعتمد على فهم المحتوى وليس الاعتماد على الإحصائيات وتواتر الألفاظ والجمل.

الفصل الخامس

لا يصير الحق حقاً بكثرة معتنقيه ولا بقلة مريديه

/ أبو حيان التوحيدي /

ثقافة الإعلام وخطورته

أهمية الإعلام والاتصال وخطورته،

أ- التواصل الإنساني شرط من شروط البقاء (المنظمة العربية للثقافة والعلوم، الإعلام العربي حاضراً ومستقبلاً، تونس ١٩٨٧) وقد بدأ من النقوش على الصخور وحتى الأقمار الاصطناعية اليوم، فهو وراء كل وفاق أو صراع، وتبرز أهمية الإعلام من الرسالة التي يحملها إلكترونياً وسرعة تدفقه وطرق توزيعه واستقباله، وكسب الإعلام من خلال ذلك أهمية قصوى لدى منظومة المجتمع، فهو شرط أساسي لنمو الصغار ورأس مال الكبار، والدليل على ذلك اهتمام الفلسفة والثقافة بقضاياها، كان محافظاً أو ثورياً، حداثياً كان أو مبعداً للحدائث، وبكلمة واحدة: ساد الإعلام وانتشر بوسائله الإلكترونية وسيطر على الساحة الثقافية، وأطلق عليه بعضهم: ثقافة الميديا، وثقافة التكنولوجيا، وثقافة الوسائط المتعددة، وأصبح الإعلام صناعة ترفيهية.

ب: ماذا وراء ثورة الإعلام؟ هناك عوامل تقنية واقتصادية وسياسية،
تقف وراء ثورة الإعلام نلخصها بالتالي:

- العامل التقني التكنولوجي: هو المتمثل في التقدم الهائل في التقنيات مثل: الكمبيوتر، عتاد، وبرمجيات، تقنيات واتصالات وأقمار اصطناعية، وشبكات الألياف الضوئية، وهذه اندمجت مع بعضها مشكلة الإنترنت، وهي بدورها تنطوي على جميع وسائط الاتصال: المسموعة والمقرومة والمرئية والجماهيرية وشبه الجماهيري والشخصية، وقد تأثرت جميع وسائل الإعلام:

إذاعة. تلفزيون. صحافة. وتأثرت العلاقات: بين المنتج والموزع والمتلقي. فصغر العالم وكسرت الحواجز الجغرافية والبشرية، وأسقطت تكنولوجيا الواقع الخائلي الجدار بين الواقع والوهمي، وبين الماضي والحاضر، وبين الاتصال مع كائنات الواقع الفعلي والكائنات الرمزية.

- العامل الاقتصادي: بما فيه من سرعة في نقل رأس المال وحركة السلع بصحبة المعلومات، وهي بدورها سلعة اقتصادية، وعولمة وسائل الاتصال ونظم الإعلام هذه وسيلة لعولمة الأسواق من جانب، وتنمية النزعة الاستهلاكية من جانب آخر، وتوزيع صناعة الثقافة من موسيقى وألعاب وأفلام. وهذا يتطلب تدفق المعلومات لتزداد أهميتها.

- العامل السياسي: ويتمثل هذا في الاستخدام المتزايد لوسائل الإعلام، من السياسيين لإحكام سيطرتها على الأمور واستقرار موازين القوى في عالم يمر بالاضطراب والصراعات، وهذا جعل من الإعلام قضية صعبة وشائكة ومواقع ساخنة.

ج - الإعلام الغربي وتناقضاته: يقف الإعلام الغربي كغيره على مفترق طرق رغم الإنسانيات ونظرية الاتصالات، وبذلك حملت معظم فروع الثقافة: لغة وتربية وإعلاماً وإبداعاً تناقضاً كبيراً، فكان تناقض اللغة في علمتها وشفافيتها، وتناقض التربية بين الوفاء لاستقرار مجتمعيها ومطالب تغييره، أما الإعلام فيقف حائراً بين رسالة الإعلام وحب الإعلان، وبين الحرص على مصالح الحكام والحرص على مصلحة المحكومين، وبين غاية التنمية الاجتماعية ومطامع القوى الاقتصادية، التي تعطي الأولوية للإعلام الترفيهي لا التنموي. وهل هناك تناقض أكثر حدة وسخرية بين ما يدعيه الإعلام من كونه أداة للترفيه والترويح عن النفس وما يثيره من عنف ترفيهي وفزع معنوي؟ وبين ما ينظر منه أن يكون وسيلة للترباط الاجتماعي والعالمي، تجده يستعمل لإثارة التعصب والتفرقة العنصرية والطبقية، وتنمية نزعات الكره تجاه الآخرين أجنب كانوا أم أصحاب فكر متاهضون، ولم تكن مظاهر هذا الحقد معروفة قبل اليوم، حيث تشغل كل وسائل الإعلام في ضوء عصر المعلومات،

وأصبح الإعلام بأمن الحاجة إلى رؤية جديدة مفائرة تماماً كاللغة والتربية، والمنظومة الإعلامية الغربية تعدُّ مثلاً قاضحاً لإساءة استخدام التكنولوجيا، ويكفيه دليلاً على زيفه حقه الأعمى، واحتقاره للآخر، وتحريضه للفتنة والقتل وكذبه، والفجوة الفاصلة بين شايات الإعلام وواقعه وزيف أقنعتة: الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحقيقة دواقمه.

- مم يشكو إعلامنا؟

١ - الصدمة الإعلامية العربية: صدمنا الإعلام الغربي على مختلف المستويات السياسية والتنظيمية والاقتصادية والفنية، ليس بالأقمار الاصطناعية والقنوات الفضائية وحدها نعيش عصر الاتصال. وأن نستجيب لثورة الإعلام، وعلينا أن تقر بأننا لم نرصد مسارات الخريطة الجيو إعلامية الحديثة وهو ما عبر عنه التقرير الاستراتيجي العربي (عام ١٩٩٩) بضعف الاستجابة إلى عولمة الإعلام (مركز الدراسات الإستراتيجية ٢٠٠٠) فقد إعلامنا العربي محوريتته وأصبح مكبلاً بقيود السلطة، فتاء إعلامنا بين التهمية الفنية والتنافس السلبي على سوق إعلامية إعلانية محدودة، فأصبح رهين الإعلان وخاضع ذليل للدعم الحكومي، بينما يواجه هذا الكم الهائل من الضخ الإعلامي مشتتاً، يعاني من ضعف الإنتاج وشح الإبداع وضمور الفاعلية، عازهاً عن المشاركة في الموارد ووكالات الأنباء لدينا كادت أن تصبح وكالات لوكالات أخرى، حتى فيما يخص أخبارنا المحلية، وأصبح وهو المرسل أن يكون مستقبلاً للإعلام الخارجي، وكيف ارتضينا أن يبت الأخر الأخبار من حولنا، وسمعنا له أن ينقل صورتنا، وحتى الإنترنت لم ندرك الفائدة منها، بعد، ولا شك أننا تقدمنا بخطوات لا يأس بها في هذا المجال. لكننا لم نصل إلى الحد الأدنى المطلوب. وفي النهاية وقعنا في فخ الإعلام والاتصال: شبكة الإنترنت، شبكة الأقمار الاصطناعية، شبكة التكتلات الإعلامية، وقد نجحنا في بعض المجالات وطورنا بعض المجالات الصحفية والإذاعية والتلفزيون لكنها تبقى دون الحد الأدنى.

- تغيير وتبديل محور التحالفات بين القوى الاجتماعية - بين القوى اللينة وطبيعتها.

أ - كيف تتغير محاور التحالفات بين القوى الاجتماعية: تغير محور التحالفات بين رباعية القوى الاجتماعية: الرمزية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية (الجيش والشرطة) وكى تبرز طبيعة التغيير في لعبة القوى الاجتماعية بالمتغير المعلوماتي. فقد كان محور التحالف في المجتمع الزراعي الإقطاعي: بين القوة السياسية الحاكمة والقوة العسكرية التي تسانده، من أجل إخضاع الفلاحين كمسخرة في الزراعة، بما يتفق ومصالح القوى الاجتماعية المسيطرة. وفي المجتمع الصناعي الرأسمالي، تحالفت القوى السياسية مع القوة الاقتصادية، وأصبح دور القوة العسكرية حسم الصراع خارجياً بعد أن كان مهمته فرض النظام داخلياً، فانزوت القوى الرمزية المتمثلة في سلطة الكنيسة، لتوسيع الطريق أمام الرأسمالية الصناعية ومطالب تمويلها وإنتاجها، وكل الدلائل تشير إلى أن محور التحالف في مجتمع المعلومات سيكون بين القوى الاقتصادية والقوى الرمزية على حساب السلطة السياسية، التي ستعمل على خدمة الاقتصاد وكما انزوت سلطة الكنيسة بفعل المتغير الصناعي ستتوارى القوة العسكرية وتبقى مجرد أداة للردع الصامت بلا ممارسة. وكما قال (ميشال فوكو): كان يكمن فرض السيطرة في استعراض قوة القلة الحاكمة أمام الكثرة المحكومة، أما قوة الحكم في أيامنا هذه قائمة على إبقاء الكثرة على مرأى من القلة الحاكمة، بواسطة نظم الإعلام الموجه (للقائية) وإما (تشخيصياً) عن طريق استطلاعات الرأي، أو (معالجة) - إن اقتضى الأمر ذلك - عن طريق أجهزة المخابرات والرقابة الإلكترونية، وقد ثبت أن بقاء أي قوة سياسية رهناً بوجودها الإعلامي، وهلاكها قادم إن هي أغفلت هذا الوجود أو أسرفت فيه. وفي ظل هذا التحالف الجديد بين القوى الاقتصادية والقوى الرمزية تاهت الحدود الفاصلة بين عوالة الاقتصاد وعوالة الإعلام، وصارتا تبادلاً موقفي التأثير والتأثر مباشرة أو غير ذلك، سافرة مرةً وغير سافرة أخرى، وفي حين ترى

عولمة الاقتصاد في عولمة الإعلام أمضى أسلحتها، كما تسعى عولمة الثقافة إلى أن تتخذ من عولمة الإعلام ساحة لحوار الثقافات وتعددها وتنوعها، وإن مصير المجتمع الإنساني كله سيتوقف على من ستكون له الغلبة في جبهة العولمة: الاقتصاد أم الثقافة؟

ب - القوى اللينة وطبيعتها: تُعتبر القوى الرمزية أنها قوى لينة، وهي تختلف اختلافاً جذرياً عن القوى الصلبة تعمل بالجذب لا بالضغط، بالترغيب لا بالتهديد، وتستخدم لغة العقل والقلب من أجل اكتساب الآراء، لا كسب الأرض، ومن أجل انتزاع الإرادة الجماعية، لا نزع السلاح والملكية ومن أجل فرض المواقف وزرع الآراء بدلاً من فرض الحصار وزراعة الألفام، وتوسيع الإعلام أصبح في مقام نشر القوات، والأجنحة مقام التكتيك، والهوائيات والفضائيات مقام ترسانات الأسلحة ومنصات الصواريخ، ومن حيث أسلوب الممارسة تختلف القوى اللينة عن القوى الصلبة في أمور عدة منها: القدرة الهائلة على المناورة بالقوى اللينة في الزمان والمكان، بينما القوى الصلبة لا تُستخدم إلا في الضرورة القصوى، ودون ذلك تبقى نائمة للردع لا للفعل، بينما تمارس القوى اللينة بصورة مستمرة عكس القوى التقليدية الصلبة وكلما رهمت ورهت وخفت صوتها وضعفت فيها نبرة القوة والفجاجة كلما ازدادت قدرتها، وتنفذ مفعولها لينفذ إلى طبقات الوعي الفردي والجمعي فيفعل فعلته بصورة لا إرادية، وتصبح هنا وسائل الإعلام آلة حرب مدمرة تنصدي لها بالدروع والمتاريس، وبقي المجاز اللغوي سباقاً وكاسحاً في الحروب، فهو يقابل آلة الحرب التقليدية بين القوى الرمزية والقوى الصلبة، وقاموس الإعلام شبيه بقاموس الحرب بما يتضمنه من مصطلحات: - الهجوم - والتجسس - والعنف - والدفاع - وأبل الرسائل - الحملات الإعلامية - المعارك الكلامية - الإذاعات الموجهة - العدوان الإذاعي - الغزو الثقافي - استطلاع الرأي - الغزو الثقافي - الغزو الإلكتروني - الاكتساح الإعلامي - العنف الترفيهي - العنف الرمزي. توضع القوى الرمزية في خدمة القوى الأخرى أثناء الحروب، ويشهد التاريخ من الحروب الصليبية إلى

الحروب الأهلية بين قبائل وشعوب آسيا وأفريقيا، حيث تقف القوى الرمزية إلى جانب القوى العسكرية والسياسية، ويكفي دليلاً على ذلك ما قامت به الإذاعة النازية في الحرب العالمية الثانية، والدور الذي تلعبه المخابرات المركزية الأمريكية من وراء الكواليس، وما مارسته إذاعة أوروبا الحرة في سقوط المعسكر الشيوعي، وأكثر الأمثلة مرارةً وبشاعة ما قامت به إذاعة (ميل كولينز) في رندا حيث أشعلت نيران الفتنة القبلية وهذا العمل اللا أخلاقي فاق بحصاده من قبائل التوتسي ما فعلته القبيلة الذرية بهيروشيما وناجازكي. هذا عن ماضي القوة الإعلامية في مساندة القوى الاجتماعية، أما اليوم فقد تجاوزت دور المساندة بعد أن أصبحت قوة مستقلة، ومن الطبيعي بالنسبة لقوة اجتماعية بمثل خطورة الإعلام، ألا تُترك للتكنوقراط ولا للمنظرين ولا للفنانين، فكان لابد من تغطيتها سياسياً واقتصادياً الذي يضمن استقرار المجتمع، وإعادة إنتاج أنماطه وأطواره ولكن السيطرة على القوى اللينة ليس بسهولة السيطرة على القوى التقليدية الصلبة، ويبدو أن الشعوب تتقبل دمار العمران وتحصية الأجساد، ولا تتقبل العبث بالعقول والوجدان والشرف، استسلمت اليابان ولم تستسلم اللغة اليابانية، وهل نال الاستعمار من اللغة العربية والإسلام الذي نالت هجماته على أمتنا العربية، (ولا يفل اللين إلا اللين) (والطير بالطير يصاد) (والحديد بالحديد يفلح) يمكن أن تتحاز القوى الرمزية اللينة إلى جانب القوى السائدة، ولكنها باستطاعتها أن تتحاز إلى جانب المظلومين والمستضعفين وتشيع السلام وتسرع التنمية وتزيل الفوارق الطبقية بكل تصنيفاتها.

- لعبة القوى الاجتماعية العربية:-

أ - تحالف سياسي مع الرمزي: يمكن القول أن القوى الاقتصادية في مجتمعاتنا العربية ما زالت قوى غير مؤهلة لتأخذ دورها الفاعل، لأنها تحت سيطرة الحكومات العربية، ولن تكون طرفاً فاعلاً في تحالف القوى الاجتماعية، وعليه فإن محور التحالف في منظومة القوى الاجتماعية هو بين القوى السياسية الحاكمة والقوى الرمزية، وهذا ما أكدته المنظمة العربية

للتربية والثقافة والعلوم تحت عنوان الإعلام العربي: (في الحاضر والمستقبل) وقد أوصت بضرورة الحد من سيطرة الحكومات على وسائل الاتصال وصياغة الرسائل (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الإعلام العربي حاضراً ومستقبلاً تونس ١٩٨٧) وأكدت دراسة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بعنوان وسائل الاتصال الحديثة وأثرها في المجتمعات الإسلامية، وقد أكدت بأن وسائل إعلامنا لا تمارس عملها إلا بضوء أخضر من سلطات (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وسائل الاتصال الحديثة ١٩٩٦) وتناولت دراسات أخرى، علاقة السلطات الحاكمة في بلدان العالم الثالث بقواها الرمزية: التربوية والعقائدية والإعلامية، يمكننا القول في ضوء ما انتهت إليه هذه الدراسات أنه يسود طابع التوجيه علاقة السلطة الحاكمة بالمؤسسة التربوية، وطابع المهادنة ورسم الحدود في علاقتها بنظام القيم والمعتقدات، ويسود طابع الدعائي المباشر في علاقتها مع الإعلام، وكي تضطلع طبيعتنا الثقافية بمهمتها الراهنة والعاجلة لاكتشاف أمتنا العربية من كبوتها وتأهيلها لدخول مجتمع المعرفة وعصر المعلومات، على نخبتنا الثقافية أن تهلك أسرار هذا التحالف بين السلطة السياسية وما هو رمزي، وأن تفوس حتى أعماقه وتنظيماته لتتصاعد ثانية إلى السطح، وتصل الجذور للكشف عن بنيته ودوافعه وآلياته، فإعلامنا الموجه يأخذنا بأقصى درجات الجدية، وعلينا في المقابل أن نأخذ بالدرجة نفسها من الجدية

ب - المشهد الإعلامي: هيكلية طبيعته ليونته: يعمل المنظرون الغربيون إلى اتخاذ الإعلام محوراً لمنظومة المجتمع الحديث، ويرفض بعض آخر هذه المحورية مفضلاً أن يُنظر إلى الإعلام كشيء مستقل عن المجتمع، وذلك لتجنب طرح بعض القضايا الحساسة التي يطرحها الإعلام، أو ربما كان ذلك للمحافظة على استقلالية الإعلام خدمة للعولمة، لأن محورية الإعلام تدل على علاقة الإعلام بمجتمعه، أما بالنسبة لنا لا نرى استقلالية لإعلام أو محوريته يتناسب مع واقعنا أو يلي أهدافنا، وهذا ما حدا بمنظري الإعلام الإسلامي إلى اقتراح محورية نظام القيم والمعتقدات داخل منظومة المجتمع،

وفي ضوء محورية الثقافة تفضل نموذجاً ثلثياً: القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية، يدور حول محور ثقافي قلبه محور التربية، والتي تدور حول محور اللغة والتمركز حول التربية بالحقيقة يتسق مع عصر المعلومات ومجتمع التعلم الذي نهدف إليه، والذي يتطلب تداخل الإعلام والتعليم، ومساهمة المؤسسات الاقتصادية في تكملة مهمة مؤسسات التعليم الرسمي.

د - صراعنا مع القوى اللينة: يعاني الوطن العربي من تفكك واسع يرافقه سيئات جماعية وتشتت وضياع، يتبعه استرخاء وفتور في العزيمة، وغياب الثقة في مؤسسات الدولة، وهذا ما يجعلنا لقمة سائغة في فم الأعداء وما أكثرهم في الداخل والخارج، والطريق مفتوح أمامها لتجري الفتنة كالنار في الهشيم، تخترق الكيان العربي في تفككه وطبقيته وهجرات تناقضاته، ويكفي ما فعلته بعض البلدان العربية عندما انزاحت، تاركة الإعلام السخيف والرخيص يملأ الفراغ بكل ما هو تافه وهزيل؛ من حديث الفضائح والخرافة والنفاق، وتلك الشكوى التي تقدمت بها امرأة خليجية إلى القضاء ضد امرأة أخرى بحجة أنها حرضت الجن على زوجها لتفتك به، وما كان من القضاء في تلك الإمارة إلا قبول الدعوى ويمثل هذا اتفاق عدم اعتداء غير معلن مع السلطة الحاكمة وتلك الصحافة المريضة، وقد أدركنا أهمية القوى اللينة كما ذكرنا سابقاً في الداخل، أما من الخارج يكفي ما فعلته اتفاقيات كامب ديفيد وما استحضرت من أجندة فرضها العدو الصهيوني مستغلاً ضعفنا وتفككنا، ونحن نزعم أننا سنحقق إنجازات هامة على المدى الطويل، تفوق ما حققته القوة العسكرية، وليت العدو الصهيوني وقف عند هذا الحد، بل تدخل في المطبخ التربوي العربي ليحدد لنا ما يجوز وما لا يجوز، وسعيه الدائم لإنهاء اللغة العربية في المحافل الدولية وأسكات الإعلام العربي بحجة معاداة لسامية وإعاقة جهود السلام، ولا شك أن إسرائيل قد برعت في استخدام القوى اللينة: ثقافية وتربوية وإعلامية.

- الغرب ولعبة الإعلام والمآزق العربي-

١ - الإعلام وقابليته للاحتكار والداروينية: أظهر الاتصال على مدى العصور قابليته للاحتكار، بدءاً من احتكار كهنة الفراعنة في مصر لنقوشهم المقدسة حتى احتكار أيامنا هذه، حيث تقش في جميع منظومة الإعلام الرسمي وغير الرسمي مرثياً كان أو مطبوعاً أو مسموعاً، والدليل على ذلك ما يلي: - هناك أربع وكالات أنباء عالمية تحتكر ٨٠/ بالمائة من فائض المعلومات - وأربع مجموعات إعلام رئيسية تحتكر ٩٠/ بالمائة من الصحافة البريطانية - وهناك احتكار عدد قليل من شركات الإعلام المتعدية الجنسية للإرسال المرئي والمسفوع الجماهيري، والإنتاج السينمائي والتلفزيوني، وتبعه في نفس النهج تلفزيون الكابل - وهناك عشر شركات للإعلان الأمريكية تسيطر على ٨٠/ بالمائة إجمالي الإنفاق الإعلاني في الولايات المتحدة الأمريكية، والذي يصل إلى ٢٥٠ مليار دولار سنوياً. وهذه هي الإنترنت التي تفاخرت بحرية تبادل المعلومات، ومجانية الوصول إليها قد طاولتها يد الاحتكار، وتشير الإحصائيات أن مائة موقع تحتكر ٨٠/ بالمائة من إجمالي زوار المواقع، تاركة جزءاً بسيطاً للتنافس عليه ملايين المواقع، كما تشير الدراسات إلى بؤس صراع عالمي لاحتكار الإلكترونيات الاستهلاكية من شاشات الجيب الصغيرة، من الهواتف المحمول إلى كمبيوتر بحجم راحة اليد والكتب الإلكترونية، وما من دولة كبرى إلا ولها أباطرة إعلامها، مثل: روبرت مورдох في بريطانيا وبيرسكوني في إيطاليا، وتيد تيرنر في الولايات المتحدة أو العالم كله إذا أردت الحقيقة، والإعلام الروسي قد بدأ في صنع ملوكه، من تلك القلة اليهودية التي تربعت على عرشه، وأخطر أنواع الاحتكار هو احتكار المحتوى (مصمون الرسالة الإعلامية) موسيقى، أغاني، أخبار أفلام، والمحتوى هو أهم مقومات صناعة الثقافة، ومن يملكه يصبح مسيطراً على اللعبة الإعلامية بلا منازع. وتشير الدراسات إلى أن تطورات تكنولوجيا المعلومات ساهمت في التزعة الاحتكارية لأسباب عدة منها: - ضعف الارتباط العضوي بين محتوى المعلومات والوسيط الذي يتم تبادلها من

خلاله، وخير دليل على ذلك، سهولة نقل المواد الإعلانية من التلفزيون إلى الصحافة والإذاعة إلى شبكة الإنترنت، فالمحتوى الحر ذو السيولة العالية إنه الويسكي بلا قوارير - سهولة السيطرة على الكم الهائل من الرسائل الإعلامية، بفضل وسائل التحكم والرقابة المتوافرة لشبكات الاتصال. - اقتصاد الحجم الذي يعمل لمصلحة الكيانات الإعلامية الضخمة لأن وكالات الأنباء الكبرى وحدها القادرة على إنتاج شبكة كبيرة من المكاتب الخارجية، ولا تستطيع إلا الشركات العملاقة للتلفزيون من شراء حقوق نقل الأحداث المهمة، كحفلات الأوسكار واحتفالات الألعاب الأولمبية.

ب - جنون الاندماج: إن الاحتكار يجبر وراءه الاقتصاد؛ أي الاندماج الرأسمالي، ويظهر الإنترنت أدركت القوى الرأسمالية المفزى الاقتصادي للمعلومات، فافتحمت بصورة غير مسبقة لم تعرفها البشرية من قبل في الاندماج الكبير وتركيز رأسمالها، هدفها من ثنائية: (الاحتكار والاندماج) إحكام السيطرة العالمية الكاملة على صناعة المعلومات، بمكوناتها الثلاثة: محتوى المعلومات - معالجة المعلومات - توزيع المعلومات، واليوم نسمع عن اندماج كبرى شركات إنتاج الأفلام والتسجيل الموسيقي، ودور النشر والطباعة وألعاب الفيديو، تندمج مع شركات الاتصال وشبكات الإرسال التلفزيوني وشركات برمجة الكمبيوتر. إن القوى الاقتصادية التقليدية تستغل قدراتها التمويلية والتنظيمية لاحتواء كل إبداع، وهي الصفة المميزة لصناعة المعلومات، واليوم صار الإبداع: محتوى وأداء وبرمجة سلعة تباع وتشترى وتحتكر، ويشارك في تسويقه مروجو الإعلانات وسماسرة صناع الثقافة، وكأن التكامل الاحتكاري من القمة لا يشبع تجار الاحتكار والاندماج، فقاموا بتكامل أفقي، ومثالنا على ذلك: ما قامت به وكالة رويترز للأنباء بتوسيع نشاطها ليشمل الخدمات الفندقية والتنقل السياحي والنشر التعليمي (هربرت شيلر ١٩٩٩). وهذا يقطع الطريق الكبار أمام الصغار لدخول نادي الإعلام والاتصال العالمي. إن الاحتكار والاندماج يندران بنهاية حرية المعلومات، إنها داروينية إعلامية بكل معنى الكلمة البقاء فيها للأقوى، مالاً

وتنظيمياً، لا للإبداع ولا للأخلاق (وإذا المعلومات سئلت بأي ذنب قتلت) إن أسس الداروينية الإعلامية الجديدة هو احتكار ودمج المعلومات، وهذا ما يجعلها سلاحاً في يد القلة ضد مصلحة الكثرة، إن مصير الإعلام ومشاهديه ومنتجيه ومبدعيه في أيدي قلة قليلة، تفعل المستحيل من أجل السيطرة الإعلامية، فهل لنا أن نشعر بطمأنينة مزيقة؟ إنه الاحتكار الاندماجي الغادر، بالتأكيد لن يتهياً للأنظمة الشمولية ونظم الطغيان أن تعود ثانية بعد الإنترنت، نعم من حقنا أن نقلق ونحزن نرى إعلام عصر المعلومات وقد أصبح قوة لا تقهر بحد ذاتها، لا يحكمها سوى معيار الربح والخسارة، وفي النهاية تزداد الفجوة اتساعاً بين من يملك المعلومة وبين من يفتقدها، بعد اكتساحها الشاشة الكونية، واستخدامها ضد الصغار سينعكس رؤساً مجتمعياً مأساوياً، يضاف إلى سكان هذا الكون، إنها امبريالية ثقافية إعلامية نازية معلوماتية، هذا ما يفرضه المركز الإعلامي على أطرافه ليسلب الصغير حق إنتاج رسالته الإعلامية، فلن يجد أمامه بسبب ارتفاع كلفتها إلا استيرادها، ولا حل أمامه لتمويل نظم اتصالاته إلا أن يسود الإعلان على الإعلام، ويتبع أساليب العمل وتنظيماته المفروضة عليه من قبل الشركات المتعدية الجنسية، وهذه الشركات ليس هبها أن تصدر برامجها، بل فلسفتها في التوجيه الإعلامي وأساليب أدائه، (محمود حماد ١٩٩٦)

أ - المآزق العربي والاستخفاف بالصفار: عندما تظهر تكنولوجيا جديدة تنطلق الوعود الكثيرة لتغازل الفقراء والضعفاء، وفي مجال الإعلام والاتصال ابتدع (مارشال ما كلوهن) القرية الكونية ويدت للعالم كالمدينة الفاضلة الالكترونية، بل كأنها أمر واقع حل بالبشرية، وهل أجمل من العالم وهو أسرة واحدة تسوده المحبة والألفة، إنه الوهم صنعه اللغة بهدف خدمة الإعلام والاقتصاد، وبعدها استطراد ليقول: إنها لن تكون مثلاً للوفاق والمساواة، بل على العكس سيسقط حاجزي المكان والزمان وهذا يزيد من مظاهر التنوع والانقسام، فاجتماع المليارات من المشاهدين أمام الشاشة الكونية يشاهدوا افتتاح دورة أولمبية عبر الأقمار الصناعية يحلو للبعض أن يردده لكنه لا

يشكل مجالاً للرأي العام لتعاور به الثقافات أو تحسم النزاعات، وتزول الفوارق بين البشر ولا يحقق العدالة في توزيع موارد المعلومات (هانس بيتر مارتين. هارلد شومان ١٩٩٨) وقد أفشلت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية مشروع منظمة اليونسكو القاضي بقيام نظام معلوماتي جديد يضمن الحد الأدنى من توزيع موارد المعلومات والاتصالات، وما دام الصغار غير قادرين على مواجهة هذا الخلل في تدفق المعلومات وتوزيع الموارد، وافقت منظمة اليونسكو لبقاء الأمور كما هي شريطة أن تساعد الدول الغنية الدول الفقيرة في إقامة البنى التحتية لنظم الاتصالات والإعلام، ولكن بريطانيا وأختها أمريكا لم تلقَ صيغة الحد الأدنى هذه آذاناً صاغية، ففشلت مشاريع التنمية ليونسكو ففقدت معظم الدول النامية استقلالها الإعلامي، والعولمة تقضم تراثها الشعبي، وتحيله إلى حدائق الملاهي، ووثائق في الأرشيفات الوطنية. وتهدد تراث الشعوب بالانقراض. وهذا بدوره سيؤدي إلى خلل في الميزان المعلوماتي، وتدقيق المعلومات بين الدول النامية والدول المتقدمة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا تحولت صناعة الإعلام من صناعة إبداعية إلى صناعة تقليدية كثيفة رأس المال لنفطي مدينة هوليود.

ب - هل يختلف إعلامنا عن ماهية واقمنا؟ (صور ومشاهد مؤلة)
إعلامنا لا يختلف عن حقائق واقمنا، حيث يسوده طابع التعتيم، وهذه بعض ملامحه: - إعلامنا يشكو من انقسام بين الغايات والقدرات وبين الشعارات والممارسات، وعجز عن تحقيق أي تكتل إعلامي عربي لأن الإعلام يتبع السياسي. - البحوث النظرية في الإعلام مفقودة، فضلاً عن تبعية الأكاديميات للمدارس الغربية وغياب البحوث الإعلامية الجماعية (عواطف عبد الرحمن ١٩٩٩)

- نصوص دستورية تنص على: حرية التعبير والنشر، تنتهي (بعبارات بها لا يتعارض مع المصلحة العامة) (وما نص عليه القانون) فهل أصبح القانون فوق الدستور؟ (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. المحور الأول لسياسات الثقافية والاتصالية في الوطن العربي. تونس ١٩٩٩)

- تسرب مشاهدنا إلى بوابات الإعلام الأجنبي لفقدانهم الثقة بالإعلام العربي. ويكفي مثالا عليه الإذاعة البريطانية ومساحات البث الإعلامي الواسعة.

- صحافتنا نموذجٌ لصحافة الولاء (نفس المصدر السابق) إداعات تُديعُ ولا تُسمَعُ، وكالات أنباء ترسل ولا من مستقبل، ولا زالت وكالات الأنباء العربية تسيطر على الساحة العربية (عواطف عبد الرحمن: الإعلام العربي وقضايا العولمة. العربي للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٩)

- التدفق الإعلامي غائبٌ بين الدول العربية، ولا وجود لمشاريع إنتاج مشتركة (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩٩) وفشل العرب في إصدار ميثاق موحد للإعلام العربي (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: المحور الأول للسياسات الثقافية والاتصالية تونس ١٩٩٩) ولا تدفق إعلامي بين الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. الإعلام العربي حاضرا ومستقبلا تونس ١٩٨٧) ومنذ أن أنشئت الجامعة العربية تلاشت الآليات التي يسعى بها العرب لبلوغ أهدافهم القومية وكانت البوصلة العربية تُوجّه بالمصالح القطرية (عواطف عبد الرحمن. الإعلام العربي وقضايا العولمة. العربي للنشر والتوزيع ١٩٩٩)

- لا اهتمام بقضايا الإعلام من القائمين بالتنمية، وغاب عن بصرهم أهمية الإعلام في التنمية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. المحور الأول للسياسات الثقافية والاتصالية. ١٩٩٩)

- لا صناعة إعلامية، وهو مهدد بالانقراض (جابر عصفور ١٩٩٧) وهناك بعض الصناعات التجميعية لأجهزة الراديو والتلفزيون في بعض الدول العربية كالعراق والجزائر ومصر. - معظم إعلامنا مهاجر يعتمد على الإعلان وعلى قطاع محدود من الجمهور (مركز الدراسات السياسية التقرير الاستراتيجي العربي ٢٠٠٠) - تحتل الدول العربية بجدارة نهاية القائمة لدى منظمة اليونسكو في معدلات القراءة والاستماع واستهلاك الورق (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المحور الأول للسياسات الثقافية والاتصالية

(١٩٩٩). هذه صورة قاتمة لإعلامنا ولكن مع بعض النقاط المضيئة حيث تقوم بعض القنوات العربية بمحاولات جادة لتقديم خدمات إعلامية في ظل فئات تمارس هيمنتها على الإعلام

وعلىنا أن نسمى للتوحد والتكامل العربي، ونؤمن موقعاً حصيناً للخروج من مأزقنا - مأزقنا السياسي: كيف نوفق بين عولمة الإعلام وسيطرة الدولة وتوقعات الناس - مأزقنا الاقتصادي: كيف يتنافس في عصر الإنتاج الإعلامي الضخم مع ارتفاع كلفة البناء للبنى التحتية.

إذا إعلامنا مثل بأي ذنب اغتصب؟

- مأزقنا الثقافي: كيف يحمي هويتنا وقيمنا وتراثنا.

المأزق التنظيمي: كيف تكتسب مؤسساتنا الإعلامية المرونة التنظيمية مع الكفاءة الإدارية والفنية تلبية للمطالب في عصر المعلومات. ولم يرتفع إعلامنا إلى مستوى الرسالة المنوطة به في تعميق وعي المواطن ومشاركته في التفاعل الاجتماعي، ونجعل من الأمة العربية أمة تحمي ولا تهدد، تشد أزر الصديق، ترد كيد المعتدي، توحد ولا تفرق، تصون ولا تبدد. (مبادئ الجمهورية العربية المتحدة).

ج - هل تلعب مع الكبار: إن احتكار السلعة الثقافية يواجه بمقاومة شديدة، والدليل على ذلك أن كثير من سلع الإعلام جاءت دون المستوى المطلوب للجماهير المحلية ولا تمت بصلة لها (جابر عصفور ١٩٩٧) وأدى هذا بدوره إلى أن تمزج الشركات العالمية بين (المحلي والعالمي)، مثالنا على ذلك المحطة الأمريكية التلفزيونية في الهند وأمريكا اللاتينية التي تبث الأغاني والموسيقى، وما يبعث على الأمل ما حققته مصر والبرازيل والهند من نجاح في مجال السينما والتلفزيون، وهذا يؤكد أن الصغار يمكنهم أن يلعبوا مع الكبار، وهذا يبقى رهين محتوى الرسالة الإعلامية وثيقة الصلة باللغة وبالواقع المحلي وبذوق الناس، هل يقوى العربي على تحدي ثقافة الإعلام إن المبدع الإعلامي العربي قادر أن يتحدى القيود المفروضة عليه متجاوزاً عمليات الإيهار والتكنولوجيا المتقدمة، ويعتمد على اللقاءات والصور الثابتة

ومحاورة الناس، ومعظم شعوب العالم تعاني من احتكار وسائل الإعلام، وتشكو منه بلدانٌ أوروبيةٌ متطورةٌ مثل بلجيكا والنرويج، ولن يزيدنا هذا إلا إبداعاً (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الثورة التكنولوجية، ١٩٩١).

- التواصل الإنساني بين الماضي والحاضر والمستقبل: كسر التواصل الإنساني حاجز المكان والزمان، كان يتم شفاهةً عن طريق التخاطب في المكان والزمن نفسه، بعدها بدأ التواصل مشواره الطويل، فكسر حاجز المكان من خلال البريد والبرق ثم من خلال الهاتف، وبعدها من خلال التفاعل السلبي (الإذاعة والتلفزيون)، والتفاعل الإيجابي مثل الكمبيوتر والإنترنت، وعقد المؤتمرات والجماعات الخائلية والحوار عن بعد، فيشارك مع الناس في الجدل والسمر، وربما يكون بديله الخائلي أو الدوينير الرقمي، الذي يمثله برأسه المتحرك الناطق في عملية التخاطب، وهناك أطوارٌ مثيرةٌ من التواصل عن بعد كأن يلتقي الإنسان وهو في مكانه رفيقه في إحدى المدن الخائلية، يتسامران يتسكعان في طرفاتها، يزوران معالمها، وبهذا تضع التكنولوجيا كلمة النهاية في ملحمة التواصل عبر المكان، لتستعد للتواصل عبر الزمن مع الذين رحلوا عن هذه الدنيا، وكل إنسانٍ منا يترك (أثاره) الرمزية من صور وتسجيلات صوتية ونتائج فكري وإبداعي، وهذا يمكن صاحبها أن يبعث (رقمياً) من جديد، وهنا نستطيع أن نحاوره ونسأله فيما مضى وفيما يستجد من قضايا من خيالاته المخزنة، وبرأسه المجسم الناطق المستخلص من صورته المسجلة على شريط الفيديو، وبصوته المولد صناعياً من مقاطع صوته المسجل، إنه الخلط الزمني والتواصل في أقصى صورته الحاضر والغائب مع الخلف والسلف.

- التواصل الإنساني العربي بين الماضي والحاضر والمستقبل: وكان للشفاهة دورٌ هامٌ في نقل التراث وتاريخ الفكر العربي والإسلامي والسنة النبوية، وقد أبدع السلف من علماء الحديث والفقه في ابتكار الأدوات اليدوية، للتحقق من صحة ما نسب إلى الرسول الكريم من أحاديث. ولا بد هنا من استخدام تكنولوجيا المعلومات من أجل المزيد من الحكمة من نبع

هدية الذي لا يتضيق وعلمنا أن نبدأ على الفور في الأرشفة السمعية والمرئية لكبار مفكرينا لتطول إقامتهم بيتنا (رقميا) بعد رحيلهم عن هذه الدنيا .

- ما التوجهات الرئيسية لتكنولوجيا الاتصال والمعلومات كروية عربية؟ لابد لنا من استعراض التوجهات الرئيسية لتكنولوجيا الاتصال من منظور ثقافي، وهي التالي: - من الإعلام إلى الاتصال - من العزلة إلى الاندماج - من الترابط إلى التفكك التنظيمي - من سيطرة المرسل إلى خيار المتلقي - مزيد من البرامج إلى مزيد من التخصص - الاندفاع صوب المنزل - مزيد من أجهزة المعلومات النقالة - استخدام الإنترنت كوسيط إعلامي .

- التوجهات العربية الأساسية لتكنولوجيا الاتصال: من الخطير أن يمشي إعلامنا على غير هدي من تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التي تسير بسرعة هائلة، مما يتوجب توفير كوادر إعلامية متخصصة ومدرية على أساليب الرصد المعلوماتي بل التجسس العلمي التكنولوجي، وهذا التجسس مشروع وضروري لتجميع المعلومات من مصادر عدة متنوعة ويمكن أن نعتمد في ذلك على الإنترنت ونظم المعلومات وتجميع البيانات المطلوبة وتصنيفها للخروج بالمؤشرات والتوجهات، وهذا من ضروريات التخطيط الاستراتيجي هذا، وأن الشركات باتت تفرض رقابة شديدة على أسرارها الفنية.

- بين الإعلام الغربي والاتصال: ويقصد بالإعلام توجيه الرسائل من المرسل إلى المستقبل، ونرغب أن يصبح تواصلاً بمعنى: أن يكون حواراً باتجاهين لا إعلاماً باتجاه واحد (علي محمد شمو. ١٩٩٨) ليتجاوز ذلك إلى مهام التعليم والتعلم والترفيه وعقد المؤتمرات عن بعد واسترجاع المعلومات، ويشمل التراسل عبر الإنترنت والبريد الإلكتروني، والتحاو والتسامر عبر حلقات النقاش وعقد المؤتمرات عن بعد .

- بين الإعلام العربي والاتصال: إن مؤسساتنا الإعلامية أقامت مجدها الاجتماعي على مهمة الإيلاغ والتوجيه، فرسخت لدى المواطن العربي عادة التلقي السلبي. والسؤال الآن: هل يمكن إحداث النقلة النوعية للارتقاء بإعلامنا إلى مستوى التواصل؟ وهل يمكن لأجهزة التشريع أن تضع القوانين

الناظمية لذلك والتي تكفل للمواطن حقه بالاتصال وتضمن حمايته وخصوصية بياناته، وتضمن له حقه في النفاذ إلى مصادر المعلومات وشبكاتها؟ وإن لم تفعل سيصبح المواطن عندنا مواطناً من الدرجة الثانية في عصر الاتصال التفاعلي الثنائي الاتجاه.

- بين العزلة العربية والاندماج: إن تقسيم الإعلام إلى إعلام مسموع ومطبوع ومرئي في طريقه إلى الزوال، وعلى صعيد آخر فإن الفوارق تتلاشى بين الإعلام والتعليم والترفيه والبحث عن المعلومات.

- من العزلة العربية إلى الاندماج: لقد عجزنا حتى اليوم من تشكيل كتل ثقافية من أي نوع كان، والتكتل الإعلامي أكثر صعوبة لاعتبارات سياسية واقتصادية، ومن جهة ثانية فإن الاندماج والتوسع في الإعلام يتطلبان درجة عالية من التنسيق بين: التربية والإعلام والثقافة بكل أجهزتها، ومن الواضح أن هذا التنسيق محكوم بموازن القوى ما بين هذه المؤسسات الاجتماعية، وغالباً ما تكون الغلبة للإعلام في هذه المسألة، وهو ما يتعارض مع النموذج التعموي للقوى الرمزية، لكونه الولد المدلل للسلطة، علماً أن من الواجب أن نعطي الأولوية للتربية كمحور لتنمية قائمة على محورية الثقافة.

- بين الترابط الغربي والتفكك المنظومي: كما هو معروف هناك ثلاث مهام رئيسية لمنظومة الإعلام، بغض النظر عن مهمة الوسيط الذي تتعامل معه، وهي - إنتاج الرسالة الإعلامية - توزيع الرسالة الإعلامية - تلقي الرسالة الإعلامية. وكانت هذه المهام مترابطة فيما بينها ارتباطاً عضوياً وتنظيمياً ونحن اليوم نشاهد تفكك هذه المنظومة: فكثير من الصحف تُطبع خارج دور إعدادها - وإنتاج التلفزيوني قد أصبح مستقلاً عن مؤسسات البث الإعلامي - والمتلقي أصبح حراً طليقاً من يد الارتباط الثلاثي، وهناك علاقة وثيقة بين التفكك التنظيمي والإنتاج الرأسمالي، لأن تفكيك المؤسسات إلى وحدات متخصصة يزيد من قدرة مؤسسات الاندماج الرأسمالي الضخمة على التحكم في النطاق الواسع لأنشطتها المتباينة والموزعة جغرافياً، إنه مبدأ (فرق تسد)، مطبقاً على مستوى التنظيم العولمي.

- بين الترابط العربي والتفكك المنطومي: وتتألف الرسالة الإعلامية من ثلاثة عناصر: المرسل والمستقبل والمادة، وكانت فيما مضى مرتبطة مع بعضها ارتباطاً عضوياً وتنظيمياً. فتفكك هذا الترابط اليوم وهناك محاولات لاستقلال الإنتاج الإعلامي خاصة في مجال برامج التلفزيون، فالصحف تطبع خارج دور إعدادها، والناتج التلفزيوني أصبح مستقلاً عن مؤسسات البث الإعلامي، وهذا قد يؤدي إلى تضارب الأهداف بين عناصر النشاط الإعلامي بعد تفكيكها في ظل غياب التنسيق الذي تعاني منه معظم مؤسسات الاجتماعية وهذا ما يضر بالغايات المرغوبة من نموذج الإعلام التدموي المقترح، وهما هي العولمة تضغط بشدة على مؤسسات الإعلام العربي نحو التفكك التنظيمي، وشتان بين تفكك إعلامنا وتفكك إعلامهم، فلا اندماج ولا تفكك يشد من أزره ويوازنه، وقد تفرعت هذه الحتمية التي تتطوي عليها هذه العولمة الإعلامية إلى نوع من الحتمية التنظيمية والأدائية - بين المرسل والمستقبل الغربي: عانى المتلقي من الطاغية المرسل وبقي حبيس إرساله، وكلنا أمل أن تحررنا تكنولوجيا المعلومات من قبضة المرسل، كما حررت القارئ من قبضة مؤلفه، والمتعلم من قبضة معلمه، ومستخدم برامج الكمبيوتر من مصممها، بينما تسعى نظم الاتصال إلى إضفاء الطابع الشخصي على عملية التلقي، ويكون للمتلقي الاختيارات جميعها: نوعها، محتواها، شكلها، توقيتها، وقت استقبالها لها، ويكون لهذا القارئ جريدة وله شكل إخراجها ومواعيد صدورها، ومشاهد التلفزيون سيكون له أن يحدد البرامج التي يفضلها، والأوقات التي تناسبه لمشاهدتها، باستخدام نظام (الفيديو تحت الطلب)، وسيكون لكل متلقي وكالة الأنباء الخاصة به من خلال الوكيل الإعلامي الذكي: يمتص الإنترنت ويستعرض قنوات التلفزيون ومحطات الإذاعة، يطالع الصحف اليومية والمجلات الدورية، يتابع وكالات الأنباء بحثاً عما يلبي رغبات من يقوب عنه، وهذه التكنولوجيا الذكية هي الوسيلة الوحيدة لمواجهة إعصار المعلومات، فمن باستطاعته أن يقرأ الصحف اليومية كلها، أو أن يتابع الحركة الشائنة لتجدد المعلومات عبر الإنترنت ووسائل الإعلام الجماهيري التقليدية، ومجتمع المعرفة وصناعة الإعلام

تتحول من نمط البث بالمعلومات التي يريد المرسل أن يبثها إلى مستقبله فارضاً عليه توقيتات استقبالاتها، إلى نمط السحب الذي يعطي للمتلقي حريته في سحب المعلومات التي يريد ما وفي الوقت الذي يريد. وفي ظل هذا التوجه، تتحول المؤسسات الإعلامية إلى مستودع للمعلومات (فرانك كويلش ٢٠٠٠) وبقي المتلقي العربي تحت جيروت أنرسل، يعيش على الوجبات الإعلامية الرخيصة (البوفيه المفتوح) ينتقي منه المتلقي ما يحتاج إليه ويفضله. وقد يفسر هذا التوجه لإعطاء الخيار لمستقبل الرسالة الإعلامية ما تجريه الدراسات الإعلامية حالياً من اهتمام بالمتلقي في منظومة الإعلام الحديث. وتتمنى ألا يكون ذلك مجرد وهم بديمقراطية مزيفة، كفرع متقدم نحو الديمقراطية السياسية الزائفة، ونخشى أن يكون هذا التوجه إلى إعطاء الخيار للمتلقي ضمن الالتزام التسويقي على مبدأ (المستهلك أولاً).

- بين سيطرة المرسل واختيار المتلقي العربي، وكما هو متوقع لن تكون حقيقة الطابع الشخصي متاحة في البداية، إلا لمن يملك ثمن الخدمة الاتصالية، لقد اعتاد المتلقي العربي في ظل سيطرة المرسل على الوجبات الإعلامية الرخيصة وهل يمكن لنا في ظل التوجه المحوري باتجاه المتلقي أن نعيد إليه حقوقه وهيبته، ولكن لا بد أن اقتصاديات الحجم ستدفع شركات تقديم هذه الخدمات الإعلامية الخاصة والمتخصصة إلى تخفيض رسوم خدماتها، بما يضمن لها قاعدة شعبية واسعة من المتابعين، بفرض زيادة جاذبيتها وإن العمل من أجل المتلقي يتطلب تغييرات أساسية في وسائل الإعلام العربي من حيث التنظيم أو من حيث الإدارة والتسجيل، والمطلوب قبل كل شيء: توافر الإمكانيات لإنتاج سلع إعلامية قادرة على المنافسة، بعد أن أصبح سوق الإعلام الأجنبي سوقاً للمتلقي له الكلمة العليا، وعندما تعجز وسائل إعلامنا المحلية عن تلبية مطالبه، لا بد من أمام المتلقي إلا اقتناء السلعة الثقافية الأجنبية من الخارج، وكما نستورد البضائع الأجنبية ذات الجودة العالية، عندها سيزداد استيرادنا لمنتجات الإعلام ليعاد توزيعها، بعد دبلجتها وتعريبها.

- مزيد من البرامج ومزيد من التخصص الغربي؛ إن الإعلام ينحو صوب التوسع والتخصص لأن مؤسسات الإعلام تعمل جادة إلى زيادة برامجها وموارد معلوماتها وبوابات توزيعها وفي ذات الوقت يسعى الإعلام نحو التخصص وهي كالتالي: - المجلات المتخصصة - محطات التلفزيون المتخصصة في الأخبار والإعلام الثقافي والتعليمي والديني. - انتشار إذاعات الفئات الاجتماعية والجيليات الأجنبية والمطارات والجامعات الدينية. وقد تتحول صناعة الإعلام إلى بوتيكات) لبيع المنتجات الإعلامية المعلوماتية ذات الطابع الخاص، وهذه الازدواجية في التوسع والتعمق في التخصص لابد من أن يغير من نمط الاستهلاك. وإذا تضخمت هذه البرامج والمواد الصحفية والقنوات تحولت عملية القراءة والاستماع والمشاهدة إلى نوع من (التلقي الانتقائي المتقطع) فهو تشظي (إعلام ما بعد الإنترنت)، ويمكن أن نعتبره صدى لتشظي الحادث على مستوى الإرسال وشظايا رسائله، وهذا سيؤدي بدوره إلى تغييرات جذرية في الرسالة الإعلامية من حيث المحتوى والشكل ومداه الزمني يميل نحو القصر. مزيد من البرامج والمزيد من التخصص العربي؛ سعى السوق الإعلامي العربي إلى توفير الكتل الحرجة ليحقق المطالب الاقتصادية لينتج المجلات المتخصصة والمجلات العربية المتخصصة كنسخ مغربة للمجلات الأجنبية، وهذا ما يحدث بالنسبة لمجلات الكمبيوتر والديكور والأزياء وما شابه. علما أن القنوات التلفزيونية والتعليمية تشكو من نقص في البرامج، وما زال التلقين هو النمط السائد في بث رسائلها التعليمية.

- اقترحام المنزل الأوروبي؛ جميع وسائل الإعلام شدت رحالها إلى البيت الأوروبي مثل (الهاتف، تلفزيون الكابل الإنترنت، الفضائيات، برامج الكمبيوتر، ألعاب الفيديو) وهذه نتيجة طبيعية للتوجه الشامل نحو الصناعة الثقافية، التي تستهدف المنازل لا مؤسسات العمل، في المنازل وجدت قاعدتها العريضة التي شكلت قاعدتها الاستهلاكية، وهم جاهزون لامتناس كل شيء من مستهلكات الثقافة، وهنا سقطت الحلقات الوسيطة بين المستهلك ومصادر الإعلام، باستخدام الطرق التالية: - استخدام بث الأقمار

الصناعية المباشرة واستهداف المنزل دون الحاجة إلى استخدام محطات أرضية - انتشار الجامعات والمدارس المفتوحة للتعليم الذاتي عبر الإنترنت ووسائل الإعلام الأخرى - التوسع في البث الانتقائي المسدد إلى قنات اجتماعية معينة بل أفراد بعينهم. - التلفزيون التفاعلي الذي يربط بين المرسل والمستقبل. - وما زالت الأسئلة تطرح حول أنسب الطرق لاختراق المنزل معلوماتياً أو (الاكتساح العملي السريع) ترى: هل هو الفيديو تحت الطلب أم الهاتف المرئي أم ألعاب الفيديو الجماعية أم هناك تطبيق جديد لم يخطر على قلب بشر؟ هذا من حيث التطبيق الكاسح وبقي السؤال الأخير هل يتقبل المنزل هذا الاختراق؟

- اقتحام المنزل العربي: واستهدفت تكنولوجيا المعلومات المنزل لا مؤسسات الأعمال، وساعد على ذلك التعليم المفتوح للتعليم الذاتي والأقمار الصناعية وانتشار التلفزيون التفاعلي، وأدى هذا إلى طبقة في المنزل العربي لأن الاتصال غير متاح للأغلبية، وأن مؤسسات الإعلام لن تفوت الفرصة لزيادة خدماتها الإعلامية مدفوعة الثمن، واليوم القسم الكبير من قنواتنا الإعلامية مفتوحة والقسم الآخر في طريقه للتشغيل، ومن جهة ثانية ستؤدي الخدمات الإعلامية الأجنبية الوافدة إلى ضعف ولاء المتلقي العربي لمؤسساته الإعلامية، (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الثورة التكنولوجية ١٩٩١)

- أجهزة المعلومات النقالة الأوروبية: واليوم يتسابق عمالقة صناعة الاتصال على دمج كل الخدمات المعلوماتية في جهاز صغير ليبقى على اتصال في أماكن عمله ومعيشتهم ومصادر معلوماتهم، وهي لم تعد مقصورة على الراديو بل تشمل الهاتف النقال وكمبيوتر راحة اليد وذاكرة الجيب الإلكترونية وما شابه، والصراع يدور اليوم من أجل الشاشة الصغيرة. ويتسابق عمالقة صناعة الاتصال في دمج كل هذه الخدمات المعلوماتية في جهاز صغير يجمع بين الهاتف والتلفزيون والتعامل مع الإنترنت واستعماله بمنزلة كمبيوتر.

- أجهزة المعلومات النقالة العربية: من المتوقع أن تنتشر هذه الأجهزة في الوطن العربي كما انتشر الهاتف المحمول، ولكن ما الجدوى من استعمال هذه البدع من الأجهزة الإلكترونية ما دام استخدامها في مجال الأمور الثانوية دون الاستفادة الحقيقية من إمكانياتها المتعددة، وعلى المستوى الآخر فإن شاشة العرض الصغيرة التي تستخدم في هذه الأجهزة - لا بد من تطويعها لمطالبي اللغة العربية من حيث إظهار أشكال الحروف - أو طرق البحث عن المعلومات أو تبادل لرسائل ذات الطبيعة المختصرة - واللغة العربية تواجه صعوبة في استخدام الكلمات المختصرة نتيجة غياب التشكيل من جانب، وخاصة تشبيك الحروف من جانب - الإنترنت كوسيط إعلامي أوروبي: فرضت الإنترنت نفسها إعلامياً فهي أهم شبكة على الإطلاق بلا منازع، وتبدو قدرتها في احتواء الوسائط الأخرى كمصدر للمحتوى، بينما كانت عظمة التلفزيون في احتوائه للراديو، وتقوم عملة الإنترنت على احتوائها: الإذاعة، التلفزيون، الصحافة والبحث عن المعلومات، ولا يستقيم الحديث عن وسائل الإعلام دون الحديث عن القضايا التي تطرحها الإنترنت في الاندماج التكنولوجي حيث يتم التفاعل ما بين مرحلة البداية كحد أدنى وخطوة تمهيدية للانصهار الكامل، وتشهد الساحة الإعلامية صراعاً بين التلفزيون والإنترنت، لأن التلفزيون يرى الإنترنت مصدراً لمعلوماته وتراه هي بدورها وسيطاً معلوماتياً جديداً، يضاف إلى قائمة وسائلها المتعددة، ويقوم نظام (ويب، تي، في) على فكرة استخدام التلفزيون كناقذة للتعامل مع الإنترنت، يتم الإبحار من خلالها باستخدام وسيلة التحكم عن بعد (الكنترول) ولا سبيل للمقارنة بين الكمبيوتر وقدراته الفائقة في التعامل مع الإنترنت، وقدرات التلفزيون المحدودة. ويبقى للتلفزيون جاذبيته الخاصة، وجماهيره العريضة وسهولة استخدامه دون حاجة إلى معدات وبرامج. وفي المقابل يسعى أهل الكمبيوتر إلى تحويله إلى واسطة للاستقبال التلفزيوني، وبهذا يكون خلاص التلفزيون من مرضه المزمن: - آفة التلقي السلبي - وأحادية الاتجاه - بينما يمكن التفاعل من خلال الكمبيوتر مع مواد التلفزيون - توفير مرونة أكبر في

انتقاء القنوات ومواد البرامج وتخزينها - وإعادة استخدامها، ويبقى الجدل ممتداً حول (تلفيوتر) يستغنى به عن الكمبيوتر أو (كمبزيون) يستغنى به عن التلفزيون، وكل ما يجري يدل على محاولات لانصهارهما الكامل في إطار الإنترنت، وتشير كل الدلائل أنها ستصبح وسيطاً اتصالياً هاماً قائماً بذاته، له سماته التي تميزه جميع وسائل الاتصال، وهذا الانصهار المعلوماتي بدوره سيؤدي إلى تغييرات جذرية في مفهوم الاتصال، وتغير العلاقات بين منتج الرسالة الإعلامية، وموزعها ومتلقيها، ونسمع اليوم عن إعلام ما قبل الإنترنت وما بعد الإنترنت ويتوقع البعض أن تفوق الإنترنت التلفزيون كوسيلة إعلامية، ويبقى المجد للإنترنت.

- الإنترنت كوسيط إعلامي عربي: هناك طبقة اتصالية أدى إليها استخدام الإنترنت، وكما هو معروف تسعى جميع الدول المتقدمة إلى إقامة شبكات من الطرق السريعة للمعلومات، ذات السعة الهائلة من المعلومات وهذا يسمح بالتفاعل الدينامي ثنائي الاتجاه، (هات وخذ) من مواقع المعلومات المنتشرة على مواقع الإنترنت، وهذا يقسم العالم اتصالياً إلى قسمين فئة قادرة تستطيع أن تتمتع ب (التفاعل الإيجابي) وما يحمله من تنمية قدراتهم الذهنية وزيادة فاعليتهم وإنتاجيتهم، وطبقة المتلقين السلبيين الذين لا حول لهم ولا قوة إلا استقبال ما تلقى عليهم شبكات البث عبر الأقمار الاصطناعية، لترسخ النزعة السلبية، فتضمر لديهم إرادة المشاركة في عملية التغيير الاجتماعي، إن طبقة الاتصال ستزداد مع ما نشاهده من انحسار مجانية الإعلام تماماً مثلما حصل إلى مجانية التعليم، وسينتهي بنا الأمر إلى من سيدفع قيمة الخدمة الإعلامية، ويبقى دور الإعلام المجاني على الإعلان التجاري أو التوجيه السياسي.

- علاقة الإعلام بمنظومة الثقافة:

أ - لثيب العلاقة بين الإعلام والثقافة الأوروبية: بين علاقة الإعلام والثقافة الغربية هي في جوهرها علاقة النوع بالكل، هل يمكن فصل سياسة

الإعلام عن سياسة الثقافة: كثيراً ما يتداخل الإعلام بالثقافة وقد يتطابقان (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- المحور الأول للسياسات الثقافية والاتصالية ١٩٩٩) وقد تترادف الكلمتان: الإمبريالية الثقافية والإمبريالية الإعلامية وجاءت الإنترنت لتصب الزيت على النار بينهما، فهي وسيطٌ بين المنتج والمستهلك شبيهةً بأسلوب (توصيل الطلبات إلى المنازل) والإعلام هو الجانب التطبيقي للفكر الثقافي والسياسة الثقافية، وكما هو تجسيد للثقافة العامة فهو أيضاً نافذة نطل منها إلى الثقافة الخاصة.

ب - الإعلام العربي والثقافة العربية: وتبقى علاقة السلطة بالثقافة واهية، لأن الإعلام هو الابن البار للسلطة، ولا مانع هنا من أن تلقى وزارة الثقافة وتحال مهامها إلى وزارة الإعلام كما حدث في بعض الدول العربية (مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية التقرير الاستراتيجي ٢٠٠٠) ولهذا الاختلال بين الإعلام والثقافة آثاره السلبية ولا شك أن فصل سياسة الإعلام عن سياسة الثقافة جريمة تكراء، خاصة في عصر باتت فيه الثقافة محوراً رئيسياً لعملية التنمية. في حين أصبح الإعلام من أهم وسائل تحقيق التنمية. ومن حسن حظنا فقد أدركت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أدركت ذلك، فقامت بإعداد وثيقة بالتنسيق بين السياسة الإعلامية والثقافية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩٩) ولنا أن نستعد لنقلة نوعية استراتيجية طويلة المدى لإعلام ما بعد الإنترنت، تتطلب منا أن نطرح قضايانا الإعلامية في سياقها الاجتماعي، فلا يكفي أن يكون لكل صحيفة وإذاعة ومجلة تليفزيون عربية موقعها على الإنترنت، فهذه أمور انتقالية، وبهذا نؤمن لإعلامنا موقعاً حصيناً على الساحة الإعلامية في إعلام ما بعد الإنترنت.

- فكر الإعلام:

١ - كيف بدأ التنظير الإعلامي: لا زال الفكر الإعلامي فكراً ناشئاً يفتقر إلى التنظير الإعلامي والدراسات الأكاديمية، وفي فترة الستينات من القرن الماضي كان مارشال ماكلوهان) أول من حاول التنظير له ولكن تنظيره انصب

على علاقة الوسائط الإعلامية بالحواس: علاقة الكتاب والتلفزيون بالبصر، والمذياع بالسمع، وأهمل السياق الاجتماعي للإعلام وصيب جهده على الجانب النفسي، وحاول (ماكلوهان) أن يضع قوانين لتعدد مدى تأثير وسائل الإعلام بالمتلقي، وصنف وسائل الاتصال ما بين (الباردة والساخنة) ليفرق بين الجانب السلبي كالمذياع، والجانب الإيجابي مثل الكتاب، وبين (عاكسة وناقذة) ليفرق بين تلك التي ينفذ من خلالها الضوء كالتلفزيون والتي تعكس الضوء كالسينما، وهذه مجرد تصورات لا نظريات، تأثير ولا تؤسس، وكان همه إثارة التفاعل الإيجابي عند المتلقي ولهذا استحسن الصورة المهتزة لأنها تحت المشاهد للتفاعل معها وامتدح الإعلان لأنه يوحد الذوق العام، وأكثر ما تركه إثارة تلك القرية الكونية، و(الوسيط هو الرسالة)

ب - فكر الإعلام ومدرسة فرانكفورت:

لقد كانت مدرسة فرانكفورت هي السباقة لإدراج الفكر الإعلامي وقضاياها ضمن التنظير الثقافي الحديث لتصل إلى نظرية اجتماعية تأخذ القضايا الاقتصادية والثقافية والسياسية في اعتبارها لتنظم الإعلام الحديث، ويرى (تيودور أدورنو، وماكس هوركهايمر) مؤسسا مدرسة فرانكفورت، أن مؤسسة الإعلام الحديث هي أداة للسيطرة الاجتماعية وإعادة إنتاج المجتمع بأنماطه وهذا هو المفكر (بودليار) يقول: (إن ثقافة الميديا هو الجريمة نفسها) لأنها تدفع إلى التجنيس والتهميش، ويدوره (هابرماس) يتهم التلفزيون بإفساد الرأي العام ويرد المجتمع إلى نظام الإقطاع، وهذا يتفق مع رأي كارل بوبر الذي قال: إن الإعلام يضر بالديمقراطية ولا يعمل على نشرها أو تعميقها، ويرى منظري مدرسة فرانكفورت إن الإعلام الحديث يعمل إلى إخماد نوازع التفرقة الطبقية، وعلى ضمور الوعي الثوري لدى الطبقات الضعيفة وعلى دمج العمال في نسج المجتمع الرأسمالي، وهذا يستدعي إعادة النظر في المدخل الطبقي كوسيلة لإحداث التغيير الاجتماعي، ويرى (هابرماس) أن الوسيلة هي خالق مساحة جديدة أكثر شفافية وتواصلًا وذلك من خلال تكنولوجيا المعلومات.

ج - إعلام ما بعد الحداثة: وهرباً من الخوض في السياسات الكبرى شغل الفكر الإعلامي نفسه بقضايا مثل: الاستهلاك، كيفية تلقي رسالة الإعلام، التمييز العنصري، وضع المرأة بالنسبة للرجل، وضع الأقليات، عكس ما قصد إليه (هأبرماس) من ساحة شفافة أكثر اتصالاً واتفاقاً للآراء، ويحلم منظرو ما بعد الحداثة أن تخلق الميديا (هيتروطوبيا) من تباين الآراء وتعددتها، بما ستسمح تكنولوجيا المعلومات والإنترنت لكل فئات المجتمع أن تعلن عن آرائها وأن تدافع عن مواقفها، ويرى فكر إعلام ما بعد الحداثة تميعاً لقضية الهيمنة الأمريكية وإخفائه وراء مراديب صراع الأقليات والطائفية والحديث عن التنوع والاختلاف.

د - هل هذه قرية كونية أم امبريالية إعلامية؟؛ شاع استخدام (القرية الكونية) ابنة الإعلام الحديث الذي قضى على المكان، وعمل على إقامة شبكة من العلاقات تربط بين الأفراد والجماعات وبين الثقافات هذا شيء مفعم بالتفاؤل والمذاجة، تمثل نظرية الإمبريالية الإعلامية التي أسسها هريبرت شيلر والفكر المناهض لها، أحد المحاور الأساسية للخطاب الإعلامي الحديث يعني: (الإمبريالية الإعلامية) بهدف فرض الميديا من أجل ترسيخ القيم والنزعات الاستهلاكية والعادات، كثقافة أجنبية وافدة تسعى للقضاء على الثقافة المحلية، وتصرع الإعلام الامبريالي إلى أربعة فروع هي:

- دمج الإعلام مع الثقافة؛ ويرفض الفصل بينهما، وهذا التوجه يفضل الماركسيون الجدد من أجل إبراز ضراوة الإعلام الجديد، وتحالفه مع القوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية - خطاب مدرسة فرانكفورت ينظر إلى الميديا كوسيلة للسيطرة الإمبريالية الإعلامية وتجديد دماء الرأسمالية من أجل مزيد من الاستغلال والاستقطاب الاجتماعي. - خطاب يرى في امبريالية الإعلام أحد مظاهر الحداثة، ويجب أن ننظر إليها كداء رئيسي ولا يجوز النظر إلى الميديا منفصلة عن الحداثة كالهجرة إلى المدن، والاستسلام لسطوة العلم والتكنولوجيا والتراتيبات الهرمية للمؤسسات الاجتماعية. - إن الإمبريالية الإعلامية تواجه هجوماً شرساً من قبل المؤيدين لعولمة الإعلام.

وذلك من المنطلقات التالية: - إن مفهوم الإمبريالية الإعلامية قام في الأساس على سيادة الدولة على وسائل الإعلام، وهذا سيزول بغياب الدولة لأن العولمة ستقوض من سيادة الدول - إغفال نظرية الإمبريالية الإعلامية، لدور المستهلك، واعتباره كصندوق أسود (أي مجرد متلقي سلبي للرسالة الإعلامية وهم غافلون عن دوره في استيعاب مضمون هذه الرسالة وممارسة إرادته في دمجها بحياته اليومية. وبالحقيقة أن الناس لا يخدعون بالإعلام إلى الدرجة التي يتصورها البعض. - وفي رأيهم، أن نظرية الإمبريالية الإعلامية أعطت مزيداً من الثقل للإعلام على حساب القوى الاجتماعية الأخرى. - هناك تناقض كبير وجوهري في فكر (هربرت شيلر) مؤسس نظرية الإمبريالية الثقافية، فيما يخص تهديد الهوية القومية، فكيف يتحدث عن الهوية القومية والفكر الماركسي معاد للهوية - التشكيك في محورية الميديا وهناك قوى رمزية لا تقل تأثيراً عنها مثل: القيم والمعتقدات - الهوية ليست شيئاً ثابتاً، ولا يمكن النظر إليها عبر مفهوم المكان بل من منظور الزمان الذي يتجدد.

- الإعلام العربي: كل الدراسات تشير إلى عدم وجود تنظير إعلامي عربي، وإن وجد فإنه يفتقر إلى الأسس العلمية الواضحة، فبدأ إعلامنا أكثر خجلاً وتخلفاً، والدراسات التي تقوم بها مؤسساتنا الإعلامية ذات صبغة إجرائية لا تنظرية بسبب الخوف من: - ملامسة القضايا الحساسة لعلاقة نظم الحكم في الإعلام، إن الفكر الحديث كثيراً ما يلجأ إلى فكر الماركسيين الجدد بقصد أن يأخذ منه شقه العلمي لا الإيديولوجي - وكثير من الأكاديميين يحجم عن إقحام نفسه تحاشياً لما لا تحمد عقباه - ولهذا أكرّ الفكر الإعلامي مبدأ السلامة تحت ضغوط السلطة وإرهاب الفكر الجامد، فخلت الساحة إلا من وعود للتكنوقراط وأحلام المثاليين من منظري الإعلام الإسلامي - وهؤلاء يرجعون تخلقنا الإعلامي إلى سيطرة الإعلاميين عليه (محمود حماد ١٩٩٦) كل هذا ليجنبوا أنفسهم مشقة الخوض في الأمور الجوهرية، ونقصد علاقة الإعلام بمنظومة القوى السياسية والاقتصادية ونحن بآمس الحاجة إلى نظرة متوازنة، ومعظم الناس استسلموا للإعلام

لا عن فهم، وإنما عن أمية إعلامية، وهم عاجزون عن فهم أسرار لعبة الإعلام وكيف يتلاعب بالعقول، ليفرض الانضباط والإذعان ولا يد هنا من تنمية الفكر النقدي الإعلامي العربي من منظور معلوماتي تنموي يستوعب الدور المتعاظم للتكنولوجيا، والاستثمار الاقتصادي في صناعة الإعلام.

- لغة الإعلام الأوروبي: إن الإعلام هو أكثر الأنشطة استخداماً للغة لفظاً أم كتابةً، ومن هنا تقع على الإعلام مسؤولية الارتقاء باللغة للمجتمع ككل، وبالمناسبة يستطيع الإعلام أن يفيد اللغة ويعمل إلى توحيد استعمالها، أما إذا أراد الإعلام التضييل والتزييف فإنه يضر باللغة أشد الضرر، وأكثر ما يضر باللغة هو عدم الإخلاص لها كما يقول (جورج أرويل)، وتركيز الإعلام على الصوت والصورة يهدد كيان اللغة لكنه في الوقت ذاته سيهدي تفوقها في التعبير المباشر والموجز الدقيق، ونحن نعتقد أن (الكلمة أفضل من ألف صورة).

- لغة الإعلام العربي:

أ - اللغة كميزة تنافسية في الإعلام: قال بعضهم أن الإعلام المرئي والسمعي تحميه اللغة (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩١) بالنسبة لجمهور لا يعرف اللغة الأجنبية، وكلنا يعرف كيف وقفت اللغة اليابانية إلى جانب السينما والتلفزيون الياباني ووقفت اللغة الإسبانية إلى جانب الإنتاج في البرازيل والمكسيك، ويمكن للعربية أن تحافظ على تنافسيتها في مجال صناعة الثقافة وهذا لا يقدر بثمن نظراً للجمهور المريض الذي تخاطبه.

ب - لغة إعلامنا ودورها بالإصلاح اللغوي: يريد لنا الآخرون أن نصمت على لغتنا الفصحى، ياشاعة اللهجات العامية المحلية في وسائل إعلامنا، من تلفزيون وصحافة وإذاعة (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩٩)، وهذا يعني تسديد الضربة القاضية إلى وحدتنا الثقافية. وما يجب علينا أن نفعله هو العكس، وهو استخدام وسائل الإعلام لتسهيل استخدام الفصحى في حياتنا اليومية، وباستطاعة الإعلام في الوطن العربي أن يقوم بدور

(حصان طروادة)، لتخليص اللغة العربية من ازدواجية الفصحى والعامية. ويتطلب ذلك خطة مدروسة متدرجة المراحل، يشترك فيها الكتاب واللفويون والتربويون وعلماء النفس. وليس مقبولا أن نكرر أن عامة جماهيرنا لا تقبل الفصحى، إلا القرآن الكريم والحديث الشريف، فكيف تذوقت الجماهير العربية بحسها السليم روعة الشعر العربي. في حين تسالت اللغة العامية إلى الصحافة المصرية، ومن أجل معالجة المشكلة اللغوية (الفصحى والعامية)، علينا أن نلجأ إلى كل الوسائل الممكنة: القصيدة، الأغنية، والأقوال المأثورة، والأساطير، والمسرحيات. ولا بد للإعلام العربي من الإيمان بالتالي وهو: (ابدا بنفسك) إن أراد حقا أن يكون أداة فعالة لإصلاحنا اللغوي، ولا بد من التصدي لما يشكو منه الإعلاميون من نقص المصطلحات اللازمة لتغطية المفاهيم الجديدة (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٧) ولتي يتوالى ظهورها بشكل يومي، والإعلام بسبب متابعته لما يجري من الأحداث الفورية، يستطيع أن يتناول هذه المفاهيم، وعليه تقع مسؤولية إشاعة مصطلحاتها بطريقة سليمة فيتحاشى كلمات لا تنم بالدقة، فيشوه المفهوم المقصود بالمصطلح الأجنبي، فيؤدي إلى زرع مفاهيم خاطئة.

• التربية والإعلام الأوروبي:

- أ - التقارب بين الإعلام والتعليم: يتداخل اليوم الإعلام والتعليم، ويكون للإعلام الحديث دوره الفاعل في (التعليم عن بعد) وهذا يتطلب إحداث وسائل جديدة لبث رسالة تعليمية، وهي تختلف عن طابعها السلبي الذي ما زال يسود الإعلام التربوي حتى يومنا هذا.
- ب - تربية الميديا: معظم الناس يقضون أمام وسائل الإعلام وقتاً طويلاً، في مشاهدة التلفزيون، ويتعاملون مع الإنترنت والإذاعة، إلا أنهم يعانون من أمية إعلامية فاضحة، واستسلموا للإعلام بكل جوارحهم، فعجزوا عن فهم لعبة الإعلام وكيف يتلاعب بالعقول، من أجل فرض الانصياع والانضباط، وواجب التربية الحديثة أن تضع نصب عينها تنمية النزعة النقدية للميديا لدى الشباب، ولم تحظ تربية الإعلام بها تستحقه من النظريات الاجتماعية الحديثة.

٢٤٣ - التربية والإعلام العربي

أ - التقارب بين الإعلام والتعليم: لا بد من التقارب بين الإعلام والتربية لأغراض تنموية، والتي أوصت به منظومة الإعلام العربي، وهذا يتطلب درجة عالية من التنسيق بين المؤسسة التربوية والمؤسسة الإعلامية بصفتها مؤسسة تربوية للتعليم غير رسمية.

ب - تربية الميدياء إن تعلق شبابنا بالميديا يحتم علينا أن نحوamية الإعلام حتى يستطيع الخروج من دائرة الحصار التي يصنعها الإعلام الرسمي. ويتطلب هذا إكسابه المهارات الذهنية التي تمكنه من اختراق كل الحواجز والزوايا المعتمة ومعرفة المسكوت عنه والمسكوت له، وهتك سر القوى الاجتماعية التي تقف وراء ظاهر الرسالة الإعلامية. فبدلاً من أن نطلب من طلبتنا في منازلهم أن يدونوا تعقيبات أسرهم وضيوفهم حول نشرات الأخبار المسائية، حبذا لو طلبنا إليهم أن يدونوا الأخطاء الإملائية والنحوية، وترقيع الخبر، ولكن ما الفائدة من مذياع أمي يعلم طالباً أمي.

- الإعلام والإبداع الأوروبي: قد يؤدي الإعلام إلى مؤازرة الإبداع في الشعر والموسيقى والأدب، للأسباب التالية:

أ - تنوع المادة الإعلامية وثراؤها - قدرة تكنولوجيا المعلومات وما توفره من وسائل متعددة مما يغني الفنون المختلفة - إن الإعلام التفاعلي يحفز موهبة الإبداع - والإنترنت ستشجع أصحاب المواهب للخروج على سطوة دور النشر،

ب - الإعلام متعاون مع الإبداع: قد يقول قائل: إن الإعلام يساعد لإبداع، ويقدم فرصاً جديدة لتنمية الإبداع بجميع فروعه: أدباً وشعراً وأداءً وتشكياً وموسيقى للأسباب التالية: - تنوع المادة الإعلامية وثراؤها ليشير خيال المبدع - ما تقدمه تكنولوجيا الوسائط المتعددة من وسائل مبتكرة لمزج لفنون المختلفة فتفتح آفاقاً جديدة أمام المبدعين - إن استخدام الإعلام التفاعلي يوسع من آفاق المبدع ويشجعه على مواصلة التجريب - والإنترنت ستحرر أصحاب المواهب من سطوة دور النشر والمعارض.

- الإعلام عائق للإبداع، فهو يجيد صناعة المشاهير لا المبدعين، ويحامل الحرية والمهني على حساب الموهوب والمبدع، للعوامل التالية: - فالإنهار الذي يتميز به الإعلام الحديث قد يعطل الفكر والخيال ويشوه الإعلام علاقة المشاهدين بالمكان والزمان - يعتمد الإعلام على التكرار والإعادة في الاستخدام، وهو ما يعيق جذوة التجديد والابتكار، ويطلق في وجدان المشاهد شعلة التجديد، والإنسان كما قيل ما يفعله ويشاهده دوماً، لا ما يشاهده ويفعله لماماً - أضف إلى ذلك طابع التلقي العملي الذي يقتل روح المبادرة - سرعة تدفق الرسائل الإعلامية وهذا لا يعطي مهلة للتأمل والتفكير، فتصبح نبضة أو قفزة صوتية، ويخلق انطباعاً لدى المشاهد بعدم الجدية في التعامل مع محتوى الرسالة الإعلامية.

- الإبداع والإعلام العربي،

أ - الحاجة لإعلام عربي إبداعي، نحن بأمرس الحاجة إلى إعلام إبداعي، يقف على قدم المساواة مع الإعلام الغربي المستورد، ولستنا بحاجة إلى إنتاج إعلامي يعتمد على عنصر الإنهار والتكنيك، بقدر ما يعتمد على الفكرة المبتكرة والفهم العميق لأذواق المتلقين.

ب - مخاطر الإعلام بالنسبة لشبابنا: معظم شبابنا قد ترك القراءة وراء ظهره، وجعل من التليفزيون وسيلته الإعلامية المفضلة، وبالتأكيد إن انخفاض نسبة القراءة يضعف القدرة على التفكير المجرد المتعمق والنقدي، هذا وأن عولمة الإعلام ترسخ في نفوس الشباب عقدة النقص في مواجهة الأجنبي المتفوق إعلامياً ومعلوماتياً، يفضي بالتالي إلى عدم جدوى الإبداع.

- نظام القيم والمعتقدات الأوروبي: هناك علاقة تبادلية بين الإعلام ولدين، تُعتبر نموذجاً للعلاقة بين الثقافة والدين، لأن الإعلام أداة فعالة للدعوة للدين والحفاظ على التراث الديني كنصوص وطقوس وشعائر، فشبكة إعلام الفاتيكان والقنوات والإذاعات والمجلات الدينية المتخصصة، أمثلة عن مؤازرة الإعلام للدين، وأتت الإنترنت بنشاطها وتقاشها لتصبح ساحة ساخنة لحوار الأديان، والدين يمكن أن يستعمل كملاح إعلامي لمساندة السلطة أو

دعم المجهود الحربي، وما هو أكثر إثارة من هذه العلاقات التبادلية المباشرة بين الدين والإعلام، هو تلك العلاقات غير المباشرة، التي تمر عبر الأنفاق السياسية والاقتصادية والأمنية وهذا يدفعنا إلى القول: أن علاقة الدين بالإعلام ودور الإعلام في تشكيل القيم والمعتقدات والعادات وتوجهات ستبقى يعتريها الغموض. وفيما يخص القيم والمعتقدات ما نشاهده من مناظر العنف والجنس عبر الإنترنت تمثل أكثر الجوانب الإعلامية الأخلاقية إثارة للجدل.

- نظام القيم والمعتقدات لدى العربي: يشغل الدين مصاحات واسعة في قنوات الإعلام العربي المختلفة. إلا أن هناك من يقف ضد البرامج وال فقرات الإذاعية والتلفزيونية الدينية، وكذلك في بعض الأبواب الصحفية الثابتة، وفي رأي هؤلاء أن هذا التخصيص والتبويب توجهاً علمانياً في فصل الدين عن الدولة، لهذا فهم يطالبون بإعلام ديني شامل، ويحمل بعضهم الإعلام الإسلامي ثقلًا إضافيًا من أحلام يقظة، مطالبين إياه في وضعه الحالي أن يكون صوت الإسلام صوت الإنسانية جميعاً، عندها يثبت الإسلام شرعيته العالمية. وعلاقة القيم بالإعلام تتنازعها الآراء حيث يقول بعضهم: أن الإعلام قد أضر بقيمتنا بإشاعته للقيم الوافدة، وهو ما أدى إلى إضعاف الانتماء للوطن لدى الشباب، وهناك من يرجع الفضل إلى الإعلام في تحرير القيم لتتجاوز حدود جماعتها، وهو أمر يتفق مع عالمية الإسلام، ويعتقد هؤلاء أن تأثير الإعلام على القيم ضعيف، وبالنسبة للمقائد شبه مستحيل، صحيح أن الإعلام قد أفقدنا بعض الشعائر الدينية، عاد ووضعها في سياق أوسع وأكثر تأثيراً، ويرون أن الإعلام قد خفف من سطوة الكبار على الصغار، ولم يعد هؤلاء الكبار محتكرين للمعرفة، لأنها أصبحت متاحة للجميع عبر وسائل الإعلام.

- التراث والإعلام الأوروبي:

١ - طبيعة العلاقة بين الإعلام والتراث: كغيرها من العلاقات بين الإعلام والثقافة، تتناقض الآراء فيما يخص علاقته بالتراث، فعلى المستوى

الإيجابي يرى بعضهم: أن للإعلام فضل كبير على تراث الماضي، فهو يسجل حاضرتنا لحظة بلحظة، ويحافظ على التراث الذي كان عرضةً للاندثار في ظل الشفاهة، إضافة إلى ذلك يمكن لتكنولوجيا الاتصال الحديث، أن تطرح التراث في سياق تاريخي وحضاري أشمل، مما يعمق إدراكنا لقيمته ومعناه. أما على الجانب السلبي فيرى أصحابه: أن الإعلام معاد للتراث، لأن انشغاله بالواقع المعيش يدمر روابط الماضي، وذاكرة الإعلام ذاكرة قصيرة لا تريد عن (١٠) سنة وما قبل سنة (١٩٠٠) ثقباً أسود، ولهذا نرى الإعلام يركز على الزمن القريب، حيث تتوافر له أرشفياته ومواده، ولا يمل تكرارها، فهي كالنار لتغذى على نفسها، وقصور الرؤية هذه تشوه علاقة المشاهد بالماضي، وبهذا سد الإعلام بذاكرته المحدودة والقصيرة المدى الطريق على متلقيه ليعيقه من رؤية التاريخ الطويل والصحيح الممتد عبر القرون، والإعلام هو ما شاهدناه من الحربين العالميتين الأولى والثانية، ونادراً ما يتناول الإعلام الحديث إلى ما قبلهما، ناهيك عن العصور الوسطى إن ذاكرة الإعلام القصيرة تتعارض مع كون الإنسان يتعلم من تاريخه العميق أكثر مما يتعلمه من تاريخه القريب اللصيق بذاكرته، ويمكننا القول أن الإعلام فيما يخص الوعي التاريخي، يحجب عن ما نحن بحاجة إليه بينما يسرف في عرض ما نحن بحاجة أقل إليه، وحكمة التاريخ لا تسفر عن نفسها إلا عبر اقتفاء مسار رحلتها عبر الزمن، واللقطات السريعة تفرغ التاريخ من حكمته.

ب - تراث الإعلام: إن ثقافة الميديا هي التاريخ الخائلي الذي نجعله يوماً من نبع لا ينضب: صور - أصوات. وتراثه الخاص المتمثل في هذا الكم الهائل من التسجيلات وأشرطة التسجيل وأفلام السينما، وأرشيف الصحافة الورقي من الصور والمطبوعات، وهذا التراث الإعلامي يمثل ذخيرة معلوماتية بالغة لأهمية في صناعة التاريخ والثقافة، وهذا يفسره الاهتمام بالأرشفة الإلكترونية لهذا التراث الإعلامي الضخم وضرورة رقمته، وحتى التكنولوجيا ذات سعة التخزين الهائلة والوسيلة العملية لأرشفة التراث الإعلامي الورقي والسمعي والمرئي، إضافة إلى توفير وسائل آلية لتبويب الأرشفة، وسرعة استرجاعها وتعدد أساليب عرضها وتوزيعها.

- بين تراثنا وإعلامنا العربي.

أ - إن موقفنا من تراثنا هو انعكاس للماضي، إن علاقة هذا الماضي بحاضرنا ومدى تأثيره في مستقبلنا يمكننا القول: إن إعلامنا يتخذ من تراثنا موقف الزائر والعارض، فكاميراته تتجول في صحون الجوامع وردهات المعابد والمواقع الأثرية، وينقل الأغاني الشعبية وشعرنا القوليكلوري دون عمق أو عرض لماثر هذا التراث في سياقه الشامل، الذي يساعد المتلقي على تذوقه واستيعابه. لم يعد كافياً ذلك العرض الصلي والزيارات السريعة لتراثنا، ولا بد لنا من نظرة نافذة وسابرة لهذا التراث، تصل إلى محتوى هذا التراث ومضمونه، لنصل إلى الحكمة من نقوشه ونصوصه وأصواته وأنغامه، وعينا أن نعيد اكتشاف تراثنا العربي الإسلامي، ثم نجوب بصاتين التراث الفارسي والفرعوني والبربري والطوراني، نصنع من زهورها باقات إبداعية نمزجها مع تكنولوجيا الوسائط المتعددة، بعد عجزنا عن تفجير الشحنة الإبداعية في تراثنا العربي والإسلامي، لأننا حرمانه من حقه في الحوار مع تراث الآخرين.

ب - أرشيفنا الإعلامي: إننا أهملنا أرشيفنا الإعلامي، ويكفي دليلاً على ذلك أن القائمين على (فيلم ناصر ٥٦)، اضطروا إلى استمارة المادة الوثائقية الخاصة به من أحد مراكز حفظ الوثائق في لندن، بعد أن اكتشفوا أن الأرشيف الإعلامي الضخم لعبد الناصر قد دمر، وأنشأ العرب مركزاً للتوثيق الإعلامي في بغداد (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٧) لكنه توقف أثناء الاحتلال الأمريكي للعراق، والمشروع المقترح من قبل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لم يرَ النور بعد.

- منظومة الإعلام: - وإطارها العام: إن الإطار العام لمنظومة الإعلام من منظور معلوماتي يتضمن التالي: - العناصر الداخلية لمنظومة الإعلام وتشمل: محتوى الرسالة الإعلامية - الوسيط الإعلامي - متلقي الرسالة الإعلامية.

العلاقات الخارجية التي تربط منظومة الإعلام بالمتنظومات المجتمعية.

عناصر البنى التحتية لمنظومة الإعلام وتشمل: سياسة الإعلام والاتصال - الموارد البشرية من مذيعين ومخرجين ومعدّي برامج، وموارد المعلومات الإعلامية ومن أهمها الأرشيف الإعلامي.

- علاقات منظومة الإعلام الأوروبية بخارجها:

أ - علاقة منظومة الإعلام بمنظومة السياسة: إن الإعلام يشكل أقوال السياسة وأفكارهم، وكادوا أن يصبحوا نجومًا إعلاميين، وكاد الصحفيون أن يصبحوا نقادًا دراميين، والمواطن لا يدري من أمور السياسة إلا ما يأتيه من الإعلام، وكان للصحافة دوراً كبيراً في تأسيس الدولة الحديثة، ونُظِّمَت علاقة الحكم بالمؤسسات الأخرى، وأن بناء الدولة يتم عندما يتحول المواطنون إلى مشاهدين، ولما كان للإعلام هذه الأهمية عمدت الدولة إلى رقابته واستغلاله من جانب آخر، وما أن دخلت أوروبا الطباعة حتى سنت القوانين حتى لا يفلت زمامها فتثير سخط الجماهير وتحرضهم على المصيان، وبرع رجال السياسة في استغلال وسائل الإعلام. وكان (روزفلت) يخاطب أبناء وطنه من خلال الراديو كاب يخاطب أفراد أسرته، كما برع التلفزيون في تقديم جون كيني في صورة باهرة ليضعه على كرسي الرئاسة، كما كانت فكرة قبول الفاشستية التي شهدتها أوروبا كانت وليدة صناعة الجملة والإعلام الجماهيري.

ب - علاقة الإعلام بمنظومة الاقتصاد: كل شيء يرتكز على عولمة الإعلام والاتصال ولذلك فإن علاقة الإعلام بالاقتصاد تتوالى في النمو، مستندة على شبكة الإنترنت، وبقاء هذه الشبكة يعتمد في الدرجة الأولى على دعم القوى الاقتصادية، وقد تخلت الولايات المتحدة الأمريكية عن دعم الشبكة تاركة تمويلها لأهل التجارة الإلكترونية وإعلاناتهم، وهكذا سارت شبكة الإنترنت على الدرب الذي سارت عليه وسائل الإعلام التي سبقتها من: صحافة وتلفزيون وإذاعة، وصناعة السينما مرتبطة بالنشاط التجاري بشدة.

ج - علاقة الإعلام بمنظومات الإعلام الأخرى والمنظمات الثقافية الدولية؛ تخطت العلاقة بين منظومة الإعلام ومنظومات الإعلام الأخرى تخوم تبادل المعلومات، إلى ما هو أبعد بسبب عولمة الإعلام، فازدادت شدة المنافسة بين مؤسسات الإعلام الرسمية وغير الرسمية المحلية ومؤسسات وسائل الإعلام المتعدية الجنسية وتفاصيل أدائها، ولم تعد تصدر برامجها بل تنظيماً لها وفلسفتها (محمود حماد ١٩٩٦). فتزداد علاقة منظومة وسائل الإعلام بالمنظمات الدولية وبخاصة منظمة اليونسكو فيما يخص منظومة الإعلام العالمي ككل، ومنظمة التجارة العالمية فيما يخص التجارة الإلكترونية، وأمور الملكية الفكرية لمحتوى الرسالة الإعلامية.

د - علاقة منظومة الإعلام بالفئات الاجتماعية؛

تغيرت علاقة منظومة الإعلام بالفئات الاجتماعية جذرياً وعلى كل المستويات، بسبب اختلاف دوافع كل منها؛ - المثقفون؛ يتزايد الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام في النظرية الثقافية، وقد سبق ذكره في منظومة (الفكر الثقافي). - التربويون؛ تزايد دور الإعلام كمؤسسة تربوية، للتعليم غير الرسمي. - الدعاة الدينيون؛ كان لانعكاسات عصر المعلومات أثر كبير على منظومة القيم ودور الإعلام في أمور الدعوة الدينية. - عامة الناس؛ التأكيد على أهمية التوعية العلمية التكنولوجية في عصر المعلومات، وزيادة المناعة ضد جرائم الفتنة بشتى أنواعها والتي يروج لها الإعلام الحديث.

هـ - أثر الإنترنت على الوسيط الإعلامي الغربي؛

أ - توزيع الأدوار؛ عندما يظهر وسيط إعلامي جديد، تتطلق المقولات بأن هذا سيحلهم ذاك وسوف يزول، وقيل عن الراديو سيقضي على الصحافة، والتلفزيون سيقضي على الراديو والسينما، وستحيل الإنترنت غيرها من وسائط الإعلام إلى متحف التاريخ، وبالحقيقة إن التلفزيون أدى إلى تراجع الراديو، وسلبت الإنترنت قطاعاً كبيراً من جماهير التلفزيون خاصة الشباب منهم، إن التلفزيون قد جعل الصحافة تعتمد على الصور

وجعل الصحافة أكثر اهتماما بجماليات الإخراج والتنسيق تشبها بالتلفزيون، وأدى الكمبيوتر والإنترنت إلى دفع التلفزيون نحو التفاعلية، وزاد من تفاعله مع الناس عبر الهاتف والفاكس والبريد الإلكتروني، وهكذا لن تؤدي زيادة الوسائط الإعلامية إلى انقراض أي منها، بل أعادت توزيع الأدوار بينها من جديد ويبقى البقاء للأصلح.

ب - فيديو تحت الطلب: هناك تطورات تكنولوجية كثيرة حصلت على التلفزيون، ومنها التحول إلى التلفزيون الرقمي، وهي نقلة نوعية تؤدي إلى صورة أكثر وضوحاً، وإلى التوسع في المهام التي يقوم بها، منها الشاشات المسطحة العريضة ذات السمك الرفيع، وهناك محاولات لجعل التلفزيون ثلاثي الأبعاد، ولكن أهم تطور هو الذي يمس جوهر العلاقة بين المرسل والمستقبل، والمقصود كسر الرابط الزمني العضوي بين وقت البث التلفزيوني (وقت المرسل)، ووقت المشاهدة (وقت المستقبل)، وظل المشاهد وقتاً طويلاً تحت رحمة المرسل ولا يجدي هنا تكرار البث على فترات متقطعة، حيث يظل الخيار محدوداً، يقوم فيديو تحت الطلب على أساس حل المسألة بين وقت المرسل ووقت المستقبل، ويمكن هذا النظام المشاهد من انتقاء مادته وتوقيت مشاهدتها، وله أن يختار من بين القنوات القناة التي يختارها، وهناك مرحلة وسطى بين إرسال التلفزيوني التقليدي ونظام الفيديو تحت الطلب، وهو ما يعرف بنظام (الشبيه بتحت الطلب) حيث يتكرر بث البرامج كل ربع ساعة، ليعطي للمشاهد فرصة المشاهدة.

ج - الإذاعة المحلية: وقد استفاد الراديو كثيراً من الرقمنة، من أجل صوت أكثر وضوحاً، وأكثر مرونة، وأدى هذا إلى تغييرات في شكل الراديو، وبينما يتجه التلفاز نحو العولمة يتجه الراديو نحو المحلية، لخدمة الجاليات والجماعات والأقليات والمدارس والمطارات والتجمعات السياحية.

د - صحافة متخصصة قليلة التوزيع: وهنا تراجع توزيع الصحف وقل عدد القراء، وتواجه الصحافة أقدم وميكل إعلامي أمام تحدي الإنترنت، ولن

ينقذها من الموت إلا أن يصبح لكل صحيفة موقع على الإنترنت، تنقل وسيطها الإلكتروني مادته المطبوعة مع بعض إضافات شكلية. فيما يخص البحث وإعادة ترتيب المواد المنشورة، وهذه اندثرت عندما خرجت الصحيفة الإلكترونية بطابعها الخاص القائم على الوسائط المتعددة. ورسمت الحدود الفاصلة بينها وبين الصحافة الورقية. وقد تجد نفسها كالإذاعة أكثر تخصصاً أو تنظر إلى نفسها كصناعة محتوى أكثر منها موزعة إصدارات يومية أو دورية، وبراء المحتوى هو العامل الحاسم في بقائها.

- أثر الإنترنت على الوسيط الإعلامي العربي،

أ - الاقتراب بين الكمبيوتر والتلفزيون: هناك معركة دائمة بين التلفزيون والكمبيوتر ولا مهرب من دخولنا فيها، رضينا أم أبينا، وهذا يستوجب رصد الجوانب الفنية والاقتصادية والاجتماعية تحضيراً لدخول استراتيجية عربية في هذا التوجه المصري. وقد نجد أنفسنا منحازين إلى التلفزيون، والفيصل في ذلك الهدف التربوي، ولا شك أن تخلص التلفزيون من سمة التلقي السلبي له مزايا تربوية كثيرة، ودمج التلفزيون مع الكمبيوتر سيعمل على تضيق الفجوة بين التعليم في المدرسة والتعليم المنزلي، كما أن إتاحة الإنترنت من خلال التلفزيون ميسمخ الطبقات غير القادرة فرصة النفاذ إليها.

ب - الفيديو تحت الطلب: إن هذا النمط الإعلامي الحديث يؤكد أن اقتصاد الحجم وكثافة رأس المال يعملان معاً ضد الدول النامية، ومن أين لها في ظل إنتاجها الإعلامي الأخذ في الضمور، أن يلبي هذا العدد الهائل من القنوات التلفزيونية؟ ومن أين لنا الموارد المادية اللازمة لبناء البنى التحتية لنظام الفيديو تحت الطلب الذي يحتاج إلى شبكات اتصال ذات سعة هائلة مالية الكلفة؟ وليس المطلوب منا أن نقف مكتوفي الأيدي أمام هذا التحدي ولكن على مؤسسات الإعلام العربية أن تتعاون وتتكتل وتشارك في مواردها وتبدي مزيداً من الاهتمام بالإنترنت الإعلامي، وبناء على التوجه التربوي

كمورد إعلامي علينا استخدام نظام الفيديو تحت الطلب كمورد ثري للمواد التعليمية وهذا يحتاج إلى تنشيط حركة الترجمة.

ج . دور الإذاعة المحلية: إن الإذاعة الإعلامية تبقى أرخص الوسائل الإعلامية وأكثر قدرة على الوصول إلى المناطق النائية، والراديو أكثر ارتباطاً بالبيئة المحلية، لاعتماده على اللغة دون الصورة، ويمكن الاستفادة منها في محو الأمية وتنظيم الأسرة، وبديل للدروس الخصوصية، ونظم هذه الإذاعات يمكن تحويلها إلى نظم اتصال للقري والتجوع. وقد أشار (علي محمد شمو ١٩٩٨) إلى مشروع لشبكة الأقمار الاصطناعية خاصة بالراديو الرقمي، توجّه إلى البلدان المربية لخدمة التعليم وجميع أنواع الإرشاد الزراعي منه والصحي، وما نخشاه هنا هو أن يتضمن هيمنة مركزية على محتوى الرسالة الإعلامية إضافة إلى كونه لا يتسق مع توجه الإذاعة المحلية.

د - صحافة أقل توزيعاً وأكثر تخصصاً: تؤدي ضآلة حجم القراء إلى ارتفاع ثمن الصحيفة أو الجريدة، وبالتالي إلى صعوبة توزيعها، والإنترنت ستوفر مصادر بديلة للحصول على المعلومات، وتؤدي إلى طرد الصحافة من السوق، وبالتالي يخفف من ولاء الصحافة للسلطة، والصحافة الدينية تفتقر إلى الرؤية الشاملة لمفهوم الصحافة الإسلامية وغياب التأصيل العلمي.

- أشر الإنترنت على محتوى الرسالة الإعلامية الغربية:

أ - أن نعيد النظر في فورية الإعلام: يزعم الإعلام أنه يتابع الأحداث على مدار اللحظة العابرة، وطغت عليه الفورية حتى أصبحت وكأنها من الضروريات الأساسية، لعملية الاتصال، وهي غير ضرورية ولا تخلو من سوء استخدام للموارد، بل يكذب ويغش ويخادع ويحرض على الفتن، وينشر السموم القاتلة، كما فعل في الهجوم الفاشل على وطننا الحبيب سوريا، واستطاع الإعلام السوري كشف زيفه وتضليله كمرسل ومستقبل، ولا بد من إعادة النظر في الفورية كما أثبتت الإنترنت، ولا يرجع هذا إلى ثبوت المادة المطبوعة وغير المتطايّرة، وثبت أن الأحداث الجليّة والظواهر العميقة، تحدث عادةً بطريقة

بطيئة لأن تغير النظام البيئي والمجتمعي وتطوير المدارس الفكرية كلها تحدث بطريقة تدرجية، وعلى الإعلام التقليدي ألا يعمى على استخدامه الضرورية أو بافتعالها، ولا ينعاز على المؤقت على حساب الدائم، ولا يشغلنا بنقل الكوارث دون التمعن فيما وراءها، من أسباب وما ينجم عنها من نتائج.

ب - بين الأنماط الثابتة والعرض المتنوع: عادة ما توضع البرامج التقليدية للإعلام التقليدي في قوالب ثابتة، من نشرات أخبار وتعليقات ولقاءات وتمثيلات ومسلسلات، ولكل من هذه الأجناس كوده الإعلامي المميز، وشكله الخاص به، وأساليب نمطية ثابتة لا تتغير إلا على فترات متباعدة، ومثالثنا على ذلك: إن معظم التمثيلات كوميديية الموقف تدور على وقوع الأزمة ثم انفراجها، وفي معظم الأحيان ينطوي الحل على رسالة أخلاقية أو تعزيز لمبادئ اجتماعية سائدة. ومع هذا التنوع الضخم والثرى الهائل في عصر المعلومات، وفيما توفره الإنترنت من معارف وطرق مختلفة لتعامل مع المعلومات والارتحال في فضائها، ومن المحتمل أن يصير الإعلام التقليدي في تغير قوالبه السائدة. ومن الممكن أن تظهر أنماطاً محتملة من الأجناس الإعلامية الجديدة، لم نسمع عنها من قبل مثلاً: الجمع بين لقاءات تلفزيونية وحلقات نقاش على الإنترنت.

ج - الإعلام يستضيف رسالة الإعلان: ضاقت الهوة بين الإعلام والإعلان، وتدل التجارة الإلكترونية على محتوى الرسالة الإعلامية، ورسالة الإعلام استضافت رسالة الإعلان في الماضي، ربما ينقلب الوضع ويصبح الإعلام ضيفاً على الإعلان، فمن أجل اقتناص انتباه الجماهير ربما يتضمن الإعلان بعض المواد الإعلامية من تلك التي تشد المشاهدین ليجعل إعلانه أكثر إثارة. (فرانك كوبلش ٢٠٠٠)

د - المزيد من الثقافة العلمية والتكنولوجية: من المتوقع أن تزداد المساحة الإعلامية المخصصة للثقافة العلمية والتكنولوجية، وأن تتطرق رسالتها الإعلامية إلى الجوانب المرتبطة بالعلم والتكنولوجيا.

- أثر الإنترنت على محتوى الرسالة الإعلامية العربية:

أ - إغناء مصادر الرسالة الإعلامية: يجب أن تبادر مؤسسات الإعلام العربية على استغلال موارد الإنترنت، لإغناء مضمون رسالتها الإعلامية، وإن كانت مؤسسات الإعلام الجماهيرية تقوم بنقل مادتها الإعلامية إلى مواقعها على الإنترنت، وعلينا نحن أن نقوم بالعكس، أي بنقل موارد الإنترنت إلى منافذ إعلامنا الجماهيري، باعتبار هذه المنافذ أكثر شيوعاً، وستبقى الإنترنت غير متاحة للجماهير العربية، ولا يعني هذا نقل المعلومات من الإنترنت مباشرة إلى قنواتها التليفزيونية والإذاعية بطريقة مباشرة (كما نشاهدها حالياً في برامج من أقوال الصحف والتلفزيون) بل يجب ترشيحها وتعزيزها بموارد معلوماتية، ونربطها بالأحداث الجارية والمشكلات المحلية، وبالتأكيد سيتيح هذا فرصة حقيقية لإنتاج رسالة إعلامية إبداعية ومبتكرة، فوسائل إعلامنا الجماهيرية يمكن أن تكون واسطة بين جماهيرنا لبحر معلومات الإنترنت ووسيلة فعالة لمحو الأمية.

ج - حاجتنا إلى ثقافة علمية تكنولوجية مغايرة: ساد على شاشاتنا وبرامجنا الثقافية العلمية التكنولوجية نمط استعراض آخر الاكتشافات والإنجازات دون إبراز النواحي التطبيقية لتوظيف هذه الاكتشافات وتلك الإنجازات، وإثارة الانبهار بالعلم واختراعاته لدى المشاهد العربي سلاح ذو حدين، فهو يعمق لديه نزعة احترام العلم وتبجيل الفكر، ومن جهة ثانية يولد لديه شعور بالنقص، وانقطاع صلتنا بواقعنا. فنحن بحاجة إلى برامج ثقافية علمية تخاطب مجتمعاتنا، وفي الوقت نفسه نخاطب فيه مستويات العقول المختلفة، وعلى معدي البرامج إدراك الفرق الكبير بين التبسيط العلمي والتشريف العلمي، لأن التبسيط هو عنصر واحد في عملية التشريف، والتي تشمل التالي: - ربط العلم بحياة المجتمع والفرد - إبراز كيفية مساهمة العلم في حل المشكلات القائمة - إلقاء الضوء على تجارب العلماء والخبراء العرب في المجالات العلمية والتكنولوجية - التصدي إلى مظاهر اللا علمية وأدعياء العلم وأشباه العلميين - إبراز الجوانب السلبية في المجتمع وحياة الأفراد

نتيجة عدم استعمال طرق العلم ومناهجه. - طرح الآثار الاجتماعية للعلم والتكنولوجيا مثلاً: المتعلقة بعلاقة السلطة الحاكمة بالمواطنين، وقضايا الديمقراطية والبيروقراطية وصراع الأجيال والعمالة الإنتاجية.

- أثر الإنترنت على المتلقي القوي:

أ - إلى مزيد من المشاركة: إن الإذاعة جعلت من المواطن طفلاً صغيراً يوجهه الحاكم، وجعل منه التلفزيون معجياً مفتوناً بنجوميته. أما الإنترنت وتجارتها الإلكترونية جعلت منه مستهلكاً، والإعلام على وشك أن يكون خدمة مدفوعة الثمن، ولا بد أن يحظى هذا المتلقي المستهلك بقدر من التفاعل كي يتمكن من اتخاذ قراره لشراء السلع والخدمات، والمشاهد يمضي وقتاً أطول أمام التلفزيون مما يقضيه الطالب في المدرسة، فأصبح لزاماً علينا دراسة المتلقي بين جهاز إرساله وتأثيره في سلوكه وقدراته الذهنية ونظراته إلى ذاته والآخرين، ودراسة الكيفية التي تستوعب بها طبقات المجتمع المختلفة الرسالة الإعلامية نفسها، وكانت مدرسة (برمنجهام) سبقت أخواتها في دراسة أثر الميديا في الجماهير في إطار اهتمامها بدراسة الثقافة في السياق الاجتماعي، وإن وسائل الإعلام الجماهيري على اختلاف أنواعها تحب الإنسان المتوسط، مثلها في ذلك مثل نظم تربية الكتل الغفيرة، التي تفترض طالباً متوسطاً وأن الأوان أن تعطى وسائل الإعلام مزيداً من الاهتمام لتلقيها في ظل خيارات أوسع ومعرفة أعمق بميوله وأذواقه، وربما يصل الأمر إلى المشاركة في السياسة الإعلامية وتخطيط البرامج، وتفاعل أكثر.

ب - المزيد من الدعم: أمام إحصاء المعلومات الهادر ووابل الرسائل الإعلامية المتدفق، أصبح واجب المؤسسات الإعلامية تقديم دعم أكبر لتلقيها: قارئاً أو مستمعاً أو مشاهداً، وعلى سبيل المثال توفر المجلات الثقافية فهارس موضوعية دورية لما قامت بنشره، وأن تلخص المقالات في كبسولات، وفيما يخص الإرسال الإذاعي التلفزيوني، سيزداد الاهتمام بخدمات ما بعد البث، كتوفير نسخ من المواد المقدمة للمشاهد من أجل إضافتها إلى الأرشيف الخاص، وإبلاغه بمواقع الإنترنت، ذات الصلة بمجال اهتمامه.

ج - إلى مزيد من الحماية: فشلت المحاولات السابقة لممارسة حق المستقبل في رفض ما يلقيه عليه المرسل، فاعتبرها الأمريكيون انتهاكا صارخا لحقوقهم الدستورية فيما يخص حرية التعبير. لكن الأمريكيين أنفسهم هم الذين أبدوا انزعاجاً شديداً لتعرض أطفالهم لمظاهر العنف الترفيهي، في برامج التلفزيون وأفلام السينما ومواقع الإنترنت المنتشرة، التي تعرض مناظر الجنس الفاضح. وكان لابد من البحث عن وسائل تكنولوجية عملية لحماية الصغار باحتجاز الرسائل الإعلامية غير المرغوب فيها، مع عدم الوقوع في فخ الرقابة على المعلومات، وكان الحل الوسط فيما يعرف بشريحة العنف الترفيهي، التي اخترعها الكنديون وأقرها الكونجرس الأمريكي وبعده البرلمان الأوروبي، بوضع هذه الشريحة الإلكترونية داخل التلفزيون أو في صندوق إلكتروني متصل به، وتقرأ هذه الشريحة كود التحذير الذي يحدد درجة العنف ومدى الإباحية، والذي ألزم القانون ضرورة وضعه على كل الأفلام والمواد التليفزيونية والمعلومات التي يتم تبادلها عبر الإنترنت.

• أثر الإنترنت على المتلقي العربي

أ - إلى مزيد من المشاركة: لم تعترف البلدان العربية بحق الاتصال بشكل كامل، كنتيجة طبيعية لنمط الإعلام السائد، وضعف حب المشاركة، وسوف نحتاج إلى وقت طويل لإعادة برمجة المتلقي العربي، لتخليصه من عادات المتلقي السلبي المزمنة، وهذه مهمة صعبة يجب أن يشارك فيها علماء النفس وأهل الإعلام وأهل التربية والدعاة الدينين، وإن انحسار سلطة الدولة نتيجة العولمة ياضي مزيداً من المسؤوليات على الفرد، ومن جهة ثانية، علينا أن نهتم باستطلاعات الرأي لدى الجمهور وبالدراسات النفسية والاجتماعية حول الكيفية التي يفهم فيها المتلقي العربي رسالته الإعلامية.

ب - مزيد من الحماية: كي نحمي المتلقي العربي بحاجة إلى تنسيق بين السلطة التشريعية والمؤسسات الإعلامية، والمنظمات غير الحكومية والجمهور حتى لا ينتهي الأمر إلى فرض مزيد من الرقابة. ولا يمكن اتقاء ضرور التكنولوجيا إلا من خلال استخدام الوسائل التكنولوجية، وتوعية شبابنا

لمواجهة مخاطر عولمة الإعلام، وميثاق حقوق الطفل العربي لا بد أن يشمل بنوداً خاصة لحمايته ضد العنف الترفيهي، وبإمكاننا الاستفادة من موارد غرفة المقاصة التي تقيمها منظمة اليونسكو لتبادل المعلومات المتعلقة بهذه الظاهرة الإعلامية.

- كيف نمحو أمية الإعلام؟

أ - خطورته: الإعلام ذو حدين يمكن أن ينفع أو يضر، شأنه شأن غيره من الوسائل المعلوماتية المتعددة، ينفع عندما ينمي الوعي وينشر المعرفة، ويهذب السلوك، يضر عندما يثير الفتن والاضغاثن ويضيف الحقائق ويسخر من المعتقدات ويعيث بالقيم، وعليه أن يتميز بالخصائص التالية: - الإعلام كيان قائم في ذاته محكم التنظيم، فهو مؤسسة اقتصادية إلا فيما ندر. - الإعلام يخضع لفتنة لأسس صارمة، ومهما قيل عنه أنه محايد لا يمكن أن يتحقق ذلك، لأنه يقوم بحركات الثقافية حول مبدأ الحيادية. - الإعلام غارق في التأسيس للقيم والرؤى وتشكيل وجهات النظر - الإعلام قابل للاحتكار حيث كان هناك (٥٠) مؤسسة إعلامية أمريكية أصبح عددها ٦ شركات كبرى لا يهمها إلا الربح ومصلحة تجارها ومن يقف وراءهم من السياسيين.

- وأصبح للسينما دور مهم في توزيع الأفلام، وبالتالي دورها خطير في التأثير بأفكار الناس، ويرى بعضهم أن السينما الوثائقية يفوق تأثيرها التلفزيون، كون السينما أكثر تحراً في عرض قضاياها، فهي لا تكتفي بعرض الأحداث ولا تلتزم بتعاقب وقوعها، بل تعيد ترتيبها وتنظيمها وتطعيمها بوجهات النظر الصريحة والضمنية لخلق كيان درامي فاقد.

- تعمل وسائل الإعلام (والإخبارية بوجه خاص) ضمن توجه غايته أن الرسالة الإعلامية تحقق هدفها المنشود كلما خفت ورهفت، وتكرر تقديمها بأساليب متنوعة من زوايا مختلفة، لتصبح أكثر فاعلية ونفاذاً وتأثيراً، وأن صانعي الإعلام يقترفون كل المغالطات المنطقية التي وردت سابقاً لكنها بارعة في تغطية عوراتها، وهذا يتطلب من المتلقي أن يكون أكثر يقظة وحذراً وأن

يتعلم كيفية كشفها . - ويعج الإعلام بمظاهر إساءة استخدام اللغة تلطيفاً وتغليظاً وإيحاءً وتمويهاً، ويتضمن دستور الأداء قواعد صارمة ملزمة في: انتقاء الكلمات وكيفية صياغة الرسالة الإعلامية من حيث: التقديم والتأخير والتعليق والتجنيب، ويروى عن بعضهم أنه قال: (لا شيء أفسد اللغة قدر ما أفسدتها السياسة) إنها أبواق الدعاية والمتحالفين معها من الإعلاميين وقد قال: (روبرت فيسك) قام الإعلام بصياغة حقائق العالم في قائمة من الأكليشيهات، تُعرف لنا حياتنا وتبدد فكرنا وخيالنا، وتجعلنا نُظهرُ الولاء لأهل السلطة، واستطرد قائلاً: نحن لم نعد نستخدم الكلمات، بل نوظفها، نتحدث عن تأثيرها لا عن معناها .

- هناك تبادل للمصالح بين الإعلان والإعلام، فالإعلان يساند الإعلام مقابل أن يقدم له الإعلام جماهيره. وعادةً ما تكون الرسالة الإعلانية صريحة ومبالغاً فيها، لكنها تظل مقبولة وجذابة، وعادةً ما يكون هذا لكونها مسلية.

ونحن العرب لا ننكر ما للإعلام من تأثير في سلوكنا وعلاقاتنا، وللإعلام دور في التنمية الاجتماعية بقدر يفوق ما للكمبيوتر والإنترنت، وهذا يفرض علينا القضاء على الأمية الإعلامية، وهذا ضرب من الخيانة إن لم نقوم به، وأصبحنا في قبضة الإعلام الرسمي والخاص والإعلام الأجنبي الناطق بالعربية، وبالتأكيد لهذه الوسائل دوافع مشبوهة غير فزئية بتوجهاتها الإعلامية، وكشفها لن يكون إلا بإعلام شعبي نابع من صميم القاعدة، يمس آراء الجماهير بصدق وبصورة مباشرة (معاناتها وآمالها).

وللسينما دورها في استجداء الضحك، بالإضافة إلى نجاحها في عرض بعض المشكلات الاجتماعية العربية، ويحتاج الوطن العربي إلى سينما وثائقية في المجالين السياسي والثقافي، وربما تكفي بتعريب الأفلام الوثائقية العلمية، لأنها عالية الكلفة وتحتاج إلى وقت طويل وكوادر متخصصة، أو نأخذ بالنموذج الصيني لإنتاج الثقافة العلمية بأسعار زهيدة.

ما هو موقفنا من أساليب الإعلام: إن وسائل الإعلام العربية استغلت المتلقي العربي استغلالاً سلبياً، والجماهير العربية تحب دائماً أن تخذع وهذا يجعل الأفكار المتطرفة في بساطتها مقبولة، بسبب الجهل والكسل العقلي وعدم المبالاة،

يستخدم إعلامنا لغةً انفعاليةً إيجابيةً، فهو يدفع بالقيم والمعتقدات بدلاً من بسط المفاهيم والأفكار، وتوديد شعارات من قبيل الحرية والشفافية والعدالة الاجتماعية وهذه مقبولة لكونها أكثر تأثيراً من الضمانات الدستورية وحقوق المواطنين - والإعلام الغربي المصوب إلى العربي يهرع في الإساءة إلى اللغة واستخدامها، وهو يلجأ إلى التلطيف اللغوي في الدفاع عن مواقفه وتعمير ممارساته، وإلى التقليل اللغوي للتحويل في ردود الفعل العربية تجاهها، وأورد روبرت فيسك عينة مثيرة من المصطلحات والأكليشيات، التي دأب الإعلام الغربي في استخدامها للتغطية على الجرائم التي يقرها، الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين المحتلة مثل: المناطق المتنازع عليها بدلاً من الأراضي المحتلة، وإغلاق المنافذ بدلاً من الحصار، والمجاورات بدلاً من المستوطنات، والمتعاونين من الفلسطينيين بدلاً من العملاء، والقتل الخطأ بسبب الوجود في منطقة الاشتباكات بدلاً من القتل المتعمد للأبرياء، وإطلاق النار العشوائي على الضحايا العزل هو مجرد حالة فردية من جندي مجنون خنته أعصابه، أراد أن ينفس عن شحنة غضبه من جراء ما تفعله المقاومة في فلسطين، والجدار العازل بدلاً من جدار الفصل العنصري، وتمثيل الدول العربية المحيطة بإسرائيل بدول الطوق قبل مؤتمر مدريد، وهي الحمامة الوديمة وسط الصقور العربية.

- هل نحن مجتمع من الدمى؟ أن تكون دمي متحركة من دون أحلام نَحْمِلُهَا ولا شيء نأسف عليه، وأنا لازلنا عصاهير في البيضة، والعالم لدينا أصبح مُنْقَرًا، وهل العقلانية تُقَلِّصُ من التنوع وتُحْدُ من القدرة الشخصية؟ وهل التلفاز يقنعنا بذلك عندما يحمل إلينا المشاكل البعيدة ويضعها أمامنا

في غرفة الجلوس، فماذا تفعل هل تقارن هذه الصور بالواقع، أم تقابل صورة بصورة لإقناع الناس بعدالة قضايها، وكأن التلفاز يقدم ارتباطاً بين العناية والمسؤولية وهو يواجه القوة التقليدية. وفي كثير من القضايا لم تكن هناك توازنات بين التدفق الإعلامي والسيطرة الإقليمية، وخاصة في الأمور الدقيقة، ووسائل الإعلام هذه جزء من تطور القوة النامية، ولكنها لن تتسبب المنافسة بين تلك المؤسسات، وضمن هذا التناقض خاف الناس على حدودهم الجغرافية والسياسية والأخلاقية من طريق الدول والأفراد، وكما دافع الآباء عن الحدود بالأمس يدافع اليوم الأبناء عنها بنفس القوة والشجاعة، هذه ثقافة التلفاز وفضائه.

- العرب بين الاستلاب والتلاعب والتشظي: إن فكرة تدفق الأخبار جعلنا تشير إلى الأخبار المثيرة، ولكن ما هو حجم التدفق ولا نستطيع أن نعرف ما الذي تدور حوله الأخبار؟ ولدينا (٢٧٠) محطة تلفزيونية ولا شيء فيها، مسخرة لصالح الغرب الأمريكي، فهل تحسنت أحوالنا؟ وما أثره على الناس؟ قد يقول قائل إن مداركنا تتوسع، ويقول آخرون إنهم يمطروننا بوابل من الصور، وقد يكون أثره عدم إشعار الناس بالعالم، ويقول أحد الفلاسفة مثل (جون بودريار) مهم أن يبرهنوا أن هذه الأحداث تغير علاقتنا بالعالم، وأن تكف عن مقارنة هذه الصور بالواقع وأن تقارن الصور بالصور، نحكم على الأشياء كما يمثلونها لنا، وإذا ما حصل ذلك فإن كل ارتباط بالأحداث الحقيقية سيضيع ونسكن عالم الزيف، كما فعل الإعلام الغربي والإعلام العربي في الأحداث الأخيرة في سوريا، وقد بدا متطرفاً وغير لطيف، إلا أنه في حرب الخليج ضد العراق، كانت تغطية أخبار التلفاز تشبه فيلماً، بينما وصف آلهة الحرب مهمتهم بأنها تشبه لعبة الرواق المقتنطر في الفيديو، ووجود مجتمع من الصور لها معانٍ ضمنية تتجاوز التلفاز في التصميم الحضاري والثقافة الاستهلاكية، وهذا يدل أن الغرب ينظر إلينا كبسطاء سذج (ضحايا مقنعون)، علينا أن ننظر أين يباع السلاح ويستهلك، فهل كانت حرب الخليج

دعاية للسلاح الغربي، وقد اختار مكان العرض في بيئة غنية بالثروات تماماً، كما الحلية التي تطول حتى الخاصرة لتدل على المركز الاجتماعي، إنها سلع الوضعية، وهي بالتالي تخبر العالم عن سلعها، وتقول الكثير عن شخصية المستهلك، وتخبئنا عن هوية هؤلاء المستهلكين، كالفيلسوف (ديدرو) حيث كان راضياً عن لباسه، إلى أن مُنح بذلة جديدة ولكن البذلة الجديدة أظهرت أن خُفَّيَّه بِالْيَافِان ولونهما باهت، فاستبدلتهما، بعد ذلك أظهر خفاء بوضوح سرواله، وتم استبدال ملابسه كلها نتيجة ذلك، وإن التفاضل قد يعطي صوراً مثالية ويقدم دوافع الرغبة: نساء - سماء زرقاء، حياة جميلة، وبضائع جذابة، وبائعات وسيمات، وهذا يخلق رغبة مستحيلة ليقدم بدائل قابلة للشراء وهكذا نتركنا متقسمين على ذواتنا، وقد يكون الناس أغنياء لكنهم يتركون غير راضين، والنتيجة تشظي الحياة الاجتماعية.

وتجعلنا أفراداً منعزلين - من الجماعة إلى مشاهدة عائلية مشتركة، إلى أسرة تمتلك عدداً من أجهزة التلفاز، كل منغمس في شاشته المحببة بدلاً من الحياة الحقيقية، وهذا يرسم لوحة وجودية كئيبة على مستوى المدينة، وهذا ما قدمته مدرسة فرانكفورت عن وسائل الإعلام، وهي لم تشجب هذا، وإنما تساءلت عن الرابع في هذا كله، ومن المسيطر على هذه العملية؟ وهنا تبرز سيطرة الولايات المتحدة على الإعلام، بل هذه هي (الأمركة) بعينها، وهذا الثمن تدفعه الشركات الأمريكية، وسيكون تأثيرها كبيراً من حيث السيطرة على وسائل الإعلام. فهي تركز على الآثار الاقتصادية السياسية والتحكم في وسائل الإعلام، وهي تعتقد أن الإذاعة صوت واحد أو رؤية واحدة على كثير من المشاهدين، مع اختلال في القوة وتوازنها، هكذا أمريكا تصنع أحلام العالم وتخلد التفاوت الطبقي العالمي.

- الاتصال عن طريق الإنترنت: تمنح الإنترنت إمكانيات التفاعل بين السواد الأعظم من الناس، وتزيل الحدود الاجتماعية والإقليمية، فيها تتواصل دون وسيط، ولا تخضع لسلطة القوة كالتلفاز، وهذه نهاية الجغرافيا،

بها تستطيع أن تتعاون مع شركات العالم كافة، وهنا يظهر الفضاء بشكل حاسم؛ - عندما نفكر في الشبكة نفسها يلجأ التعقيب إلى (المقولات الفضائية) (والصور البلاغية)، إذن هناك روايات عن الحدود الإلكترونية وعالم الشبكات المعلوماتية، وما يصفه المعلقون والمستعملون ليس فضاءً تقليدياً ذا أبعاد ثلاثية، وإنما هو شكل جديد من الفضاء نحتاج إلى تطوير خرائط جديدة له - التفاعلات الممكنة مع عوالم العمل والموطن هي جغرافية بشكل عميق، وهناك انفصال أفضية العمل والامتهلاك وعزل الفضاء داخل الأسر، وتقترح ظاهرة (في البيت الصغير عن بعد) تغيير بعض الجغرافيات، وعند العمل يتم إعادة تشكيل الفضاء الأهلي - كثيراً ما تنتهم بالتشظي الفضائي في الحياة الحقيقية، تماماً كأنها تُحدث جماعةً افتراضيةً، وهذا التأويل لما قد يصطلح عليه (مدينة الشبكات المعلوماتية) فالناس جالسون في منازلهم أو في مكاتبهم يتفاعلون عبر الشبكة تعويضاً عن فقدان الجماعات المحلية - والقضايا المطروحة بالنسبة إلى التلغراف فيما يخص المحافظة على الحدود والتحكم الفضائي في التدفقات، تظهر قضايا مثل الإباحة الجنسية وتحكم الدولة - وهناك بنايات افتراضية تُشيد على منوال المنازل أو البلدات لأنشطة مختلفة: حانات، مأوى، وهنا يستطيع المستعملون أن يتجولوا ويلتقوا بأصدقائهم، وهذه تخضع للمراقبة من الدولة، وهذا يعني أننا في المراحل الأولى الحقيقية إلى أبعد حد من العمل الجغرافي عليها .

الفصل السادس

(التلفزيون أهيون الشعوب)

منظومة القيم والمعتقدات تحت عدسة ثقافتنا العربية

أسئلة الدين للعلم والتكنولوجيا،

• الجنة المفقودة لدى الغرب،

إن ثقة العلم بنفسه لشديدة، ازداد غروراً وصلفاً بعد انتصاراته على جميع الجبهات، وراح يزهو بقدراته، وفي كل يوم يفاجئنا بالمزيد منها، فقد سحق المكان وهتكت الزمان، واخترق مجرات الكون وكشف عمُّ يوجد داخل نواة الذرة والخلية، ويفوس عميقاً في النفس البشرية، وفي خفايا البنى الاجتماعية والرمزية، في البداية كانت التكنولوجيا تلهث وراء العلم تطبق أفكاره،

وتحقق نتائج اكتشافاته، إلى أن أصبح هو الذي يلهث وراءها، وتضيف في كل يوم جديدٍ رميداً على إنجازاتها، فتضيق المسافة بين الفيزيائي والبيولوجي، وبين المادي واللامادي، وبين الواقعي والخيالي، فأصبح للخيال بفعل تكنولوجيا المعلومات هندسته وعوالمه الرمزية وكائناته الرقمية.

أ - المعلومات وتكنولوجيتها النظيفة: وعدنا التكنوقراط بجنة مرضها السموات والأرض، وتتلو بلا حدود، ونبع لا يتضب من حلول للمشاكل المستعصية، وطاقة متجددة، ومواد تعوض كل ما أهدرناه وضيعناه من مواد طبيعية بلا جدوى، كما وعدونا بوسائل عدة للراحة والرفاهية، والغذاء والكساء والسكن، وتأهيل الكبار وتعلم الصغار، تعفي من المرض وتطيل العمر، أما عن سلبيات هذه التكنولوجيا وضررها للبيئة ومآسيها الاجتماعية وخرايبها النفسية، فليهنأ المجتمع بالأ، فحل مشاكل التكنولوجيا هو المزيد

من التكنولوجيا، وإن كنا قد عانينا من تكنولوجيا الصناعة، بسبب كونها بدائية ذات طابع عنفي، استغلت العمال واستعانت بالأطفال، وأفرطت باستهلاك الطاقة والمواد الخام. وشتان بين تكنولوجيا الصناعة الفجة، وتكنولوجيا المعلومات النظيفة الأليقة الرقيقة التي لا تستخدم العنف، إنها تكنولوجيا مهدية لطيفة مثل لطافة مادتها الخام المتسامية من البيانات إلى المعلومات إلى المعارف، تكنولوجيا ذكية مثل ذكاء برمجياتها، متجاوبة مع مستخدميها، تتكيف مع مجتمعاتها، محبة للبيئة، بل تصلح من حالها التي أفسدها غيرها من التكنولوجيا. نسي هؤلاء أن الآثار السلبية لتكنولوجيا الصناعة لم تظهر إلا بعد خمسين عاما من انتشارها، تماما كما كان لتكنولوجيا الصناعة عنفها واستغلالها وصراعتها، فإن تكنولوجيا المعلومات ستخلق لنفسها مشاكل تضاهي سابقتها السلبية، واليوم يقال عن: عنف قريهي، واستغلال رمزي، وطبقية معرفية، واستعمار خائلي لعالم الفضاء الرمزي، وحرب كونية شاملة، يهدد بها بعضهم، وسببها اليوم لا الموارد الخام، وإنما موارد المعلومات.

ب - نجاح تكنولوجيا وفراغ روحي: بدا للجميع أن الكون خاضع لنا وفكرنا بلا تحفظ، نُقَوِّدُهُ إلى غاياتنا المحددة، فاسترخينا، وتهيأ لنا أن وهما يصور لنا أن العلم والتكنولوجيا قوة طوع أيدينا وتحت سيطرتنا، إنه وهم مغادع وساذج، علما أنه ليس لنا اليوم حياة مستقلة عن سيطرة هذه التكنولوجيا الأسيرة، وربما يكون العكس هو الصواب، وأوشكت هذه التكنولوجيا في غمرة نجاحها، أن تستقل بذاتها، وتفرض علينا منطلقها وقيودها، فقامت حياتنا المادية على تكنولوجيا غاية في النجاح، في حين تتوجع حياتنا الروحية تحت الخواء الروحي، وقد آنستنا هذه التكنولوجيا بقدرتها الفائقة على إحداث التغيير المرغوب، نسينا ما بقي ثابتاً بداخلنا دون تغيير، نسينا المطالب الوجدانية وحاجتنا الدائمة إلى المثل العليا، إلى المحبة والتآخي والإحساس بالذات والهوية، ومع المد العلمي والتكنولوجي، انحسر الخطاب الديني، وراح غلالة التخبية من العقلانيين في نظرتهم الأحادية، فمنهم

من قال إن الدين ظاهرة غير عقلانية مآلها الموت حتماً، في مجتمع انتصار العقل والحسب العلمي، والإنسان له هذا القدر من حرية التصرف، وبمقدوره أن يصنع آلهته بالشكل الذي يحلو له، والحضارة التي صنعت الأقمار الاصطناعية والمركبات الفضائية والعقول الإلكترونية، ليست في حاجة إلى آلهة، وفات عبدة هذه التكنولوجيا أن كل ما صنعوه من إيديولوجيات، فشل في حسم تناقضات عالمهم، وفي تلبية الحد الأدنى من مطالبه الاجتماعية والنفسية، وأثبت أهل الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ما للدين من أهمية في منظومة المجتمع، والدين ليس مجرد ظاهرة نفسية بل هو أحد الثوابت الاجتماعية التي لم تتلاش مع التقدم العلمي. وتأتينا تكنولوجيا المعلومات وعولمتها بصافرات إنذار بعالم جديد مليء بالاحتمالات وعدم اليقين، كأننا مساقون إلى مصير مجهول لا ندري عنه شيئاً، ونحن نعيش عالماً ضاعفت فيه التخوم والمعالم الفاصلة، بين النظام والفضوى، وبين الخاص والعام، وبين الذاتي والموضوعي، وبين الحياة في عالم الواقع وسكنى الفضاء الرمزي.

ج - اثنانُ مثال: ارتكبت حضارة العصر خطايا كثيرة منها: - سياسة بلا مبادئ - تجارة بلا أخلاق - ثروة بلا عمل - تعليم بلا تربية - علم بلا ضمير - عبادة بلا تضحية، هذا ما حذرنا منه المهاتما غاندي، واليوم ونحن في بداية الألفية الثالثة: نصف أطفالنا محرومون من المدارس، ومعظم عمالتنا مهددة بالبطالة، وربع البالغين من الأميين، ولم تعد تلك الوعود تتطلي على أحد، والتي لا هدف لها إلا أن يتعمل البؤساء والفقراء مزيداً من القهر وهم في انتظار زمن قادم لا محالة مليء بالرفاهية والخير، كي تستتب الأمور تحت سلطة قوانين السوق. وليس من العقل أن تقوم رأسمالية عصرنا بدلالة أرقام حساباتها دون غيرها، ولم يعد هنالك من هو مستعد لدفع تلك الكلفة الباهظة الناتجة عن المخاطر المتعددة جراء التطبيق الأعمى لتكنولوجيا المعلومات الشجاعة والجسورة، وأصبح لزاماً على العلماء أن ينزلوا من أبراجهم العاجية، وألا يقصروا عملهم على النشر العلمي، وعليهم أن يعيشوا خارج أسوار معاملهم، كي يواجهوا مسؤولياتهم فيما يمكن أن يؤدي إليه

الاستغلال غير الأخلاقي لنتاج فكرهم، هذا الفكر الذي أصبح سلعة تباع وتشترى، والجميع ينظرون بعين الربية إلى ما تدعيه التكنولوجيا من انتصارات، ونخشى اليوم النجاح بقدر ما نخشى الفشل، ویتھیا لنا أننا عاجزون بمقولنا عن إنقاذ أنفسنا بما قدمته أيدينا . لا نستطيع التخلص من هذه التكنولوجيا والتي توهمنا أنها تحت سيطرتنا، وهماي تنطلق نحو مصير مجهول، فهي تحصد ما هو أمامها، من أجساد وعقول والطبيعة ذاتها، وهل يهددنا عصر المعلومات بطوباوية رأسمالية سوداء هاجرة، أم يبشر بعالم يصار بناؤه من جديد، على أسس أخلاقية جديدة ترفض الوضعية العلمية وغرورها الفكري، وترفض البراغميات وتفعلتها قصيرة النظر، وترفض ما بعد الحداثة، وقد اقتربت على حد قول بعضهم من حافة الدمار المهلك للجميع، ويمكن أن تؤدي بحضارتنا إلى الفوضى. وهل يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تحقق الوئام بين الثلاثية التالية: الهداية. النظرة الشاملة، العقل، ثلاثية (الدين والفلسفة والعلم) فتقيم على أساسها واقعية متوازنة، تبحث عن الحقيقة دون أن تضحي بالخير وتتمسك بالجمال.

د - القيم الأخلاقية تحت الطلب المتزايد: إن الصراع بين الدين وفكر عصر التنوير، أخرج أوروبا من ظلام العصور الوسطى على جبهة المعتقدات، وذلك فيما يخص: نشأة الكون وخلق الإنسان، ومن الممكن أن تدور المواجهة بين الدين وفكر عصر المعلومات على جبهة القيم والأخلاق بصورة خاصة، وتبين لنا أن التكنولوجيا سواء قامت على البحوث العلمية أو على غيرها، ستبقى فرعاً من فلسفة الأخلاق، لا من العلم كما يقول بعضهم وما يدل على ذلك ما فعلته تكنولوجيا المعلومات متعاونة مع هندسة الوراثة، من قضايا أخلاقية عدة بعد أن اقتربت التكنولوجيا من تلك المناطق الحميمة في عقل الإنسان وأنسجته وخلاياه. وهكذا نمت الأخلاق وأعطت فروعا أخلاقية جديدة من أخلاق البيئة، إلى أخلاق البيولوجي وأخلاق المعلومات، وأخلاق الإنترنت، وبدأت معظم القيم السائدة بحاجة إلى مضامين جديدة منها: قيم الحرية، والمساواة والعدالة، بل الأمن والأمان، والثقة في الغير والتسامح مع

الآخرين. ووسط هذا الكم الهائل من الأسئلة تصدر العلم للإجابة عنها. إنها أسئلة البدايات والنهايات: كيف تبدأ الأشياء وما مآلها؟ ويقول المناطقة وأهل المعلومات، إنها تؤول إلى ثنائية الخطأ والصواب، وثنائية الصفر والواحد، ويبقى السؤال من زرع هذه الثنائية في عقل الإنسان وجدلها في شبكة المخ العصبية وصهرها في كيان بناء الاجتماعية؟ ولنا أن نتذكر كلمات سقراط وهو يرتشف جرعة السم القاتلة، إذ يقر فيلسوفنا وهو في الثواني الأخيرة من حياته يتمتم قائلاً: لست مقتنعاً بعد ذلك، بأنني أفهم لماذا يتولد الواحد أو أي شيء آخر؟ ولماذا يزول؟ بل لماذا يكون إطلاقاً؟ وتكنولوجيا المعلومات تشجع الإنسان إلى طرح الأسئلة المستحيلة، وتزعم تكنولوجيا المعلومات وأهلها، أنها ستوفر وسائل عدة تتيح فرصاً أكثر للإجابة عن هذه الأسئلة، أو إعادة طرحها بطريقة أدق، فالإنسانية بحاجة إلى هداية جديدة، وهذا ما يفسر تيار الصعوة الدينية الذي يشهده العالم، إنها صعوة إسلامية في العالمين العربي والإسلامي، صعوة مسيحية في جنوب شرق آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، صعوة اليهود والهندوس، وفي النهاية مل العالم الطوباويات التكنولوجية والإيديولوجية، وانتظار رجل السوبرمان إنسان (نيتشه) الذي يجمع ما بين القدرة على الفعل والمعرفة، فيعيد للعالم توازنه وللإنسان حيويته وإرادته، ولن تطيب لنا الحياة دون هذا الزاد الروحي من القيم والمثل. إننا بحاجة إلى نبي جديد، ليس مرسل من السماء بل من الأرض.

١ - اللجنة المفقودة لدى العربي:

أ - الغرب يبحث عن قيم جديدة للمواجهة، ونحن نبحث كيف ندافع عن قيمنا في عصر المعلومات: إن موقفنا من علاقة الدين بالعلم، يختلف من علاقة الدين بالعلم والتكنولوجيا عن موقف الغرب منها، للأسباب التالية: -
عدم حسم العلاقة المتعلقة بين الدين الإسلامي والحدائث، إن الإصلاح الديني في أواخر القرن التاسع عشر حصر المشكلة بإزالة الفوارق والاختلاف بين الإسلام والحدائث بصورة شكلية وسطحية، دون مواجهة المشاكل الأساسية

والكبيرة وهي السيطرة العقلية العميقة على الحداثة. (١٩٩٩) - لا يمثل العلم والتكنولوجيا في الوطن العربي الثقل كي يكون طرفاً متكافئاً في المعادلة الدينية - العلمية. - إن الغرب يبحث اليوم عن قيم جديدة يواجه بها عصر المعلومات، بينما نحن نبحث كيف ندافع عن قيمنا ضد الخطر الآت. وسيكون لأزمة القيم التي يواجهها الغرب وليدة المتغير المعلوماتي انعكاساتها على المجتمعات العربية، بحكم التبعية العلمية والتكنولوجية أو تحت الضغوط الاقتصادية والثقافية والسياسية.

ب - هل الإسلام هو العلاج؟ هناك من يرى في الإسلام أن مبادئه وشرائعه تمثل بديلاً لعلاج أزمة القيم في هذا العصر، ليس في مجتمعاتنا فحسب بل في المجتمعات الغربية. وتتبع (حسن حنفي) سراديب الأزمة المختلفة عندنا وعند الغرب، وأوضح استجابة الإسلام لكل منها، ولا شك أن الإسلام يشكل متبعا خصباً لإحياء قيم عصرنا، إلا أن ذلك يحتاج إلى جهود هائلة وبحوث مستفيضة تتجاوز اقتراح حلول المشاكل، بالإحالة إلى عظمات التاريخ والنصوص، ولن نفلح في ذلك إلا من خلال معرفة علمية دقيقة بمشاكل التنمية المعلوماتية، والقضايا الأخلاقية المتعددة التي يطرحها المتغير المعلوماتي ومسديقه البيولوجي، وكلاهما يحتاج منا إلى خلفية علمية تكنولوجية، كي نتفهم اشكالياته وتضع مداخل حلوله.

ج - حاجتنا إلى مفكرين دينيين يجمعون بين علوم الدين والدنيا، قليلة هي البحوث التي تتناول علاقة الدين بالعلم والتكنولوجيا. ومعظم هذه الدراسات يقوم بها أهل العلم لا أهل الدين، ورجل الدين لا يشارك في العلم إلا عندما يُسْتَفْتَى بأمر من أموره، وعادة ما يحيلها رجل الدين إلى أهل الاختصاص، ومهما زادت فاعلية الحوار بين رجل الدين ومستشاريه العلميين، سيبقى دون درجة الاستيعاب الكافية التي تمكنه من إصدار فتواه بقدر من الطمأنينة، ونحن بأمس الحاجة إلى إعداد نوعية من الباحثين الدينيين على مقاس عصر المعلومات، قادرين على الجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وإن جامعاتنا الدنيوية وعلى رأسها جامعة الأزهر - هي الأقدر

من غيرها على إعداد هؤلاء الباحثين، شريطة أن تجمع كليات الجامعات الدينية بينها وبين الدراسات العلمية بصورة عملية لا بصورة شكلية كما يحدث الآن، ولا ضرر أن تستعين جامعاتنا الدينية -اختصاراً للوقت والجهد- بما قامت به جامعات اللاهوت القريبة، فيما يخص التجديد الشامل لمناهجها الدراسية، كي تتفق وحاجات عصر المعلومات وعولمته، وتشمل هذه المناهج ضمنها التالي: - الفلسفة الحديثة - علم الاجتماع والاقتصاد والبيولوجيا الجزئية والمعلومات والإعلام.

- العولمة وأخلاقياتها العالمية،

١ - هل فتوح رغم التنوع؟ العالم إما كل واحد أو لا شيء، هذا ما قاله آينشتاين، ربما أوحى له بهذه الفكرة حلمه بنظرية عامة وجامعة في المجال الموحد، والعولمة تنظر إلى شعوب العالم بمنظار وحدة الجنس البشري متجاوزة النظرة النسبية الثقافية، سواء كانت عقائدية أو قومية أو لغوية، لهذا كان على العولمة أن تحقق الحد الأدنى من الأخلاق العالمية التي تشارك فيها ثقافات العالم أجمع، لتحقيق حلم التوحيد الإنساني، وهم لا يرون في هذا تناقضاً مع الخصوصية الثقافية والهوية الحضارية لشعوب العالم، سندهم في ذلك أن هذا الخلق العالمي يقوم على المبادئ الإنسانية العامة، ولسان حالها يقول: لا يجوز أن يترك أمر هذه المبادئ رهناً بالنسبية الثقافية، بل يجب فرضها من خلال المنظمات الدولية، ومواثيق حقوق الإنسان العالمية، والأول معقود على تكنولوجيا المعلومات كي تُقر الوسائل العملية لحوار بين الثقافات، بهدف تقريب وجهات النظر بغية تحديد مضمون هذا الميثاق الأخلاقي العالمي الجديد، ميثاق عصر ثقافة المعلومات، الذي سيحقق في رأيهم، لسلام العالمي الجديد، والسعادة، ويؤلف بين قلوب البشر.

ب - هل يتحقق الحلم؟ عجز آينشتاين عن تحقيق حلمه، في نظرية عامة للمجال الموحد بقصور الرياضيات عن أن تمده بالدعم النظري. ومنظرو ما بعد الحداثة يرجعون عدم تحقيق حلم الخلق العالمي لقصور متأصل في النفس البشرية ذاتها، فقد جبلت هذه النفس على العنف،

وسيبقى الصراع ما بقي المجتمع البشري، ولا أمل في التخلص من التعصب الديني، والتعامل الفكري والعنصري. وتنتقد ما بعد الحداثة بشدة حديث العولمة عن السلام العالمي، بينما العولمة وليدة رأسمالية قامت على الاستغلال وتدمير البيئة، وعدم العدالة في توزيع الثروات سواء الطبيعية والمادية أو المعلوماتية، ترى ما هو هذا الخلق العالمي الذي يتحدثون عنه؟ - بالتأكيد - ما هو إلا ستار يخفون وراءه أطماعهم ونيتهم في استغلال تكنولوجيا المعلومات، ومساندة قوى العولمة ورأسماليتها الجديدة، وأفرزت العولمة عالماً وصل فيه الاغتراب عن القيم السماوية وعن الجار وعن الذات إلى حد لا يمكن التغطية عليه باستهلاك الإيديولوجيا، وكما أظهرت العولمة الحاجة إلى توحيد القيم والأخلاق. والنظر في النظام العالمي الجديد وأصوله ورؤى مستقبله، أوصل إلى الشك في قدرته أن يثمر تعاوناً دولياً في حل القضايا والمشاكل (أحمد صدقي الدجاني ١٩٨٩) وكل ما تستطيع فعله هذه العولمة هو نوع من التجنيس الثقافي، تتحول فيها ثقافات الشعوب إلى مهرجانات وطنية، وعقائدها مجرد طقوس، ومآثر تراثها إلى وثائق الأرشيف ومقتنيات المتاحف.

- كيف يرى العرب العولمة وأخلاقيتها؟ -

١ - الخطر الإسلامي: أثناء الصراع الإنساني شاع استخدام الألوان، فكان هناك الجيش الأحمر، والألوية الحمراء، والسلاح الأبيض، والمارد الأصفر، والفهود السود، وأيلول الأسود، وأصحاب القمصان السوداء والبنية. ثم جاء عصر المعلومات ليضيف لمسته اللونية جاعلاً من الشاشة الزرقاء أو القضبة سلاحاً، ومن شفافية مجال الأثير ساحة للنزال، ووجد اللون الأخضر -مز السلام والنماء- طريقه إلى القاموس العالمي، وأصبح الإسلام هو الخطر الأخضر، وبصوره الإعلام الغربي عائقاً أمام العولمة، ومهدداً للسلام العالمي، يحتل مساحة شاسعة، من الفلبين وأندونيسيا شرقاً، إلى الصحراء الكبرى، والخطر الأخضر هو مفهوم غامض وأقرب إلى الخرافة، كما يقول فرانسوا بورجا (فرانسوا. بورجا ١٩٩٢) بينما يراه (إدوارد سعيد) نوعاً من الحرب

الباردة ضد الإسلام (زكي الميلاد ١٩٩٨) فهو عداءٌ من جانبٍ واحدٍ يديه
القرب ضد الإسلام، بفضل عوامل عدة اختلطت فيها الأسباب التاريخية مع
الدوافع الاقتصادية والأمنية، وعلى الرغم من خرافته وعدائيته الظاهرتين،
إلا أنه لم يحرم من مساندة الخطاب الأكاديمي الغربي، الذي سعى إلى
تأصيله علمياً، إنه استشراف عصر العولمة، دليل قوي على قدرة القوى
السياسية والاقتصادية والعسكرية على توليد خطابٍ معرفيٍّ ذي فاعٍ علميٍّ
زائفٍ، من أجل خدمة مصالحها وإضفاء الشرعية على ممارساتها وتوجهاتها .
هذا هو موقف غيرنا، أما تفسير أصحاب الرؤى الدينية لدينا لما يسمى
بالخطر الأخضر فمرجعه كما يقول (إبراهيم مبروك) إلى أن الإسلام سيظل
الإيديولوجية القادرة على استنهاض شعوب العالم الفقيرة والمستضعفة
وإنقاذها من مطامع العولمة (محمد مبروك ١٩٩٩)

- تباين رد الفعل الإسلامي تجاه العولمة: يمكن أن تلخص مواقف الفكر
الإسلامي من ظاهرة العولمة على النحو التالي: - الرفض التام: على أساس
أن العولمة هي صورةٌ عن العلمانية، اتحدت فيها القوى العلمانية في الخارج
والداخل، في نظرية العولمة (أحمد عبد الرحمن ١٩٩٩)، وهي تسعى إلى تدمير
البشرية بسلاح العلم، وتوظيفه في خدمة الشيطان (رفعت الجاد رجي
١٩٩٨) والعالم الإسلامي في غنى عن العولمة، فهو يقوى بداخله وليس مطالبا
باللحاق بخارجه وسبقي الشرق شرقاً والغرب غرباً، (حيدر إبراهيم ١٩٩٨).
- خطاب رد الفعل: ربما كان المد الإسلامي رد فعلٍ للعولمة، وربما يكون
برنامجاً لحركة إسلامية في المجالين السياسي والاجتماعي، ويمكن أن يكون
الإسلام مذهباً في العولمة، مقارنةً بالنظريات الأخرى (أحمد عبد الرحمن
١٩٩٩) ويرى بعضهم أن الإسلام السياسي هو الابن الشرعي للحدثة الرديئة
(١٩٩٩) - خطاب عالمية الإسلام: يُعرف الإسلام كدينٍ عالميٍّ، والإسلام هو
الحل، ليس بالنسبة إلينا، وإنما بالنسبة للمجتمع الإنساني، ولا ينقصنا سوى
وضع المنظومة الحضارية الإسلامية التي لا تجمع العرب والمسلمين فقط، بل
تجمع المستضعفين في العالم أجمع (جمال البنا ١٩٩٩) وأصحاب هذا الخطاب

يقولون ليس باستطاعة الكونفوشيوسية من خلال منهجها الإصلاحي الطوباوي الموجه إلى الفرد، ولا البوذية القائمة من خلال القمع الدائم للذات تقديم حل يقارب ما يقدمه الإسلام، ويقول حسن الترابي أن المسلمين لن يتخلوا عن مطالبهم بضرورة قيام نظام دولي عادل، ودورهم في هذا العالم سيكون دوراً تصحيحياً لما يشكو من قلة التوازن (حسن الترابي ١٩٩٥) -

لنأخذ منها بحذر: يوجد فئة من المسلمين ترى في العولمة خيراً للأمة العربية والإسلامية، ورغم أن العولمة يراد بها باطل، إلا أنها تؤدي إلى خلخلة فكرة الدولة، قد يكون مفيداً لمصلحة الأمة العربية والإسلامية، وهي فكرة في رأيهم زرعها الاستعمار لتقسيم العالمين العربي والإسلامي (طارق البشري ١٩٨٩) - خطاب تهذبة البال: في رأي الجابري أن العولمة لا تشكل خطراً على مستقبل الثقافة العربية والإسلامية، لأن الثقافة لا تصنع مصيرها بنفسها بل بأهلها، (محمد الجابري ١٩٨٩) والإسلام لم يسبق له أن انهزم أمام روم أو صليبيين، وكفي نقارن بين الديانات السماوية الثلاث من النظام العالمي الجديد نقول: عولمة المسيحية، عالمية الإسلام، وقومية اليهودية، ونقصد: - عولمة المسيحية: أن الكنيسة تؤمن بضرورة العولمة وهي تحاول أن تُخلص الكنيسة الغربية من نظرتها على أنها المحافظة على الثقافة الغربية، وهذا يعوق انفتاحها على الثقافات الأخرى، وعليه تقوم الكنيسة الغربية بتحديث نفسها: تنظيمياً، وتبشيراً، وأكاديمياً. من حيث الدراسات اللاهوتية ويمكننا أن نقول: إن الكنيسة المسيحية تجمع بين عولمة الهدف وعالمية التنظيم والتنفيذ، - عالمية الإسلام: تنطلق في أساسها من عالمية الرسالة الإسلامية، بالحقبة تفتقد إلى ما يُكبّها في أرض الواقع، وفي مقدمة ذلك عالمية التنظيم الذي يساند هذه الدعوة، والقدرة على إقامة حوار هادف مع الفكر العلمي الديني والثقافي، وخاصة الفكر الغربي.

- قومية اليهودية: رغم التعارض الواضح بين العولمة والقومية (شعب الله المختار) إلا أن الفكر اليهودي لا يفوت الفرصة من أجل إثبات تميزه وخدمة مصالحه، وهم يعتبرون أنفسهم مؤهلين أكثر من غيرهم للدخول في العولمة

وهذا يعود إلى كل ما اكتسبوه في شتاتهم وتشردهم، من معارف وخبرات على مستوى العالم، وتمثل اليهودية المنتشرة جغرافياً، ومواقعها المتعددة على الإنترنت، البنية التحتية للنشاط اليهودي.

- ما هي علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات لدى الغرب؟ يعتقد الكثيرون أن علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات تقتصر بالنشر الإلكتروني الديني، ونشر الدعوة عن طريق وسائل الإعلام، وأثر وسائل الإعلام الجماهيري والإنترنت في نظام القيم. لدينا ثنائية تكنولوجيا المعلومات كأداة للدين، وتكنولوجيا المعلومات كمضية أخلاقية، ولكن علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات تتجاوز هذه الثنائية، فأصبحت هذه التكنولوجيا تمس قضايا جوهرية في صلب الظاهرة الدينية ومنظومة القيم، ولكن أين يلتقي الدين بمنظومة القيم والمعتقدات؟

- لقاء على ساحة الرمز: تكمن صلة الدين بتكنولوجيا المعلومات بعلاقتها بالرمز، إن علاقة تكنولوجيا المعلومات بالرمز غير محدودة، أما علاقة الدين بالرمز لو تأملناها، وفكرنا بتعريفات الدين كما يطرحها علم الأنثروبولوجيا وهذه التعريفات هي: - الدين كنظام للمعتقدات والممارسات السلوكية والأخلاقية - الدين كمجموعة من العقوس والشعائر - الدين كمؤسسة اجتماعية ثقافية - الدين كمجموعة من التشريعات والسنن - الدين هو نسق من الرموز يرسخ لدى الإنسان حالات وجدانية ودوافع قوية، وذلك من خلال تشكيل رؤيته الكلية عن الوجود. وهذه التعريفات، والتعريف الأخير ذو صلة بالرمز، وعلاقة الإنسان بالرمز هي التي تتسامى به فوق المستوى المادي والبيولوجي إلى عالم القيم والمثاليات والروح، وتكنولوجيا المعلومات سيكون لها دورها الحاسم في جلاء العلاقة الإنسانية الرمزية، والسبب في ذلك أن إنسان هذا العصر الذي يرى هذا العالم عبر معتقداته، كما يراه أيضاً من خلال تكنولوجيا المعلومات، بعد أن أصبحت هذه التكنولوجيا هي الوسيط للتعامل مع حقيقة الواقع، والرموز المقدسة هي ذات طبيعة مجردة، وكلما ضاقت المسافة بين المحسوس والمجرد، زاد الإنسان قرباً

من رموزه المقدسة، وزادت قدرته على التسامي، وإقامة الروابط بين شواهد واقعه، وما مضى من هذا الواقع أو غاب عنه، فتتضح لدينا صلة أخرى تربط بين الدين وقيمه الروحية وبين تكنولوجيا المعلومات مصدر هذه الصلة، أن هذه التكنولوجيا تعمل بلا هوادة على إسقاط الحواجز الفاصلة بين المادي واللامادي، وتحدد وسائلها لتجسيد المجردات بصورة مرئية محسوسة، وهذه تجلت بطريقة حاسمة في تكنولوجيا الواقع الخائلي، وهناك من يقول: إن تكنولوجيا المعلومات تضمر العداء لكل ما هو سردي. وذلك بسبب ما تتسم به هذه التكنولوجيا من تشظٍ وتشعب، هذا يؤدي إلى تشظٍ السرديات الكبرى، بما في ذلك النصوص الدينية والصروح العقائدية من وجهة نظر ما بعد حداثة.

ب - ما المفزى الديني لتكنولوجيا الواقع الخائلي؟ قد تنقل تكنولوجيا الواقع الخائلي العلاقة بين الدين وتكنولوجيا المعلومات إلى مستوى أكثر تسامياً وحساسية، والواقع الخائلي يخلصنا من قيود الجسد، لنعلق في الفضاء الرمزي، إنه شبيه بسعي الإنسان القديم إلى معرفة الحياة بعد الموت، ولكن بطرق جوهرية، لأن الإنسان القديم كان يسعى إلى معرفة الآخرة، لكن (ميثافيزيقيا) الواقع الخائلي وثيقة الصلة بواقعنا الدنيوي، وغايتها إعادة الانسجام بين الإنسان والوجود، وما بين قدرة الإنسان الفعلية وطموح إرادته. يبدو أن الحديث اختلط في الخطاب الخائلي: بين التكنولوجيا، والميثولوجيا والابستمولوجيا، مثلما اختلطت حقائق عالم الواقع، مع خائليات عالم الفضاء الرمزي، وهذه العوالم يقيمون لها القوانين والمواثيق، إضافة إلى أصول الإيتيكيت الشبكي، ومعايير الأخلاق الرقمية، وهل يمكن أن تنجح تكنولوجيا المعلومات فيما هُشلت فيه ثلاثية: الفلسفة والعلوم والفنون، عن طريق دمجها لهذه المعارف الثلاث في وحدة رمزية مكثفة ومتسقة، من خلال كشفها عن شبكة العلاقات التي تربط بينها.

ج - انتشار الجنس على الإنترنت: انتشار الجنس على الإنترنت كالوباء، وهذا يمثل خطورة على جميع الأعمار: - لأنه يدخل الأطفال في

الأمور الجنسية قبل نضجهم - ويشجع المراهقين على اكتشاف لذة الجنس لديهم فتستغل تجارياً - يعمل على تكبير الصغار وتطفيل الكبار، ويشجعهم على اجترار مراهقتهم - فيقعون في فخ النزعات النفسية التعويضية. وهناك وسائل عدة لنشر المعلومات القاضحة جنسيا عبر الإنترنت - مواقع المجالات الجنسية - مواقع متخصصة إلكترونية في توزيع السلع الجنسية - توزيع العقاقير والملبوسات الجنسية ووسائل إلكترونية - وصل الأمر بمواقع التجارة الإلكترونية والتي تقوم بتسويق المنتجات والخدمات، إلى تطعيم رسائلها الإعلانية بطابع جنسي لتجذب انتباه زبائنهم، وهي تعرض صوراً هارئة، وجنساً قاضحاً إلى أقصى درجات العفوية، وتغطي كل أطراف الجنس على اتساعه، من الجنس الطبيعي، إلى أقصى درجات شذوذه، وتم تطوير روبوت متخصص في الخدمات الجنسية الشفافة تحت الضغط المتزايد عليه. والجنس يأتي على رأس تطبيقات تكنولوجيا الواقع الخائلي التي تُستبدل بالجنس الحقيقي والانغماس في وهم الممارسة عن بعد، مع دوسير خائلي يقوم مقام الشريك البعيد، أو مع أجساد رقمية مجسمة كنوع متقدم من (أحلام اليقظة الرمزية)، وهذا عبثٌ صريحٌ بالقيم الإنسانية النبيلة، ولا بد أن ينعكس على علاقة الرجل بالمرأة، وهذا يؤدي إلى تفكك الأسرة وخرابها، وإشاعة الأمراض النفسية التي شاعت في الغرب.

- ما علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات عريباً؟ علينا أن نتعامل مع هذه الظاهرة الإنسانية الفريدة -علاقة ديننا بتكنولوجيا المعلومات- بأقل قدر من الحساسية لنستطيع التفريق بين جوانبها العامة والخاصة بنا تحديدًا، فقد تَرَمَّخَ بأذهان الكثيرين منا أن ثمة تقاضاً في الجوهر بين روحانية الدين والتكنولوجيا بطابعها التقني وماديتها، وعلى رجال الدين لدينا التخلص من عقدة الخوف من تكنولوجيا المعلومات أو الأنفوفوبيا كما يطلقون عليها، وأن يطبقوا بشجاعة المعلوماتية في مجالات الدين المختلفة لأنه أهم ظاهرة ثقافية لدينا، ويتدربوا على نظم المعلومات للدفاع عن الإسلام.

أ - هل يخاصم الدين التكنولوجيا؟ لاشك أن الإسلام شهد انطلاقاً تاريخية عظيمة فيما يخص علاقته بالمعلومات، مثل: - حفظ القرآن - جمع تراث السنة النبوية - تحقيقه وتوظيفه معرفياً وتصنيفه، هذا في الماضي، أما اليوم فقد شهد خصومة لا لزوم لها منها: - اعتراض البعض على طباعة القرآن الكريم، فكيف يكتب لفظ الجلالة تحت الحبر والمطبعة القذرة؟ وكيف يسمع بضغط مكبس آلة الطباعة على أسماء الله الحسنى وصفات الرسول الكريم وما شاكل؟ وهذا ما آخر طباعة القرآن الكريم ما يقارب ١٤٠ / عام، بينما طبع الإنجيل فور ظهور الطباعة في أوروبا. - اعتراض بعض أهل الدين في مصر - في بداية استخدام المذياع - على إذاعة القرآن الكريم، إلى أن حسم هذه الدعوة الزائفة الشيخ الظواهري بفتواه - كذلك تم اعتراض بعض رجال الدين فيما يخص السينما والتلفزيون، على استخدامهما من الأصل، خوفاً من احتمال تقويضهما قيم التربية الدينية، فحسم الملك فيصل الأمر مع علمائه فيما يخص التلفزيون، كما رفض الزعيم الراحل جمال عبد الناصر طلب حسن الهضيبي بإغلاق أبواب السينما والمسارح - حرمت هوائيات البث الفضائي في بعض البلدان العربية، وتعرضت الصحون الفضائية إلى زخات من الرصاص في مصر، وأندرت بمض الجماعات الإسلامية في الجزائر بمعاينة كل منزل يضع فوق سطحه صحناً فضائياً، ومن حسن حظنا، أن هناك عقولاً مستتيرة، شجعت على استخدام أحدث وسائل النشر الإلكتروني في معالجة النص القرآني الكريم، وتراث السنة النبوية والفقه والتشريع وأمور الفتوى، لكنه تلوح في الأفق خصومة مفتعلة لا لزوم لها، فيما يخص استخدام المعالجة الدلالية المتعمقة في تحليل نصوصنا الدينية، وييدي بعضهم قلقه بما يمكن أن يؤدي إليه في مجال التفسير القرآني ومصادره المعتمدة.

ب - هل النص القرآني وتراث السنة ملك لنا وحدنا؟ أشرنا فيما سبق إلى أننا أوكلنا إلى غيرنا مهمة التعامل مع نصوصنا الدينية من المعاجم المفهرسة للقرآن وتراث السنة، إلى ترجمة ألفاظهما ودراسة علاقتهما بنصوصنا الدينية وغير الدينية، وما زالت سلطة رجال الدين لدينا تحاول

عدم العمل الجاد في هذا المجال البالغ الأهمية، فتبقى رموزنا الدينية منغلقة دون تجديد النظرة إليها.. نعم حان الوقت لمواجهة تصوصنا الدينية بعمق منهجي وعلمي، لنرفع شعاراً: (بأيدينا لا بأيدي الآخرين). فالنص القرآني والسنة النبوية ليسا ملكاً لنا وحدنا، بل ملكاً للبشرية جمعاء، وهذا يتفق وعالمية الإسلام. وتبدي مراكز البحوث الأكاديمية والثقافية واللاهوتية اهتماماً متزايداً بتراثنا الديني، بدافع حوار الثقافات أو بصناعة الخطر الذي صنعه، أو في تطوير نظرية عامة للتراث الإنساني، ولا بد من التأكيد أن تصوصنا الدينية تراثاً عالمياً لا نملكه وحدنا، بل يمتلكه غيرنا بقدر ما نمتلكه، وما نخشاه أن يمتلكه غيرنا علمياً ومعلوماتياً، أكثر من امتلاكنا له، فيعلو صراخنا كما فعلنا في الماضي، عندما تعامل الاستشراق بلا حساسية مع تراثنا، يفرض علينا تفسيراته وتصويراته، يدفع علينا حقه وانحيازهم، مضيقاً علينا الخناق، لتبدد الوقت والفكر في ردود الأفعال والانفعال، ولا بد من كسر رهبة الرمز لدينا، ونطرقنا الجامعة إلى النص تناقض تأكيدنا على عالميته، وكونه صالحاً لكل زمان ومكان، ونحن نتساءل: كيف يكون لهذا النص الإلهي مثل هذه العالمية، وتلك الدرجة من العظمة، من عمومية المكان والزمان، إلا إذا اتسمت لفته بدرجة عالية من التجريد؟ وجاءت ألفاظه كثيفة المعاني، متعددة الدلالات متداخلة العلاقات والترايبطات، وسيبقى كتابنا الكريم حمال أوجه، ويشس ما نفعله إن نحن توقفنا عن أن نهل من نبع معانيه الذي لا ينضبها وأن نحمله معانٍ متجددة من مضامين حاضرننا، ورؤيتنا لماضيها، وتوقعاتنا لمستقبلنا. ومداومتنا لتحليل تصوصنا الدينية هو أهم المنطلقات لدخول عصر المعلومات، وإذا تقاعسنا في ذلك سيعوق حركة تقدمنا.

ج - هل نسمح بتجارة الجنس على الإنترنت؟ إن الجنس في مجتمعاتنا العربية من الموضوعات ذات الحساسية العالية، بينما تختلف نظرة الشعوب ما بين التساهل الشديد والتزمت المعرف، ومجتمعاتنا العربية تتخذ من الجنس موقفاً حازماً، ولا دراسات لدينا تناولته بميوله ونزعاته وظواهره،

وكلنا خوف من أن تتناول التجارة الإلكترونية، وتجارة الجنس الخائلي، هذه العتمة الجنسية، فيقع شياطينا في شياكلهم. وهذا يحتاج إلى تطوير أدوات برمجية لغوية وغير لغوية، لتصفية مضمون المعلومات من المعلومات الضارة، واتخاذ إجراءات تشريعية وتكنولوجية لحماية مجتمعاتنا من الوباء الرمزي.

- بين الدين ومنظومة الثقافة:

أ - حاجة الغرب إلى مراجعة شاملة

أ - حوار أثينا القدس: تبدي الثقافة حساسية زائدة تجاه الدين واختلاف دوره في ثقافات الشعوب. ونشأت هذه الحساسية مع الاكتشافات الجغرافية، وظهرت في العولمة إلى أعلى مستوياتها، وما صاحبها من حوار وصراع ثقافات، والتي تصدرهما الجوانب المتعلقة بالدين، وفرض هذا على الغرب أن يعيد اكتشاف الآخر ثقافياً، وإعادة اكتشافه لنفسه، بالتالي وفي ظل هذه الفوضى والاضطراب التي تسود دنيا الثقافة عالمياً رأى كثير من الأمريكيين أن عملية الاكتشاف هذه تتطلب مراجعة الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية. وخلصوا أنها قامت على ركيزتين أساسيتين هما: الفكر الغربي والمسيحية، وبات مهدداً ذلك الوفاق الذي أقامه (توماس الإكويني) بين عقل الإغريق وتعاليمات المسيحية، فظهرت الحاجة إلى تجديد حوار (أثينا - القدس) كما يطلق عليه، ومن المتوقع أن يكون أكثر اتساعاً وعمقاً نظراً إلى محورية الثقافة في مجتمع المعلومات.

ب - قضايا مستجدة تحتاج إلى وسائل جديدة: يطرح مجتمع المعلومات وعولته كثيراً من القضايا المستجدة في صميم العلاقة بين الثقافة والدين على مستويات عدة: اللغة والتربية والإعلام والإبداع، أو منظومة القيم، والمحافظة على التراث، وهذه قضايا شائكة لا يمكن تناولها دون طرحها في سياقات اجتماعية شاملة، واليوم أصبح ممكناً في إطار ما توفره تكنولوجيا المعلومات من وسائل قادرة على احتواء هذا الكم الهائل من البيانات اللازمة لهذا السياق الاجتماعي ورصد دينامياتها.

- الحاجة إلى مراجعة عربية شاملة:

أ - علاقة معقدة ومتشعبة: علاقة الدين الإسلامي بالثقافة معقدة ومتشعبة، من وجهة نظر الفكر الديني أو العلماني أو القومي، فالإسلام هو دينٌ ودنيا كما نرى، وبهذا يحتوي في عبادته الثقافة كلها، والإسلام كما يقول (حسن حنفي): ليس نظاماً أخلاقياً بل إيديولوجياً ونظاماً اقتصادياً اجتماعياً، نستنتج من هذا أن الإسلام يواجه ثقافة مجتمعه في إطار علاقة كونه كلاً شاملاً لجزء، على مدى خطٍّ مواجهةٍ في غاية الاتساع، ولا ندري كيف يواجه الإسلام هذا الكم من المشاكل دون الوقوع في فخ الضعالة والاختزالية. أما الفكر العلماني لازل موقعه تجاه الدين مشوشاً ومضطرباً، وما زال متشبثاً بأفكاره التي لا يعمل تكرارها بخصوص علاقة الدين بالمجتمع، ولا يعطي بالاً للقضايا المستجدة التي يطرحها المتغير المعلوماتي، وقناعتنا أننا أحوج من غيرنا إلى حوار أثينا القدس نقيمه بين (مكة والمدينة والقدس) مقابل عواصم حضارتنا: دمشق، بغداد، القاهرة، البصرة، وقرطبة، ولا نستطيع أن نتجاهل الدور الذي يلعبه الدين في مجتمعاتنا العربية أو إغفال دوره في مقاومة العولمة الكاسحة، وعلى الفكر العربي أن يفرس الحنصر الديني في منظومة ثقافته بصورة أكثر علمية ومنهجية، ويتوجب عليه القيام به في تربة اجتماعية مضطربة، ومناخ عالمي لا يقل عنها اضطراباً، وهنا التحدي الحقيقي.

ب - كيف نواجه قضايانا المستجدة والقديمة؟ لازلنا نواجه القضايا المستجدة، التي يطرحها المتغير المعلوماتي في علاقة الدين بالثقافة ونحن نحمل في سلتنا كثيراً من أسئلة الماضي التي ما زالت تثقل كاهلنا حتى الآن، وإنَّ علاقة الدين الإسلامي بجميع عناصر منظومة ثقافتنا: (الفكر، اللغة، التربية، الإبداع، الإعلام)، هي أبعد ما تكون عن الحسم، ولا أمل لفكرنا الديني في مواكبة عصر المعلومات، دون أن يستظهر شبكة العلاقات الكثيفة، التي تربط الدين مع جميع هذه العناصر ولو على مستوى الحد الأدنى، الذي يسمح بطرح الأسئلة المستجدة والقضايا الجديدة، وليس لدينا وقتٌ لنضيعة

في تكرار القديم، وعلى الخطاب الديني أن يجدد منطلقاته وأدواته، مستفيداً من الدراسات المتعددة والتي تجري حالياً على جبهة الدين والثقافة. ونحن نهيب بالفكر العربي الجديد على اختلاف توجهاته ومستوياته، أن يجعل من الدين دافعاً لا عائقاً، وأن يتناول القضايا والأستلة المطروحة حديثاً، وإذا لم يؤد فكرنا الحديث هذه المهمة الحيوية والعاجلة، فإنه يُضَيِّعُ فرصة ذهبية، ويفتح الطريق أمام عبث العابثين لهذا الفراغ الفكري دون جدوى، عندها لن نجد السلطة أمامها بديلاً تحت ضغوط المشكلات - وما أكثرها - إلا أن تُسدَّ هذا الفراغ تشريعياً وإجرائياً وعلى عجل بما ينطوي على مزيد من القيود على المواطنين والمفكرين.

- ما علاقة الدين بالفكر الغربي؟

أ - المسار التاريخي كروية معلوماتية: إن تاريخ الدين هو تاريخ البشرية، وعلاقة الدين بالفكر ملحمة إنسانية خالدة، إنها سجل حافل بكفاح العقل، وسير العناغية والضحايا. وتناول كثير من المؤرخين وفلاسفة العلم هذه العلاقة ولا بد من طرح هذه الملحمة التاريخية من منظور معلوماتي حديث، لقناعتنا أن المدخل المعلوماتي لفهم علاقة الدين بالفكر يعد مدخلاً أساسياً، نظراً للصلة الرمزية الوثيقة التي تربط بينهما، وإن عصر المعلومات يفتح صفحة جديدة في تاريخ هذه العلاقة، هذا يفرض علينا مراجعة تاريخية شاملة للمسلمات من أجل تجديد المنطلقات والمناهج. إن فصول ملحمة علاقة الدين بالفكر - في طفولة عقله لجأ الإنسان إلى الخرافة والأساطير لتساعده في حيرته أمام ما يلاقيه في واقعه من مظاهر يصعب عليه تفسيرها، فقوس قزح كان قوساً في يد الله يبيد به من يشاء، والبرق ملاكاً يسوق السحاب أمامه بمقلع من فضة، واللاهوت كان علم القرون الوسطى، والدين شاملاً وموجهاً للفكر، وعندما ظهر العلم بدت مساعي الوفاق بين الفكر والدين، فكانت محاولات (سانت أوجستين وتوماس الإكويني)، أمثلة رائعة للوفاق بين فكر الإغريق والتعاليم المسيحية، وسعى ليبترز بعد ذلك بقرون، أن يحدث نوعاً من الوفاق بين السياسة واللاهوت والعلم. وهذا

الوفاق لم يجد طريقه إلى عقل المؤسسة الدينية، فحصل الصراع بين الفكر والدين: وهذا جاليليو يختر راکما أمام الكاردينال معتذراً وهو شيخ مريض، ويلقى (برونو) الذي أهدى البشرية مفهوم اللانهائية، كانت نهايته محترقاً على الخازوق، ويشنق (سافونا رولا)، وتحرق جثته لتجربته على احتكار الأرستقراطية لقيادة الكنيسة. أما ديكارت الذي أقام العلاقة بين فكر الإنسان والوجود، كان عليه أن يخفي فكره عن الوجود نفسه، خوفاً من بطش محاكم التفتيش. ونسف كل من (كويرنيكوس وجاليليو وكبلر) معرفة العصور الوسطى، ليمهدوا الطريق أمام عقلانية ديكارت المحضة، وقطعية فيزياء نيوتن الصارمة، ومع إقرار الكنيسة بهزيمتها أمام سلطة العلم، كان الانفصال بينهما. ونمت النزعة العلمانية، وكما اتخذت الكنيسة موقفاً لاعفانياً تجاه العلم، كان للمفكر مواقف لآخلاقية، فهذا (ديفيد هيوم) يعلن عن عنصريته الفجة، عندما أكد الانحطاط العقلي للبشر من غير البيض. ولكن ما العلاقة بين الفكر الديني وفكر عصر المعلومات؟ ويقول (هيجل) أن هناك في جوهر الأشياء يرقد شيئاً من التعقل تحت سطحها. وماذا لو تجسد هذا الغامض المختفي في جوهر الأشياء ذكاءً متنازلاً من حولنا تحتويه النظم والآلات؟ وماذا يعني هذا الذكاء الجمعي المحتشد بالنسبة لمعتقدات الإنسان وقيمه؟ وهذا كان مصدر الصراع بين الفكر والدين، نتيجة عدم نفاذ هذا الفكر إلى عقل المؤسسة الدينية، واليوم تواجه البشرية نفس الموقف حيث يحتمل أن يتخلف الفكر الديني عن الفكر الإنساني إذا فشل في استيعاب فكر عصر المعلومات، وفشله سيؤدي إلى صراعات من نوع جديد لم تشهدها البشرية من قبل، ويشهد عصر المعلومات مسارين رئيسيين: المسار الأول يشهد نوعاً من الوفاق بين العلم والدين، وهو ضروري بعد أن دفعت البشرية كلفة باهظة ثمن الانفصال بينهما، ولم يعد مستمعا أن يقف الإنسان حائراً بين العلم والدين، ما بين (عقل بلا إيمان) حتى يتحرر هذا العقل وينطلق بلا قيد أو شرط من عقيدة أو وازع ديني، وبين (إيمان بلا عقل) ليسمو هذا الإيمان إلى الرشاد والخلاص، دون قيود من منطق العلم وقوانينه. نعم انفصل العلم عن

الدين في ظل العلمانية، لكن قيم الدين بقيت هناك، حتى في أكثر البلدان إنتاجاً للعلم، وكما قال (بيتر برجر) نحن نرى اليوم من يشبه المجتمع الأمريكي بشعب من الهنود، أكثر شعوب الأرض تدِيناً، وعلى رأسه نخبة سويدية، أكثر شعوب العالم علمانية، واليوم كيف تكون علاقة الدين بالعلم في عصر المعلومات؟ لقد نجا الفكر من الحتمية الدينية ليقع في قبضة الحتمية العلمية، فأمرق الإنسان في ثقته بالعلم، حتى أصبحت ميثافيزيقيا العلم في الوضعية المنطقية لدرسة فيينا بدلاً عن الدين، وأفرزت حتمية العلم سلسلة من الحتميات لتعصف بتاريخ البشرية: حتمية تاريخية، وحتمية بيولوجية، وحتمية لغوية، وقد صاحب هذه الحتمية العلمية عدم يقين ديني إلى حد التشكيك في جدوى الدين، ومن الحتمية العلمية ينتقل الفكر الإنساني إلى النسبية، وعدم اليقين العلمي، ولانهاية الإشكاليات المعرفية، وأخيراً يحل بنا عصر المعلومات وخائلياته، وبينما كان الإنسان يصنع في طفولة عقله آلهة عالمه الأسطوري، نراه اليوم في عصر المعلومات يصنع عوالم كاملة من صنعه، عوالم الواقع الخائلي، يمارس فيه تحرره العقلي والروحي، ليهتدي في مسالك الخائلية إلى ما يفتقده من أمنه وسعادته في دنيا الواقع، وكان عدم اليقين العلمي هو وليد علم ساداته الفيزياء، وهل يمكن لفكر يسوده البيولوجي وعلوم الإنسانيات أن يعيد للمقل حيويته وإنسانيته؟، إن العقل يواجه طفولة جديدة، طفولة عصر المعلومات، يبحث عن الحقيقة إلى ما لانهاية، ويسعى من خلال عوالم الرمز الميكروية إلى أن يعيد صياغة علاقته مع الماكرو الكوني، وقد تمسكت المسيحية بمبدأ نهاية التاريخ، إلا أنها تركت مفهوم نهية التاريخ واقرت بلا نهائيتها، حيث المستقبل مفتوح دائماً أمام الجميع، ولم تعد فكرة أن الناس هم صناع تاريخهم معادية لجوهر العقيدة المسيحية المعاصرة. (سمير، أمين ١٩٩٩).

ب - هل تقوى المعرفة على عقلنة قوى العوالم؟ كانت المعرفة على مدى التاريخ الأداة الأساسية لعقلنة القوة، من أجل تبرير ممارستها، وتشديد قبضتها على الخاضعين لها، وكان هتلر صريحاً وقاطعاً في ضرورة مؤازرة

العلم لسياساته، وقد قال في كتابه (كفاحي): سياسة بلا مند بيولوجي وبلا غايات بيولوجية سياسة عمياء إلى أقصى حد. وتعددت مشاهد استخدام العلم لمساندة القوى السياسية والفكرية والاقتصادية فاستخدمت نظرية دارون ومبدأ البقاء للأصلح، وعلم النفس المعيارى وما وضعه من مقاييس الذكاء الكمية، من أجل تبرير السياسات العنصرية، والاضطهاد العرقي والديني. وعلى المستوى العسكري أصبح العلم والتكنولوجيا بمنزلة العقل المحرك للمنظومة العسكرية كلها، من صناعة السلاح إلى التدريب على القتال، وإدارة المعارك، ووضع الاستراتيجيات، واختبار فاعلية الأسلحة والتكتيكات. وكان للقوة الاقتصادية نصيبها من الدعم المعرفي، وكان علم الإدارة الذي أسسه (فريدريك تيلور)، وهو لا يرى بديلاً لعقلنة نظم الإنتاج إلا من خلال تحويل العامل إلى ترس في آلة الإنتاج الضخمة، يقوم أداؤه بالمعايير الكمية لقياس الإنتاجية ومستوى جودة الإنتاج، ودراسات الوقت والحركة، وتلوح في الأفق بوادر استغلال معرفة عصر المعلومات، من أجل عقلنة قوى العولمة على الصعيد الاقتصادي والإعلامي، وأمريكا تعمل أكاديمياً ليلاً ونهاراً لتقديم الدعم المعرفي للعولمة، في صورة فكرٍ يفتت حتمية العولمة إلى مجموعات من الحتميات المعرفية: - حتمية اقتصادية، إما الرأسمالية الليبرالية وإما لا - حتمية إعلامية: إما اتباع نمط الإعلام للمؤسسات المتعدية الجنسية وإما لا - حتمية لغوية: إما الإنكليزية وإما لا. - حتمية أخلاقية: إما خلق عالمي بالمفهوم الأمريكي وإما لا. وتوفر وسائل الإعلام وسائل عدة لمساندة سلطة القوى الاجتماعية نذكر منها التالي: - استخدام الإحصائيات والمؤشرات منزوعة من سياقها لمساندة القرارات وتحرير السياسات - استخدام نماذج محاكاة رقمية مصممة لمحاكاة سيناريوهات بعينها، مع التعمية والتعتيم على القروض التي قامت عليها هذه النماذج، وقد لجأ الغرب إلى مثل هذه النماذج المتحيزة بفرض التقليل من الأهمية الإستراتيجية للبترول العربي، كي يصبح تحت رحمة المشتري لا البائع - هناك من يحاول إقحام علم النفس لتبرير عنف الإعلام الترفيهي، على

أساس أن العنف غريزة متأصلة في النفس البشرية، وأن العنف التليفزيون والسينما وألعاب الفيديو هو بمنزلة تصريب للطاقة الكامنة لهذه الغريزة.

ج - الدين تحت عدسة العلم: إن الدين ظاهرة محيرة ومعقدة شغلت العلماء والفلاسفة وأهل تكنولوجيا المعلومات، وقد أقحم العلماء أنفسهم في هذه الظاهرة النفسية الاجتماعية، وأثناء هذه الحيرة يلجأ العلم إلى الاختزالية، فتارة لا يجد في الدين إلا جانبيه النفسي، وتارة أخرى يرى دوره الاجتماعي فقط، وأهل الأنثروبولوجيا اللغوية يختزلونه إلى مجرد ظاهرة رمزية، أما أهل تاريخ الدين لا يشغلهم سوى تطور نظم المعتقدات مع تطور المجتمع الإنساني، عبر الأزمنة المختلفة، ومن هذه النظم: الأساطير، والسحر، والدين والعلم - أولاً علم النفس:

يطابق فرويد بين المراحل المختلفة لنضج الإنسان نفسياً ومراحل تطور المجتمع عقائدياً، في محاولة لإخضاع هذه الظاهرة الجمعية إلى: (الأنثا) - (والأنثا) الأعلى وال (هو)، وهنا يختزل فرويد الظاهرة الدينية إلى حالة من حالات اللاوعي الجمعي، وكنظير للاوعي الفردي، معتبراً الدين حالة من حالات عدم نضج المجتمع، والدين عنده شيء يناظر الخيال لدى الأطفال، أو وهم اجتماعي نتيجة الإحباط والمعجز من مواجهة المجهول، ليتقلب الفرد على شعوره بالضيق أمام قوى الطبيعة، ويعدده (كارل يونغ) يأتي ليركز على وظيفة الدين في توجيه السلوك، مطبقاً عليه نظريته العامة عن النماذج الأصلية التي تفترض أن البشر يولدون بمكونات اللاوعي نفسها، ولديهم ملكة غريزية لبحث قيم الماضي وصور السلف، وفي ظل هذا التصور تبدو المعتقدات كمضاهيم الخلق والبعث والخير والشر والشيطان، وكأنها محصورة في عقل الإنسان غائرة في طبقات لاوعيه، وتطفو على السطح متجلية في رموز الأحلام والأساطير والفن، وهذه الفكرة عن المعتقدات التي يتحدث عنها على أساس كونها غريزة نولد بها، يسيل لها لعاب الذين يتحدثون عن خلق عالمي يسمو فوق فروق النسبية الثقافية، وهو ما يذكرنا بالنموذج الذهبي للغة الذي وضعه (نعوم تشومسكي)، مفترضاً أننا نولد بغريزة لغوية عامة، يشترك فيها

كل البشر، كما حاول ماكس فيبر التوفيق بين فرويد وويوتغ، حيث أدرج الدين ضمن الدوافع الواعية التي تقي الفرعات الشخصية، وتدفع بالمجتمع إلى تحقيق أهدافه الاقتصادية والاجتماعية. أما (دور كايم) فهو مؤسس علم اجتماع الدين، فهو يرى الدين ضرورة أساسية لتعاسك المجتمع كما يراه مؤسسة مستقلة بذاتها، كما أسقط الجوانب النفسية والتاريخية لظاهرة الدين، فاتهمه البعض بالفشل في تناول ظاهرة الدين المعقدة. ويأتي كلود شتراوس مؤسس علم الأنثروبولوجيا اللغوية ليزدري التوجه النفسي في تفسير ظاهرة الدين، وي طرح نهجاً لغوياً لتناولها، ليُطبَّق على النصوص والطقوس والشعائر والمؤسسات الدينية، فأصبحت اللغة أساساً رئيسياً لدراسة الرموز الدينية، معناها ومبناها، والتركيز على دلالات وبرجماتيات الرموز المقدسة؛ ماذا تعني؟ وكيف تدمج وتستخدم في صلب ثقافة الجماعة؟ وكيف تشكل رؤية البشر إلى العالم؟ وكيف يلجأون إليها لحسم ما يستعصي على فكرهم من ظواهر الطبيعة وظواهر الوجود الإنساني؟ ورغم ازدياد كلود شتراوس للتوجه النفسي في النزعات النفسية الدينية، إلا أنه عمل على استخلاص معرفة اللاوعي المختبئة وراء الأسطورة، لمحاولة معرفة ما فعلته في عقول القدامى، وخلقوا من لا عقلانيتها خرافة تبدو كأنها حقيقة راسخة يعتد بها ويقاس عليها، ورفض شتراوس تصنيف المعتقدات الإنسانية ما بين عاقلة، وغير عاقلة، وربما كان متأثراً بتوجه علم اللسانيات الحديث، والذي يرفض تصنيف اللغات الإنسانية إلى لغة راقية وأخرى بدائية. وأخيراً يأتي مفكرو ما بعد الحداثة، ليرفضوا كل فكر يأخذ مرجعيته من السرديات الدينية الكبرى، وهم في هذا لا يحرمون البشر من الحلم بخلاص يأتيهم من خارجهم، بل يحرمونهم من حلم الوفاق، وإمكان التواصل بين البشر، فالصراع قدر لا بد منه، والتواصل من المستحيلات، ولكن اليوم نتوجه نحو المعلومات، لأن تكنولوجيا المعلومات توفر بنية تحتية قوية، لدراسة ظاهرة الدين، بصورة أكثر عمقاً وشمولاً، والمعلوماتية يمكنها أن تخلص التنظير الديني من اختزاله وانغلاقه، وذلك بتوفيرها للعديد من الوسائل العملية لدراسة

الظواهر الدينية في سياقاتها الاجتماعية، تضم هذه الوسائل نماذج المحاكاة التي يمكن استخدامها في إعادة البناء التاريخي، بهدف دراسة مسار التطور التاريخي للمعتقدات الإنسانية، ومن دونها يتعذر علينا استيعاب هذه المظاهر الاجتماعية، ومن المؤكد أن نظام القيم في عصر المعلومات سيتغير بمعدلات سريعة، مما يعيق الدراسات الميدانية من قبل باحثي علم اجتماع الدين، وربما تشكل النظم الواقعية الخائلية، معمل اختبار للتجربة الأنثروبولوجي. إن مجتمع المعلومات لم ولن يصنع آلهته الخاصة به، بل هو سيوطد العلاقة من خلال عوالم الرمز، بينه وبين عالمه، وبين خالق هذا العالم.

- علاقة الدين بالفكر العربي -

١ - الدين تحت عدسة الفكر العربي: لا يمكن الفصل بين الدين الإسلامي والعقل العربي، فهما متدمجان قديماً وحديثاً، دينياً كان أم لغوياً. فالغزالي يقول في (إحياء علوم الدين) لا غنى بالعقل عن السماع، ولا غنى بالسماع عن العقل، وَيُتَّهَمُ بالغباء والجهل من يكتفي بمعرفة الدين، وَيُرْمَى بالغرور من يكتفي بالعقل دون أنوار القرآن والسنة. أما العقل عند المعتزلة فهو وكيل الله على الأرض. ويرر علماء الكلام - أصعب النظرة العقلانية - لجوهم إلى علوم الإغريق برغبتهم في دحض ما يتناقض فيها مع الإسلام. (أرثور سعيديف: ٢٠٠٠) وانشغال إخوان الصفا بالفلسفة الإغريقية كان من أجل تنقية الشريعة مما دنسها من جهالات وضلالات، ونمت التزعة العقلية عند ابن سينا بدافع التأمل في مسألة النبوة من الزاوية العقلية (المصدر السابق نفسه)، وتوجهه الفلسفي في تهذيب الأخلاق أساسه مبادئ الإسلام، وفيما يخص ابن رشد كان توجهه بتوثيق الصلة بين الدين والعقل، وهو معروف من عناوين كتبه: فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، (مناهج الأدلة في عقائد الملة) واتخذ من الموجودات دلالة على وجود الخالق. وبالحقيقة تأسس الدين الإسلامي على الإيمان بوجود أصل إلهي للعقل، بينما الفكر الغربي في بعض مراحله راح يبحث عن أصل عقلاني لوجود الله، وبهذا الاندماج بين الفكر والدين، لم يعد هناك مساحة كافية

تفصل بينه وبين الدين، ليتسنى له الكشف عن شبكة العلاقات التي تربط بينهما، خاصة على أصعدة الإبداع واللغة والتربية فظلت العلاقة بين الدين والعقل غائمة إذا لم تكن غائبة في رؤيتنا الثقافية، وعلى الرغم من طنين خطابنا الديني الصريح والإعلامي، وطابعه غير العلمي في مجموعه وما زالت ساحتنا الثقافية تفتقر إلى الفكر النظري الرصين الذي ينظر إلى الدين كظاهرة اجتماعية متعددة الجوانب. ومن أهم سمات فكرنا الديني التالي: - حساسية عالية في تناول الظاهرة الدينية: يعتبر البعض أن التعامل مع النصوص الدينية هو قلب للأوضاع أو تجرؤ الجزء على الكل، فكيف يتناول العقل الدين، والعقل صنيعة الدين؟ ومعظم قضايا العقل إنما تقع نطاق الفكر الأخلاقي (محمد أركون ١٩٩٨)، وبينما الفكر الإسلامي المستقطب في الصراع والنضال، ليس لديه متنفس من الوقت ليولي علم الأخلاق والسلوك الاهتمام العلمي الجدير به، وخاصة في ظل متغير عصر المعلومات، الذي فجر الساحة الثقافية إشكاليات أخلاقية، ونحن مازلنا نقول أنه لا فرق بين عالم الأخلاق والداعية الأخلاقي، كما لا نفرق بين المنظر القوي والمعلم القوي.

- أين التراكبات؟ لم يمارس الفكر النظري الديني عندنا، التراكم الذي مارسه الفكر الغربي، وهو تدرج من محورية الميتافيزيقا ومفهوم الإلهية، إلى محورية الإنسان، ومن عقل يسيطر عليه الدين إلى عقل يعلن انفصاله عنه، وعندما شن ابن قتيبة الحرب على الفلسفة، استمرت المناقشة واتسعت وتعقدت، حتى تدخل ابن رشد الذي انتهى بالفشل (نفس المصدر السابق)، ومنذ ذلك الحين حتى اليوم، لم ندرس مشكلة الروابط بين العلوم الدينية والعلوم العقلية، بكل أبعادها الفكرية والحقيقية، وفكرنا الديني همه ردم الهوة بين فكر الأوائل وواقع حياتنا المعاصرة، وفكرنا العلماني ضارق في الإيديولوجيات، والمشاكل التي وردت إليه حتى الآن، ولم يستطع أن يتخذ منها موقفاً نقدياً، أو أن يظهر أماكن التوافق أو التباين، بين أصول الماضي وحقائق الواقع.

لماذا الانكفاء على الذات؟ يفتقر معظم الإسلاميين إلى العمق والاستيعاب لفكر الحضارة الغربية، وخاصة في جوانب الفكر الفلسفي،

ويكتفي بمقارناتٍ عامةٍ - المقارنة مثلاً: بين شك الفزالي والشك الديكارتى، وابن رشد وأرسطو، وفكر المعتزلة وفكر حركة التنوير (نفس المرجع السابق) ولا اعتراض لدينا على هذا وعلى ربط معرفتنا بالمعرفة الإسلامية، لكن ما لا يمكن قبوله البتة، هو الوقوف عند تخوم المقارنة، فهذا انكفاءً على الذات ومن ثم اجترارها على مدى الأيام والمئين، ولا نتخذها دافعاً للبحث والتقيب، وتحديداً لمواضع اللقاء والافتراق، مثلما فعل الفارابي وابن سينا والرازي. وفكرنا الديني هذا يرفض معرفة ذاته برفضه لفكر الآخر، عكس الفكر الغربي، الذي لا تكتمل صورته عن نفسه إلا من خلال استيعابه لفكر الآخر، ولما أهملنا كل ذلك تقدم الاستشراق ليحتكر دراسة منهجية الإسلام، متحرراً من كل حساسية تجاهه تمنعه عن تناول قضاياها الشائكة، وهذا الاستشراق اخترعه الغرب، لم نحاوره بجديّة، ولم يحظ بأي اهتمام نقدي، لتعرف على فرضياته وتوجهاته وآفاقه، وكل الشكر لإدوارد سعيد على ما قام به، ولولاه لبقى هذا الخطاب الاستشراقي منغلماً علينا من حيث قوة المعرفة التي أقرته، وسبق أن استسلم له عددٌ من المثقفين والعلمانيين عندنا، وراحوا يرددون استشراقيةً مفرضةً واختزاليةً، وجعل هؤلاء من المستشرقين بسيطاً معرفياً، يفصل بينهم وبين مصادر المعرفة الأصلية.

- لماذا خابت الروابط بين الفكر الديني وينابيع المعرفة الأخرى؟ إننا قد عجزنا من فهم الروابط القوية بين فروع المعرفة الإسلامية من نحو ومجمعية وأدب وتاريخ وثيولوجيا وتفسير وقانون (محمد أركون ١٩٩٨)) وما زال معظم المنظرين الدينيين التقليديين بعيدين عن المعرفة الكامنة وراء الفنون. أما حوار العلمانيين والإسلاميين ليس هو بحوار، وهذان التياران الإسلامي والعلماني يتحاوران عن بعد، من خلال الوسيط الغربي، فالإسلامي يترصص بالعلماني ويرواسب فكره الغربي، وفكرنا العلماني يستكر على تيارنا الإسلامي عدم استيعابه لفكر الغرب. وهكذا تتوالى ردود الأفعال، من إسقاط الإيديولوجيات تعسفاً على أمور واقعنا، وأسلمة للعلوم، وإدانة للاستشراق بما فيه الجيد والوردي، واستغراب بالاستشراق، يتخذ من الغرب

- مستخدماً أدواته - موضوعاً له، في الوقت الذي يتجه فيه علم الاستشراق نحو الزوال، واليوم يسعى الجميع لإدراج الاستشراق بالعلوم الإنسانية، وهذا يذكرنا بما قاله أدونيس عندما تساءل: ماذا يبقى للثقافة العربية، الراهنة بعد أن نستقطع منها كل ما تم استعارته من فكر الغرب؟ وأخيراً وليس آخراً، إن تقاعسنا في فهم علاقة الدين بالعقل يمثل حجر عثرة في طريق مجتمعاتنا العربية إلى دخول عصر المعلومات، الذي تعود القوى الرمزية، وهو ما يتطلب فهماً عميقاً لموقع الدين في منظومة القوى الرمزية، كما يتطلب تجديد النظرة إلى نصوصنا الدينية، وهذا يؤكد أهمية اللسانيات وتكنولوجيا المعلومات كأداة فاعلة لتحقيق هذه المهمة.

ب - الاستشراق في عصر المعلومات: لقد استفزنا الخطاب الاستشراقي لكنه لم يستهضنا، وأثار حمية الكثيرين منا، وما أكثر ما هاجمنا وما هاجمناه واشتبكنا معه في معركة غير متكافئة، ورغم كل ما يقال عن خطاب الاستشراق، انحيازه وتحامله، وكونه وليد المركزية الأوروبية، كما قال عنه حسن حنفي، ونشأ في ظل عنصرية شرسة لا ترحم، لكنه في جانب من جوانبه لا يمكننا تجاهله وخاصة بتطبيقه للمناهج العلمية في تناول الدين الإسلامي كظاهرة اجتماعية تاريخية، وذلك بفضل وضعه المتميز في التعامل مع الظاهرة الدينية دون حساسية بل ببرود مسرف أحياناً، ولم يستطع هذا الفكر الاستشراقي أن يستهض فينا اللغة وعلاقة السلطة بالمجتمع، وبمض الأمور الخاصة بالعلاقات ما بين الفئات الاجتماعية، وقد جمع البحث الاستشراقي معلومات منسجمة عن المجتمعات الإسلامية، وخصوصاً المجتمعات التي تتكلم اللغة العربية (نفس المصدر المذكور)، وهذه المعلومات ثروة حقيقية لا يمكن الاستغناء عنها في بحوثنا الاجتماعية وبحوثنا الدينية واللفوية بصورة خاصة. وقد تعامل الاستشراق مع مراحل ثلاث في كل منها موقف من طبيعة المعلومات - مرحلة ما قبل الخمسينات: قال لنا إدوارد سعيد، أن هذه المرحلة تعد نموذجاً في إثبات صدق مقولة القوة. وذلك بأن القوى الاستعمارية قادرة على إنتاج خطاب معبر يقوم على خدمتها.

فالتوسعات الاستعمارية، وسرعة انتشارها، لم تعط هذا الخطاب فرصة كافية ليحيى انتقائيا واختزاليا من حيث مصادر المعلومات، أو مناهجه أو نتائجه. - بعد انحسار موجة الاستعمار: تركّز الجهد الاستشراقي على تجميع المعلومات وتنظيمها، وساده طابع التحقيق والتوثيق والأرشفة، فكان استشراقا عن الماضي مقطوع الصلة عن الواقع الراهن (نفس المصدر السابق). - عندما استرد الإسلام حيويته:

ومع تعاظم دوره في الساحة السياسية، انتقل مركز الثقل من فرنسا التي شغلها إسلام الماضي إلى الولايات المتحدة، التي قادها فكرها البراغماتي إلى التركيز على إسلام الحاضر وممارساته الفعلية، ودراسته من خلال تحليل نوعيات خطابه المختلفة، وساعد أمريكا في ذلك نمو التوجه اللغوي في التنظير الثقافي، حيث أمريكا تقود التنظير اللغوي عالمياً، وينشغل الخطاب الاستشراقي الأمريكي بمشكلات محددة مثل: الأقليات، وعلاقة الفرد بالدولة، ويسيطر على فكره توجه محوري نحو وضع نظرية عامة للتراث الديني والدين المقارن، وهذا ما يحول بينه وبين التعمق في خصوصيات الدين الإسلامي.

ج - أسلمة المعرفة تحت عدسة المعلومات: بعضهم يقول بتوسيع نطاق أسلمة العلوم، ليشمل جميع علوم الطبيعة والإنسانية والتكنولوجيا والفنون والفلسفة. ويبدو هنا توجهين اثنين هما: التوجه الأول: لا يفرق بين علوم الدين والدنيا، (لا معنى لهذه التفرقة في جغرافية الإسلام)، وهذا التوجه نستطيع أن نفرّعه إلى فرعين: أحدهما: يتبنى أسلمة جميع العلوم المعرفية من الصفر، والثاني ينظر إلى أسلمة المعرفة نظرة انتقائية تقوم على الازدواجية، تصفية المعرفة المستوردة بما يتناقض مع عقيدتنا وقيمنا من جهة، وتعزيز العقائد وتلك القيم من جهة أخرى. - التوجه الثاني: يفصل بين علوم الدين والدنيا، ويمكن أن نفرّعه إلى قسمين: أحدهما: يتبنى استيراد التكنولوجيا من دون الإيدولوجيا، والثاني يتبنى حصر الأسلمة في العلوم الإنسانية دون العلوم الطبيعية، وهذا التصنيف يفتح باب المناقشة على

مصراعيه - فيما يخص أسلمة جميع فروع المعرفة وهو أكثر توجهات المعرفة طموحاً، وهذا قريبٌ من موقف (نيتشه) مع اختلاف الدوافع، والذي تبناه من بعده فكر ما بعد الحداثة، في رفضه جميع الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية، وهذا يقوم على أساس صلاحية الإسلام لكل مكان وزمان، وأن الأصول الإسلامية التي يقوم عليها الإسلام كقيلة بإحداث الثورة العلمية، معتمداً على النص القرآني، باعتباره مصدراً علمياً دقيقاً وهذا التوجه يتناقض مع داخله وخارجه على حد سواء، ويمكن أن نوجزها بالتالي: -
تناقض تاريخي: أكدنا أن قدرة الإسلام بلغته ومعرفته وقيمه قادرٌ على التماثل مع معرفة الآخرين، وتجلي هذا أثناء الفتوحات الإسلامية - تناقض معرفي: عادة ما ينطلق العلم من نظريات فلسفية، وليس لدينا من هذا شيء نبني عليه علوماً خاصة بنا، ويؤدي إلى قتل الوقت والجهد في الاشتباك مع قضايا أولية سبق للفكر الإنساني أن حسمها بصورة قاطعة - تناقض مع معرفة عصر المعلومات: بحيث تغفل الأسلمة الشاملة توجه هذه المعرفة نحو ضم الخاص في إطار العام، بعد أن وفرت تكنولوجيا المعلومات الوسائل العلمية لدعم التنظير العلمي العابر للثقافات والتخصصات، ومن أوضح الأمثلة على ذلك نجاح علم اللسانيات الحديث، في وضع نظرية لجميع اللغات الإنسانية دون المساس بخصوصيتها.

- وعلى الجانب العلمي: أين الموارد البشرية والمعلوماتية القادرة على اختصار الزمن (٢٥٠٠) عاماً من الفكر الفلسفي والعلمي في فترة قصيرة نسبياً؟ وهل تسمح لنا السرعة التي تصير بها المعلوماتية وذات الطابع المؤسسي بفسحة من الوقت لتجري تجاربنا المعرفية؟ وإذا كنا قد عجزنا حتى الآن عن ترجمة مصطلحات هذا العلم، هل يحق لنا أن نعتبر الأسلمة المعرفية هذه ضرباً من رد الفعل؟ وما المانع إذا ابتدأنا من حيث انتهى إليه الآخرون، وأن نضع جهدنا الإنساني والفكري في مسار الفكر السليم؟ وعظمت في ذلك فكر القرب، وهو على تقدمه ونضجه لا يجد حرجاً في التقريب في الفكر المغاير وحتى البدائي، بحثاً عن الجديد من القيم والينابيع الجديدة، التي يحتاجها في معركة الحاضر بإشكالياته المتعددة.

- أسلمة المعرفة انتقائياً: نحن نقدر دوافعه ونحترمه إلا أنه توجه محقوف بالمخاطر، لأن العلم بناءً معرفياً متكامل، لا بد أن نقوض منه بعض الأفكار الرئيسية التي قام على أساسها، مع إدراكنا أن الأمور الخاصة بالعقائد عادة تقع في قلب النظرية لا في أطرافها الثانوية، ومثالنا على ذلك: (نظرية الفلك، ونظرية التطور، ونظرية التاريخ، ونظرية اللغة، ونظرية علم النفس) ولو افترضنا أخذنا علم البيولوجيا الجزيئية، دون مفهوم نظرية التطور لتناقضها مع نظرة الإسلام إلى نشأة الإنسان، كما يتصور البعض فهذا الاقتصاص النظري يقوض الأسس التي قام عليها هذا العلم من أساسه، وهو يذكرنا بما قام به لينين في عهد روسيا السوفياتية، عندما رفض توجهات البيولوجيا الجزيئية على أسس إيديولوجية، وما تعرض له علماء البيولوجيا الروس، من غوغائية تفسيره لفكر ماركس ولينين في هذا الخصوص، وهو ما أدى إلى التخلف الحالي الذي تعاني منه روسيا في مجال الهندسة الوراثية، والبيولوجيا الجزيئية. وكل ما نخشاه أن يمارس عليها البعض غوغائية إيديولوجية ذات صيغة محلية، لتحول بيننا وبين اللحاق بهذا الفرع العلمي التكنولوجي الحيوي، والذي يوليه العدو الإسرائيلي أقصى درجات الاهتمام، لأن هذا الفرع المعرفي يعد نفسه في الوقت الحاضر للقاء علمي تكنولوجي عظيم مع تكنولوجيا المعلومات، وهذا اللقاء سيتوقف مصير البشرية عليه بما يسفر عنه من نتائج.

- توجه اقتناء التكنولوجيا: إن اقتناء التكنولوجيا يبدو لامعاً براقاً في ظاهره دون الأيدولوجيا، ولكنه ينطوي على رؤية قاصرة عاجزة للتكنولوجيا حيث تقتصر على شقها الفني فقط، بطريقة تعسفية، دون المعرفة والتنظيمي والأخلاقي، والتكنولوجيا هذه تكاد أن تصبح فرعاً من فروع فلسفة الأخلاق، وكيف يحق لنا أن تقتص من الهندسة الوراثية شطرها الأخلاقي، وكيف لنا أن نفصل في تكنولوجيا صناعة البرمجيات القائمة على صناعة الأفكار في الأساس، بين ما هو فني، وما هو ذو صلة بالإيديولوجيا (علم الأفكار)؟ وماذا عن هندسة اللغة وما يرتبط بها من تكنولوجيا المخ، التي تقوم على الأسس

العلمية لنظرية اللغة؟ وهي النظرية التي تقوم على سؤال محوري: هل اللغة غريزة تُورث أم مهارة اجتماعية نكتسبها، وماذا عن الجانب الأخلاقي لتكنولوجيا المعلومات فيما تؤدي إليه إلى انقراض اللغات الإنسانية؟

- توجهه. حصر أسلمة العلوم في مجال العلوم الإنسانية دون علوم الطبيعية، هو أكثر بدائل أسلمة المعرفة واقعية، يعتبر استثماراً لخصوصياتنا المعرفية واثخارية لإنتاج معرفة جديدة، وتفجيراً لقدراتنا الإبداعية. وهذا يذكرنا بالأوائل الذين أخذوا الفكر الإغريقي دون ألوهيات اليونان وأساطيرهم، وكيف أخذت الحضارة الغربية عن الحضارة الإسلامية دون أن تأخذ توحد الإسلام وقيمه وشريعته وفلسفته ونظريته إلى الكون (محمد عابد الجابري ١٩٨٩) حسبنا عدم قيامنا بأسلمة علوم الطبيعية حيث بات أمراً بدهياً في غير حاجة إلى مزيد من حيثيات التبرير. أما اقتراح أسلمة العلوم الإنسانية هو توجه يحتاج إلى نظرة متأنية ومنعمقة، ويجب أن نأخذ في اعتبارنا الحقيقتين التاليتين: - هدف الإنسانيات: تسعى الإنسانيات إلى الانضمام إلى مستوى العلوم الدقيقة، ويتزايد اعتمادها على علوم الطبيعية كمصادر معرفية. - علوم الإنسانية في بدايتها: فكيف لنا أن نلحق بمسارها دون أن نتفلق في قمقمنا الفكري، فكر نقميه بأنفسنا وحولنا، لعزلنا عن غيرنا؟ أم نتظر نضجها العلمي ثم نُسرع في أسلمتها؟ ليس من المجدي أن نلحق بها في بدايتها؟ نطوع ما هو خاص بنا في إطار العام الإنساني؟ والذي يخلصنا نحن بدلاً من أن نظل نؤسلم حتى نستسلم، ومثالنا على ذلك إدوارد سعيد في تحليله المعرفي لخطاب الاستشراق، حيث تجاوزت نظريته العلمية الخاص العربي والإسلامي، ليصب في مسار التنظير الثقافي العالمي، ولا سيما ما يخص علاقة القوة بتوليد المعرفة، وقد أقر محمد أركون اقتراحه الخاص بالإسلاميات التطبيقية باعتباره فرعاً من فروع الأنثروبولوجيا الدينية (محمد أركون ١٩٨٩).

- كيف نحل أزمة فكرنا الديني؟ إن علاقة الدين الإسلامي بالفكر قد استقرت، بين فكرنا الذي يخشى اقتحام تخوم التحريم التي أقامها حول

نفسه وتكاليف الافتحام، بينما يشكو من نقص في عتاده المعرفي ومناهجه ومصادر معلوماته، وبين فكر الاستشراق، الذي يتعازل إلى المنهج على حساب الموضوع، ويكتفي بالجرد المعرفي والتسجيل والحصر، ويحجم عن التحليل والدخول في التفاصيل، وينأى عن تناول الخصوصيات الثقافية عبر لهفته على إقامة نظريات عامة في مجال اللغة والتراث ونظام القيم والأخلاق، علاوة على ذلك وكلاً الفكرين يرفض التواصل مع الآخر وشبه إدوارد سعيد الحوار بينهما بحوار الطر شان، إن الهدف من تحويل مسارنا الفكري الذي يتسم بطابع رد الفعل إلى رافد علمي يصب في المسار العلمي العام، وكما اقترح محمد أركون بشأن الإسلاميات التطبيقية، يمكن لنا أن نقترض المنهجيات لتطبيقها على موضوعات وإشكاليات منبثقة من واقعنا، ويتيح لنا هذا أن نبدأ من حيث انتهى إليه الآخرون، لأجل اللحاق بهم في جولاتهم القادمة لتطوير مناهج العلوم الإنسانية، ولا عيب في هذا الاقتراض المنهجي، وكلنا يعلم أن اليابان قد أقامت مجدها التكنولوجي على استيراد براءات الاختراع، قبل امتلاكها القدرة على توليد معرفة جديدة، وهما هي تصدر براءاتها، أما فيما يخص الموضوعات، فما أكثرها لدينا، نظراً لتعدد الظاهرة الإسلامية، وثراء مضمونها، والوضع الفريد لنصها المحوري داخل منظومة المعتقدات والقيم، إضافة على حالة الضوران الشديد التي تعيشها مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وما يحكمه صراعنا مع العدو الصهيوني أمريكي، من المحتم أن يولد كل هذا إشكاليات جديدة، يتفرّد بها فكرنا العربي، وهي إشكاليات اعتاد أن يختزلها الفكر الغربي في إطار مقولات الإرهاب الأصولي، والإسلام السياسي، والنسبية الثقافية، ولدينا كثيراً من الإشكاليات القادرة على استثارة باحثينا، ومن حسن الحظ أن جميع علوم الإنسانية تعتمد على علم اللغة، بصورة أو بأخرى، وقد نجحت علوم اللسانيات الحديثة في إدراج الخاص اللغوي في إطار رؤيتها العامة الشاملة للغات الإنسانية. وقد كان لعالم اللسانيات المغربي (عبد القادر القاسي الفهري)، إسهاماته الخلاقة في اغناء هذه النظرية اللغوية، منطلقاً من خصوصيات اللغة العربية وهي

الإسهامات التي أقر بأهميتها تعوم تشو مسكي، صاحب هذه النظرية العامة، أما عالم اللسانيات اللبناني جوزيف عون، يضع مثال اللغة العربية في بؤرة تنظيره، وقد أصبح من علماء اللغات عالمياً، وتؤكد تجارب الكثيرين من المنظرين العرب، جدوى أن نبداً مما انتهت إليه اللغة الإنكليزية، ونتوسع من ذلك انطلاقاً من أجل الوفاء بمطالب اللغة العربية، وهو ما أدى بعد ذلك إلى تطوير نماذج تكنولوجية للغة العربية، تصوق تلك المصممة للغة لإنكليزية، لسبب بسيط مؤداه: أن اللغة العربية تتطوي لغوياً ومعجمياً وحاسوبياً على العديد من الإشكاليات، غير الواردة في اللغة الإنكليزية، في حين جميع إشكاليات اللغة الإنكليزية تدرج في إطار اللغة العربية. وعلى مستوى آخر كما قال سمير أمين إن الثقافة الغربية الجديدة والتي نشأت مع الحداثة ليست هي استعرازاً لمسيرة المسيحية، وإنما أقيمت على أساس قطيعة تامة من التراث المسيحي (تركي الحمد ١٩٩٩) والبعض ينادي بقطع العلاقة مع تراثنا العربي والإسلامي، كشرط للحاق بركب الحداثة، وهذا يحتاج إلى مراجعة في ضوء متغيرات عصر المعلومات، والتي أدت بالفكر الغربي الحديث إلى التخلص من هذه النظرة القاصرة إلى أهمية التراث، ولا يستقيم الفكر دون أيديولوجيا معرفية، تربط الماضي بالحاضر، في مسار متصل، حتى يتسنى له فهم هذا الحاضر واستقراء مستقبله، ولا شك أن تكنولوجيا المعلومات أداة فعالة لإعادة صلتنا بالتراث على أسس أكثر موضوعية وشمولية، ولا بد من استغلال وسائطها لإعادة فرز الخطاب الاستشراقي، من حيث مصادره أو مناهجه وتحضير لتدقيقه عبر نظرة نقدية متعمقة، تتخلل حضاده، لأجل الفصل بين الموضوعي والإيديولوجي، وبين العلمي وشبه العلمي، خلاصة القول: إن حسن استغلالنا لتكنولوجيا المعلومات هو وسيلتنا لاختصار المسار العلمي المنهجي، وتوفير البنية التحتية للتنظير الديني، الذي يتعامل مع الظاهرة الدينية في سياقها الاجتماعي

- اللغة والدين لدى الغرب: - ما علاقة اللغة بالنصوص الدينية؟ - إن علاقة اللغة بالنصوص الدينية السماوية على وجه الدقة، تتميز بالتالي: نشر

الدعوة الدينية بلغات متعددة، لتلبي مطالب العولمة الثقافية. - علاقة النسبية الثقافية، بالنسبية اللغوية، وعلاقة كليهما بالكيفية التي يقرأ بها الفرد نصه المقدس - الجانب الأخلاقي وقد سبق الإشارة إليه، فيما يخص انقراض اللغات بفعل المعلوماتي والإعلامي - علاقة عولمة الثقافة بعولمة اللغة، وعلاقة كليهما بدراسات الدين المقارن، في إطار التوجه نحو إقامة خلق عالمي تقره كل الثقافات. والأهم من هذا كله، أن اللغة تحمل في جوفها رواسب إيديولوجية تعكس الجماعة الناطقة بها، ولا يقتصر ذلك على ما اعتدنا الحديث عنه حول أثر الثقافة الصائفة في مفردات المعجم، مثل مفردات: الصحراء. والجمال. والناقة في معجمنا العربي، أو على صيغ (كثير الرماد أو التشبيه المجازي (مثال قاطرة الصحراء) بل توجد هذه الرواسب في صميم المنظومة اللغوية، ومثالنا على ذلك، التعامل مع ظاهرة التذكير والتأنيث في اللغة العربية، وتفضيل المذكر على المؤنث في مطابقة الفعل والفاعل، ومثالنا على ذلك (جاء المرأة وطفلها) وتأنيث جمع غير العاقل، مثالنا على ذلك (مبان شاهقات)

- اللغة العربية والدين: كل لغات الأرض قادرة على توصيل رسالة الرب، هذا هو المفهوم الذي تنطلق منه الكنيسة حالياً في حولة جهود الدعوة، على العكس من ذلك يعارض لدينا توجه تعدد اللغات هذا، ويزعم الجابري أن الوحدة الإسلامية لن تتحقق من منظور إسلامي، إلا عندما يتعرب غير العرب من المسلمين لساناً وثقافة، (مع الحفاظ على اللغات واللهجات والثقافات المحلية). ويقول الجابري إن الإسلام من دون لغة القرآن وعلوم القرآن إسلام ناقص الماهية (محمد عابد الجابري ١٩٨٩). واللغة العربية هي جزء من ماهية القرآن كما يرى الأصوليون، وهذا الكلام لا يخلو من المخاطر، ويجب إعادة النظر فيه لأن تفرد اللغة العربية هنا قد لا يروق للآخرين. وذلك للأسباب التالية: - هذا القول يتضمن نزعة لغوية طبقية، كما يتناقض مع النظرية العامة للغة، والتي تؤكد تكافؤ اللغات جميعها من حيث قدرتها على نقل المعاني. - يتناقض تفرد اللغة العربية مع النظر إلى التنوع الثقافي

بين المجتمعات الإسلامية كمورد ثقافي خلاق وثري في عصر المعلومات -
يتعارض مع انفتاح اللغة العربية، وهي بالحقيقة لغة متفتحة ولو كانت منفصلة
لما استوعبت كل تلك التراكمات الهائلة (عبد الهادي عبد الرحمن ١٩٩٨). -
وهل لنا أن ننسى فضل علماء المسلمين من غير العرب على تطوير اللغة
العربية مثل: سيبويه والجرجاني وغيرهم كثيرون. - إن هذا التوجه يؤدي إلى
عزلة وطننا العربي بحضارته مركز الدعوة الإسلامية، عن الجمهوريات
الإسلامية التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي السابق، وخاصة أن العدو
الصهيوني له ميزة ثقافية في هذا الموضوع، ونقصد اليهود الذين هاجروا
من الاتحاد السوفييتي، هؤلاء يتكلمون اللغة الروسية كأهلها. - إن قراءة
النص مترجماً إلى لغات الشعوب الإسلامية، هي الوسيلة الوحيدة لنقل
مضمونه إلى عقل المسلم غير العربي، وتجربة ترجمة الإنجيل من اللاتينية
إلى اللغات الأوروبية جديرة بالاعتناء والاهتمام. - وعلى المستوى العملي، أين
تلك الموارد التي تسمح لنا بترجمة تراثنا العربي، إلى لغات الشعوب الإسلامية
غير الناطقة بالعربية؟ ونستطيع القول أن الجابري لا يقصد بتعريب الثقافة
أن يكون مقصوراً على النصوص الدينية الكبرى دون النصوص الأخرى التي لا
غنى عنها في نقل ثقافتنا العربية. وخلاصة القول: أن من الأفضل لنا تأصيل
الوضع العالمي للغة العربية من خلال الدراسات المقارنة واستغلال التنوع
الثقافي على اتساع العالم الإسلامي لاغتناء ثقافتنا العربية وثقافات
الإسلامية وترايط الشعوب الإسلامية.

- التربية والدين في الغرب: يظهر التعليم اللاهوتي اهتماماً واضحاً من
بداية التسعينات، بشأن العولمة، وإدراج مطالبها التربوية ضمن تنظيماته
ومناهجه، ويرى أن عولمة الفكر الديني هو سياق اجتماعي أكثر مما هو
مضمون معرّف، وهذا يتطلب إعادة النظر في مواد الدراسة، لإضفاء طابع
العولمة عليها، وقد أقرت المؤسسة الأكاديمية اللاهوتية مداخل عدة للوصول
إلى هدفها وهي التالي: - النص الإنجيلي: تعدد القراءات عبر ثقافات متعددة
- التشريع: من منظور عولمة القوانين ومبادئ الخلق العالمي. - البحث

اللاهوتي من منظور الدين المقارن. - منهجيات التعليم والدعوة: التركيز على أساليب الحوار والتفاعل الاجتماعي، وتبادل الوفود والبعثات واستغلال شبكة الإنترنت لحوار الأديان. وهذا لا يتطلب تعديلات جذرية على المناهج فقط، وإنما تغيير الأفكار الراسخة في العقل المسيحي، وخاصة فيما يتعلق بالمركزية الأوروبية، (والعربية على العموم)

- التربية والدين لدى العرب: كان القصد من إبراز مدى الاهتمام الذي يوليه التعليم اللاهوتي لظاهرة العولمة، كي تدرك جامعاتنا الدينية مدى مسؤولياتها إزاء هذه الظاهرة الكونية، نحن في عالم بلغ فيه تعداد المسلمين ما يقارب المليار أي سدس سكان الأرض، وعلى مؤسساتنا الدينية أن تجمع أفضل ما في القلب والعقل، وأن تدرك كيف يعطي هذا الحوار ثماره بصورة أجدى وأعمق، وقلب أكثر ثقة وتساؤلاً ورحمة، وهو يتطلب إعادة النظر في جميع مناهج جامعاتنا الدينية وعلى رأسها الأزهر. لقد حان الوقت لإعادة تنظيم الأزهر، الذي وضع له آخر تنظيم في بداية الستينيات، تجاوباً مع المتغير المعلوماتي، وثقافة هذه المؤسسة المركزية قائمة على التراتبية المتسلطة، معتمدة طابع التلقين، وفتاوى الفتنة الظالمة، التي أطلقها الشيخ القرضاوي ضد المسلمين إزاء بمضهم، في ثورات الربيع العربي (٢٠١١) . ولكن لقاء التعليم والإيمان في الكليات العملية التابعة لجامعة الأزهر، مثلها في ذلك مثل الجامعات الدينية، التي أظهرت انحيازاً إلى صف التعليم، على حساب التنشئة الدينية، وتمثل هذه الجامعات نموذجاً لمزج القيم الروحية مع المعرفة العلمية. وخاصة مع تنامي البعد القيمي والأخلاقي في العلم والتكنولوجيا .

- الإبداع والدين لدى الغرب: يمكن للفكر الديني أن يكون دافعاً إلى الإبداع، كما يمكن أن يكون عائقاً له، وقد أطلق الفكر البروتستانتي حرية الإبداع بعد أن تحرر العقل الأوروبي من تسلط الكنيسة، وأصبح هذا الفكر أكثر وعياً بدوره في تنمية الإبداع، فأنفاس هم من يصنعون تاريخهم، والمستقبل يفتح ذراعيه للجميع، كي يساهموا في إبداعهم، وليس عند المسيحيين، ما يقابل تلمود اليهود وفقه المسلمين (سمير أمين ١٩٩٩) ومن

جهة ثانية يعد التراث الديني بنصوصه ورموزه وطقوسه مصدراً لا ينضب للإبداع شريطة مداومة تجديد النظرة إليه.

- الإبداع والدين لدى العرب: من الحاجة الماسة أن يتحول ديننا إلى مصدر إلهام لمبدعينا، على اختلاف اهتماماتهم، والمفتاح هو تجديد النظرة إلى نصوصنا الدينية الكبرى، والمتكلمون أنكروا التقليد، وشككوا في صحة إيمان المقلد إلى حد تكفيره (أرثور سعيديف ٢٠٠٠) واعترضت المعتزلة على الإجماع على خطأ، والاعتماد على ظاهر النص، دون تأويل لتحقيق الدين (عبد الهادي عبد الرحمن ١٩٩٨)، وعلينا أن نتخلص من المفاهيم الخاطئة التي يريدها البعض، من أن نصوصنا الدينية جاءت جامعة قاطعة في كل ما يرتبط بالدين، ابتداءً من عقيدة التوحيد، وانتهاءً بإمامة الأذى عن الطريق، مما لا يترك فرصة للاجتهاد، وفي رأينا: إن شمولية النصوص تعني مواجهة على جبهة أوسع وأعمق، مع إشكاليات حياتنا المعاصرة، وقدرة أكثر على طرح الأسئلة والقضايا. ونصنا الديني المحوري يتفرد بتوافر نص ديني شريف (السنة النبوية) مفسراً لما جاء به، ولنا ألا نحرم فكرنا الديني من هذه الميزة المعلوماتية الفريدة.

- منظومة القيم والمعتقدات: إطارها العام: تتضمن ثلاثة مكونات رئيسية من منظور معلوماتي وهي: - العلاقة الخارجية التي تربط المنظومة بخارجها، - مجموعة العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم. لاشك أن الأداء الكلي لمنظومة المعتقدات والقيم، يتوقف بصورة أساسية على موقع الدين من المنظومة المجتمعية وشكل التنظيمات الدينية التي ترعى مصالحه، وأن دور الكيانات الدينية المركزية يتقلص في عصر المعلومات، وتتوزع مهامها بين عناصر البنى التحتية وشبكة المؤسسات والجمعيات الأهلية التي تربط المنظومة بخارجها - عناصر البنى التحتية: تشمل مؤسسات الفقه والافتاء والبحوث والدراسات الدينية، وكذلك الموارد البشرية من دعاة ومنظرين وفقهاء إضافة إلى الموارد المعلوماتية الدينية، وموارد المعلومات العلمية، والتي تشمل إلى جانب النصوص الدينية موارد المعلومات العلمية والتكنولوجية ذات الصلة بها والأرشفين السمعي والبصري للتراث الديني.

• العلاقات الخارجية لمنظومة المعتقدات والقيم الغربية:

- ١ - ما علاقة منظومة المعتقدات والقيم بالمجتمع كله؟ الدين تنزيل إلهي، ومعطى سماوي، وعلى الجماعات أن تؤمن به وتخضع لمبادئه وتسير على هدايته، هذه الحقيقة لا يُسلّم بها علماء فلسفة الدين واجتماعه وتاريخه، ويرى هؤلاء العلماء أن العلاقة بين المجتمع ونظام معتقداته، علاقة متغيرة لأن كل مجتمع يقرّر نظام المعتقدات والقيم الذي يلي مطالبه، وينسجم مع نمطه الاجتماعي، وبنية مجتمعه الداخلية، إن نظام المعتقدات متغير تابع لهذه العوامل المجتمعية، يشمل السحر وعبادة الأوثان، وتعدد الآلهة، والإيمان بالبعث، والاعتقاد بوجود ذات إلهية عليا، وهو نظام معتدّ على أوسع نطاق، وينتقي المجتمع نظام معتقداته وفقاً لعوامل عدة منها: - الطابع السائد: أثناء حصول الأفراد على حاجياتهم عبر الصيد والرعي والغذاء البري أو الزراعة - البناء الطبقي للمجتمع: هل هناك طبقة واحدة، أم طبقتان، أم هناك مستويات اجتماعية متعددة، وما هي الفوارق الاجتماعية بين هذه الطبقات، وما طبيعة العلاقات القائمة بينهم؟ - ما شكل وحدة البناء الرئيسية للمجتمع؟ ونقصد الأسرة النوواة، هل هي أسرة الأب الشائعة أم أسرة المم أم الخال؟ وهذا يفرض نظاماً خاصاً للمعتقدات والقيم والأخلاق، ويحدث نقلات نوعية في العوامل الثلاثة المذكورة أعلاه، وما يؤيد ذلك انصهار تكنولوجيات المعلومات في المجتمع، ولا جدال في أن المعلوماتية ستدخل في أسلوب حصول الفرد على احتياجاته الأساسية، ومن المؤكد أنها ستؤدي إلى تغييرات جذرية في هيكلية الطبقات الاجتماعية، وستغير تبعاً لذلك شكل الأسرة النوواة، في ظل السيولة الهائلة لنقل الأفراد بين الأماكن والأعمال، وقدرة الجماعات الخائلية للترنيت على تشكيل روابط عدة، قريبة من التآلف الأسري، ويمكننا القول: إن العلاقة بين الدين والمجتمع تتراوح بين كونه دافعاً أو عائقاً وإما أن تكون البنى الدينية من أجل صيانة البنى الاجتماعية الأخرى، وإما أن تكون عائقاً أمام التطور كما كانت الحال في اليابان قبل النهضة، وقد أكد مصلحوه الاجتماعيون على ضرورة إحداث تغييرات جذرية، في نظام قيمه

ومعتقداته وتقاليد، حتى استطاع أن يحقق النقلة الحضارية للمجتمع الصناعي، وبالحقيقة كانت حركة الإصلاح الديني البروتستانتى، محاولةً للتوفيق بين الدين والأخلاق من جهة ومصالح المجتمع الأوروبى من جهة ثانية، الأخذ في التطور. (محمد مرسى ١٩٩٣) لم يعد من الممكن بالنسبة لمجتمع المعلومات، أن يبقى يراكم تغيراته حتى يأتي الإصلاح الديني، ويضبط العلاقة بين الدين والمجتمع، فعصر المعلومات يتطلب تنامياً مستمراً، واستمراراً للتكيف الدينامي، وهذا أمر بات ممكناً نتيجة الشفافية العالية التي توفرها تكنولوجيا المعلومات، إن شفافية العلاقات الخارجية لمنظومة الدين، ودينامية العلاقات الداخلية، بين عناصر هذه المنظومة، هما الضمانان لترسيخ دور الدين في منظومة المجتمع، الذي صار في حاجة إلى القيم الروحية والزاد الأخلاقي، بقدر حاجته للعلم والتكنولوجيا، والتنظيم، لقد اتسم الخطاب الديني بالفردية، لأنه يركز على خطايا الأفراد، وضبط سلوكهم، ومدى التزامهم، في الوقت الذي يغض الطرف عن أخطاء المؤسسات، وستكشف شفافية عصر المعلومات عن هذا الانحياز، وعلى المؤسسات الدينية أن تحول نظرها إلى خطايا المؤسسات الاجتماعية العميقة والاقتصادية والترىوية والإعلامية والسياسية، لأن فساد الفرد في مجتمعه ناتج عن فساد مؤسساته.

ب - ما العلاقة الدينية السياسية؟ (كل شيء لأصدقائي، أما غيرهم فلهم القانون) (جابر عصفور ١٩٩٧) وهذه المقولة لسياسي برازيلي، تؤكد أن القانون ليس مرادفاً للعدل، وكلما تدخلت السياسة اتسعت الهوة بينهما، وهذا تناقض بين برجماتية السياسة وإجراءاتها القصيرة الأجل، وبين سمو القيم الروحية وعدم زمنيتهما، والتاريخ الإنساني شاهد أنه ما اقترن الدين والسياسة مرة، إلا واقترن لقائهما بالصراع أكثر من صناعة السلام، ودليلنا على ذلك الصراعات الدينية بين المسلمين والهندوس في الهند، وبين الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا، فالماضي والحاضر مملوء بالحروب الدينية والنزاعات الطائفية، إن مستقبل مجتمع المعرفة مهدد بصراع إنساني

خطير، بفعل تنافس ساسته، واضطراب قيمه ومعتقداته، وهذا يتطلب ضبط العلاقة السياسية الدينية في هذا المجتمع الوليد. ولا شك أن اتخاذ القرار السياسي أصبح عملية صعبة، تحتاج إلى وسائل تكنولوجية تدعمها، وهذا يحتاج بدوره إلى إشراك الخبراء في صناعة القرار السياسي، ويترتب على ذلك افتراض الثقة في أمانة هؤلاء الخبراء وقدراتهم. وتبرز في هذا المجال أهمية أخلاقيات الأمانة المهنية من جانب الخبراء، والالتزام الأخلاقي من قبل الساسة بعدم إساءة استخدامهم هؤلاء الخبراء لإضفاء الوجيهة العلمية على قراراتهم، وعزل جماهيرهم عن المشاركة فيها، وكلنا يعلم كيف لجأ الحاكم إلى الكاهن والساحر. أما اليوم فهو يلجأ إلى العلماء في الوقت الذي أصبح فيه هؤلاء تحت سيطرة وتمويل الحكومة، والعلم بدوره أصبح مؤسسي نظراً لجبروته وضخامته والحجم الكبير لميزانيته، وهكذا فقد العلماء استقلاليتهم وعجزوا عن التصدي للسياسة، ولما عجزت الحكومات عن تمويل المشاريع العلمية، أصبح هؤلاء العلماء رهينة المنظمات الاقتصادية، وهذه تحتاج إلى عقلنة من نوع آخر، يمدّها بها العلم على شكل بحوث علمية، وخاصة تلك التي تخفف من أضرار التدخين، وتبرر عدم التزام مصنعي السيارات بمعايير الحد الأقصى لانبعاث نسبة ثاني أكسيد الكربون في عوادم السيارات. ويمكن القول أن الموقف يتحرك من محورية العلاقة بين الدين والسياسة، إلى محور آخر بين الدين والاقتصاد.

ج - ما العلاقة الدينية الاقتصادية؟ كنا قد بدأنا حديثنا عن الدين والسياسة بقول سياسي برازيلي، نستطيع الآن أن نبدأ حديثنا عن العلاقة الاقتصادية الدينية بمقولة لاقتصادي أمريكي، حين أعلن بجرأة: (من الممكن أن تحل مشكلة تلوث الهواء عندما يتحول الهواء إلى سلعة). إن هذا لم يعد مستبعداً، ففي شوارع مدينة طوكيو صنابير استنشاق الهواء يستشقها المدخنون من هواء العاصمة اليابانية الشديد التلوث، من نقحة من الأكسجين يدفعون ثمنها نقداً، فكل شيء أصبح في مجتمع السوق قابلاً للتوزيع كسلعة، إذا أصبح كل شيء قابلاً للبيع والشراء: منتجات طبيعية، أو صناعية، أو

معلوماتية، أو إبداع. والمنطق الأخلاقي يقول: يجب ألا تتحول حاجات الإنسان الأساسية إلى سلعة، والمعلومات بالفعل آخذة في التحول إلى سلعة. بعد أن أصبحت حاجة أساسية، وقد ثبت كونها مورداً لا غنى عنه لإنتاج غذاء الإنسان. وتوفير معكته وملبسه وتعليمه ورعاية صحته والترفيه عنه، وأصبح تسليم المعلومات أحد الجوانب الرئيسية للعلاقة بين منظومة الاقتصاد، ومنظومة القيم والأخلاق، وقد وقف الدين إلى جانب الاقتصاد، عندما وقفت الكالفينية إلى جانب الرأسمالية الصناعية، من خلال تحديثها للمفاهيم المسيحية حول الفضيلة واستثمار الأموال، وكما كان اقتصاد (آدم سميث وكنتز) بمنزلة عقلنة الخطاب الرأسمالي، يبحث دين العملة الجديد عن صيغ جديدة لعقلنة عملة الاقتصاد، وحتمية النموذج الرأسمالي الليبرالي. - تناقض الخطاب الديني والاقتصادي: ولا يقل تناقضهما عن ذلك ما بين خطاب السياسة وخطاب الدين، وربما يكون أكثر حدة وخطورة، في ظل المتغير المعلوماتي. لقد تخطى الاقتصاد الكلاسيكي نهاية القرن التاسع عشر، عن غايته المتضمنة توفير سبل الإعاشة. وكما انفصل العلم عن الدين، كان لابد للاقتصاد أن ينفصل عنه، ليدخل عضوية نادي العلوم الدقيقة، ويبقى اللاهوت في خدمة الرب مع عدم المساس بقوانين السوق، وثبت بالدليل أن اللاهوت الليبرالي يعمل تحت الشروط التي وضعتها نظرية الحرية الطبيعية وقوانين السوق، لقد شدد الاقتصاد الحديث الخناق على الدين في أن يسهم في العمل العام، لإعادة التوازن بين موارد البشر واحتياجاتهم، وهذا ترك للاقتصاد حريته ليعمل على هواه، دون وازع أخلاقي، حتى انتهت به الحال إلى ما هو عليه، من عدم العدالة في توزيع الموارد والعوائد، في الوقت الذي يزعم فيه أن مهمته الأساسية ترشيد استغلال هذه الموارد واستثمار تلك العوائد، من أجل صالح الجميع، وكل هذا سيؤدي إلى تراكم الثروة المالية كمصدر للقوة التي لا تعرف إلا منطق السوق، ويلوح في الأفق ملامح تراكم ثنائي أكثر شراسة، يجمع بين تراكم الثروة المالية، وتراكم الثروة المعرفية نتاج عصر المعلومات، من أجل إحكام قبضة القوى الرأسمالية على مصير البشر،

وقد قال التكنوقراط: (إن لا حل لمشاكل التكنولوجيا إلا بمزيد من التكنولوجيا). ويقول أهل الاقتصاد: إن لا حل لمشاكله إلا بمزيد من الخصخصة، وتحرير الاقتصاد، وتسارع حركة رؤوس الأموال. والفرج لا بد أن يأتي عن قريب، وسوف تتحقق الوعود وتتمحي الفروق، ما أن تتحقق الفروض، ويبدى الجميع التزاماً أكثر صرامة بقوانين السوق وامتنالاً لتعليمات البنك وصندوق النقد الدوليين، وهكذا مضى الاقتصاد في غيه لا يلتفت على شيء مستقلاً بذاته، وقد استهوت المؤشرات الكمية والمعادلات الرياضية، والسلاسل الزمنية، وقد سحرته وضعية العلوم الطبيعية، في الوقت الذي كان عليه أن يتوجه بمناهجه نحو الإنسانيات، وما أبهط الفاتورة التي دفعتها البشرية ثمناً لقصر نظرته العقلانية، ومن الضروري للاقتصاد أن يخرج من انعزاله ليعود إلى غايته الأصلية (توفير سبل المعيشة) وتلبية احتياجات الناس. - كيف ترك دعاة الدين رعاياهم عزلاً؟ إن دعاة الدين تركوا رعاياهم عزلاً من أدوات النضال أمام هجمات وشراسة النظم والمؤسسات، وتشهد الوقائع بمؤازرة الفكر الديني لمؤسسات عصر الصناعة، ألم يؤنبه ضميره بالوقوف إلى جانب الضرد في اقتصاد عصر المعلومات؟ وإن لم تفعل ستفقد المؤسسة الدينية مصداقيتها وفاعليتها، وتفقد الجماهير المصداقية بالمؤسسة الدينية، بعد أن فقدت ثقتها في مؤسساتها التربوية، وهنا تتفرد بالساحة القوة الرمزية الباقية، وهي القوة الإعلامية، وهذا ما يرجوه قادة العولمة في وقتنا الحالي. - الحوار الصاخن بين الرأسمالي والماركسي: شهد هذا السبجال حواراً بين فلسفة الفقر، وفقر الفلسفة، والفيلسوف الاقتصادي الهندي (أمارتا سن)، يأخذ الاقتصاد إلى أرض الواقع ويسمو به إلى ما وراء الكينزية، في محاولة منه لإرجاع الأمور إلى نصابها، مركزاً (أمارتا سن) على مشكلات الظلم ولقهر الاقتصادي والفقر والتهميش الاجتماعي المتزايد، وفسر للعالم أجمع اللغز الذي حير البشر، وهو كيف يتساقط الناس جوعاً بالرغم من توافر الغذاء (محمود عبد القضايل ١٩٩٩)، ومن المضحك المبكي أن يحصل (سن) على جائزة نوبل عن (مخاطر المجاعات والفقر) في السنة التالية

مباشرة لمنح جائزة نوبل لعالم اقتصاد آخر عن بحوثه حول (مخاطر المضاربات في الأصول المالية) ويتوجب على العالم أن يحسم خياره ما بين (اقتصاد الكازينو) وبين (اقتصاد التنمية) الذي أسس له الاقتصادي الهندي العظيم، والا سنبقى نقترف الخطايا التي حذرنا منها المهاتما غاندي.

د ماذا عن حوار الأديان؟ يعتبر حوار الأديان من أهم محاور الحوار الثقافي، فهو ممكن ولازم بعد توفير شبكة الإنترنت مساحة حامية للتشاقف الديني، والدليل على ذلك العدد الكثير والوفير من المواقع الدينية، لمثلة لمختلف الطوائف والمذاهب والأديان، وظهرت دراسات الدين المقارن، الأسس النظرية من أجل حوار أكثر فاعلية وموضوعية بين الأديان في إطار توجه أشمل لبلورة نظرية عامة لتراث الإنصانية الديني، وإن حوار الأديان هذا تفرضه: عولمة الاقتصاد وعولمة الثقافة على حد سواء، وعلى صعيد الاقتصاد يهدف حوار الأديان إلى تبادل المعلومات للتخفيف من عدم المساواة، والتصدي لمظاهر الاختلال في توزيع الدخل والثروات التي نجمت عن عولمة الاقتصاد، وهذه سمة نضالية ونزعة لتصحيح المسار، يهدف تخفيف الآثار السلبية الناجمة عن العولمة، ويتطلب فهماً دقيقاً للأبعاد الاقتصادية، وتقوم بالدور الرئيس الكنيسة، والجمعيات الأهلية لحقوق الإنسان، أما فيم يخص عولمة الثقافة، تدعو إلى حوار بين الأديان ذي طابع أخلاقي يهدف في الأساس إلى إقامة خلق عالمي، يبحث عن الأسس المشتركة بين الأديان، وإلى لم الشمل، والانتقال من حوار اختلاف العقائد إلى وحدة الأخلاق والقيم الإنسانية واعتبار مفهوم العدالة، قيمة عالمية تتمسك بها الأديان جميعاً، تقوم بالدور الرئيسي، في حوار عولمة الثقافة الديني، المؤسسات الأكاديمية والمؤسسات الدينية الكبرى. والمسيحية تواجه عقبات عدة في حوارها مع الأديان الأخرى منها: - ارتباط المسيحية بالاستعمار في كثير من ثقافات شعوب العالم النامي، وإن حضارة الغرب قامت على عاملٍ تقسي لتدمير الحضارات (زكي الميلاد ١٩٩٨) ألوهية المسيح؛ صرح بعضهم قائلًا (لا يمكن أن نقيم حوارنا مع الآخر حتى نزيح من طريقنا ألوهية المسيح). - التصميم على صحة

التقاليد المسيحية الغربية عالمياً، وقد وُجدَ تفوق الغرب لدى المسيحية نزعة
التعالي، والغرب كما يقول بعضهم: إنه مباح له تحديد مكان الآخر، والحكم
عليه لصالح تاريخه ونماياته وقيمه. (نفس المصدر السابق).

هـ - ماذا عن علاقة منظومة المعتقدات والقيم بالفضات الاجتماعية؟
إذا كان قد ارتكز عصر الصناعة على استغلال فئات المجتمع العاملة، على
علم العمل الأمريكي، كما أسسه (فردريك تيلور)، والقائم على زيادة
الإنتاجية، عبر دراسات الوقت والحركة، وهذه الدراسات لم تنظر إلى التعب
والضجر، وهو يختلف عن علم العمل الأوروبي، الذي سعى إلى عقلنة أماكن
العمل، مع الأخذ بعين الاعتبار صحة العمال وراحتهم، وقد تفوقت فلسفة
الإدارة اليابانية بهذا الشأن، من قبيل الحرص على تأمين العمال ضد مخاطر
البطالة، من خلال التعاقد مدى الحياة، وتمثل استغلال عصر الصناعة: -
في إطالة ساعات العمل، وتدهور بيئته، وتدني الأجور، - وصرامة الرقابة
على العمال، - أما استغلال العمال في عصر المعلومات يتجه نحو (القسوة
الليونة)، - حيث يقوم على الرقابة عن بعد، والحرمان من فرص العمل،
وحرمان العامل من المعلومات، - وإحالة مطالبه وشكواه إلى ظلمات
التنظيمات، ومتاهات البيروقراطيات، وأخطر مظاهر الاستغلال هو تفتيت
مهارات العمال، بحيث تكتسب هذه المهارات بسرعة، وتفقد بسرعة أكبر، مما
يسهل على الإدارة إحلال عامل آخر، تماماً كما تستبدل قطع الغيار،
وفريدريك تيلور هو القائل: (إن المجتمع سيحظى باحترام أكبر عندما يضع
الكائن الاجتماعي تحت رحمة التكنولوجيا، بعد أن أصبح البشر أقل كلفة من
كلفة الآلات) إن تكنولوجيا المعلومات قد وضعت الإنسان تحت رحمة نظمها
القاسية، ورغم ادعائها المرونة، وسرعة تكيفها، مع مطالب المستخدم
وقدراته، وحرصها على تطبيق قواعد الهندسة البشرية، فتصبح نظم
المعلومات أسهل استعمالاً، وطوع بنان صانعها، بالرغم من هذا كله تبقى
هذه النظم هي المسيطرة على (الحوار. الإنس - آلي)، وتنظم المعلومات تبدي
تعاطفاً زائفاً مع الفقراء الذين أصبحوا هم الغالبية في مجتمع المعلومات،

مُسْتَبْعِدِينَ من مزايا التكنولوجيا، وعوائد الاستثمار، وليبرالية نظام الحكم، وقد صح قول من قال: إنهم أصبحوا مُسْتَبْعِدِينَ من رعاية مؤسساتهم الدينية.

- العلاقات الخارجية لمنظومة المعتقدات والقيم العربية.

أ - عن العلاقة الشائكة والغامضة: إن علاقة ديننا بمنظومة المجتمع أكثر تداخلاً وعموضاً مهما كان الموقف الفكري منها، ولا جدال أن العلاقة تحتاج إلى إعادة النظر فيها على ضوء متغيرات عصر المعلومات، والبحث العلمي يعمل على توفير الخلفية العلمية لذلك، ولا شك أن الأرض مزروعة بالألغام (زاء كل خطوة، والجسم العربي مصاب بالحساسية تجاه أي مسالة، فكيف نصل إلى هدفنا خاصة وأن مجتمع عصر المعلومات يطرح أسئلة وقضايا مستجدة، لا يجدي معها إلا الحديث الجاد والرصين، ولا يغني معها الحديث المراوغ في شيء، إن العلاقة بين المجتمع والدين يتركز على السياسة، والأمن.

ب - ما العلاقة الدينية السياسية؟ يمكن أن يكون الدين مؤازراً للقوى السياسية أو مناهضاً لها: لقد استحدث الغرب مقولات كثيرة مثل: (ما لقيصر لقيصر وما لله لله) أما المجتمع العربي فقد استحدث صيغاً إبداعية، تختلف من حيث قربها وبعدها عن المقولة الغربية التي تبناها الغرب كمبدأ أساسي، مثل: (مصطلحات المهادنة والتعالف والاحتواء والحرص على الصالح العام، والمحافظة على التماسك الداخلي)، وهذه المرونة في علاقة الدين بالمجتمع أمثلة عدة عبر تاريخنا منها: (كيف لجأ إخوان الصفا إلى المذهب الإسماعيلي لمعارضة الحكم العباسي، في حين استغل الفاطميون المذهب ذاته للتغلغل السيامي، كما طالب محمد علي علماء الدينين بمعاونة سياساته، وبعدها استعان بالنخبة العسكرية) ولهذا التحول مغزاه من حيث علاقة القوى السياسية بالقوى الرمزية، فيما يخص بظاهرة العنف الديني، لقد كان التصوف وزهده كرد فعل ضد التمايز الطبقي، وهو نوع من عدم الامتثال السلبي لسلطة الحكم السياسي، وفي أيامنا هذه أصبحت الجماهير

تلجأ إلى العنف وليس إلى الزهد، فقد أصبح العنف البديل السائد، تعبر به الجماهير الغاضبة عن سخطها، وهذا يوجب على دعاة الدين أن يتصدوا للفساد ومؤسساته، ولا تريد من دعاة الدين التوجه إلى الفرد وهدايته وزيادة إيمانه، إن الفكر الإسلامي لم يبد الحساسية المتوقعة منه ضد تناقضات السياسة والاقتصاد في مجتمعاتنا، خاصة في إطار العولمة وأصبح لزاماً على السلطة الدينية أن تقيم علاقة متوازنة بين مساندة السلطة ورعايتها لمصالح الشعب، ولا ستجد مجتمعاتنا نفسها في مسار تصادم حتمي في صيغة جديدة لفرض الانضباط الاجتماعي، تختلط فيها أسلحة الرمز مع أدوات القهر التقليدية، وهنا ينطلق اللاوعي من قممته برشقات عدة من النصوص والرصاص، والسيوف، والذهب، والمال، ويشارك الجنرال والحاخام وهلم جرا، لقد ولي عهد الطغاة وإلى الأبد، بفضل شفافية عصر المعلومات، وهذا يتطلب من أنظمة الحكم ومؤسساته الدينية الرسمية وغير الرسمية حواراً عميقاً مع ضمان أكبر مشاركة من قبل القوى الشعبية. ونحن نفتقد أن المدخل الديني المعلوماتي، إذا أحسن استخدامه، سيكون مدخلاً فعالاً لتعميق روح الديمقراطية التي تكون بالمشاركة الفعلية وليس الخائلية.

ج - ما العلاقة الدينية الاقتصادية؟ إن السمة الغالبة للحركات الإسلامية هي ضيائها عن الصراع على أرض الواقع الاقتصادي والاجتماعي، وتبرر معجزها عن صياغة برنامجها الاقتصادي والاجتماعي، بحرمانها من حرية التعبير والتنظيم والعمل النقابي (حسن الترابي ١٩٩٥) والتفاعل المباشر مع الجماهير، وهذا الانعزال غير جائز، في ظل العولمة الكاسحة، وفي ضوء القضايا الكثيرة والكبيرة ذات الطابع الاقتصادي الديني، التي تطرحها العولمة وتكنولوجيا المعلومات وتسليع الثقافة والملكية الفكرية، وهناك من يطرح الاقتصاد الإسلامي بدلاً من اقتصاد العولمة، علاوة على ذلك أن شبكة الإنترنت تتيح لهذه القوى السياسية قنوات اتصال مبتكرة مع قواعد شعبيتها. وبالنسبة للشأن المالي: لقد تحول المال في عصر المعلومات إلى مجرد نبضات إلكترونية ومعلومات، وكاد المال بصورته النقدية أن يختفي،

نتيجة تحويلات الأرصدة إلكترونياً، والتوسع في استخدام بطاقات الائتمان، والسؤال الذي يطرح نفسه ما موقف الإسلام من هذه التحولات في التعااطي مع المال؟ وهل سيظل يرفض التعااطي مع المال كسلعة، بعد أن اقترب المال من أن يكون معلومات، وأصبحت المعلومات ذات قيمة مادية؟ وهل يتطلب ذلك الربط بين تسليع المعلومات، وتسليع الأموال، وإعادة النظر في موقفنا من ثنائية رأس المال المادي ورأس المال البشري؟ وهناك من يقول إن عقائدنا وراء تخلفنا الاقتصادي، وهذا خطأ في ظل المتغير المعلوماتي يجب التصدي له، ولنا أن نسأل دول الباسيفيك المسلمة، التي نجحت في إيجاد صيغة عصرية ومتوازنة، بين قيم الإسلام، وقيم المجتمعات العصرية تكنولوجيا، وهذا ما أدى ببعض إلى القول: أن بإمكان الدول الإسلامية الوصول إلى إبداع غير مسبوق (جابر عصفور ١٩٩٧).

ج - ماذا عن حوار الأديان؟ إن البهان الشهير للبابا بولس السادس في مجتمع الفاتيكان لعام ١٩٦٤، قد ذكر الإسلام بخير، ودعا للحوار معه، وقبله بـ ٨٠ سنة، وفي موعظة شهيرة للبابا أوربان الثاني، ولإشعال روح الحماس في قلوب المحاربين أثناء الحروب الصليبية، والتي اعتبرها حروباً مقدسة، قال البابا: (لقد اجتاحت البرابرة في نوبات هوسهم كنائس الرب وخربوها واستولوا على مدينة المسيح المقدسة، التي تزهو بما شهدت من آلام المسيح وقيامته، لقد باعوها وباعوا كنائسها في سوق الرق المقيت (فيليب تايلور ٢٠٠٠) هذان موقفان متناقضان يمثلان العلاقة التي تحكم الحوار الإسلامي المسيحي، مبادرة مسيحية صادقة لإقامة الحوار، مقابل عداوة قديمة من جانب واحد، تحكمه - كما قال المستشرق البريطاني بريان ترنر، خطيئة أصيلة، أو جرثومة أبدية، تجعل من الإسلام في نظر الغرب - دينا للعنف والبدائية. تبقى المبادرات الحالية التي تتسم بالسماحة والتفهم من قبل الفاتيكان ومن بريطانيا، ومن آخرين غيرهم إلا أنها مازالت قاصرة، والحوار الإسلامي المسيحي الضعيف، هو شرط أساسي لتغيير الموقف العدائي من الإسلام، وهو ما دعا مدير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة أن يصف الحوار

بالضرورة التي ترقى إلى مستوى فرض الكفاية (عبد العزيز التويجري ١٩٩٧)) إن إحياء الحوار المسيحي الإسلامي أصبح حاجة ماسة كي لا تخلو الساحة للحوار المسيحي اليهودي، وخاصة أن الطرف اليهودي، يعمل إلى إقامة حلف يهودي مسيحي ضد الإسلام. ونحن لا ننكر أن المسيحية هي الطرف الأكثر تنظيمًا وإدراكًا للإشكاليات التي تطرحها العولمة، وأكثر قدرة على استغلال تكنولوجيا المعلومات في المجال الديني، والحوار المسيحي الإسلامي سيحفز الطرف الإسلامي ليجدد معارفه ووسائله. وبالحقيقة هناك قناتان للحوار المسيحي الإسلامي هما: عبر الحوار الأوروبي - العربي، الذي توسع ليشمل بجانب الأمور السياسية والاقتصادية حوار الأديان، وأخرى ثقافية، والقناة الثانية مع الفاتيكان، وبالرغم من ثلاثين جولة من الحوار الإسلامي - المسيحي ما زالت النتائج متواضعة للغاية (المصدر السابق نفسه) للأسباب التالية التي يتقاسمها الطرفان وهي: - اختلاف في بؤرة الاهتمام في الحوار العربي الأوروبي، فشاغلنا نحن السياسة وشاغلهم الرئيسي الاقتصاد. - النظرة الاختزالية من كلا الطرفين، فالعربي هو الاستعمار والإمبريالية ومساعدة إسرائيل، والعرب هم الخطر الذي يهدد العولمة، وهم الخصم التاريخي وسلاح البترول. - غياب إستراتيجية واضحة من طرفنا لتوجيه مسار الحوار. والإسلام بسماحته قابل وقادر على الحوار، يشهد على ذلك تفاعله مع الحضارات الأخرى أثناء الفتح الإسلامي، ومن واجبنا أن ندفع بهذا الحوار الحيوي إلى نقطة متقدمة، عن طريق الإنترنت ويتطلب منا إجراءات عدة منها: - مراجعة نقدية لجولات الحوار السابقة. - تخفيف المسافة المعرفية الفاصلة بين الباحثين الإسلاميين ونظرائهم الغربيين، خاصة في الثقافة العلمية التكنولوجية وعلوم العصر. - إدراكنا أن التعرف على أديان الآخرين يتطلب منا التعرف على ظروف معيشتهم وتحدياتهم، ويمكن استغلال تكنولوجيا المعلومات في ذلك - النظر إلى القدس كمطلق لتعميق العلاقة الإسلامية المسيحية، خاصة في الوقت الراهن، وستبقى القدس هي (مصرى النبي محمد وأرض المسيح) - تصنيف قضايا

الحوار إلى قضايا ذات طابع علمي، يتم تناولها بطريقة أكاديمية، وأخرى ذات طابع عام، يجري الحوار فيها على مستوى الجمعيات الأهلية وقنوات الاتصال الجماهيري. - إن نجاحنا مع الآخر لابد أن يسبقه نجاحنا في الحوار مع أنفسنا، حوار إسلامي قومي - حوار إسلامي - علماني. حوار إسلامي - قبطي وماروني كاثوليكي. - لا يكفي للمحاور الإسلامي أن يكون ملماً بموضوعاته، لكن لابد أن يكون مزوداً بمهارات التواصل عن قرب وعن بعد، وأن يكون واعياً وممارساً لتكتيكات التفاوض الثقافي. - الإقرار بوجود اختلافات لا يمكن حسمها بين الإسلام والمسيحية، والتركيز على الجوانب الإيجابية، وما أكثرها، والجوانب الأخلاقية دون العقائدية والاهتمام بالدين المقارن.

- العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم: إن العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم تشمل التالي: - النص الديني المحوري أو مجموعة النصوص المحورية - القيم وهي مجموعة القيم السائدة والمستجدة - الدعوة وتشمل جميع الوسائل، من الدعوة المباشرة في أماكن العبادة، إلى الدعوة من خلال الإنترنت، وفي الفقرات القادمة سنتناول كلا من هذه العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم.

- ماذا يمثل النص الديني الغربي؟ يمثل النص الديني الغربي حالة من النص اللغوي. ولكنه يتجاوز معناه ومبناه وأثره، حدود اللغة إلى ما ورائها وما فوقها وما بعدها، لما يتضمنه من معان سامية، وما يحمله من شحنة وجدانية، وهو الأمر الذي يجعل من النص الديني حالة فريدة، تمثل تحدياً قاسياً، سواء للغويين أو البلاغيين، أو علماء النفس الأنثروبولوجيا، أو لعلماء الذكاء الاصطناعي. ولا تقتصر نصوص العقائد على الكتب السماوية، بل تشمل نصوص التفسير، والتشريع، والفتوى، ومواثيق المذاهب والطوائف، وحكم الفلاسفة. وأقوال الحكماء ومآثر القديسين، وسير الأقدمين وأساطير الأولين، إن الأنثروبولوجيا أعادت الهيبة إلى النصوص الدينية القديمة، ونظرت إلى تطور العقائد الدينية في مسارها التاريخي، كيف تتواصل فروعها

مع جذوره، ويترك ماضيه أثر حقرياته الرمزية على حاضره، وهو ما فعلته الأنثروبولوجيا الرمزية بنصوص الماضي. أما تكنولوجيا المعلومات والأرشفة الإلكترونية، جاءت لتضيف إلى نصوص الماضي نصوصاً من الحاضر، وراحت تتضاعف بمعدلات متزايدة. فاستعالت النصوص الدينية لأي دين أو مذهب أو طائفة، إلى قاعدة هائلة من ذخائر النصوص السحيقة والقديمة، والوسيلة والحديثة، وكوكبة من النصوص المكملة والشارحة، المؤيدة والمناهضة، وتتمركز النصوص الدينية حول نص محوري تدور في فلكه، وتأتي هذه النصوص على أنماط عدة، فيمكن أن يكون النص نثرياً أو شعرياً، سردياً أو حوارياً، تقريرياً أو روائياً تاريخياً، تشريعياً، وتأتي الإنترنت لتضيف لمستها في صورة وثائق، قوامها شظايا النصوص التي يمكن تجميعها من مصادر مختلفة، ووسائط معلوماتية عدة. ومن المنطقي أن تختلف وظائف النص من مجتمع إلى آخر، ففي بعض المجتمعات نجد النص الديني هو محور السلطة، ومصدر المعرفة، وضابط السلوك، ومحدد الرؤية الشاملة إزاء الكون وظواهره، وفي مجتمعات أخرى يتقلص هذا الدور إلى حد أدنى من إرشادات السكينة الروحية والأخلاقية. غني عن القول أن السرديات الكبرى شأنها شأن كل السرديات الكبرى، ليست الوحيدة في مساحة التفاعل الاجتماعي حيث تزحمها خطابات أخرى تعمل إلى الحد من دورها الاجتماعي بل تقتص من قدسيتها، والنصوص تعد نفسها للقاء مثير مع تكنولوجيا المعلومات، التي تتعاون مع علوم المعرفة واللسانيات والرياضيات الحديثة، بهدف تحويل النصوص إلى نبي رمزية يمكن تمثيلها رياضياً ومنطقياً وهندسياً، كخطوة أساسية لمعالجتها آلياً بصورة جادة، تنفذ من ظاهز اللفظ إلى عمق المضمون، ومن القرائن السطحية إلى الآليات الدفينة التي تعمل بداخل النص، عندها نتفهم بوضوح: كيف يولد النص معناه؟ وكيف يتلقاه متلقيه؟ وكيف يتعامل هذا النص مع غيره؟ وكيف تتشكل بنيته الداخلية، وكيف تتأثر هذه البنية بالعلاقات التي تربط النص بخارجه؟

ب - كيف يتعامل الآخرون مع نصوصهم الدينية؟ إن حركة الإصلاح الديني حررت الإنجيل من قبضة الكهوت الكنسي، وقامت بترجمته إلى لغات

قومية عدة، وأصبح بهذا ملكاً للفرد لا ملكاً لأهل الدين، وكما هو معروف ليس للمسيحية نص منزل مكتوب، لذا فإن علاقتها بنصها الإنجيلي تقسم بالمرونة. وما أن تناقضت هذه النصوص مع الحقائق العلمية، حتى أولت هذه النصوص تأويلاً مجازياً لا حرفياً، وقد طالب أحد حاخامات اليهود في القرن الثامن عشر بشروعة ثقافة يهودية على تمط حركة الإصلاح الديني البروتستانتي، ونادى بقراءة النص التوراتي قراءة حرة، إلى حد اعتبار النص مصدر إلهام أخلاقي لا غير (سمير أمين ١٩٩٩)، واتسع مجال التأويل الإنجيلي، حتى كاد يصبح فرعاً علمياً مستقلاً، يعرف بالتأويلية الإنجيلية. وإن كانت حركة الإصلاح الديني قد كسرت احتكار التأويل، وأطلقت حرية القراءة، ورياح العولمة نقلت التعامل مع النص الإنجيلي إلى مدارك التعددية والنسبية الثقافية، في إطار سعي الكنيسة المسيحية الحثيث إلى تكييف أوضاعها دينامياً مع مطالب العولمة الثقافية، وكان مدخل الكنيسة في ذلك هو التخلص من المركزية الغربية، في قراءة الإنجيل، حيث أقرت بمشروعية القراءات المتعددة، والقبول بالفوارق إلى حد التناقض، واعتبر البعض الأناجيل الأربعة نوعاً من التعدد الثقافي، وهكذا أصبحت التأويلية الإنجيلية هي البحث عن معنى النص في سياق من الخبرات المعيشية. أي معرفة الإنجيل في السياق الثقافي والتاريخي لكل جماعة مؤمنة وأيقنت الكنيسة المسيحية أن عولمتها لن يكتب لها النجاح، دون أن تقر بصحة اللاهوتيات المتعددة، واضفاء النسبية على قراءة النصوص المحلية.

- دور الإنترنت في التعاطي مع النص الإنجيلي: أضافت الإنترنت لمستها الأخيرة في التعاطي مع النص الإنجيلي، بعد أن ثبت الدور الحاسم للتوسيط الإلكتروني، في علاقة الفرد المسيحي بنصه الأساسي. إلى درجة يكاد أن يكون لكل فرد ثيولوجيا فردية، ويرز دور الاهتمام بالملتقي في عملية استيعاب النص. وهذه المتغيرات تطلبت من الكنيسة المسيحية، إعادة النظر في النص الإنجيلي، وإعادة النظر في النصوص السماوية الأخرى، إيماناً بالوحدة المعرفية لهذه النصوص، ويفسر ذلك، الاهتمام الشديد من قبل علماء

المسيحية بالنص القرآني الشريف، إن النصوص الدينية وثائقٌ حقيقيةٌ لمعرفة النظام الاجتماعي، ولهذا يرى بعض علماء اجتماع الدين الأمريكيين، أن النص القرآني مدخلا لفهم المجتمع الإسلامي عموماً، والعربي خصوصاً، وهم يعتبرون أن الوطن العربي لا يختلف عن غيره، ولا هو عصيٌ على مناهج العلوم الإنسانية كما ساد الاعتقاد في الماضي.

ج - ما التوجهات الجديدة في النظر إلى النص؟ ظهرت الطباعة وأوشك عصرها أن يولي، دون أن نُوليَ اهتماماً بما تعنيه النقلة النوعية، من التواصل شفاهةً إلى استخدام النص المكتوب، وظل هذا الوضع غائياً عن الأذهان إلى أن جاءت تكنولوجيا المعلومات والإنترنت ونصوص وثائقها الإلكترونية، لتكشف لنا: كم نحن غرقى في بحر من النصوص التي تحيط بنا من كل حدبٍ وصوبٍ، دون أن نكتشف طبيعة هذه النصوص، وآلياتها وتأثيراتها وعلاقاتها ودورها الاجتماعي، حتى كاد أمرنا يكون شاهداً على صحة من قال: (إن من اكتشف الماء حتماً ليس من فصيل السمك)، فكان لابد من تكنولوجيا المعلومات، لتجعل من النص إشكاليةً حقيقيةً، ولا بد أن تأخذه بمنتهى الجدية، خاصة إذا ما كان الأمر يتعلق بالنصوص العقائدية، فظهرت الحاجة إلى لسانيات جديدة، فولدت البلاغة الجديدة، وأدت إلى معالجة آلية ذكية للنصوص، فكانت نظم الفهم الأتوماتي لمضمون النصوص، القائمة على الذكاء الاصطناعي، فشكل هذا علم نص جديد كما يسميه الفرنسيون، أو تحليل الخطاب كما يطلق عليه الأمريكيون، وكان علم اللسانيات إلى عهد قريب، يتخذ من الجملة وحدته اللغوية الأساسية، ولم يتجاوزها إلى الفقرة أو النص الكامل، وليس الانتقال إلى الفقرة أو النص الكامل مجرد انتقال إلى وحدة لغوية أكبر مما كان عليه الحال فيما مضى، ومن المعروف أن كل وحدة لغوية تلجأ إلى مستوى الوحدة الأكبر لتحديد شكلها ومضمونها وموقعها في السياق اللغوي، فالحروف تلوذ بالكلمة الحاملة لها، والكلمات تلوذ بالجملة والجمل تلوذ بالفقرة التي تضمنتها داخل النص والسؤال الذي يطرح نفسه: إلى أي شيء يلوذ النص وهذم نهاية المطاف وهو

أكبر وحدة لغوية؟ وكانت الإجابة: أن النص يلوذ بالعالم والسياق الاجتماعي خارجه، فعلم النص إذاً ليس مجرد نقلة نوعية في مجال اللغة، وإنما هو انتقال إلى ما هو خارجها. ولكننا الآن كيف نتعامل مع النص، وما هي توجهاتنا الجديدة؟ لقد أقام علم النص الحديث قطيعة مع ما سبقه من لسانيات الجملة والبلاغة الكلاسيكية. والمعالجة الآلية التقليدية للنصوص ذات القطيعة والخطية الصارمة.

- هل فصل بين الشكل والمضمون؟ كل تغيير في الشكل يترتب عليه تغيير في المضمون، فالتقديم والتغيير والتفخيم الصوتي، وتوالي الجمل والمفردات كل هذه التجليات الشكلية تسهم في صنع معناها، وحان الوقت لنترك وراءنا ثنائية الشكل والمضمون، وما أدت إليه من فصل النص عن الواقع، وطمس لعلاقة بين ظاهر النص ومعناه. - كيف نتعامل مع الماهية والمعارية؟ النص لا يحمل ماهية بصورة مضمون يحمله في جوفه، كما يزعم البلفاء القدماء الذين وضعوا معايير وقواعد لكيفية الوصول إلى هذا المضمون الكامن، والحكم على مدى سلامته الدلالية وتماسكه المنطقي. إن النص ظاهرة رمزية تتعدد ماهيته، كما أوضح (دي - سوسير) بعلاقاته من خارجه، أكثر مما تتحدد بفعل من مكونات داخله. - هل النص مجرد متوالية من الرموز؟ النص ليس سلسلة من الكلمات والجمل والفقرات، إنه بنية معقدة متعددة المستويات، فهو شبكة كثيفة من علاقات الترابط اللغوي والدلالي والتماسك المنطقي، ومعنى الجملة بالنالي ليس حصيلة معاني ألفاظها؛ ومعنى النص ليس مجرد تجميع معاني جملته المتتالية. - هل اللغة وحدها تكفي؟ إن النص ساحة رمزية ساخنة، تتداخل فيها تكتيكات اللغة، مع الإيحاءات النفسية، والسياقات الاجتماعية والتاريخية، ولا مهرب من الإيدولوجيا في التعامل مع النصوص، فليس هناك نص بريء منها، كما ليس هناك قراءة بريئة له. وبالرغم من أن اللغة هي الركيزة الأساسية لعلم النص وبلا منازع، وبحكم طبيعتها لا تقول كل شيء مهما اتسعت مبادئها، وتوسعت معانيها وجمع مجازها وأبدع كاتبها وقارئها. فاللغة عاجزة ضمنيًا. وستبقى فجوة ما بين

مقاصد القارئ وتطلعاته ومقاصد والمؤلف، ويمكننا القول أن النص عبر لغوي يتجاوز اللغة إلى العالم الرحيب خارجها - هل للنص حدود؟ النص لا تحده بدايته ولا نهايته، ولا يمكن رسم الحدود الفاصلة بينه وبين خارجه وسياقه، وهو دائماً يخرج عن المؤلف، ويقتك الحدود، وإن لم يفعل النص يفقد جدارته كنص. - هل هناك نهاية لقراءة النص؟ يتحدد معنى النص وفقاً لسياقه الاجتماعي، مما يترتب عليه إعادة تأويله وتفسيره، وفقاً لمقتضيات السياق، وهو الأمر الذي يضمن للنص بقاءه وتجديده، وسميظل النص يجتذب مضامين جديدة تنفذ إليه من خبرات الواقع خارجه. - هل نستطيع أن ننسب النص أو نجعله للوصول إلى الجنين النصي؟ بالتأكيد من المستحيل نسب النص أو تجميده للوصول إلى جنين نصي، لأن النص لا يمكن رده إلى جذر أو أصل جنيني واحد، كما يستحيل تقيده في إطار زمني محدد، فهو نسق متعدد الجذور، متعدد الأعمار، إن كل نص يرث من سابقه معانٍ ومبانٍ، وتسري بداخله أزمنة متداخلة مختلفة، وكل قراءة جديدة تمنحه عمراً جديداً - هل نستطيع الوصول إلى المعنى النهائي؟ إننا عند قراءتنا للنص لا نتوقف عن مطاردة المعنى، لأن الرمز لا يدلنا إلى معنى قاطع، بل إلى رمز آخر، وهكذا دواليك في سلسلة لا متناهية، كما قال جاك دريدا، فالمعنى مرجأ دوماً. - هل نستغني عن ذكاء الآلة؟ بالتأكيد لا نستطيع الاستغناء عن ذكاء الآلة، إن تحليل النصوص وتفكيكها وتمثيلها دلاليًا ومنطقيًا، بصورة دقيقة، وبمنهجية منضبطة، أعقد من قدرة الوسائل اليدوية، ولابد من الاستعانة بالنظم الآلية لتحليل النصوص، من أجل الكشف عن شبكة العلاقات التي ترقد تحت ظاهر النص والتي تشمل: العلاقات المعجمية، والصرفية، والتركيبية، والنحوية، والدلالية، والمنطقية، والبرجماتية.

- النص العربي -

أ - ما دورنا في تناول نصوصنا الدينية؟ لن نجد دلالة محورية على النص القرآني وأعجازه في ثقافتنا وديننا، كما وصفه الزمخشري في كشفه وهو أكثر النصوص إلهاماً بقوله: (كتاباً ساطعاً بيانه، قاطعاً برهانه، وحياً

ناطقاً ببياناتٍ وحججٍ، قرأنا عربياً غير ذي عوجٍ، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز، على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان، في كل مكان، أُنحِمَ به من طُولٍ بهعارضته من العرب العرياء، وأُنكِمَ به من تحدى به مصاقع الخطباء، فلم يتصد للإتيان بما يوازيه، أو يدانيه واحد من فصحاءهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه تاهض من بلغائهم) إنه مصدر التشريع، ومصدر التنظير اللغوي، والتحليل البلاغي، ومصدر التربية، فما نحن دورنا نحن -المُحدثين- في تناوله، إنه لم يتجاوز تقاسير الأقدمين، نبقى نعيد صياغتها، دون إضافة حقيقية من قبلنا، وعلينا أن نمتلك الجرأة لنقول: بأننا لم نعد نمتلك القدرة المعرفية على تناوله، فكيف لنا أن نؤكد الصلة الوثيقة بين نُصْنَا الكريم، ولفته العظيمة، وفكرنا اللغوي مصاب بالعقم منذ قرون، وقد تجاهلنا الثورة التي قامت في مجال اللسانيات منذ نصف قرن؟ وكيف تتكشف لنا روعة معانيه ويلاغت قديمه لا خير فيها، وما زالت أسيرة محفوظاتنا عن ثلاثية: المعاني، البيان، والبديع، ولم تغير بها شيئاً من حين ما تركها الجرجاني في القرن الخامس الهجري حتى اليوم إلا القليل؟ وكيف لنا أن نستوعب قدر برهانه الفائق، وأساليبنا في الحاجة ما زالت كما كانت عليه في حاجة عصر الشفاهة؟ ولا ندري ماذا تفعل بنا أساليب الحاجة المتخلفة تلك في عصر حاجة الإنترنت والحوار عن بعد، تلك الحاجة الباردة ذات الطابع المنهجي الصارم، بعيداً عن مؤثرات الخطابة واللقاء الحيوي المباشر؟ والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو: كيف نشبت لا زمنية هذا النص الفريد والعظيم، والصالح لكل مكان وزمان وقد أهدرنا جوانبه التاريخية، حتى صارت دراسة صلته بماضيه ضرباً من الهرطقة؟ وكيف يجوز لنا أن نتحدث عن لا (مكابيته) و(عالميته) وقد أهملنا تماماً كيف يتلقاه المسلم من غير العرب؟ وكيف يستوعبه المسلم المقيم، والمسلم المهاجر، والمسلم الوافد، ومسلم البلقان ومسلم الشيشان؟ وهل نمتلك الجرأة لنقول: هل نستطيع أن نقارن موقفنا مع ما فعله أهل الإنجيل من أجل عولة نصه، ليدين مضمونه لعقل كل

مسيحي، في هذا الكون في دول أمريكا اللاتينية والفلبين، وعقل المسيحيين الجدد من أهل القياثل الإفريقية؟ ترى كيف يحق لنا أن تبقى نردد أنه الكتاب الخاتم للدين الخاتم، والدائر الدائم من بين سائر الكتب دون أن نبذل أي جهد لمتابعة مسارات تنافسه وعلاقاته مع النصوص الأخرى؟ وكيف يجوز لنا أن نجعل منه مفتاحاً لمعرفة ومصدراً لإبداعنا، في حين لا يخرج مشوارنا في دنيا الفلسفة عن كونه قفزة واحدة من فلاسفة الأوائل، إلى صحوة ابن رشد، ليلوذ بعدها بالصمت، غافلاً عما يحدث في حقل الفلسفة على مدى قرون عدة؟ كفانا فخراً بالمعجز، وجهوداً بالتفكير، فلم يكن النص القرآني ملكاً لنا وحدنا، فهو ملك للبشرية جميعاً، شتاً أم أبيتاً، خاصة في عالم عولمة الثقافة، والتألف والدين المقارن، وإن لم نقم بامتلاك ناصية نصنا المحوري، سيتولاه غيرنا، وقد شرعوا في ذلك بالفعل، يتناولونه تأويلياً، ونبوياً، وظاهرياً، وتفكيكياً، وما بعد بنيوي، وما بعد حدائي، ومعلوماتياً. في الحقيقة نحن لا نحتمي بنصوصنا الدينية، وإنما نحتمي بها لا نطبق بعداً عنها، فما أن نبعد عن نصها وسياقها حتى تزوغ منا المعاني. وليس بأيدينا من أدوات التعامل مع النصوص إلا أدوات رسخت فيها الحرفية والخطية، تمنع كل جدلية وتفاعلية، وحرية بنا أن نحظى بميزة تنافسية التي يتمتع بها غيرنا، في احتفاظه بمسافة كافية تفصل الذات الدارسة والنص رهن الدراسة، مما يتيح له رؤية أكثر وضوحاً وعمقاً وموضوعية. كما هناك حاجة ماسة للبحث عن منهج جديد للإعجاز القرآني بطريقة غير طريقة الإعجاز اللفوي التي تعودنا عليها، (عبد الهادي عبد الرحمن ١٩٩٨) وقام برهاننا على إعجاز النص، باستخدام وسائل لغوية أخذناها من النص نفسه، وبذلك نثبت إعجازه من داخله، أي نعيد إليه رجع صداه، لنقع في دوامة المنطق الحلقى، الذي لا فكاك من حلقة المقلقة دون علم نص جديد، ينظر إلى النص من داخله وخارجه معاً، يبرهن على إعجازه بمضمون نصه، وعلاقات تنافسه معاً، ويؤسس لخصومة نفتعلها مع التوجهات الفلسفية الحديثة، من وسائل لغوية تحت انطباعات خاطئة أساسها عدم تفهم معنى المصطلحات واستيعاب

المفاهيم. وتفكيك النص القرآني لا يعني سحق بنيته الرصينة والمتماسكة، بل إضافة عنصر الدينامية ودوام التجدد على معانيه وتحديث فهمنا له، والنصوص في نظر التفكيكية لها أعمارٌ عدة يَعبُرُها الزمنُ في مسارات متداخلة ومتوازية، مجدولاً في عباراتها، يفجر حويتها، يعيد توظيفها في سياقات اجتماعية مختلفة ومتجددة متباينة. أليس هذا مطلوباً لإثبات جدارة النص في كل زمانٍ ومكان؟ ولا يجوز أن يمنعنا رفضنا القاطع للموقف السلبي الذي تتخذه ما بعد الحداثة من السرديات الكبرى، من أن نرى تميزها في الاحتفاء بدور المتلقي ونظيرته الذاتية في فهم النص، ودمجه في مضمار حياته اليومية بما يلبي مطالبه الشخصية إن هذه الألفة الذاتية هي الضمان الوحيد كي يبقى النص يشع ضياءً في وجدان الفرد كمصدر لهدايته وباعث على إبداعه، وإن أدوات الماضي للتعامل مع النص لم تسمح لنا أن ننظر إلى النص القرآني إلا على مستوى الوحدات اللفوية القصيرة، من مفردات وجمل، فغاب عن ذلك منظرٌ من المروج الرمزية الكثيفة، وبنية النص الكبرى لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال تعاون علم النص مع تكنولوجيا المعلومات.

ب - علم النص الحديث من خلال رؤية معلوماتية؛ وهو يمثل الفروع المعرفية التالية: - علم اللسانيات - علم الذكاء الاصطناعي وهندسة المعرفة - علم المنطق الحديث - علم العلامات (السيمولوجيا) - علم اجتماع المعرفة - علم النفس المعرف، ونستعرض فيما يلي، أهم توجهات كل فرع من هذه الفروع المعرفية ومفزاها بالنسبة إلى النص القرآني.

علم اللسانيات كفرع من فروع علم النص، يمكن أن تلخص أهم التوجهات الرئيسية لعلم اللسانيات بالتالي: أ - من خلال التركيز على نظام اللغة الداخلي، إلى التركيز على اللغة الواقعية المنطوقة ب - من التركيز حول النحو وشروط السلامة التعوية للجميل، إلى التركيز على المعنى وصلته بالمقام، وأداء المتحدثين والمستمعين أثناء الحديث اللغوي، أو النواحي البرجماتية بمصطلح أهل اللسانيات. ج - التخلص من ثنائية الحرية والمجازي، بالنظر إليهما كطرفين يربط بينهما مسارٌ واحدٌ متصل. د - النظر إلى اللغة في

فضاء سيميولوجي ثلاثي الأبعاد: الرمز- المعنى- مقام الحدث اللفوي. هـ -
التخلص من المفهوم السائد بأن اللغة هي مرآة الفكر، حيث يمكن للفكر أن
يكون له لغة رمزية أو أكثر خلاف اللغة الإنسانية.

أ - المفزى والنص القرآني: - إن علم اللسانيات يمر بمرحلة صعبة
ينتقل فيها من تحليل الجملة إلى تحليل الخطاب أو النص. وسبقنا فرصة
اللقاء بثورة اللسانيات وهي تتعامل مع اللغة على مستوى وحدة الجملة، فهل
من الممكن أن نلحق بها وهي تنهياً لدخول النص؟ إن محورية نصنا الشريف
تعطي المنظرين اللفويين عندنا أن يساهموا إسهاماً مهماً في هذا المجال
الحيوي. - تمثل الخصائص اللفوية للنص القرآني- سواء فيما يخص ألفاظه
أو معانيه أو إيقاعه الصوتي، وما اتصف به من حلاوة وطلاوة وسلاسة
وانسياب- قضايا لغوية ساخنة في مجال دراسة الأداء اللفوي، وتبلور هذه
الألفاظ حالياً في صورة محطات علمية دقيقة، علينا أن نلحق بها في بدايتها،
ونصنا الشريف الفريد يمنحنا ميزة تنافسية عالية في هذا المجال. - ضرورة
إعادة النظر في مسألة المجاز القرآني من منظور دلالي ومعجمي وبراجماتي،
وقد ثبت علمياً أن المجاز خاصية أصيلة من خصائص اللغة الإنسانية، وهي
ظاهرة متفشية على مستوى الألفاظ والمعاني الدارجة، التي تبدو لنا حرفية
في ظاهرها، وقدرة اللغة على امتصاص المفاهيم الجديدة، والمجاز مصدر
التوسع في المعاني، ولا شك أنه قضية شائكة خاصة بالنسبة إلى نص محكم
كالنص القرآني، وما زال فهمنا لمسألة المجاز قاصراً معجبياً ودلالياً وثقافياً،
والتوسع في المجاز يُمَيِّعُ اللغة ويفقدها قدرتها لإتيان البرهان وتحديد المعاني،
وفي المقابل فإن تضيق المجاز يخنق اللغة، ويجعلها أقل قدرة على التكيف،
وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة للنص القرآني وعالميته، وضرورة تصديه
لإشكاليات العصر، والمتغيرات الجديدة لعصر المعلومات ستقحم النص في
المزيد من المشاكل بحيث يستحيل علينا تناولها إن تمسكنا بحرفية تفسيرنا
ومحدودية استنتاجنا لمقولاته. - هناك صلة وثيقة بين فكرنا وديننا تقوم على
اللغة، تعطي مفهوم (إن اللغة مرآة الفكر) وهذا يستدعي إعادة النظر في

ثلاثية العلاقات شبه الاندماجية، التي تربط ما بين لغتنا وفكرنا وديننا. فاللغة لم تعد مرآة الفكر، كما ساد سابقاً. فتخفيف العلاقة العضوية بين الفكر واللغة لابد أن ينعكس على علاقة ديننا مع لغتنا وعلاقة ديننا مع فكرنا. - فدراسة بنية النص تفرض علينا دراسة أمور تماسكه المنطقي من زوايا عدة منها: صرفية ونحوية وصوتية ومعجمية وتركيبية ودلالية بطريقة تتجاوز خطية الفصل، بحيث تنظر إلى النص القرآني كشبكة متعددة المستويات، كثيفة العلاقات والترايطات، وحاول محمد عابد الجابري تحليل بعض فقرات قصيرة من نصوصنا، بأسلوب بنيوي على مستوى الجملة (نفس المصدر السابق). فالكشف عن البنية الكبرى أو البنى الكبرى يتطلب دراسة طبوغرافية تتعامل مع النص على مستوى حزم الجمل والآيات، وصولاً إلى النص بأكمله. إن علم السيمولوجيا فرع من فروع علم النص، يتعهد بالتالي، الأمور المتعلقة بالأجناس الأدبية (الشعر الرواية والقصة القصيرة...) ويقوم على مفهوم الأكواد التي يبعث بها النص إلى قارئه، والذي تقع عليه مسؤولية تلك الشفرة، ويمكن للكواد أن يكون لفظاً لنوياً صريحاً، أو إيحائياً مستتراً، أو إيقاعاً تنغيمياً، أو وقفة صوتية، أو تشبيهاً مجازياً، أو تركيباً نحوياً، أو موضع فصل أو وصل بين الجمل والفقرات، أو علاقة دلالية، أو مقامية، أو إشارة إلى معلومة سابقة، أو واردة، أو إحالة إلى المعرفة على المهدية، كل هذه الأكواد تتعاون في نقل مضمون النص إلى قارئه، والذي يتوقف فهمه على خلفيته وهدفه من وراء قراءة النص. إن كل نص يولد لغته الخاصة، ويضع قائمة شفراته، والمعنى المعجمي، في بداية رحلة البحث عن ذلك المعنى المرجأ دوماً، وما أن نعبر عتبة المعنى المعجمي، نجد أنفسنا نستخدم لغة الشفرة التي يقيمها النص وفقاً لجنسه الأدبي، أو لغته الداخلية الخاصة، وبمعنى آخر لم تعد اللغة كافية لوجدها للكشف عن مضمون النصوص.

ب - الصورة الممتدة والمشعة في النص القرآني: - معظم ألفاظ القرآن ومعانيه، كأسماء الله الحسنى، وأوصاف تيننا الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين، والجنة والنار، والخير والشر، هي شفرات رمزية لا مجرد ألفاظ.

فمهما بلغت دقة معجمتنا في تحديد معنى الجحيم، كما وردت في النص القرآني، لا يمكن أن يبلغ هذه الشحنة الدلالية والوجدانية لشفرة لفظة الجحيم. لتولد هذه الصورة المعتدة والمشعة التي تنطلق من العبارات التالية: (ناراً وقودها الناس والحجارة) (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها). - وللقرآن لغته الخاصة به، المتمثلة في المعاني الخاصة للألفاظ، والأنماط النحوية، وإيقاع الصوت، وتماثل البنى التركيبية، وهذا المجمع الموزون بميزان دقيق غاية الدقة، وهذا الذي يبدو للبعض تكراراً، ما هو بتكرار بل ترسيخٌ للمعنى وتأمينٌ للسياق - إن القرآن لا يخضع للتصنيفات المعروفة لأجناس النصوص الأدبية، فهو نصٌّ له جنسٌ خاصٌّ به، يفوق كل الأجناس اللغوية الأخرى، وبناءً عليه، يمكن النظر إلى النص القرآني كهيئة نصية مثالية لا اختيار علاقة فك الشفرات بجنس النص، وكيفية امتزاج أنواع النصوص، وهو أمرٌ بالغ الأهمية، بالنسبة لتكنولوجيا الوسائط المتعددة. - وخلاصة القول: إن على أهل البلاغة القديمة البالية والمهترئة: أسيرة المعاجم، سجيئة الجمل، التي لا تعرف لا شفرات ولا إشارات، ولا إيقونات رمزية، ولا علاقات تشعب نصي أو تناص، ولا بنى صغرى ولا بنى كبرى، عليكم أن تقرؤا بقصور أدواتكم، وأن تُحدِّثُوا أدواتكم هذه لترقى إلى الذرى الرمزية للنص الشريف إسوةً بما فعله خيرنا بنصوصهم. - المنطق الحديث فرعٌ من فروع النص الحديث؛ أومنعنا فيما سبق كيف عجز منطق أرسطو القاطع عن معالجة النصوص اللغوية بصورة عامة ناهيك عن النصوص الدينية. يسمى المنطق الحديث، ونظرية المعرفة السيمولوجيا، إلى وضع أسسٍ جديدةٍ لنظرية البرهان، تتجاوز الأساليب المتاحة للقياس والاستدلال والاستنباط، وتأتي تكنولوجيا المعلومات ووسائطها المتعددة لتكسر احتكار اللغة لأساليب البرهان، ولا بد من مساهمة الرموز الأخرى كالصور مثلاً في إحداث الاقتناع العقلي.

ج - تجديد أساليبنا بالحوار وخلق أدوات جديدة للقياس الرمزي للنص القرآني: عندما نحاور الآخر عبر الإنترنت، نحتاج إلى أساليب جديدة للمحاجة دفاعاً عن قرأتنا وعقيدتنا. وهذا يتطلب تجديد أساليبنا في البرهان والإلمام بهندسة الحوار، وسيطرح المتغير المعلوماتي العديد من

القضايا، التي تتطلب تحليلاً فقهياً، ومعظم هذه القضايا مستجدة غير مسبقة. يصعب علينا أن نجد مثيلاً في تراثنا الماضي على ما يمكن القياس عليه، وهو ما يستوجب استحداث أدوات جديدة للقياس تتجاوز تلك القائمة على التحليل اللغوي المباشر، باستخدام طرق الإثبات العلمي، والسند لإحصائي، والتاريخي، والرمزي، وأصبح للإقتناع وإثبات البرهان فرع متخصص في تكنولوجيا المعلومات.

د الاهتمام بعلاقة النص القرآني مع الإعلام الجماهيري، إن عالمية لإسلام تفرض علينا دراسة متأنية للنص القرآني في البيئات الاجتماعية المختلفة، ولا شك أن موقع النص يختلف ما بين تركيا العلمانية وإيران الإسلامية، وبين أقلية مسلمي الألبان في الصرب، وبين الأقلية المسلمة في الفلبين والهند. - من خلال توظيفه معرفياً في تناول القضايا السياسية والاقتصادية. - علم نفس المعرفة فرع من فروع علم النص: إن علم النفس السلوكي يدرس العلاقة بين المؤثرات الخارجية وسلوك الأفراد. يدرس علم نفس المعرفة أثر البنى المعرفية الكامنة داخل المخ في سلوك الأفراد، ورؤاهم الاجتماعية، ونظرتهم إلى أنفسهم والعالم، وخير مقولة تعبر عن هذا مقولة إغريقية تقول: (من يعرف الخير يفعل الخير)، مثالنا على ذلك: يمكن لبنى معرفية كالبنى الهرمية، متعددة في درجات السلم الهرمي، توحى له برؤية ظواهر العوالم نزولاً من الأعقد إلى الأبسط، أو صعوداً من الخاص إلى العام، وهكذا فعلم نفس المعرفة: - ذو صلة وثيقة بعلم النفس اللغوي - وكذلك بتكنولوجيا الذكاء الاصطناعي. - وهندسة المعرفة - وهناك توجه لإيجاد تناظر بين وظائف المخ البشري، ووظائف الكمبيوتر، كالتكرار والتخزين للمعلومات واسترجاعها.

ه - تقديس الرموز القرآنية واحترام القيم: - هناك الكثير من المعاني القرآنية تدرك وتستشعر، ولا يمكن وصفها، أو التعبير عنها من خلال الكلمات، وعلى علم النفس المعرفة أن يجد لنا من أين تنبثق هذه المعاني من متن النص. - يساعد علم نفس المعرفة، بالكيفية التي يمكن بها للإنسان

المسلم أن يتلقى نصه القرآني - وكيف ينمو لديه هذا الشعور النفسي بتقديس الرموز الدينية واحترام القيم الصامية ورفض القيم المتدنية، وما الذي يبقى من النص الديني في ذاكرة الإنسان بعد تكرار الإنصّات له، وعلاقة خلفيته العلمية باستيعابه لمضمون النص؟ - علم الذكاء الاصطناعي: ينهض علم الذكاء الاصطناعي: - فيما يخص معالجة النصوص، بتمثيل المعرفة المتضمنة في النصوص بصورة دقيقة ورسمية، باستخدام هندسة المعرفة؛ وتسجيل هذه المعرفة، فيما يعرف بقواعد المعارف، أو في صورة رياضية، أو منطقية، أو على هيئة شبكات دلالية أو مخططات مفاهيمية.

و - التعمق في علم الدلالة للنص القرآني: لابد للمراكز الأكاديمية في الغرب، أن تطبق أساليب الذكاء الاصطناعي ونظم الفهم الأتوماتي لمضمون النص في التحليل الدلالي العميق للنص القرآني. ومن واجبنا نحن الإسراع بهذا الأمر، وذلك بتمثيل النص القرآني منطقياً، ومفهومياً، وكذلك في تطوير وسائل استنتاج جديدة، تستطيع استظهار المعاني المستترة بين ثنايا الألفاظ. إن تفسيرنا للنص القرآني يحتاج إلى دعم حقيقي من تكنولوجيا المعلومات، حتى لا نبقي أسرى التحليل اللغوي المباشر لمعاني الألفاظ والجمل. وهذا يتطلب التعمق في علم الدلالة الصورية، والمنطق الحديث، واللسانيات الحاسوبية، وتعزيز معجمنا العربي بالبيانات اللازمة للتحليل الدلالي.

- القيم:

أ - الأخلاقيات كشجرة مزهرة ومورقة: إن القيم في أصلها اعتقاد ليس شرطاً أن تكون حقيقة، فهي مجموعة من الرؤى والتصورات عن الخير والشر، يمنحها الإنسان لنقصه دون سند سوى رغبته في الإيمان بها، لأن الرغبة والعاطفة والإرادة في نظر بعضهم أهم من العقل فيما يخص القيم. وعلى مر العصور كانت القيم مصدراً للنزاعات والصراعات، ولكن الموقف اختلف اليوم إزاءها، وينظر إليها أنها الملاذ الحقيقي للسلام والوثام بين فئات البشر جميعاً، على اختلاف أعراقهم وعقائدهم ومستوياتهم. ونستطيع أن نردد مع القائلين: (نعم الزمان الذي كانت فيه القيم واضحة وسهلة، لقد تعقدت

المسألة الأخلاقية بعد أن تدخل فيها العلم والتكنولوجيا، وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتزيدها تعقيداً، فأصبحت جميع القضايا الأخلاقية مسألة صعبة للغاية، تختلف فيها الآراء والمواقف إلى حد التناقض الشديد، فهناك من يرى في مبدأ التسامح ضرباً من الاسترخاء الأخلاقي، ولا يخضع الرأي بشأنها إلى بداهة لحس الطبيعي في القياس على ما سبق، لأن الهوة الفاصلة بين واقعنا وماضينا قد اتسعت، وأوصانا الأنبياء والعلماء والفلاسفة، ألا نسقط القيم من أمور حياتنا في التربية والتنمية، إلا أننا تعادينا في إهمالنا لها، حتى أصبحت أمورنا لما هي عليه الآن؛ انفصال بين التقدم الاقتصادي وبين غايات الإنسان الحقيقية، وانفصال بين التعليم والتربية، وانفصال ما بين القانون والعدل، وانفصال ما بين الموهبة والشهرة، وقد زاد الطلب على قيم جديدة مفاهيمية فأورقت شجرة الأخلاق فروعاً جديدة من أخلاق عصرنا وهي: - أخلاق البيئة: هدفها حماية بيئة الإنسان والتنوع البيولوجي، وترسيخ مسؤوليته البيئية، لكل بلد تجاه جيرانه، وكل جيل أمام الجيل الذي يليه، لأن كل جيل يرث الأرض من الجيل السابق، والزام الدول الغنية بتحمل كلفة ما تستهلكه من موارد البيئة، وهي تستهلك حوالي ٨٠٪ بالمائة دون أن تتحمل كلفتها. - أخلاقيات التكنولوجيا الحيوية: وتتناول قضايا الاستنساخ البشري، وتحسين السلالة البشرية، وعلم البيولوجيا، ونسبع اليوم: الطفل المثالي والكامل، والإنسان الجديد، ومجتمع الممتازين، وجميعها يشير إلى توجه علمي تكنولوجي لوضع الإنسان في صورة مثالية، ويعتقد بعضنا أنها أصبحت في متناول اليد، وتهدف الأخلاقيات الحيوية: إلى عدم استغلال بيانات البطاقة الوراثية، التي وفرتها مشروع الجينوم ضد خصوصية الفرد، بدلا من استخدامها لمصلحته، وإعطاء الأولوية له ولكرامته، فوق أي اعتبارات سياسية أو اقتصادية. - أخلاقيات التكنولوجيا: وتتناول القضايا التي تتعلق بسوء استخدام التكنولوجيا أو تصدير تكنولوجيا ضارة والمغالاة في كلفة نقل التكنولوجيا، وتكنولوجيا المعلومات أنت لتخلق فروعاً أخلاقية ذات طابع متغير تماماً عما سبق، وهي: قيم عصر المعلومات أخلاقيات الإعلام -

أخلاقيات الإنترنت - والعالم مشغول بشأن فلسفة أخلاقية جديدة، هدفها ردم الهوة الفاصلة، بين التقدم الاقتصادي وغايات الإنسان الأساسية، وتحقيق نوع من التوافق بين عقل الإنسان وإرادته، لتُخرجَ العالم المعاصر من فراغ القيم الذي يعيشه حالياً، وكلنا أمل بتكنولوجيا المعلومات لتساعدنا في خلق عالم جديد، خلق ثقافة سلام قائم على المبادئ الإنسانية تقرها جميع الأديان والشرائع والثقافات والحضارات، عبر العدل والمساواة ورضع المعاناة (وتحب لأخيك ما تحب لنفسك) - ولا يهم نوعية القيم التي يتم اختيارها، بل الأهم هو أسلوب فرض هذه القيم وإنشائها، وليس من المفيد ما كان شائعاً في عصر تكنولوجيا الصناعة، الذي صاغ الأخلاق بصورة قوانين وتشريعات، لقد ولي حراسة البوابات الأخلاقية، لأن أخلاق عصر المعلومات سوف تقوم على الالتزام لا الإلزام، . والتحول من الرقابة البوليسية إلى الرقابة الذاتية، ومن سلطة القانون إلى سلطة الضمير، أي إحلال المرجع النفسي محل المرجع الاجتماعي.

ب - ماذا من قيم المعلومات؟ إن قيم المعلومات مرتبطة بالعلم والإعلام، والتعليم والثقافة، والمجتمع الأهلي في كل من البلدان المتقدمة والنامية، إن قيم المعلومات تنهج التالي: - دقة البيانات، ومحتوى المعلومات، ومسؤولية مطوري البرامج تجاه مستخدميها . - طبقية المعلومات بين من يملك المعلومات ومن لا يملكها، واستخدام فوارق المعرفة، والتفاوت في إمكانات النفاذ إلى المعلومات، كوسيلة للاستبعاد والتهميش الاجتماعي. - تكبير لصغار بالإسراع في مراحل نضجهم النفسي والمعرفي باستخدام تكنولوجيا المعلومات، وتطليل الكبار من خلال انتشار ألعاب الفيديو، والجنس الخائلي، واندماج اللعب بالعمل. - مسؤولية الخبراء في تقديم المعلومات والمشورة، خاصة أن التعقد المعرفي لمعظم ظواهر العصر، فرض علينا أن نضع ثقتنا في قراراتهم، دون أن ندري شيئاً عن مصادر معلوماتهم، ومدى دقة النماذج، وواقعية السيناريوهات التي يستخدمونها في دعم القرارات، ومدى وجاهة آرائهم وأمانة أساليبهم في عرض المعلومات. - الإنترنت: فيما يخصها راحت

تبحث الإنترنت عن صياغة مطالبها الأخلاقية، على مستوى قواعد الحوار، أو على مستوى محتوى الرسائل التي تتبادل عبر الشبكة، وأساليب البحث عن المعلومات من خلالها، ويشمل التالي: - عدم استقلال الحوار عن بعد بفرض التنكر أو التمويه، أو إشاعة الكراهية، وهو ما يحدث من خلال حوار الأديان، واحترام قواعد السلوك المتحضر أو إتيكيت الشبكة - نزاهة آلات البحث والتصفح، والمقصود عدم انحيازها في انتقاء مصادر المعلومات، أو مضامين معينة لتشويه الحقائق، أو بفرض الانحياز لفضات معينة أو التحامل ضدها، ومثالنا على ذلك: أثناء البحث عن مشكلة الشرق الأوسط، يمكن لكشاف بحث المعلومات أو شجرة موضوعات البحث طبقاً للمصطلح الفني، أن تعطي الموضوعات التي تخدم إسرائيل كأولية أفضل من تلك المتعلقة بحقوق الشعب الفلسطيني. - الأمانة العلمية قد يستغل البعض المعلومات المتطايرة والأفكار المتبادلة، من خلال الإنترنت وينسبها إلى نفسه، دون مراعاة لأبسط قواعد الأمانة العلمية والملكية الفكرية، وما أكثر المقالات الصحفية التي تحتوي على فقرات كاملة تم نسخها من الإنترنت، وإن كل إجراء يتم عبر الشبكة يترك وراءه آثاره الرقمية، - الدارونية اللغوية: إنها ظاهرة انقراض اللغات نتيجة لسيطرة اللغة الإنكليزية، في مجال المعلوماتية، فليس هناك ما هو أكثر لأخلاقية من سلب الإنسان ثقته وضرب أسسها الثقافية - استقلال الإنترنت: لاجتذاب هئات العمالة الراقية من الدول النامية، وهو ما يحدث حالياً فيما يخص عمالة الكمبيوتر ونظم المعلومات، في مصر والأردن وتونس والهند ودول أوروبا الشرقية، وهذا النهب للموارد البشرية هو اللا أخلاقية بعينها، وقد فاق سلب الاستثمار القديم لثروات الشعوب المستعمرة، - وقع قسم كبير من بياناتنا ومعلوماتنا في قبضة التكنولوجيا، ولهذا لا بد أن تكون هذه التكنولوجيا مستأنسة وآمنة وأمينية، أما فيما يخص أخلاقيات الإعلام فهي التالي: ضمان شفافية المعلومات وصدق مضمون الرسالة الإعلامية واكتمالها - عدم تنمية النزعات الاستهلاكية وإشاعة القيم المادية - مقاومة الطبقية الإعلامية، نتيجة الخدمات الإعلامية الراقية بثمن لا يقدر عليها إلا

النخبة الفنية - عدم استخدام وسائل الإعلام والإعلان كسلاح إيديولوجي واستثارة النزعات الطائفية والعرقية. - إن أخلاقيات المعلومات من القضايا المهمة التي توليها منظمة اليونسكو اهتماماً كبيراً وقد أقامت على الإنترنت منتدى خائلياً لبلورة هذه القضايا.

ج - كيف نصنع القيم والأخلاق ونحافظ عليها؟ تخلت الحكومات تدريجياً عن مسؤولية الرقابة وفرض الالتزام بالقوة، وأحالتها إلى الأسرة وإلى موثيق وشرف المهنة، ويتوقع بعضهم أن حماية القيم والأخلاق تحولت إلى صناعة قائمة بذاتها، تنهض على استخدام الوسائل الإلكترونية للرقابة، عن طريق برامج احتجاز المعلومات وخدمات رقابية مدفوعة الثمن (شركات).

- القيم العربية؛

أ - ماذا عن قيمنا وعصر المعلومات؟ إن المتغير المعلوماتي يفرض علينا إعادة النظر في قيمنا السائدة فيما يخص التالي: - احترام الأمانة العلمية بعد أن تفتت ظاهرة التسريب العلمي حتى على المستوى الأكاديمي. - احترام الملكية الفكرية، لنضمن حقوق أصحابها في الوقت الذي يوفر فيه مناخاً ملائماً لإشاعة المعرفة، ونشر الطاقات الإبداعية - مقاومة ظاهرة العداء العلمي تحت دوافع الجمود الإيديولوجي، أو ادعاء الحرص على الدين، أو تحت دعوى القفز فوق المنهجية العلمية من أجل الإسراع في حركة التنمية. - مقاومة انتزاع سلطة المعرفة بصورة رسمية أو غير رسمية. - ويمكن أن يكون تراثنا الديني والفلسفي لا غنى عنه لتجديد نظام قيمنا لتلبية حاجة عصر المعلومات، وما زالت جميع مؤسساتنا الرقابية تستخف بخصوصية بيانات الأفراد، وهو يستدعي إصدار تشريعات تحد من قدرة هذه المؤسسات على هتك سرية سجلات الأفراد، إلا في حدود الإجراءات القانونية، وتحت رقابة قانونية، وهو ما يتطلب تطوير الوسائل العلمية، للحفاظ على سرية بيانات الأفراد باللغة العربية.

ب - ماذا عن حقوق الإنسان العربي؟ إن العولمة ركزت على حقوق الإنسان في الوطن العربي، وجعلت منها مادةً ساخنةً في الساحة العربية للسجال الديني الإسلامي - العلماني، وهذه الساحة تقتقد البيئة الفكرية؛ أي الأعمال الثقافية المتعمقة فيما يخص حقوق الإنسان بشكل عام، يسعى العلمانيون إلى تأصيل ثقافة حقوق الإنسان في بيئتنا العربية، ويطلب بعضهم إجراء مراجعة شاملة لمنظومة قيمنا. وهناك من يقول: أن قيمنا تتعارض وروح العصر، ويتهمون الخطاب الإسلامي فيما يخص حقوق الإنسان بالتخفيف والجزئية (هيثم المناع ٢٠٠٠)، وهنا تجدر الإشارة إلى ما قاله برهان غليون في (أغتيال العقل) حيث قال: بينما تؤكد العقلانية الغربية حرية الإنسان، فإن العقلانية العربية جاءت لتثبيت النظام القائم ولتبرره، وأنها ضد حرية الإنسان (برهان غليون ١٩٩٠)، أما الإسلاميون فيفسرون ذلك بأن وجهة نظر العلمانية تلك تعود إلى أنهم يتناولون القضية من منظور غربي، ومرجعيتهم في ذلك الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وخريطة تصنيفاته (الباقر العفيف ٢٠٠٠) والاختلاف ناشئ في رأيهم من التسميات، وعلى الرغم من عدم وجود مصطلح لحقوق الإنسان، فإنه مفهوم متأصل ومغزى في الثقافة العربية والإسلامية، كما يقول حسن الترابي فهو لا يرى أن الأحزاب ضرورية من أجل الديمقراطية (حسن الترابي ١٩٩٥) وهناك من الإسلاميين من يعترض على استخدام الديمقراطية، فهي تدخل في دائرة المحرمات بالنسبة للحركات الإسلامية (نفس المصدر السابق)، وفي رأي هؤلاء أن الحركات الإسلامية حركات شعبية، لذلك فهي ديمقراطية بامتياز، وهم يرون فتح ملف حقوق الإنسان في الإسلام من داخل القرآن، وبقراءة قرآنية، جديدة والقرآن يعهد بالسلطة إلى الشعب ويسعى دائماً لتحقيق الإجماع باعتباره عاملاً مهماً في التوحيد (الباقر العفيف ٢٠٠٠) وسمح لأمة الإسلام أن تتوزع فرقا ومذاهب دون غلو في المذهبية (حسن الترابي ١٩٩٥). ويرى فهمي هويدي: أن لا تعارض بين الإسلام والديمقراطية ويقول: (لا بد

من الإسلام والديمقراطية والجمع ممكن بينهما حقاً، ويعتبر الديمقراطية أفضل صيغة ابتكرها العقل الإنساني للإدارة السياسية للمجتمع، ويحيلنا إلى ما قاله العقاد من أن فكرة الديمقراطية أنشأها الإسلام لأول مرة في تاريخ العالم) (فهيم هويدي ١٩٩٣). أما بالنسبة لمشكلة الأقليات في الوطن العربي، يرى الجابري بشأنها أن التعددية الدينية والإثنية تنتمي إلى قضية الديمقراطية ولا تنتمي إلى قضية عروية وإسلام (محمد عابد الجابري ١٩٨٩) وبعضهم يظهر قلقه من التعصب الديني، ويلاحق ويرصد درجات توتراته من التعصب في الكلام حتى الإرهاب (إكرام لمي ١٩٩٩) لقد تراوحت المواقف بالنسبة لعولمة القيم، ما بين إظهار أشد القلق على ما تمثله من تهديد لقيمنا الإسلامية والعربية، وبين الذين لا يرون حلاً لمشاكل العولمة إلا من خلال تصدير قيمنا لسد الفراغ القيمي، وفي كلتا الحالتين نحن بأمس الحاجة إلى دعم تكنولوجيا المعلومات، إما لبناء الدروع ضد قيم العولمة، وإما لإقامة الجسور لتوصيل إشعاعنا القيمي إلى مصادر الطلب عليه، ولا شك أن الإنترنت ستكون هي حلقة الوصل بين منظمات حقوق الإنسان حيثما توجد في عالمنا العربي، وربطها ببقاى المنظمات العالمية، مما يزيد تصديها لممارسات الداخل.

- ماذا عن الدعوة الدينية الغربية؟ إن الدعوة الغربية الدينية تمر بتغيرات جذرية بفضل التغير المعلوماتي والعولمة، ومن المتوقع أن تصبح الإنترنت أداة الدعوة الأساسية، أي (التبشير عن بعد)، ولن يكون التركيز على هداية الفرد كما كانت عليه الحال في السابق، وتحل محلها التوعية الاجتماعية، ويكون بجعل الفقير والمحروم والمقهور أكثر وعياً بحقائق المجتمع، والآثار السلبية لظاهرة العولمة، وإظهار المساندة لهم من أجل التحرر والعدل، والتركيز سينتقل من الثيولوجي إلى الأخلاقي، وسيكون من مهام الدعوة الإبقاء على الروح النضالية في عصر المعلومات. وتتطلب هذه الدعوة دعماً من تكنولوجيا المعلومات لإقامة حلقة التواصل مع هذه الحلقات المستضعفة.

- ماذا عن الدعوة الدينية العربية؟

أ - ما أولويات الدعوة الدينية العربية؟ إن أهم مهام الدعوة إلى الإسلام عن بعد، هو مقاومة الحملة الشرسة ضد ما يسمونه بالخطر الأخضر، وتقوية الروح التضاللية لدى الأقليات المسلمة، وربط الدعوة الإسلامية بمشكلاتها المحلية، وتوعية الجاليات الإسلامية المهاجرة، خاصة لأجيال التي نشأت في دول المهاجر، والدعوة الإسلامية في عصر الإنترنت تواجه دعوة منافسة من قبل مؤسسات دينية لها تنظيمات عالمية رسمية وغير رسمية، في ذات الوقت الذي نعاني فيه قصوراً تنظيمياً.

ب - ما نوع الخطاب الإسلامي على الإنترنت؟ يمكن لنا أن نصنف نوعيات خطاب الدعوة عبر الإنترنت على الوجه التالي: - التوجه الصدامي مع المسيحية: وهو ذو طابع انفعالي في أغلبه، يقوم على المقارنات الساخرة بين نصوص الكتب السماوية واصطیاد بعض الممارسات السلا أخلاقية في المجتمعات الغربية - التوجه الاستكباري الديني: وهو لا يقل استفزازاً عن سابقه، وتسوده لهجة انفعال والتباهي، والإسلام هو المخرج الوحيد لإنقاذ البشرية، ولا حل للأزمات المعاصرة، بدءاً من المشكلات النفسية وانتهاء بالمشكلات الاقتصادية والبيئية، إلا من خلال تطبيق مبادئ الإسلام. - التوجه اللين: هو أقل حدة من سابقه ولا يختلف في منطلقاته عنه، سوى أنه موجه إلى الجماهير المسلمة في المجتمعات الغربية، ليعينهم على الصبر والصمود (والمقاومة للمتقين) والمستقبل للإسلام. - التوجه المهادن: وهو ذو صوت خافت ينطلق من بلدان أوروبا، وخاصة ألمانيا وفرنسا ذات جاليات إسلامية كبيرة، يتسم بالطابع الترجماني التوفيقى، حيث يناهى بمهادنة المجتمع الغربي إلى حد البحث عن صيغة أوروبية للإسلام توفق ما بين قيمه وقيم المجتمع الأوروبي. التوجه الانفصالي: وهو خطاب يتعلق الفكر الغربي في حثه إلى عدم النظر لأمة العرب والمسلمين ككيان واحد مندمج، ويتراوح ذلك بين العلمانية التركية ومسلمي جنوب شرق آسيا، لتقديم صورة مختلفة

لمجتمع إسلامي متقدم تكنولوجياً واقتصادياً. التوجه المقاوم المجاهد : وله عدة منابر في مواقع الإنترنت، تدعو المسلمين -شبابهم على الأخص-، بشكل مكثف وملزم إلى المقاومة والجهاد، والتضحية في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين. - التوجه الوعظي: موجه إلى الجاليات الإسلامية في دول المهجر، وهدفه التوعية الدينية، وتنشئة أبناء هذه الجاليات على تعاليم الدين الحنيف وأصول العبادة وما شابه - التوجه بالهداية إلى الإسلام: تَوَجُّه يعرض روعة القرآن ومظاهر إعجازه وحكمة السنة والسيرة النبوية والسلف، من أجل الدعوة الصريحة لحث غير المسلمين على الدخول في الإسلام، ويضطلع به أصحاب النوايا الحسنة من مسلمي المهاجر غير المؤهلين لأمر الدعوة، يحاولون إقناع (المهتدين القادمين) بنسف أسس عقيدتهم الدينية الأصلية، ووضع أيديهم على ما يسمى ثغرات في دينهم ونصوصهم، - توجه النزاع والتصارع: هو توجه إسلامي - إسلامي تتبادل القبائل المتصارعة الإسلامية، أو المحسوبة على الإسلام.

ج - كيف تدعم تكنولوجيا المعلومات الدعوة الإسلامية؟: استخدام الإنترنت: للربط بين مراكز الدعوة الإسلامية وبين نقل رسالة الدعوة من هذه المراكز إلى المسلمين عبر العالم - استخدام تكنولوجيا الوسائط المتعددة في تصميم برامج متقدمة للإرشاد الديني متعدد اللغات، - إقامة بناء قواعد بيانات، للفتاوى والتشريعات الإسلامية. - استخدام قواعد ذخائر النصوص لحفظ نصوص التراث الديني. - إقامة بنوك مصطلحات إسلامية بجميع اللغات المستخدمة في الدول الإسلامية، غير الناطقة بالعربية. - إقامة قواعد البيانات البيبلوغرافية لموارد المعلومات اللازمة لدراسات الدين المقارن، - إقامة خرائط ثقافية للأقليات الإسلامية.

الفصل السابع

(أنت حر بقدر ما تمتلك من معرفة)

ثقافة الإبداع الفني

- فن عصر المعلومات بين المألوف والتجديد؛

ما علاقة الفن بالتكنولوجيا في الغرب؟

مقدمة: إن علاقة الفن بالتكنولوجيا علاقة قديمة جديدة، تمتد عبر المصور، من الرسوم داخل الكهوف إلى نقوش المعابد وكتابات ألواح الطين، إلى رسوم الكمبيوتر وفنونه الذهنية، وعوالمه الخائلية، وهي علاقة مضطربة، تظهر العداء وتضمر الوفاق، تتأرجح بين الريبة والرغبة، وبين الحماس الشديد والهوس أحياناً أخرى، وكل فن يتجاهل التكنولوجيا ليس فناً ولا معنى له بل معكوماً عليه بالفشل.

أ - بين الفن والتكنولوجيا: يرتبط العداء بين الفن والتكنولوجيا بموقفهما من العلم، إن العلم يكشف الحقائق، بينما يكتفي الفن بالإنبهار بها، دون رغبة الدخول في تفاصيلها، عكس التكنولوجيا التي لا بد لها أن تدخل في أدق التفاصيل، حتى تتمكن من تطبيق الاكتشافات العلمية بصورة عملية، وهذا سر التناحر بين التكنولوجيا والفن، والعلاقة بينهما مملوءة بالاتهامات القاسية والنقد الحاد. الفنان يصف التكنولوجي بالبرود والميكانيكية، ويسخر من مغالاته، ومن قدرة نظمه وأدواته، في المقابل، يرى كثير من التكنولوجيون الفن عملاً غير ذي بال، وينظرون إلى الفنانين كنوع من الطفيليات الاجتماعية، وأنهم يروجون للفوضى والتلقائية، ويثيرون غرائز الناس ورغباتهم الجامحة على حساب سيادة العقل. - إن الفن يتفر من التكنولوجيا وماديتها وبرجمائيتها الحازمة، ويرى فيهما تناقضاً مع ما يتحلى به من رهافة وحساسية، ومع نزوعه الدائم نحو المجرد، واحتقائه بالقامض، ورضاءه بسكنى الجوار مع المستحيل، ولن يرتاح الفن ويجواره تسكن التكنولوجيا، التي

لبست ثوب الغرور والتمهاهي. وراحت تطل بأقدامها الثقيلة أراضيه اللينة، تسعى إلى محاكاة إبداعه، تهمش دورم تسليه جمهوره، تعيث بثرائه ونتاج إبداعه، وهي تسرف في ذلك، عندما لا تتورع أن تهبط بطن التشكيل إلى القص واللصق (كولاج). وبالأدب إلى نوع من الوثائقية الجافة، وتتزع عن المعمار قيمته الجمالية، ليظهر رتيباً حزيناً لا هوية له، وما أكثر ما أضرت هذه التكنولوجيا بطن السينما، الذي نشأ وترعرع في حضن الثقافة الأوروبية، وفي أمريكا أصبح يعين آلة إنتاج هوليوود، فيتوارى الإبداع الحقيقي، ثمناً لمتعة حسية، لحظة زائفة سريعة ما تزول، والمأساة ذاتها تتكرر في الإنتاج التلفزيوني.

ب - هل هناك صراع بين الفن والتكنولوجيا؟ وقد يكون على النقيض من ذلك كثيراً ما ألهمت التكنولوجيا خيال المبدعين، فما أن تظهر تكنولوجيا إلا وتندفع مقدمة الفنانين إلى استخدامها في مجالات فنونهم المختلفة، ولا تخلو هذه المبادرات من بعض التعسف. ففي بداية ظهور السينما سارع بعضهم إلى تسجيل المسرحيات سينمائياً ففشلت، وتكرر المشهد نفسه مع ظهور الكمبيوتر، حيث تسرع بعضهم إلى استخدامه قبل الوقت المناسب، في إعداد الرسوم وتوليد جماليات الخطوط، فكانت النتائج متواضعة، وسرعان ما مهدت هذه البدايات المسيرة إلى علاقة بين الفن والتكنولوجيا أكثر نجاحاً، وتشهد على ذلك الانجازات الباهرة التي حققتها السينما، في تقديم الأعمال المسرحية وروائع الرسوم، وجماليات الخطوط، التي يمكن توليدها اليوم بواسطة الكمبيوتر، وما أن يستوعب الفنان جوهر التكنولوجيا الجديدة، ويضع يديه على أماكن التقائهما مع مجال فنه، حتى يهتدي إلى كيفية القيام بعلاقة متوازنة معها، وتدين لها التكنولوجيا كأداة طيبة لا يطيق فراقها، وتتكشف أمام ناظره كموضوع مثير يلهب خياله، ويدفعه إلى المزيد من الإبداع والاكتشاف. وهكذا دخلت التكنولوجيا عالم الفن من أوسع أبوابه، وهي الآن شريكة كل الفنون، تحرك المتحولات، تمزج الأنغام الموسيقية، وتشارك في صنع الديكور، وتتحكم في الإضاءة المسرحية، وتنتج الخدع السينمائية، ترمم اللوحات، تقوم بأرشفة التراث الفني، تحيل خيال المصمم المعماري إلى واقع ملموس، بصورة لم يحلم بها في الماضي.

ج - ما علاقة تكنولوجيا المعلومات بالإبداع الفني؟ إنها الرهبة والهوس
تلون علاقة الفن بتكنولوجيا المعلومات، وآلة التصوير أعفت الفنان المبدع من
تسجيل الواقع ومحاكاة الطبيعة، لتصبح مهمته تمثيل الواقع واستيعاب
حقائقه، وملاحظة ما يصعب ملاحظته، هذا ما فعلته آلة التصوير بالمبدع،
وتكنولوجيا المعلومات سلبته مهمة الوساطة بين المتلقي والواقع، فهي تراحمه
في تمثيل حقائق الواقع وملاحظة دقائقه، ورصد تفاصيل أحداثه، ومتابعة
تغييراته واستشراف توقعاته، ورغم كل هذه الأمور التي تثير قلق المبدع، تبقى
تكنولوجيا المعلومات تتميز بخصائص عدة تؤهلها لإقامة علاقات وطيدة مع
الفن. وهنا علينا أن نخلي الساحة من الصراع ويؤثر الصدام. - بالحقيقة
تمثل تكنولوجيا المعلومات تهديداً حقيقياً للمبدع. من حيث إنتاجه أو طبيعة
عمله، إن تكنولوجيا المعلومات قادرة على نسخ الأعمال الفنية، ودمجها وإعادة
استخدامها وتوظيفها، لقد كان الفن في بدايته حرمة من الحرف كالنجارة
والحدادة والبناء، ولكنه مما فوق الحرفية، بعد نجاحه في إثبات تفرد،
والمحافظة على تجده، وانتهاكه القواعد السائدة، وتأتي تكنولوجيا المعلومات
لتنفص عليه حياته، تكاد تأخذ به إلى مهنة يزاولها المهنيون الجدد من حرفي
عصر المعلومات، ذور القدرة على مزج الموسيقى، ودمج الأشكال، وإعادة إنتاج
التصميمات، ولم تكتف تكنولوجيا المعلومات بجعل إنتاج المبدع نهياً لمن يشاء،
بل راحت تهدد إبداعه في الصميم، عبر تطوير برامج تحاكي إبداعه، برامج
تخلق الأشكال، وتبني المنحوتات، وتمزج الألحان، وتؤلف القصص، وتقول
الشعر، وهكذا كان رائد الموسيقى اللا نغمية (شوينبرغ) قد تنبأ أن الفنان كاد
أن يفقد تفرد، وأن فن يقترب شيئاً فشيئاً من فخ الحرفية، وآخرون يقولون
بأن الأدب اقترب من فخ الوثائقية الفجة، كما قال البرتومورافيا، - بالحقيقة
إن العلم للجميع وقتنا : إن (العلم نحن) كدلالة على موضوعيته وتفرد،
وضرورة الإجماع على صحة نتائجه، والفن هو (أنا) تأكيداً لتفرد الذات،
وتأتي تكنولوجيا المعلومات وتقول أن (الفن هو هم) وهكذا قامت تكنولوجيا
المعلومات، بضمم عرى العلاقة بين المبدع الفني وعمله، بعد أن جعلت من
العمل الفني منتجاً جماعياً، يُجمَع من بقايا شظايا متناثرة، من مبدعي

الماضي والحاضر، ويسهم فيه المتلقون أنفسهم، الذين خرجوا من دائرة التلقي السلبي. - انحياز ثقافة المعلومات والعولمة إلى ثقافة العامة، على حساب ثقافة النخبة، وهو يثير قلق الفن على مصير طبيعته المبدعة، التي تغذي وتتغذى على ثقافة نخبته، وعندما نسلب من الفن طبيعته، فإنه يفقد ضمان تجددّه وتجاوبه مع متغيرات عالمه، وليت ثقافة العامة تعمل على إحياء ثقافة الفئات الشعبية المختلفة، فقد حولتها عولمة الإعلام إلى نوع من التجنيس الثقافي على النمط الأمريكي، وهو يضع قيوداً قاسية على ثقافات الشعوب، خاصة شعوب العالم الثالث، ورغم كل حشود التضخيم والتعجيم، يزداد إقبال المبدعين على تكنولوجيا المعلومات، ويراهم بعضهم هي المخرج الوحيد لانتشال الفن من أزيمته التي يمر بها من سبعينيات القرن الماضي، لقد وهبت تكنولوجيا المعلومات الفن حواساً جديدة، أكثر حساسية وقدرة على التقاط الواقع، ووفرت له وسائل عدة ليعبر بها عن هذا الواقع، ووسائل مبتكرة للتفاعل مع جمهوره، ونشر ناتج إبداعه، تُرى كيف يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تُحفّز من إبداع المبدع؟ عندما ننظر إلى العملية الابتكارية في إطار ثلاثية: ملكة الحدس. مهارات معالجة المعرفة. القدرة على حل المشكلات. وبالحقيقة تسهم تكنولوجيا المعلومات في تنمية كل عناصر الثلاثية المذكورة، فهي أداة فعالة في معالجة المعارف عبر هندسة المعرفة المستخدمة، في تمثيل المعارف وترشيحها، واستخلاص جوهرها، كما هي أداة فعالة في توصيف المشكلات وتقديم بدائل الحلول. وأما بشأن ملكة الحدس، فقد نضدت تكنولوجيا المعلومات بجرأتها المشهورة عالم الحدس، واستحدثت فرعاً علمياً خاصاً بها يعرف بالحدسيات، بهدف إكساب البرامج القدرة على التعامل مع الزائغ والمتميّع، والمحتمل والمشوش وغير القاطع، واختيار أقصر الطرق للوصول إلى النتائج. - أزاحت تكنولوجيا المعلومات كثيراً من القيود التي كبلت الفنان، وحررت فنان التشكيل من قيود إطار اللوحة وتثائية أبعادها، وأصبح بإمكانه أن يرسم أشكاله في فراغ غير محدود ثلاثي الأبعاد، وحررت فنان الموسيقى من سطوة الآلات الموسيقية، وأصبح بإمكان المؤلف الموسيقي أن يصمم ألحانه بتسجيلها مباشرة على الشرائط دون الرجوع إلى العازفين، وبإمكانه أن

يصمم آلات عزف جديدة، كما يؤلف ألحانه الجديدة، وحررت الفنان من صلابة مادته وسكونية كتلته، من خلال آليات التحريك، وتكنولوجيا توليد الأشكال المجسمة إلكترونياً، كما حررت الأديب من خطية السرد المكتوب الذي فرضته عليه تكنولوجيا الطباعة، لينطلق الأديب في عالم لا متناهي، من اللا خطية والتشعب وإعادة البناء، وهو ما أطلق الفنان المقارئ ليمارس حقه في حرية القراءة وتعددتها، وللمبدع السينمائي تصميبه الوافر من دعم تكنولوجيا المعلومات، فكل الخدع السينمائية والمناظر الخلفية، والنماذج الخيالية كمركبات الفضاء وخلافه متوفرة، بل قابلة للتنفيذ وطوع إرادة المخرج، وما عليه إلا أن يقوم بوصفها وتوصيفها، والمبدع الدرامي الذي ضاق بمحدودية خشبة المسرح، فقد وفرت له تكنولوجيا المعلومات وسائل عدة لتحرر من أسر الحيز المحدود، عبر نقل المناظر الخلفية عن بعد، بل أسقطت تكنولوجيا المعلومات الحاجز الرابع بالفعل عندما كسرت احتكار الممثل، وأصبح من حق مشاهديه أن يشاركوه أداءه، وينقلوا إليه بشكل فوري ردود أفعالهم لما يجري على خشبة المسرح. وهكذا تحرر الفنان من قيود المكان والزمان، وتمكينه من أن يرى عمله من جميع الزوايا، وأن يمارس تجاربه الإبداعية بحرية زائدة، وكثيراً ما يتجاوز المبدع ما هو متاح له، في سعيه الجاد إلى اكتشاف كل جديد، ليصطدم بقيود جديدة وهكذا دواليك، وفقت تكنولوجيا المعلومات إلى جانب المتلقي، ووفرت له العديد من الوسائل التي تمكنه من التفاعل مع العمل الفني، وتنمية حاسة الذوق لديه وتنمية شعوره بالمتعة، وغاية تكنولوجيا المعلومات تحويل المتلقي السلبي إلى متلقي إيجابي، ينفذ إلى صميم العمل الفني، ويسهم في صنعه ومداومة تجديده، وكما أسهمت تكنولوجيا المعلومات في تصميم عملية الإبداع الفني وبالمقابل توفر طرقاً عدة لنشر إنتاج المبدع، فتحرره من قبضة الناشرين وأصحاب المعارض ولجان مقتنيات المتاحف، والإنترنت في طريقها لتصبح أكبر متحف لعرض الفنون، وأكبر قاعة لسماع الموسيقى، وسوق لتبادل منتجات الفنون، وأكبر أرشيف لتراث الإبداع الفني. ترى ما هي علاقة التكنولوجيا بالفن من حيث علاقتها بالبيئة والطبيعة، ويمكن أن يبقى الصراع والوفاق بينهما، مادامت

التكنولوجيا معادية للبيئة وقاهرة للطبيعة، وسيبقى الفن متشبهاً بحقه أن يمرح في رحاب البيئة، تواقاً للقاء الطبيعة، ولن يتحقق الوفاق بين التكنولوجيا والفن، ما لم يتحقق الوفاق بين التكنولوجيا وبيئة الإنسان من جانب، وآلته من جانب آخر، وإن لم يتحقق ذلك سيصدر عصر المعلومات طبيعته الخاصة من الرومانتيكية والسريرية، إما حيننا إلى الماضي، أو هروباً من بشاعة الواقع إلى جنة العوالم الخائلية صنيعة تكنولوجيا المعلومات، فيهجر الإنسان واقعه ليبصر في غيبوبة رمزية مثيرة وخادعة. كان القرن الماضي هو قرن الناس العاديين حيث غلبت عليه فنون استهدفت الإنسان ذاته، فهل يكون القرن الواحد والعشرون هو قرن الناس المبدعين، قرن يشهد مولد فن جديد، يتقاسم فيه الإبداع الفنان والمتلقي والآلة.

د - هل تصلح تكنولوجيا المعلومات كموضوع للفن؟ عبّر (تشارلي شابلن) وبأسلوبه السهل الممتنع عن أزمة الإنسان في عالم مجتمع الصناعة، حيث أصبح الإنسان مجرد ترس في آلة إنتاجه، كما صور (مكسيم غوركي) برؤس العمال الذي امتد عبر المصانع إلى حياتهم خارجهم، وقدم (كافكا) شهادته الرائعة لقضاة (محاكمته) وحراس (بواباته) معترضاً على عبث الأنظمة، وبشاعة الديمقراطية التي أقرتها عقول المجتمع الصناعي هي العقلانية ذاتها، التي رفضها بيكاسو، وراح يحطم الأشكال في تجريداته كدعوة لإعادة البناء، وإعادة النظر في ما هو قائم وسائد، وتدمج سطوة التكنولوجيا مع بشاعة الإيدولوجيا في الطوباوية السوداء، لجورج أورويل، فتصور لنا مجتمعا وقع فريسة نظام مركزي متوحش مدجج بأبواب الأسلحة التكنولوجية ووسائل الإعلام وذاكرة المخابرات، ووجدت موتيفات عالم الصناعة من تروس وآلات وأعمدة ومواسير طرّيقها إلى لوحات الفنانين وتماثيلهم، من أمثال (فرديناند ليحيه)، ونحاتي الإنشاء الروسية، ولم تتخلف الموسيقى عن ذلك وكان القصيد السيمفوني (مَسَبْكُ صهر الحديد) لأليكسندر موسولوف) فامتزجت أنغام الموسيقى بدقات المطارق وضجيج الآلات، وصوت انسكاب المعدن المتصهر من بوتقات الصلب، ولاحقت الموسيقى التكنولوجيا في مسار تطورها، فكانت سوناتا (الآلة الكاتبة)

وسوناتا (الطيارة) وساهم (كارل هاينز شتوكهوزن) في وضع موسيقى توحى بالحركة في الفضاء، ويعود الفضل في تدشين استخدام موتيفات عصر المعلومات في دنيا الفن إلى المخرج السينمائي (ستانلي كوبريك)، حين عمدها في الكمبيوتر في فيلم (أوديسا الفضاء) ويعتبر (فون فيبرن)، الأب الشرعي للموسيقى الإلكترونية، وابتكر ما تسميه (المنمنمات الموسيقية) وهي ومضات من الألحان لا يزيد زمنها عن ثوانٍ، وأخيراً، أدب الخيال العلمي في مجال تكنولوجيا المعلومات، على يد ويليام جيبسون) بروايته الشهيرة، حيث شاع على أثرها مصطلح فضاء السير، ويأتي فيلم (ما تريكس) من بعدها ليقدم لنا نموذجاً من ديستوبيا نظم الرقابة الإلكترونية في عصر المعلومات، وهذا كله مجرد بدايات للقاء أدب الخيال العلمي مع تكنولوجيا المعلومات، لاشك أن هذا الأدب سيكون أكثر إثارة، خاصة بعد تعاون المعلوماتية مع التكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية، ومن المتوقع أن يلهب هذا المزج العلمي - التكنولوجي المثير خيال الأدباء، ليلهبوا خيال العلماء فيخلقون بنا في عوالم غريبة تتجاوز ما شاهدناه في أفلام حديقة (الديناصورات) والمرأة الإلكترونية والعودة إلى (المستقبل) وما شاكل. ولنا أن نتربص سوبرمان عصر المعلومات، حاملاً معه قائمة عجيبة من الخوارق، الجسدية والرمزية والذهنية، وهو آت إلينا ليفرض العدل، ويتصدى لظلم المؤسسات والاستغلال الرمزي وفوضى الحياة تحت رحمة النظم الآلية.

- ما علاقة الفن العربي بالتكنولوجيا؟

أ - لا حوار بين فنوننا والتكنولوجيا؛ لم تستطع فنوننا حتى الآن أن تقيم حواراً بينها وبين تكنولوجيا الماضي، وعليها القيام بجهد مضاعف لتتجح في إقامة نمط من الحوار مع تكنولوجيا المعلومات، وهو حوار يتطلب حد أدنى من النضج الفني والتكنولوجي غير متوافر لدينا، ترى ما هي أسباب الصمت الكامنة وراء خطايانا الإبداعي - التكنولوجي، دعنا نلخصها بالتالي:

- إن التكنولوجيا لازالت ظاهرة واحدة بالتسمية إلينا، لم تنفرس في تربتنا العربية، لذلك كانت التبعية التكنولوجية التي جرت وراءها تبعية إبداعية في

معظم فنوننا وخاصة في النقد . - تمشي استيراد الإبداع من إنتاج سينمائي وتلفزيوني، وبيع الغناء والتصوير والموسيقى، واتسعت لتشمل الفنون الشعبية، من قوانين رمضان، والزخارف الإسلامية، والأزياء الشعبية . - غياب مفهوم تكامل الفنون، تماماً كغياب مفهوم تكامل العلوم، وما يكمن وراءهما من ثنائية ثقافية، أدت إلى شرذمة الفكر العلمي العربي، وتبدو هيئته إذا ما قورنت بشرذمة المعرفة بمفهومها الواسع، والذي يشمل الفلسفة والهندسة والفنون . - يشكو معظم العرب كباراً وصغاراً من أمية متجذرة في وعيهم، وخاصة الفنون، وإذا وجدت فتدور حول أمور بدائية أبعد ما تكون عن التكنولوجيا . - ومن أهم هذه الأسباب في تخلف توجهننا الإبداعي - التكنولوجي، ما يتعلق بموقف رجال الدين من الفنون، وقد افتعل بعضهم خصومة بين ديننا الحنيف والعلم، وهناك من لم يدخر جهداً في افتعال الخصومة الدينية مع معظم أنواع الفنون؛ خصومة مع التصوير والنحت، ومع الموسيقى والغناء، ومع الشعر والتمثيل، ومع فنون أداء الإيقاع الحركي، ولم يفلت الأدب بأساطيره وأخيلة قصصه من هذا الضغط والحصار، الذي ضيق الخناق على أطفالنا، ومنهم من راح ينقب في الشعر الجاهلي وما الذي تبقى لنا بعد كل هذا؟ صحراء فنية جدياء، تفرض على الموسيقى أن تصمت، وعلى التشكيل أن يبقى سجين السطحية الزخرفية، والأدب أن يلتزم بتلقيحية التوجيه المباشر، ولتصنع إلى ما سنه أحد مشرعي الفن من أصحاب الفكر الديني تعريفاً للأدب الإسلامي (إنه تصوير فني للحياة ومظاهر الكون، بما فيهما من خلال التصور الإسلامي، تُستغل فيه الصورة والكلمة في الارتقاء بالقيم الخلقية، وإذا تكلم عن الشر والكره، فإنما يذكره لبيان أسبابه وعلاجه، لتعود الروح إلى الأصل الطيب الذي فطرت عليه) ولننظر فيما قالوا في مجال (الزخرفة العربية) بشس الدفاع عن هذا الفن السامق الذي تضردت فيه الثقافة العربية الإسلامية (الفن عموماً هندسة، والموسيقى هندسة أنغام، والنحت هندسة أشكال، والألوان هندسة في التركيب) (مصطفى عبد ١٩٩٩) فمن يدلنا على ما تعنيه هذه الهندسة المفرطة، وما القصد من ورائها إلا تكييل الفن، وفرض النظام الصارم عليه من خارجه، في

الوقت الذي تلوذ به الهندسة ذاتها بالفن، وتصبو إلى هندسة الخيال وزعموا أن الإسلام يحرم الفناء، ماعدا الفناء البريء كمناغاة الأطفال وحدو الأبل (نبيل علي ١٩٩٨).

ب - كيف نتجنب خطر غياب الحوار في عصر المعلومات؟ إن الفن أهم سلعة ثقافية، وهو يمثل أهم صناعات عصر المعلومات، ونحن أمامنا، إما أن نتج قنأ متميزاً، وإما أن نستورده كباق السلع، وعليه يصعب علينا غياب الحوار بين الفن والتكنولوجيا في عصر المعلومات، للأسباب التالية: - إن الطابع الرمزي الذهني يسود عصر المعلومات، وهو يعني أن وظيفة الفن لا تقتصر على التذوق وتنمية النزعة الجمالية، بل ذات صلة بتنمية الفكر ذاته (ويقول مباشر: لا إبداع في مجال العلوم، دون إبداع في مجال الفنون، ونحن كأمة عربية لا وجود لنا إلا بإبداع أبنائنا. - إن شركات إنتاج الفنون العالمية، ستشدد من ضغوطها على فنوننا الشعبية، من موسيقى ومنتجات حرفية، مستغلة تفوقها في إنتاج تكنولوجيا المعلومات لإنتاج الفنون. - كي نحافظ على تراثنا الفني والحضاري لأبد من استخدام الأساليب التكنولوجية الحديثة، في المحافظة على صيانتها وترميمه وأرشفته، وإعادة استخدامه ونوظيفه، وإن لم نعمل سيقوم الآخر بالمهمة، وخاصة أن المادة التراثية الخام، تعتبر ملكاً للجميع، حتى وإن لم تكن مشاعة، نكون قد قمنا بتمريض تراثنا للضياع والسرققة. - ونحن سائرون نحو الصدام مع العدو الصهيوني - أمريكي، لا محالة، حيث تستغل تفوقها في مجال تكنولوجيا المعلومات بسلب ونهب تراثنا الفني، ألا نرى ما تفعله بالتراث الفلسطيني من أزياء وأغان وفنون فولكلورية، يشهد على ذلك متحف القدس الصهيوني - ارتفاع كلفة الإنتاج الإبداعي، لكثرة استخدامه التكنولوجية في السينما أو المسرح أو الإنتاج التلفزيوني، أو برامج ألعاب الفيديو. وإن لم تفهم دقة العلاقة بين الفن والتكنولوجيا سنصبح لقمة شهية بيد من يوردها إلينا، ومن سيحده من أن يرفع أسعار بضاعته كما يحلو له؟ - سيزداد تزيف العقول والموارد والمواهب البشرية، بصورة تفوق ما كان يحدث في الماضي، وكلنا يذكر ما قامت به صناعة السينما في هوليوود، عندما تم استقطاب مخرجي السينما

الأوروبيين، وبدأت شركات الإنتاج الإعلامي مُتَعَدِّيةً الجنسية، ومدت يدها إلى فنون بلدان العالم الثالث، في إطار مخطمتها التسويقي لإضفاء الطابع المحلي على إنتاجها، لتجذب المشاهد المحلي، وهو بدوره يزيد من استقطاب المبدعين المحليين.

ج - كيف نبذل في عصر المعلومات؟ هل نستطيع الإبداع في عصر المعلومات في ظل هذه القيود التي يعرفها الجميع، وخاصة بعد أصبح الفن صنعة كبار الشركات المتعدية الجنسية، وقد نجحوا في تحويله إلى فن كثيف التكنولوجيا وليس كثيف الإبداع، ونحن لا نريد أن نقول ما يقوله الآخرون من: أن إبداعنا محكومٌ عليه بالفشل (نحن لا نبذل موسيقى بسبب موقف رجال الدين منها، ولن نبذل مسرحاً لأن حضارتنا لم تنهض على الحوار، ولن نبذل تشكياً لأن ثقافتنا تقوم على النص، ولن نبذل شعراً درامياً، لأن شعرنا ذهب إلى مديح الحكام والتباهي بالتممرات القبلية، وعدم انشغاله بحيرة الإنسان مع ذاته وواقعه. ولن نستسلم للرأي القائل، أن مجتمعاتنا اليوم لا تقوى على الإبداع، لأن ليس في وسعها إلا توليد خلايا إرهابية تمسخ الإبداع، لا خلايا طليعية تدفع به إلى الأمام، وكيف لمبدعنا أن يبدع بقضايا الفن والتكنولوجيا، وهو يهدر مناقته الخلاقة في صراعه الموجه مع السلطة والقوى الاجتماعية الأخرى. - الإبداع لا يخضع لهذه القوانين المباشرة ولا يحتاج إلى صافرات إنذار، وفي استطاعة مبدعنا العربي أن يتجاوز هذه القيود، ويتحدى كل العقبات، ونجح العربي المبدع في وطنه أو في المهجر، لقد أبدع نجيب محفوظ عالمياً، وأبدع جبران خليل جبران شعراً عالمياً في المهجر، كما نجح زهاء جديد في مزج العمارة الإسلامية مع عمارة الحداثة، وإيهاب حسن في نقد هذا بعد الحداثة، وإدوارد سعيد في التنظير لثقافة العصر، لقبى فكر أدونيس نجاحاً باهراً في باريس، ولقى من الترحيب والحقاوة أكثر مما لاقاه في موطنه، ونجحت حركة السينما في المغرب وحركة النقد الأدبي في مصر وتونس، وبحوث مركز دراسات الوحدة في بيروت، وهذا دليل قاطع على قدرة المبدع العربي في ممارسة موهبته، تحت أقصى الظروف وأصعب القيود، وكيف لنا أن ننسى إبداع أطفال الحجارة وتحطيم خط بارليف؟ وكيف

نجحت المقاومة اللبنانية بهزيمة إسرائيل في لبنان عام (٢٠٠٦) إن بمقدورنا أن نقيم علاقةً وطيدةً بين إبداعنا وتكنولوجيا المعلومات، وهذا يحتاج إلى تعاون كل الجهود في دراسة ظاهرة الإبداع في عالمنا العربي من جميع الجوانب المختلفة: الجانب النفسي، الجانب المعرفي، الجانب المعلوماتي، الجانب التربوي، الجانب اللغوي، الجانب الثقافي، الجانب الأخلاقي، الجانب الاقتصادي، الجانب التشريعي، الجانب التنظيمي، الجانب الأمني... ولا بد من تدريس تكنولوجيا المعلومات، في كليات الفنون الجميلة والتطبيقية، ولا بد من أن نقيم معاهد للبحوث المتخصصة في مجال فنون الكمبيوتر، أسوةً بما فعلته بعض الدول الأوروبية مثل: فرنسا، ألمانيا، بريطانيا، وأن نخلق كادراً من الفنانين لعصر المعلومات، غير الفنانين التقليديين المعروفين، ونحن ندرك مدى أهمية النقلة النوعية إلى الفن الرمزي الذهني، كما نحن مدركون لمفرد الإبداع الفني في عصر عولمة الثقافة، يقوم على اقتراض الفنون من خارج مراكز التقليدية. واليوم يتجه فن الرقص الحديث باتجاه فن لرقص الأسوي والإفريقي، ولن يكون هناك فن جديد في المسرح، إلا إذا أتى من اليابان والصين والهند، وما زالت الموسيقى العالمية بحاجة إلى مزيد من الشخصيات الحيوية تأتيها من الموسيقى الزنجية وجزر الكاريبي.

- فن عصر المعلومات في الغرب: (أزمته - وظيفته - طبيعته)

أ - فتح جبهات في كل اتجاه، تمرض الفن في الماضي إلى الكثير من الأزمات، ولكنها لا تقارن بالأزمات التي فجرتها تكنولوجيا المعلومات، على جميع جبهات التماس مع منظومة فنون الإبداع دون استثناء. - إن الموسيقى أرقى الفنون وترتبط بصورة وثيقة مع تكنولوجيا المعلومات، فكم مرة تمردت وثارت تحطم أنساق أنغامها، معلنة عن حاجتها إلى شحنة إيقاعية تعيد لها حيويتها. وإنها بحاجة إلى سلم موسيقي جديد، وهو بدوره يترنح بحثاً عن مقامات جديدة، بعد أن نضبت أنغامها، وتبقى أسيرة للنزول القليل من مقامات الحضارة الغربية. - وفن التشكيل بقي يزهر بانتصاره على الكاميرا، تاركاً لها مهمة تسجيل الواقع، ليرتفع هو إلى تمثله وتمثيله وإعادة صياغته. والتشكيل يقف حائراً في انتظار لا يدري ماذا ستفعل به تكنولوجيا المعلومات، التي دانت

لها الخطوط والألوان والأشكال والصور والأبعاد، بصورة غير مسبقة، ويثور الأدب، لا يدري ماذا يفعل، بعد أن خلصته تكنولوجيا المعلومات من خطية السرد، التي فرضته عليه تكنولوجيا الطباعة. والشعر هائم على وجهه، باحثاً عن جمهوره، وقد سلبه منه إعلام عصر المعلومات، وعوالم ألعاب الفيديو، وقيل أن عدد من يقرؤون الشعر أصبح أقل ممن يقرضونه. وموقف المسرح لا يقل تراجعياً عن الشعر صديقه القديم، فكيف يدفع عن نفسه خطر الموت في ظل الوسيط الإلكتروني، الذي يبدو مغارضا للعروض الحية، لشدة حبه لفنون التسجيل وإعادة البث، ولا بد أن يكون الرقص ذروة الفن الأدائي، أكثر قلقاً على مصيره من المسرح، وراح يساوره الحنين إلى ماضٍ قد تولى، عندما كان طقوساً وارتقاءً بالجسد إلى ما هو أفضل وأسمى، فهل سيسمح له باستعادة وظيفته السابقة والعمامية، بعد أن ابتذل وأصبح حركات فارغة، وإثارة جنسية رخيصة. وحتى السينما صنعة التكنولوجيا وطفلتها المدللة، صارت قلقة بشدة، أمام تكنولوجيا المعلومات التي لا ترى السينما إلا جنساً من أجناس الفنون، عليها أن تذوب أمام الوسائط المتعددة التي صنعتها تلك التكنولوجيا. وماذا عن فن المعمار، حيث اللقاء واضح ما بين الفن وتكنولوجيا المعلومات. وقد أدرك هذا الفن مدى الضرر الذي لحقته به الحداثة، بعد أن وضعت في الزاوية الضيقة، وتطيح بالقيم الجمالية وبخصوصية المكان وطابعه. وقد أعلن معمار التحطيم، المصيان على رتبة الخطوط العمودية والأفقية، وانتظام المساحات والفراغات، وثبوت الجدران والأعمدة - ولننقد الفني أزمنة الخاصة والتي صار يعاني منها بالفعل، ومل في حدائته حديث التأويل والتفسير والكشف عن نوايا المبدعين، وما يثير حس المتلقين، وقد عجز ما بعد - الحداثة وحديثه عن الجميل والجميل - أن يوفر الحد الأدنى من الغايات والمناهج. - ورغم كل هذا القلق والاضطراب، واختلاط الرؤى وغياها، لا ينقطع الحديث عن عولة الفنون. وقد أكدت منظمة اليونسكو أن الحديث عن إبداع فني معولم، أو تذوق فني معولم أمر عسير، ما لم تكن نقصد بالفن هنا ذلك الفن الشائع الرخيص، والفن بطبيعته يرفض التجنيس، نظراً للفروقات الكبيرة في الثقافات التي تقرر. وفي أوضاع المبدعين وأمزجة المتلقين. - ترى هل وصل الفن هنا إلى طريق مسدود، أم هو

يمارس هواية التزلج على الجليد، وهل سيجيد الحوار مع تكنولوجيا المعلومات، كما أجاده في تكنولوجيا الصناعة، ولا بد من نجاحه آجلاً أم عاجلاً، ذلك في إقامة حوار متكافئ ومتوازن مع تكنولوجيا المعلومات، وقد بدت طلائع هذا الحوار متمثلة في حزمة من فنون عصر المعلومات وسنتكلم عنها بالتفصيل في الفقرات التالية، وهي: - فن مفهومي - فن تفاعلي - فن اتصالي - فن سيري - فن الفيديو - فن المي - دي - فن الاتصال المباشر، إنها فنون التلاقح مع تكنولوجيا المعلومات وهذه لم تستقر بعد، وهي فنون مازالت تحت التصنيع، بدون هوية، فنون تبحث عن مبدع جديد، وكلنا خوفنا أن يتسرع بعضهم بالإطاحة بالقديم، قبل أن يستقر الجديد، كما تبحث عن متلق جديد، وتتشدد على جمال جديد، ولنا أن نعطيه المهلة الكافية لتتضح معالمه وتكتمل أدواته ومناهجه، وهنا تطرح الأسئلة نفسها علينا بشدة، وهي: ما الفن؟ ما وظيفته؟ ما المعرفة التي تكمن وراءه؟

ب - ما وظيفة الفن في مجتمع المعلومات؟ إن وظيفة الفن لم تعد كما كانت في الماضي اكتشاف الواقع ومحاكاته، وكما قالت (فيرجينيا وولف): على الفن أن ينزل من عليائه، ويكف عن محاولاته بالكشف عن الحقائق الالهائية، وأن يتلذذ بنبوماته، ويزهو بحساسيته المفرطة في ملاحظة ما يصعب ملاحظته، وعليه أن يواجه ما يجب مواجهته، وأن يدافع عن وجوده بفرية حب البقاء ضد ما يحيط به من مواقع في ظل تكنولوجيا المعلومات، التي تريد أن تجعل من الفن سلعة تباع وتشترى. وأن له أن يتخلص من نزعتة الديكورية في خدمة دور العبادة والقصور والصالونات ومعارض المتاحف، وله أن يتخلص من التحامه بالنخبة، ويلتحم بجماهيره ليواجه معها صراعات عصر المعلومات، وأن للجماهير أن تتخلص من آفة المتلقين السلبي، التي ترسخت بفعل وسائل الإعلام الجماهيري، وتعليم الإنتاج بالجملة، من أجل المشاركة في صنع مصيرها، وألا تتركها نهياً لصناع القرار وأصحاب رؤوس الأموال، وجوقة الخيلاء، وبيروقراطية التنظيمات، وسطوة التكنوقراط، والإنسان اليوم يواجه عالماً سريع التغير، سريع الخطوات، ترى هل يمكن للفن أن يساعد الإنسان ليلحق بعالمه، ويردم الهوة التي تفصل بين ممارساته

العملية وإدراكه لضمونها المعرفي، وأن يتصدى لثقافة الانفصال بين الغايات والوقائع، وبهذا يعيد الحلقات المفقودة في علاقة الثقافة بالتنمية، وعلاقة تكنولوجيا المعلومات برقاهية الإنسان وسعادته؟ لم يعد يكفي الفن أن يكون ثائراً ومتمرداً على الأوضاع القائمة، في عصر لم يعد للثورة والتمرد من مفعول، تحت وطأة الحتميات الاقتصادية والتشظيية، وضغوط القوى الاجتماعية، وفقد الفن القدرة على تجاوز العلم، كما قال هيربرت ريد: (يبدأ الفن عندما ينتهي العلم، والعلم في أوج انتصاره وزهوه، وإن تكنولوجياه تجعل من الفن تابعاً لها، فهل يتمكن الفن من أن يتمسك بحقه بالريادة، وأن يجبر التكنولوجيا خلفه، ليجعلها في خدمة التربية والتعليم والتثقيف؟ وهل بمقدور الفن أن يتجاوز حدود التذوق الجمالي، وتنمية الشعور الوجداني، لتشمل توليد المعرفة أيضاً؟ حينها يتقاسم الفن والعلم التكامل المعرفي، تحقيقاً لثلاثية العقول: التي قال بها كانط: (عقل الظاهر، وعقل الباطن، وعقل الإبداع).

ج - كيف نعريف فن العصر ولماذا؟ إننا نؤكد الآن أن الفن ضرب من ضروب المعرفة، معرفة تختلف بطبيعتها عن المعرفة التي يمدنا بها العلم، ف وراء كل فن معرفته الخاصة به، ولن نتحقق وحدة الفنون، ما لم يتحقق الشق المعرفي لأجناس الفنون كل على حدة، وهو ما تسهم به تكنولوجيا المعلومات بدور فعال، للأسباب التالية: - توجه الخطاب الذهني السائد في عصر المعلومات، وما يعنيه من تقارب بين الفكر والفن. - الطابع الرمزي لتكنولوجيا المعلومات، وإبدي يتواءم مع الفنون بصفتها تنويعات مختلفة من أنساق الرموز. - ثنائية المرسل والمستقبل، في نظرية المعلومات، وقياس كمية المعلومات، وهي تعبر عن علاقة المبدع بالمتلقي، وتحديد قيمة الأعمال الفنية. - دور اللغة في تكنولوجيا المعلومات، توفر أدواراً عملية ونسقاً عاماً، تقاس عليه لغات الفنون الأخرى: لغة الموسيقى، لغة الشكل، لغة المسرح، لغة السينما، لغة الشعر، لغة الرقص، لغة المعمار، وهي لغات مازلتنا نتعامل بها حتى اليوم، على مستوى المجاز - الوسائط المتعددة التي تسعى إلى مزج أنواع

الفنون. وهو الأمر الذي يظهر الحاجة إلى إمالة اللثام عن معرفة الفنون المتخصصة، لنتمكن من عملية المزج هذه على أسس منهجية واضحة. إن معرفة الفنون هي وسيلتنا الوحيدة، إلى معرفة جماليات جديدة قائمة على وحدة الفنون، لنصل إلى وحدة أكبر، تجمع بين أجناس المعرفة المختلفة: في الفلسفة والهندسة والعلم والفن والخبرات المكتسبة، لعلنا نصل إلى ما أراد غيرنا مثل: (روجي غارودي)، ب (واقعية بلا ضفاف)، عندما تكلم عن وحدة الفنون، والذي جمع فيه بين (تجريدية تشكيل بيكاسو، وعبثية أدب كافكا، وشمولية شعر سان جون بيرس) لقدرك ما ذهب إليه (دوجلاس هوفستادر)، على مستوى وحدة المعرفة الشاملة، عندما تمكنا من وضع أيدينا على القواسم المشتركة، بين مؤلفات عبقرى الموسيقى (يوهان سباستيان باخ)، ورسم فتان الحقر الهولندي (ام سي اشرف)، والرياضيات المنطقية لصاحبها العالم النمساوي الشهير (كورت جودل). لقد أبدينا اهتماماً زائداً بالفن، لما له من أهمية في حياتنا وعلاقته بتكنولوجيا المعلومات، وهو لا يتضح إلا من خلال المعرفة، وإزالة المفهوم الخاطئ لدى الكثيرين، أن لا صلة للمعرفة بالفن، وهذه النظرة المتدنية من قبل علمائنا للفن هي المسؤولة عن ذلك. - ونحن بحاجة إلى فلسفة جديدة تقيم توازناً بين ثلاثية: الحق والخير والجمال، تعيد الوفاق بين الحق (العلم) والجمال (الفن) كشرط أساسي لإعادة الوفاق بين الحق والخير، أي، بين: العلم والأخلاق في عصر تكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا الحيوية، وهما تطرحان العديد من القضايا الأخلاقية، ويكفي ما عانته البشرية من كوارث تطبيقي أقصى للتكنولوجيا، وهو لا ينظر إلا للمائد الإقتصادي، ولا يهتف ما يحصل للبيئة والقيم، وأمان الإنسان وأمنه وإيمانه.

- فن عصر المعلومات: (أزمته. وظيفته. طبيعته) لدى العرب،

أ - ماذا عن أزمة الفن العربي؟ إن الحديث عن أزمة فنوننا قد لا يروق للآخرين، يعتبرونه ضرباً من رفاهية فكرية، وقد يقول آخر أنه تجاهل أولويات أزماتنا وحقائق واقعنا، ونستطيع القول أن أزمة الفن لدينا هي

المدخل الأساسي لحل كثير من مشاكلنا الاجتماعية، وأزمة الفن هي السبب الكامن وراء أزمة التربية لدينا، وتميئتنا، ومعمارنا، وإعلامنا، وسلوكنا وقيمتنا، وأن أزمة هتائنا لها صلة بأزمة مهندسينا، وأطبائنا ومدرسينا، ومحاسبينا، ولنا أن نبحث عن الأسباب الدفينة وراء أزمته الإبداعية، التي طُفح بها الكيل، أعراضها: كتب بلا قراء، مسارح بلا جمهور، ومعارض بلا زوار، مواهب تتبخر ولا تجد من ينميها، مؤسسات فنية لا تجد من يمولها، ولها أسباب عدة تكمن وراءها، وهي التالي: - لقد غاب دور الفن عن وعي قياداتنا السياسية، ودوره في عملية التنمية بشكل عام، والتنمية المعلوماتية بشكل خاص. - نقص أهمية الوعي لدى مبدعينا بمفرد المتغير المعلوماتي في عالم الفن: تقنياته، أسواقه، اقتصاده. - غاب مفهوم وحدة الفن لدى الكثيرين من مبدعينا ومنتقينا.

ب - ما ذا من وظيفة الفن العربي؟ غادرنا الفن الأصيل إلى غير رجعة، حاملاً معه معرفته ووظيفته، ونحن بأمس الحاجة إلى فن جديد، يعيد لنا كرامتنا وعزتنا، فنّ مناضل أصيل لا يرضى بالذل والخنوع، لا يخجل من الكشف عن مكن ضعفنا وجهلنا وعجزنا ونقائصنا، فالفن ليس حراماً كما قال السلف، له أن يقيم حواراً مع ديننا دون استفزاز الفوغائية، التي تقف على أهبة الاستعداد لتتقضم على المبدعين الفنيين، فالدين ليس ملكية خاصة لأحد من الناس، إنما هو للناس جميعاً، وما يهمننا من الفن أن يطرح الميتافيزيقا جانباً مع همومها، ليوجه كل ملاقاته إلى المناحي الأخلاقية والمعرفية، نريد فنّاً يتصدى للتلقي السلبي، يعوض بعضاً مما عجزت عنه تعليم الفصول الدراسية، ويخفف من التضليل الإعلامي، طالباً الوضوح والشفافية، دون ترقيع نثرات الأخبار، وله أن يتصدى للمتلاعبين بالعقول، فلا بد من فن جديد، يربط بين نظافة البيت والملبس ونظافة اليد، وبين فوضى الشوارع والمكاتب، وفساد المؤسسات واختلال العلاقات ما بين القوى والأفراد والفضائل الاجتماعية.

ج - هل المعرفة وراء فنوننا العربية؟ كثيرون يجدون صعوبة بالغة في أن يكون وراء فن التشكيل والشعر والموسيقى ضرب من المعرفة، ناهيك عن فنون الرقص، وهم يشيّدون جداراً عازلاً بين الفن والعلم، والفن في نظر بعضهم ما

هو إلا شطحات من الانفعالات، وإن معرفتنا ما وراء الفنون، هو المدخل الأساسي لتأصيل معرفتنا بالعلم، إضافة إلى أنها مورد لا غنى عنه لتنمية التذوق الفني الغائب عن ساحتنا، وطرح قضية الفنون ينطوي على دعوة إلى تحديد ملامح خريطة المعرفة بصورة شاملة، خاصة أن المعرفة الفنية كثيراً ما تتطرق إلى معرفة الفلسفة والفكر، أكثر مما تفعله معرفة العلم. بالإضافة أن معرفة الفنون تسهم بقدر كبير في التنظير الثقافي الحديث. وتناولنا معرفة الفنون، يعتبر مدخلاً أساسياً للتصدي للثنائية الثقافية، وهو الموضوع المحصور بين علوم الطبيعية وعلوم الإنسانيات، وإن إدراكنا للشق المعرفي لأنواع الفنون المختلفة، يسهم في إزالة أوجه الخصومة المتعللة بين ديننا والفن، ومعرفة الفنون هذه تأخذ دفعة حقيقية في ظل المتغير المعلوماتي، ولنا أن نلحق بها تعويضاً لما فات، وتأميناً لما هو آت.

- مزج الفنون في الغرب،

أ - ما هي مستويات المزج الفني في الغرب؟ إن تكنولوجيا المعلومات ساعدت على مزج الفنون ضمن الثقافة الواحدة، بل عبر الثقافات المتعددة، وفهرت المعلوماتية الوسائل اللازمة لذلك المزج الفني، وعلى رأسها تكنولوجيا الرقمنة كما مر معنا سابقاً، وأنت تكنولوجيا المعلومات لتتوج محاولات رائعة سابقة عليها للمزج بين الفنون، وهي ظاهرة تستقي أصولها من مصادر علمية وفلسفية متنوعة، من نقدية كانط، ومثالية هيغل، وظاهرية هوسرل وعلم النفس الجشتالتي. وأنت فلسفة العلم لتضيف إلى هذه المصادر علوم الفلك الحديث والبيولوجيا الجزيئية، وفيزياء الكوانتم واللسانيات، وخلفها الذكاء الاصطناعي وهندسة المعرفة، ونضيف هنا بعض الأمثلة على امتزاج الفنون، وأهمها: الموسيقى واعتبرها (كانط) مجيئاً متعة حسية، ويعدّه شوبنهور حيث أكد أن جميع العلوم تلمح لتكون موسيقى، أما (هيغل) فينحاز في (جمالياته) إلى فنون اللغة، ويرقى بالشعر إلى أعلى المراتب معتبراً إياه فن الفنون. ناظراً إلى الشعر الدرامي بمنزلة الفن الأم، الذي تتبثق منه فروع الفن الأخرى، حيث يتفرع منه الشعر الملحمي (الموضوعي) والشعر

الفناني الذاتي. ويربط هيجل بين الشعر الغنائي والموسيقى، كما يربط بين الشعر الملحمي وفن التشكيل والعمارة، وفن التمثيل الموضوعي والرمزي، أما أصل الفنون جميعاً عند هيجل، والمقصود به الشعر الدرامي، يناظر فن النحت، وكما تتعامل الدراما مع واقع الحياة وخارجها، يتعامل فن النحت مع حيز الفراغ خارجة (- جان ماري شيفر ١٩٩٦). وهناك من يرى في الأدب الفن الشامل، الذي تتدرج في إطاره جميع الفنون، وهناك من يضيف العلوم إليها، ولا شك أن اللغة لعبت دوراً مهماً بعملية المزج الفني. وعبر المجاز اللغوي عن هذا الامتزاج، بالعديد من المصطلحات، منها: موسيقى الشعر، وشاعرية الموسيقى، وتلوين الأنغام، مع قسائم الألوان، وبناء المسرحية، وحوار الأماكن المغلقة والمفتوحة، ومعظمنا لديه نزعة لغوية، إزاء الفنون جميعاً، وعندما نرى عملاً فنياً غير لغوي، تشكياً كان أم موسيقياً أم رقصاً، إلا ويتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي: ماذا يعني هذا العمل الفني؟. وهذا السؤال هو ما تسعى إلى التخلص منه الفنون الخالصة لتبتعد عن سطوة اللغة، كخطوة ضرورية لتخلصها من سطوة الفنون الأخرى - ولا نقصد من امتزاج الفنون هنا تلك الفنون التي تجمع بين أكثر من جنس من أجناس الفنون، كفن الأوبرا الذي يجمع بين الغناء والأداء التمثيلي، أو فن السينما الذي يجمع ما بين فن الرواية والموسيقى والغناء والأداء التمثيلي. ولا نقصد بامتزاج الفنون ضرورة أن يقوم العمل على صمل درامي أو ملحمي، أو أن تستخدم المناظر السينمائية كخلفية للمسرح، وإن الإمتزاج الفني يعني ما هو أكثر من الجمع شبه الميكانيكي لمجموعة من الفنون. وهناك مراحل عدة للإمتزاج الفني وهي التالية: - استضافة عمل فني لعمل فني آخر - استلزام العمل الفني لعمل فني آخر - استيعاب عمل فني لعمل آخر - مرحلة الإبحار الكامل المتمثل في تكنولوجيا الوسائط المتعددة.

ب - هل يستضيف عمل فني، عمل فني آخر؟ إن المثل الأعلى لرواد الحركة الرومانتيكية مثل: جوته وشيللر، هو مزج الفنون، وقد عمل بتهوفن شاعر النغم على فتح الطريق أمام الرومانتيكيين، عندما عمد في ختام سيمفونيته الكورالية فاستضافت الموسيقى الشعر في إطار البنية الكبرى

للسيمفونية، فظهر مستأنساً في إطارها، أما المؤلف الموسيقي فاجتر كان
 مثاعراً أيضاً، فقد وسع من دائرة الاستضافة الفنية فيما أسماه (العمل الفني
 الشامل) فأعلن بذلك بداية موسيقى المستقبل، فخط لها طريقها الجديد
 الذي تنقاسمه جميع الفنون، من دراما ورقص، وشعر، وتشكيل، وأعلى فاجتر
 من شأن الدراما لتتضافر مع الموسيقى والغناء، وصولاً للعمل الفني الشامل،
 هذا عن استضافة الموسيقى لغيرها من أجناس الفنون، أما عن الأدب: فما
 أكثر ما استضاف نثره فقرات من الشعر، ويأخذ بيدنا توماس مان، في روايته
 الشهيرة دكتور فاوست، بانعطاف موسيقية حادة، عندما راح يصف لنا كماداته
 بأقصى درجات الحرفية، التفاصيل الدقيقة الفنية للعمل الموسيقي، لينقل
 إلينا معاناة المؤلف الموسيقي بطل روايته. تحافظ الاستضافة بدرجة كبيرة
 على استقلالية الفن المستضاف، عن الفن المضيف، وتبقى العلاقة بينهما
 على مستوى وحدة البناء الكبرى للعمل الفني التي تجمع بينهما.

ج - هل يستلهم عمل فني، عملاً فنياً آخر؟ أعلنت جماعة الكاميرات في
 عصر النهضة شعار (الدراما من خلال الموسيقى) في ظل قناعتهم أن تراث
 المسرح الإغريقي لن يجد طريقه إلى الجمهور العريضة إلا إذا عبر عنه
 موسيقياً، وجاء القرن التاسع عشر، ليقدّم لنا أمثلة عن هذا النوع من
 الامتزاج الفني، وكان من أبرزها القصائد السيمفونية (لفرانتس، وليست)،
 التي تستلهم فيها الموسيقى روح الشعر والدراما. تشهد على ذلك العناوين
 التالية، مثل: (دانتي) و(ناسو) و(برومثيوس) وكما استلهمت الموسيقى فن
 الشعر، فقد استلهمت فن التشكيل أيضاً، فكانت الإحياءات الأدبية التي
 أثارها لوحات المصور المصري، (أرنولد توكلين) في العصر الرومانتيكي
 ينبوعاً لا ينضب لقصائد سيمفونية وأعمال عدة، من أشهرها القصيد
 السيمفوني بعنوان (جزيرة الموتى) لرحمانينوف - أما شوبان فقد نجح
 نجاحاً كبيراً عندما نقل باليته الألوان إلى عالم النغم متأثراً، ب (ديلاكروا)،
 وفي السلاسل الموسيقية الملونة التي ابتكرها شوبان، لم تعد للمقامية الأهمية،
 الكبرى حيث أصبحت الكلمة العليا للتوافقات الهارمونية، والتي تضافرت من
 أجل اغناء ما يعرف ب (صورة الرنين الصوتي) بوسائل عدة منها: إصدار

النبرات المفاجئة وإمهاؤها، والارتفاع بالصوت والهبوط رويداً رويداً، والإسراع بالموسيقى تدريجياً، أو التشديد بإطلاق النغمة، ويقول آخر تناظر نغمات السلم الموسيقي الأساسية (دو. ري. مي. فا. صول. لا. سي.) الألوان الأصلية كالأبيض والأسود والأحمر والأزرق والأصفر، في حين تمثل أنصاف النغمات وسلام شوبان الملونة طيف التدرج اللوني من رماديات وخلافه. ووصل الأمر في امتزاج الموسيقى بالألوان إلى أن صُمِّمَت لوحات مفاتيح موسيقية ملونة، تقوم بترجمة الأصوات إلى مقابلها اللوني عن استلهاهم الموسيقى لفن الأدب، ومثالنا ما قام به ريتشارد شتراوس، عندما استلهم الأحداث التي وصفها سرفانتس في رائعته (دون كيشوت)، وقام بترجمتها موسيقياً مفامرةً فمغامرةً، في قصيده السيمفوني العنوان نفسه، مثلما استلهم فرانز -ليست كما أسلفنا- مقدمات الشاعر الفرنسي دي لامارتين ومسرحية (فاوست) رائعة الشاعر الألماني جوته، أما المؤلف الموسيقي ديبوسي، فقد قرر أن يحدو حذو المصورين الانطباعيين في الرسم في الهواء الطلق، وتعكس عناوين مؤلفاته الموسيقية هذه النزعة الانطباعية، والتعامل المباشر مع الطبيعة من أمثلتنا: حوار بين الماء والهواء. السحب. الكاتدرائية الفارقة، وجدير بالذكر أن الشاعر الفرنسي لامارتين قد قام بقصصه الخرافية باستلهاهم رائعة ابن المقفع، كليلة ودمنة وهو مثال نورد على امتزاج الفنون عبر الثقافات المختلفة، وعلى الصعيد السينمائي، فإن أنجح أفلام السينما عالمياً ومحلياً، هي التي استلهمت القصص والروايات، كما يقول (هاشم النحاس).

د - هل يستوعب عمل فني عملاً فنياً آخر؟ إن الاستيعاب ضرب من العمل الفني، يجمع ما بين الاستلهاهم والاستضافة، ويمكن اعتباره مرحلة تمهيدية في الانصهار الكامل، ومن أبرز أمثلة الاستيعاب الفني، هو ما قام به بيكاسو في تكعيبيته، عندما استلهم فنون القبائل الإفريقية، ومن أشهرها القناع الإفريقي، وتراث الفن الياباني، وما قام به الفنان المجري (فازا ريلي) عندما نقل طابع الزخرفة العربية إلى لوحاته القائمة على التجريد الهندسي، وكذلك المعماري الإسباني الشهير أنطونيو جاودي في استلهاهم العمارة الإسلامية، وأما مترافنسكي، في كلاسيكيته الحديثة، فقد قام بمزج

الموسيقى الأوروبية، بالأغاني الشعبية الروسية، والإيقاعات المتوحشة،
لموسيقى زنج إفريقيا .

هـ - هل هناك انصهارٌ كاملٌ للفنون الغربية؟ تأتي تكنولوجيا المعلومات
لتقول كلمة الختام في مسار امتزاج الفنون، بعد أن نجحت الرقمنة في تحويل
جميع أنساق الفنون إلى سلاسل من الصفر والواحد، مصحوبة بوسائل آلية
طبيعة التحويل من بين أنساق الرموز المختلفة، وتجسيد المجرد إلى المحسوس،
واستخلاص المفهوم المجرد من جوف (وعائه المادي). وقد اقترب مجاز وحدة
الفنون من مستوى الأداء الحرفي، واقتربنا من استخلاص الموسيقى من قلب
الأشكال، وتوليد الأشكال من صلب الأنغام، واستخراج المنحوتات من مسطح
الأشكال، وتجسيد الروايات والسيمفونيات في بنى أقرب ما تكون إلى بنى
المعمار. وأتاحَت تكنولوجيا الوسائط المتعددة درجةً عاليةً من السهولة
الرمزية، يمكن من خلالها ترجمة الظلال والألوان والأصوات إلى نظير
هارموني من الألحان والأصوات، ويمكن أن نأخذ من الكلام المنطوق أنماطاً
تنفيقاته ونبراته، ونستخلص من الأشكال تراكيبتها النحوية، وإيقاعها
الموسيقي، وربما يخلصنا الانصهار الكامل لأنساق الرموز من مضاهيم خاطئة
عاشت بيننا طويلاً، تسفر عن عداة أصيل بين الصورة والكلمة، وتناهر شديد
بين السرد والحوار. إن كل جنسٍ من الفنون يبحث عما يتوافق معه أو يتناهر
معه من أجناس الفنون الأخرى، ليكشف لنا ولأول مرة عن شبكة العلاقات
الكثيفة، التي تعمل دون وعي، من وراء كل ما يهدمه البشر من فنون،
والانصهار الكامل لا يمكن له أن يحدث قبل أن يستقل كل فن بنفسه، حتى
يصبح مؤهلاً للقاء غيره في حوار الدائرة المستديرة الفني. إن الفنون، في طور
استقلاليتها، تصفي نفسها من شوائب الفنون الأخرى، تمهيداً لانصهارها في
منظومة الوسائط المتعددة، مثلما تصفي المعادن من شوائبها، تمهيداً
لانصهارها في سبائك المعادن، فكان أن تخلصت الموسيقى من وصاية الأدب،
ونادى براهمز بموسيقى نقية خالصة، بعيدة عن أي مؤثراتٍ من خارجها،
مخالفاً ما سبق، وإن أوردناه بشأن الأعمال الفنية الشاملة لفاجنر، وأعلن

الشعر عصيانه هو الآخر على الأدب، فهو يرفض رفضاً باتاً حدودته وبنيته، مصمماً أن يشق له مسلكاً خاصاً وصولاً إلى الشعرية الخالصة، وهو ما اضطر الشعر، في سبيل تحقيق هذا الهدف، إلى أن يعلن عصيانه على اللغة، وكما فعل الشعر، أعلن مسرح العيث والسينما عصيانهما على الأدب، من أجل لغة مسرحية، ولغة سينمائية خالصتين، تقومان على تظمٍ للشفرات وبنى معرفية خاصة بهما، وفي رأينا أن الفنون مهياة أكثر من العلوم في أن تمتزج مع بعضها في وحدة فنية متماسكة، لأن الفنون بحكم طبيعتها مرنة ومتحررة إذا ما قورنت بالعلم وصرامة التزامه بالقواعد والمناهج.

- امتزاج الفنون لدى العرب: كل أنواع الفنون لدينا ضامرة ممسوخة، نتيجة ذلك فإن امتزاج الفنون لدينا ضامرة ممسوخة، والأمثلة لا تعد ولا تحصى، ومنها: - ان أغانينا تجمع ما بين الشعر والموسيقى، إلا أن هناك انفصلاً حاداً بينهما، كل ضائع تائه شارد اللب. - معظم موسيقانا التصويرية في الأفلام والدراما والإذاعة موسيقى غريبة عالمية، وهذا لا يدل أن موسيقانا غير صالحة للامتزاج. ولنا أن نأخذ قضية امتزاج الفنون على محمل الجد، ومن دون ذلك يتعذر علينا أن نلحق بفن عصر المعلومات ذي التوجه المزجي الذهني، وإن معرفة الفنون مقوم أساسي لمزجها كما أشرنا سابقاً، وإن مزج الفنون يوفر بيئة كي يكشف كل من الفنون عن شقه المعرفي، وتكنولوجيا الوسائط المتعددة -محور فنون عصر المعلومات- تقوم أساساً على مفهوم المزج الفني، وتخلطنا فيه يعني عدم اللحاق بفن الوسائط المتعددة وصناعة الثقافة بالتالي - ولو ألقينا نظرة على النص القرآني الشريف لوجدنا مثلاً فريداً للاتساق: الرمزي والصوتي والسردى والإيقاعي، ومنذ قرون خلت، نجعت الزخرفة العربية وبصورة رائعة، في الجمع بين جماليات الشكل وجماليات الحروف العربية، وفي الزمن الحديث قدمت السينما العربية نماذج رائعة، وناجعة في استلهاهم روائع الأدب العربي مثل: دعاء الكروان وثرثرة فوق النيل.

- الإبداع والثقافة في عصر المعلومات.

- ما طبيعة العلاقة بين الإبداع والثقافة الغربية؟

أ - الإبداع يقود ولا يقاد، الإبداع هو الجريء الذي يقود ولا يقاد، إنه الفارس المغوار، وطفل الثقافة الشقي، هو يتحمل مسؤولية النهوض بها، وهي تدفع ثمن كلفة لعبته ومغامراته. يتوقف أداء منظومة الثقافة على أداء مبدعيها، ومدى إدراكهم لواقع مجتمعاتهم ومدى صدق تنبؤاتهم، والإبداع هو المحرك الأول للثقافة، وقوة دافعة للحركة الفكرية، فإن نشط وثار، نشطت الثقافة واثارت. وإن خمدت أنفاسه، تقطعت أوصالها، وكونه بالطبيعة، فهو أول من يشعر بحراك مجتمعه، وأول من يحمل أوزاره، تشهد على ذلك المحاكمات غير المعلنة والمعلنة، التي تقام للمفكرين والمبدعين بعد الحروب والكوارث. كالمحاكمات والعمليات التي جرت للمفكر الإسلامي العربي الشهير نصر حامد أبو زيد، كيف تلتفتة أوروبا عندما ذهب إليها، خاب أملهم فلن يتزحزح قيد أنملة عن دينه، فأدار له المفكرون والساسة الغربيون ظهورهم، بينما الأكاديميون المصريون حكموا عليه دون أن يقرؤوه، وأشد أخطاء المبدعين إثماً أن يفشلوا في إنذار قومهم بما يحمله لهم مستقبلهم. والإبداع هو مرآة الثقافة والمدافع عن مواقفها في صراع القوى الاجتماعية، والناطق الشرعي باسمها في حوار الثقافات، ولكونه طبيعة الثقافة، فإن حوار الثقافات في عصر ثقافة المعلومات سيبدأ بالحوار على جبهة الإبداع. لأن الإبداع يقع على خطوط التماس ما بين الثقافات، وهو يفوق عناصر الثقافة الأخرى، في قدرته على تجاوز ثقافته إلى ثقافة أخرى - وتفوق علاقة الثقافة بالإبداع في صموبتها علاقتها بعناصر المنظومة الأخرى، وذلك للأسباب التالية: - اتساع نطاق الإبداع، والاختلاف الشديد في طبيعة أجناس الفنون. ومن الطبيعي أن تختلف علاقة الثقافة بالأدب عن علاقتها بفن المعمار، أو بفن التشكيل - تقع على الإبداع مسؤولية الدفاع والتصدي لمظاهر الخلل الناجم عن عولمة الاقتصاد، وحشد القوى الثقافية في هذه المعركة الفاصلة، وهو الأمر الذي يتطلب تحليلاً لموقع الإبداع في منظومة الثقافة. - في الماضي

كانت علاقة الإبداع بالثقافة محصورة في الجوانب الفكرية والفنية والتراثية فقد اتسعت اليوم لتشمل: التربية والإعلام واقتصاديات صناعة الثقافة. سيبقى الإبداع دون التحديد ودون الثبات، فهو زائغ وحائر ومتغير دائماً، والموقف أكثر حدة اليوم بلا شك، نظراً لما يتعرض له الإبداع الفني من اهتزازات بفعل المتغير المعلوماتي. - وفي كثير من الأحيان يكون الإبداع موافقاً لثقافة النخبة، والتي تترادف مع الثقافة عموماً. إن هذا الاندماج يطمس العلاقة بين الإبداع والثقافة، فتكون أكثر تعقداً وانغلاقاً.

ب - الإبداع يغادر حصن أمه (الثقافة): يستقي الإبداع من ثقافتها، من لغتها وتراثها وقيمها وتاريخ نضالها، وينفذ إلى كوامن صراعاتها، ويقتضي أثر تناقضاتها، وهذا لا يعني أن الإبداع تابع لثقافته وكثيراً ما ينشق عليها، يعلن قطيعته مع التراث، يتمرد على اللغة، يعترض على القيم السائدة، يشعل النار في الجسور التي أوصلته إلى ما هو فيه، يبتعد عن نقاط البداية، ينقلب على من اهتدى بهديهم ممن سبقوه أو عايشوه، ينشق على المدارس الفكرية التي كان منتسباً إليها، هي بطاقة المرور إلى عالم إبداعه، وكثيراً ما يناقض الإبداع نفسه، والخطاب الإبداعي ممتلئ بمقولات من قبيل: الأدب المضاد، والسينما المضادة، والمسرح المضاد، والشعر المضاد، ورفعت الحركة الدادائية شعار (الفن ضد الفن) و(الفن ضد المنطق) و(الفن ضد العقل) وإبداع ما بعد الحداثة يؤكد أن لا إبداع بالفن إلا عندما يبدأ من الصفر.

- ما طبيعة العلاقة بين الإبداع والثقافة العربية؟

أ - إبداع أم قلق؟: كلنا يعلم تعدد الآراء في علاقة المبدع بالمؤسسة الرسمية الثقافية، مرة يوصف بالود المفقود، وثانية يوصف بالتناقض إلى حالة عدم الوفاق، وفي ظل حالة من القليان والقلق الشديدين اللذين يشهدهما مجتمعنا العربي، فضلت غالبية مبدعينا البقاء خارج المؤسسة الثقافية الرسمية، وهي ترى ذلك أكثر منطقية وقاعدية، ولا يجب أن يلهينا غياب العلاقة على المستوى الرسمي عن أهمية علاقة الإبداع بمنظومة الثقافة، وضرورة فتح طرق ومساومات جديدة لهذه العلاقة، من خلال

تنظيمات الجمعيات الأهلية، وقنوات أخرى توفرها الإنترنت، ويتوقف اكتشافنا لهذه الطرق والقنوات وتفعيلها، على تحليلنا الدقيق لعلاقة المبدع العربي بمنظومة ثقافة عصر المعلومات. ويتوجب على إبداعنا مسؤولية النهوض بمجتمعنا العربي، ولا يمكن للإبداع أن يدرك أهمية هذه المسؤولية، وأن يشحذ أسلحته، ويحدد توجهات خطابه الاجتماعي، دون مراجعة شاملة لموقع الإبداع داخل منظومة الثقافة، وتحديدًا: علاقته بجميع عناصر هذه المنظومة: الفكر الثقافي، اللغة، التربية، الإعلام، التراث، ونظم القيم والمعتقدات.

ب - ما الإبداع في ظل عصر المعلومات؟ إن إنتاجنا الثقافي في عصر المعلومات، يجب أن يقوم في الأساس على مواهب المبدعين، لا على استيراد التكنولوجيا ذات الكلفة العالية، اتسع نطاق الإبداع ليشمل: مجالات علوم الإنسانية، وفروع الهندسة الجديدة التي صنعتها تكنولوجيا المعلومات، كهندسة اللغة، وهندسة الخيال، وهندسة المعرفة. وكما يحتاج إلى مزيد من الإبداع.

- علاقة الفكر بالإبداع الفني الشامل، مقدمة: لا بد في البداية أن نستهل في حديثنا عن علاقة الفكر بالإبداع الفني الشامل، كمقدمة لحديث أكثر تفصيلاً عن علاقة الفكر بأنواع الفن، والغاية هي التأكيد على وحدة الفنون.

- هناك من يرى أن الفن لا يمكن أن يخضع لأي تجريد معرفي، لأن الإبداع الفني هو ضرب من الإلهام، وهو محض صدفة والشطحات اللاعقلانية. واغفال دور العقل في مجال الفن، يتنافى مع القول بأن الفن يسمى إلى اكتشاف الحقائق النهائية، والمعارف الكلية التي يعجز العلم عن الوصول إليها، نتيجة صرامة منطقته ومناهجه. الفن: مبدع، وعملا، ومتلقيا، في حاجة إلى المعرفة، ويحتاج المبدع الفني إلى الفكر، والعمل الفني هو عملية عقلية وأعية بامتياز، وليس مجرد إلهام أو انفعال، ولا يمكن كما قال هيجل، إلا أن يكون نتاج الفكر، شأنه في ذلك شأن الفلسفة الطبيعية والمنطق، وهو ما تؤكد مقلولة بول ها ليري: من أن كل عمل فني مسألة رياضية لا بد من حلها، (مصطفى عبده (١٩٩٩) ويؤكد ذلك شينهور بقوله: كل عمل فني لا بد أن

يكون مسبقاً بالفكر والإرادة (نفس المصدر السابق). وعلى الرغم من موقفها السلبي من النظريات الجامعة، لا يختلف موقف ما بعد الحداثة من حاجة الفن إلى الفكر، ويرى فرنسوا ليونار: أنه لا يمكن للفن أن يستغني عن تسويق فلسفي (جان ماري شيفر ١٩٩٦) والعمل الفني لا بد أن يكون ناقلاً للمعرفة ومولداً لها، ومن هنا هو ذو صلة وثيقة بالمعرفة، وعموض العمل الفني والتباسه يستفز فكر المتلقي، لكي يكشف النقاب عما هو غامض، ويُقضى اللبس عما هو ملتبس، ويوضح المسكوت عنه، ويأخذ المفرد مما هو وراء ظاهر العمل الفني، ومما توحى به رموزه وشفراته، ولا يمكن لمتلقي العمل الفني القيام بمثل هذه الأمور دون خلفية معرفية، تسمى ذائقته، وتكشف شحنة الإبداع الوجداني لديه. - لقد كانت حيرة الفلاسفة إزاء الفن، أشد منها إزاء العلم، وأقرب إلى حيرتهم الميتافيزيقية، ولناخذ أفلاطون أولاً، لأن الفن لديه ذو أصل إلهي، والخالق هو الفنان الأعلى، وفوق الجمال الواقعي يوجد جمال مثالي، جمال مطلق أزلي، ماهيته سابقة لوجوده، وهدف الفن هو الارتقاء بالفن إلى روح هذا الجمال المثالي (مصطفى عبده ١٩٩٩) وهو شبيهة بمثالية هيغل، حيث مهمة الفن الكشف عما هو إلهي، وعن الاهتمامات الأكثر سمواً، وعن الحقائق الأكثر جوهرية للروح. وهو يرى الفن في مرحلة نمو القصوى، مرحلة يتصالح فيها الواقع مع المعرفة وتوافق الذات مع الموضوع (جان ماري شيفر ١٩٩٦) بينما يقول كانط: ترجع عملية الإبداع الفني إلى قوانين وشروط أولية سابقة على التجربة الفنية. وفي هذا حاول كانط في نظريته أن يجمع ما بين موضوعية المعرفة العلمية وذاتية العمل الفني الإبداعي، هذا عن نظرة الفلسفة إلى الفن أما ما يراه علم النفس فهو التالي: يقول فرويد أن الفن نوع من المرض النفسي، لا يخرج عن كونه تعبيراً عن نزعات، يحاول المجتمع استبعادها من الوعي، أو تنقيساً عن رغبات فكرية مكبوتة، لم يسمح للمبدع الفني بتلبيتها (مصطفى عبده ١٩٩٩) فعلى سبيل المثال: تعد بعض الأعمال الإبداعية (لليوناردو دافنشي)، الذي مات عنه أمه وهو صغيراً تنقيساً عن الأمومة التي حرم منها، عبرت عنه ابتسامة المونا ليزا

الشهيرة ونظرتها الحانية (مصطفى عبده ١٩٩٩) أما يونغ يرى الفن نوعاً من اللاوعي الجماعي لا الفردي كما يراه فرويد، والملكة الفنية تقترب من كونها غريزة تُخلق معنا، فهي قدرة ذهنية تختزن تراث الجماعة من صورٍ وأساطيرٍ وقيمٍ ومعتقداتٍ. وفي ظل هذا المفهوم، يقول بعضهم أن جوته لم يخلق (فاوست) بل فاوست القابع في ذهن جوته، هو الذي خلق جوته، وهذا يتطابق مع ما قاله (هنري مور) النحات الإنكليزي العظيم، والمتحمس لأفكار يونغ فقال: إن المنحوتات هي تعبيرٌ عن أشكالٍ عامةٍ تولد معنا، ونحن مبرمجون عليها. - وخلافاً لوجهة نظر علم النفس، قالت الفلسفة الوضعية بتحويل علم الجمال الفلسفي، إلى علمٍ وضعيٍّ يخضع لنهاج العلوم الطبيعية التجريبية. ولنا أن نتوقع من الفن أن يظهر مقاومةً ضدّ هذا الاستيعاب المنهجي، أشد من تلك التي أبدتها علوم الإنسانيات، وبهذا خرج إلى الوجود علم الجمال التجريبي، على يد (فختر) فطرح نوايا الفنان جانباً، مركزاً على ما بداخل العمل الفني، دون غيره من المؤثرات النفسية التي تثير في النفس الشعور الوجداني السار وغير السار (مصطفى عبده ١٩٩٩). وتأتي الحركات السريالية بإشارة من فكر فرويد تدفع باللاشعور واللاوعي واللامعقول من أغواره الدفينة إلى السطح، من أجل إحداث نوعٍ من التكامل بين الشعور واللاشعور، ليتحقق الاتحاد النهائي بين واقع الباطن، وواقع الظاهر (مصطفى عبده ١٩٩٩)، وقد أطلقنا بالمقدمة، لتتعرف على ما يمكن أن تسهم به تكنولوجيا المعلومات في مجال التنظير للفن، وقبل هذا علينا أن نطلع على نقاط مظاهر العلاقة الجدلية بين الفلسفة والفن: - الفلسفة تتضمن الفن؛ إنّ جماليات هيجل تصل في النهاية إلى إعلان نهاية الفن، بعد أن تتجاوزه المعرفة المنطقية والعلوم الطبيعية، أما عقل الإبداع لدى كانط فهو واحدٌ ضمن ثلاثية المعقول التي تجمع ما بين العقل الباطن والعقل الظاهر، الفلسفة تحفز الدافع الفني؛ لقد أظهرت فلسفة نيتشه عن افتقار الحضارة الأوروبية إلى روح الموسيقى وإلى الخلق الفني، توالى ظهور الاتجاهات الفنية المعاصرة للتعبيرية والسريالية وحركة اللامعقول في الأدب والفن (مصطفى عبده

(١٩٩٩). الفلسفة هي البديل عن الفن: تماماً كما في النظرة المجردة إلى الفن لدى الرومانتيكيين وهي النظرة القائمة على تقديس الفن، وحبهم الجامح إلى واقع هادئ ومسالم، متناغم ومتوائم، وهو يتطلب تعاون الروحاني والمادي، ويؤكدون امتناع التجريد الفلسفي المطلق، وعجزه عن التضافر، وهؤلاء يقترحون 'فن بديلاً عن قول الفلسفة المتداعي (جان ماري شيفر ١٩٩٦). - الفن يحتوي الفلسفة: وهنا تكتمل ثنائية الاحتواء والانطواء ما بين الفلسفة والفن، تحت رؤية جوزيف كوزوف، مبدع الفن الرمزي، الذي يدمج الفلسفة بأسرها في جوف الفن، فاللغة الفلسفية هي كلام داخل الفن (نفس المصدر السابق)، ليقب كوزوف الحكم الهيجلي الذي قطع بنهاية الفن، بعد استيعابه بكامله بالفلسفة. وهنا أخفقت النقدية الكانطية، والمثالية الهيجلية، وعدمية نيتشه، وسريالية أندريه بريتون، ووضعية فخر التجريبية، في أن تحدد لنا نظرية متكاملة للفن، تضع أسسه ومناهجه، وتخط له مسار توجهاته وتطلعاته، وانتهت بالفشل كل المحاولات لتطبيق مناهج نظرية المعرفة القائمة أصلاً على العلم، في مجال الفن. وهنا تطرح تكنولوجيا المعلومات نفسها كوسيلة للخروج من هذا المأزق التنظيري، وهو ما يحصل فعلاً، في إطار فلسفة معرفية جديدة، تجعل من الفن الرمزي نقطة انطلاق جديدة لها، تقوم هذه الفلسفة على أساس الجمع ما بين فلسفة العلم، كما أسس له (توماس كون وياشلار وكارل بوبر)، وفلسفة اللغة التي أسسها فيتغنشتاين، بهدف الوصول إلى نظرية معرفية جديدة، تقوم على تكامل العلوم والفنون، ونكتفي هنا بإبراز أهم العوامل التي تؤهل تكنولوجيا المعلومات، للقيام بدور فعال في مجال تنظير الإبداع: - إننا نبدع أولاً، ونفلسف ثانياً، والضرر عظيم إذا ما انقلب الأمر، عندما يتفلسف الفنان جاعلاً من إبداعه تابعاً لفلسفته غير الدقيقة، أو ما يظن أنها فلسفة. يذكرنا هنري برجسون بالحاجة إلى تمثيل خبراتنا معرفياً، والسؤال هو: كيف نعمل على تضيق الفجوة ما بين اكتساب الخبرات، وإدراك مضمون المعرفة الكامنة وراءها أو المتولدة عنها؟ وهنا يبدو دور تكنولوجيا المعلومات بما تتيحه من وسائل عملية لتضييق هذه الفجوة

بفضل ما توفره من أساليب هندسة المعرفة، والتنظم الخبيرة، ونظم الذكاء الاصطناعي، إضافة إلى الطابع التفاعلي أو تلقية، سيتيح فرصاً أكثر للمبدع والمتلقي، ليرصد عن قرب وبشكل سريع، الكيفية التي تقسرها الأفكار داخل الذهن إلى ممارسات علمية، سواء في إنتاج العمل الفني وتقويمه، أو في استقبله واستيعابه. - لقد نجحت تكنولوجيا المعلومات في كسر الثنائيات ما بين المادي واللامادي، وبين الطبيعي والصناعي، وبين الواقعي والخيالي، وبين العام والخاص، وبين الفردي والجماعي، وهي أمور تبدو في صميم عملية التنظير للإبداع - كما كسرت تكنولوجيا المعلومات الجدران العازلة بين أنواع الفنون المختلفة، بفضل الوسائط المتعددة، مما يسمح بمراقبة الظاهرة الإبداعية من خلال أنساق رمزية مختلفة يهدف إلى المقارنة بينها، وتابع مظاهر تكاملها والنتائج المترتبة عن مزجها، وهي من الأمور الأساسية في التنظير الإبداعي. - تتعامل فنون عصر المعلومات وجمالياتها مع ما يمكن أن نسميه بـ"سيميوطيقا التقطع والتشظي"، ويمكن أن ننظر إلى العمل الإبداعي بصفته مجموعة من الرسائل المتدفقة، أو بنية رمزية تقوم على شظايا الرموز اندماجاً وصولاً إلى مفرداته الأولية، مما يجعله أكثر قابلية لعمليات التحليل وإعادة التركيب، وهو يسهم في إزالة النقاب عن التفاصيل الدقيقة، لبنية العمل الفني، والآليات العميقة التي يحدث بها فعله لدى المتلقي. - إن ثقافة عصر المعلومات تتعامل مع ثقافة النخبة وفنون العامة على حد سواء، وهو يؤدي إلى زيادة المواجهة بين الفن والمجتمع وهو بدوره يكشف عن جوانب عدة لدور الفن داخل منظومة المجتمع، وعن كيفية قيامه بإحداث التغيير المجتمعي والتكيف مع الظروف الاجتماعية. - إن تكنولوجيا المعلومات توفر وسائل عدة لتجديد النظرة إلى التراث الفني، وإعادة توظيفه في سياقات اجتماعية، تختلف اختلافاً واسعاً عن تلك التي أفرزته، إن هذه العملية لنقل (أعضاء التراث) تاريخياً، تكشف عما كان خافياً، أو كان مسكوتاً عنه، في ظل ظروف نشأته، سواء كانت الخشبية من بطش السلطة، أو تحت ضغوط اجتماعية أخرى، أو نتيجة لقيود معرفية أو لغوية، وتوظيف التراث يقرز الجانب

التاريخي للتظير الإبداعي، وهو ما يكشف لنا عن علاقة الارتباط بين تطور الفن وتطور مجتمعه. - وهذا التفاعل عبر الوسيط الإلكتروني، يفتح الطريق أمام طيف واسع من علاقات المبدع بالمتلقي، وعلاقات المتلقي بالعمل الإبداعي، وهي أمور كانت تؤخذ كقضايا مسلم بها، ويدوره سيساعد إلى وضع نظرية للفن تقوم على (جماليات المتلقي) لا جماليات المبدع فقط - إن نظرية المعلومات تضيف اللمسة الكمية إلى تنظير الإبداع. حيث توفر له وسائل عملية لقياس قيمة الأعمال الفنية، وهذا ما سنوضحه في فقرة الموسيقى. - إن تعاضل دور صناعة الثقافة في عصر المعلومات، وأهمية الإبداع، يتطلب مزيدا من البحوث النظرية، وهو بدوره يعطي دفعة قوية للتظير الإبداعي.

- بين الفكر وفن الموسيقى رؤية معلوماتية:

إن شأن الموسيقى، شأن كل الفنون، في حاجة إلى معرفة لإبداعها وتذوقها وهذا متيسر يقول: إنه عندما يصور الشاعر والعواطف في أعماله الموسيقية، فهو لا يمارسها بالفعل، بل يستخدم ذكاء ومهاراته فقط في تأكيدها (حسام الدين زكريا ١٩٩٦) ولا يمكن لنا دون معرفة وإدراك عظمة الموسيقى وتلك التأثيرات النفسية التي توظفها بداخلنا. ولن يرقى المتلقي بتذوقه الموسيقي، إلا إذا تجاوز المتعة الفورية السطحية، إلى المتعة الذهنية الأعمق ويكون بتدريب نفسه على تعليق الإشباع الفوري والمباشر، وإرجاء متعته ليستوعب البنى الموسيقية العميقة بأثر رجعي.

أ - بين الفلسفة والموسيقى: إن فيثاغورث نظر إلى الأنغام كنسق رياضي، تقوم على تردد ذبذبات الأصوات وأطوال الأوتار المختلفة، وبعده تنبه أرسطو كسينيس، إلى ما هو خاص بها ثقله إلتنا الموسيقى من توافقات صوتية، إن فيثاغورث ركز على البنية الداخلية للموسيقى من جوانبها الفيزيائية، في حين ركز خليفته على المؤثرات الخارجية فيما يخص جوانبها الجمالية، وتراوحت آراء الفلاسفة في الموسيقى بين من يضمنها في أدنى الدرجات، وبين من يعلو بها إلى أعلى المراتب، حظيت الموسيقى من أفلاطون

بقدر من اهتمامه وقد قامت على تقويم مقامات الموسيقى على أساس أخلاقي، لأن هناك مقاماتٌ خليعةٌ تقوم على الرخاوة والدعة، وهناك مقاماتٌ ساميةٌ تحض على الصدق والشجاعة والإقدام. وقد استهان الفلاسفة القدماء بالموسيقى، فهم لم يجدوا فيها سوى إضافة ملحقة بالقضاء. ثم يأتي بعدهم جماعة الكاميراتا في عصر النهضة، ليؤكدوا سيادة الكلمة على النغم، فجعلوا من الموسيقى تابعاً للدراما، وكل موسيقى دون كلمات هي محاكاةٌ رديئةٌ للشعر الرصين. وقد حط كانط من شأن الموسيقى، فهي برأيه مجرد متعة لا ثقافةٍ جديرةٍ بالتناول الفلسفي الجاد، ثم يأتي من بعده شوبنهور فأعاد للموسيقى مجدها الصليب، معتبرا إياها أرقى الفنون، ويتمادى نيتشه في الاحتفاء بالموسيقى، فهي في نظره تجسيدٌ للإرادة، والتراجيدا انبعاثٌ لروح الموسيقى، بل إن الكون بأسره هو تجسيدٌ لتلك الموسيقى، ويرى فاجنر في موسيقى بيتهوفن تجسيدا للإرادة الكلية كما أوضحتها فلسفة شوبنهور. إذاً ليست الموسيقى مجرد فعل تلقائي، بل فعل تحكمه عقليةٌ واعيةٌ تناظر ذروة الحقيقة في فلسفة كانط.

ب - مكونات علوم الموسيقى: يمكن تقسيم علوم الموسيقى إلى قسمين رئيسيين، منها ما يدرس فيزياء الأصوات، وأخرى تدرس معمارية الموسيقى ذاتها، إن فيزياء الأصوات وتردداتها توفر المعرفة اللازمة لتصميم الآلات الموسيقية، ويرجع الفضل في تأسيسها إلى (فرديناند هلمهولتز) ونظريته عن الأنغام المحصلة، وهي النظرية التي كانت وراء التطور في تصميم الآلات الموسيقية، ولولاها ما كان للأوركسترا أن ينهض نهضته العظيمة، التي نشاهدها اليوم، لقد شهد القرن التاسع عشر مولد علم الموسيقى، وأنبرى (أدوارد هانز ليك) إلى تخليص الموسيقى من كل ما هو خارج نطاقها، فأصبحت الموسيقى الحقة هي التي تتأى عن الخلط، فأنت عندما ترقص الفالس على الحان شتراوس تكون الموسيقى الحقة قد انتهت كما يقول (هانز ليك)، وهو يعني بذلك أنك عندما تربط موسيقى الفالس بالرقص تهبط قيمتها.

ج - دور تكنولوجيا المعلومات في الفكر الموسيقي: كثيراً من يتوقع أن تسهم تكنولوجيا المعلومات بدور فعال في التنظير الموسيقي، عبر مسارين

معرفيين: - مسار علم اللسانيات يتناول بنيتها الداخلية، ومسار آخر من خلال نظرية المعلومات يتناولها من خارجها، من خلال ثنائية الإرسال والاستقبال. - إن معرفة الموسيقى ذات ارتباط وثيق بمعرفة اللغة، ومعرفةنا باللغة لازالت قاصرة، ومعرفةنا بالموسيقى أكثر قصوراً، ولشرح ما نعنيه بارتباط الموسيقى باللغة، وجدنا أنفسنا معنيين بإقامة مناظرة بينهما، فالسلم الموسيقي بمرثية الأبجدية في اللغة، ونرى التآلفات الهارمونية بمنزلة قواعد النحو، والألحان تناظر البلاغة، وحاولت موسيقى الباروك، وضع أنماط لحنية للتعبير عن الانفعالات المختلفة ومثالنا على ذلك: نمط متردد يعبر عن التوتر، ونمط متسارع ومتألف يعبر عن الانفراج، وفي سياق مناظرتنا الراهنة بين الموسيقى واللغة، يمكن أن نعد هذه الأنماط اللحنية نظيراً للصيغ المسكوكة في اللغة. - أدت اللغات الهارمونية التي أبدعها (بيرليوز وفاجنر وليست) ومتآلفاتها التفعمية، واستخدام كسور الأنغام، إلى مزيد من التقارب بين الموسيقى واللغة، وازداد هذا التقارب مع ظهور ميلوديا الكلام الطبيعي، على يد موسور جوسكي الروسي وشوينبرج النمساوي، وهي نوع من الموسيقى يحاكي نبرات الكلام العادي، وتغيمات أصواته، وهكذا، خرج إلى الوجود نوع من الأوبرا بطلها الشعب، تقوم على لحنية الكلام المتداول في الشوارع والأسواق والحانات. وتعمل البحوث اليوم إلى وضع قواعد نحوية للتراكيب الموسيقية. - وننتقل إلى المسار الثاني لملاقة الموسيقى بالمعلوماتية عبر نظرية المعلومات، وقد قال الناقد (إيفور ريتشاردن): (لا بد لأي نظرية نقدية من أن تستند إلى دعامتين أساسيتين: القيمة، وفاعلية التواصل) وبالحقيقة كلتا الدعامتين ذاتا صلة وثيقة بنظرية المعلومات، بالنسبة للقيمة، توفر هذه النظرية وسائل إحصائية لقياس قيمة محتوى الموسيقى، وعلى سبيل التبسيط، تكون الألحان الرتيبة والمتكررة، ذات قيمة أقل من التي للألحان المفاجئة والمتداخلة السريعة التغير غير المتوقعة، كما تشهدا في أروع صورها في سيمفونية بيتهوفن الخامسة، حيث تصعد بنا ألحانه بغتة، وتهبط بنا بغتة، وتتفرض على حين غرة، لترق فجأة في توافق مذهل، أما فيما يخص

فاعلية التواصل، فتقدم نظرية المعلومات نموذجاً اتصالياً، يقوم على ثنائية المرسل والمستقبل، وقناة الربط التي تصل بينهما هو النموذج الذي يُستخدَم حالياً في دراسة عملية استقبال المتلقي للعمل الموسيقي، وفي تحديد العوامل التي تدخل في أسباب أو إعاقة وصول الرسالة عبر قناة الاتصال. - حط القرن السابع عشر من قدر موسيقى الآلات منحازاً إلى الكلمة، وجاء القرن الثامن عشر ليعلي من قدرها حتى وصف هذا القرن بأنه العصر الذهبي لموسيقى الآلات، وشهد القرن التاسع عشر صراعاً ضارياً بين الموسيقى الخاصة التي يمثلها براهمن، والموسيقى الممتزجة بالفنون الأخرى، التي يمثلها فاجنر وأتباعه، وجاء القرن العشرون لننعم بالموسيقى، وقد استقلت بنفسها عن باقي الفنون، وهل يشهد القرن الحادي والعشرون موسيقى دون آلات موسيقى المزج والخلط، وإعادة الصياغة، والتوزيع اللامحدود في التوزيع الأوركسترا لي؟ ويقول الفيزيائي البريطاني السير جيمس جينز في كتابه عن العلم والموسيقى (موسيقى المستقبل ستكون كتلك الموسيقى في الحاضر، مع زيادة حدتها واتساع نطاق سلمها الموسيقي، كي تصبح أكثر قدرة على التعبير، وعليها أن تقرأ بدقة تراث الموسيقى العالمية وتاريخها، كي نضع أيدينا على التوجهات، التي صاغت الموسيقى في قالبها الحالي، وهنا يبرز جانب آخر لأهمية تكنولوجيا المعلومات من حيث دورها في إعادة إحياء التراث الموسيقي وهنا نسأل هل نحن في صدد موسيقى جديدة؟ أم نحن على طريق العودة إلى رومانتيكية موسيقية بصيغة عصر المعلومات؟ وهل ذلك الميل المتزايد إلى سماع النسخ الأصلية، والرجوع إلى الآلات المنقرضة، وأوركسترا المازفين الذين يرتدون أزياء الباروك وعصر النهضة، هو بوادر رومانتيكية جديدة تلوح في الأفق؟

- بين الفكر وفن التشكيل،

مرة أخرى يحتاج فن التشكيل إلى المعرفة لتساند إبداعه. وتذوقه، ولنتمعن بما قاله المبدع العظيم بيكاسو: بأنه لا يفرق في رسم اللوحة بين ما يراه وما يعرفه.

١ - اللقاء بين الفكر وفن التشكيل في عصر المعلومات: لما أدرك فنانون عصر النهضة في دراستهم لمنظور العلاقة القوية بين الشكل الخارجي والتفاصيل الداخلية للأجسام، راحوا يدرسون التشريح والهيكل العظمي ليرسموا جسم الإنسان بصورة أكثر دقة، ودرسوا علم النبات لينقلوا تشكيلاً توزيع الأوراق على الأشجار وفروعها، ودرسوا الجيولوجيا ليرسموا الصخور بتفاصيلها، وهكذا راح الفن التشكيلي يبحث عن أسسه العلمية مرة في التجربة، وأخرى في الوضعية النظرية، وبينما تحدد له الإمبيريقية التجريبية مقاييس الجمال في الأشياء، راحت الوضعية في إخضاع التشكيل لقوانينها الصارمة، ومنهجياتها المنطقية القاطعة، ورغم كل هذا يبقى فن التشكيل عصباً على التخيل، وخاصة في مراحله المتأخرة، التي شهدت تنوعاً يصعب احتواؤه، ضمن نظام فلسفي قديماً كان أم حديثاً.

ب - هل تجاوب الفن التشكيلي مع نشاط العلم واكتشافه؟ إن الفن التشكيلي كان متجاوباً مع الاكتشافات العلمية، وكان لرسم المنظور تجاوباً مع الهندسة والرياضيات وحساب المثلثات، في حين كانت المدرسة الانطباعية متجاوبة مع نظرية نيوتن عن ألوان الطيف الضوئي، وعندما راح العلماء يعيدون قراءة هندسة إقليدس، أخذ ميزان ومن بعده بيكاسو، يعيدان صياغة مفهوم الحيز والفراغ، وعندما اتحاز العلم للتحليل، خرجت إلى الوجود التكميلية التحليلية على أيدي بيكاسو وبراك، ويظهر النسبية لأينشتاين، قرر بيكاسو أن يتخلص من منظور عصر النهضة، الذي يرى الأشياء من منظور واحد محدد وثابت، وكى يستوعب المتغير الزمني، الذي أضافته النسبية بمحورها الرابع، قرر بيكاسو النظر إلى الأشياء من مواضع مختلفة، وكأنه يتحرك من حولها ويجيل بصره في هيئتها، أما الفنان المجري فازاريلي فقد عبر عن الظاهرة الزمنية تشكيلاً بأسلوب مختلف وذلك من خلال إضفاء عنصر الدينامية على رسوماته باستخدام الخداع البصري، فكان يكرر موتيفاته الزخرفية مع تغير طفيف في أوضاعها بصورة دقيقة ومحسوسة، لتبدو للعين وكأنها مرتعشة متموجة.

ج - هل ساهمت تكنولوجيا المعلومات في التنظير التشكيلي؟ إن فنون اللغة والأدب والشعر، طغت على التنظير الفني بصورة عامة، ولم يأت بعد هيجل كما يقول هيربرت ريد، من يضع لنا نظرية متكاملة عن الفن، كما وردت في (الجماليات)، على ما يبدو كان لا بد من انتظارها بعد لحداثة، لتقدم لنا تنظيراً جمالياً قائماً على الصورة لا الكلمة، بعد أن أعادت تكنولوجيا المعلومات إلى الصورة مكانتها الخليفة بها في دنيا التمثيل الرمزي.

- الصورة معقدة بعيدة عن الكلمة، وما أعقد علاقات الأشكال عن علاقات الكلمات، إن فنون الشكل تتصم بالتعقد، وقد يقول قائل، إن تعقدها ليس بأكثر حدة من تعقد بحوث الأخلاق أو نظام القيم والمعتقدات، أو البنى الاقتصادية ولكن هناك اختلاف أساسي فيما يخص تعقد التشكيل، فالتشكيل يكمن في كونه يقدم لنا التعقيد بصورة صحيحة ومباشرة. ونحن نواجه التعقد على جبهة التشكيل وجهاً لوجه، وهنا تبرز الصلة بين تكنولوجيا المعلومات والتشكيل، فالكومبيوتر يُنظر إليه كآلة للتعامل مع المعقد والعشوائي والمركب، إن فهمنا لظاهرة التعقد في الشكل يعتبر أحد المداخل الرئيسية لفهم مظاهر التعقد في مجالات أخرى متعددة، كالمرتبطة بالتركيبات الوراثية، وشبكات الاتصال، والبنى الاجتماعية والظواهر البيئية، والخرائط المخفية، ومن حسن الحظ، أن تكنولوجيا المعلومات توفر وسائل عدة لتمثيل كثير من الظواهر والعلاقات مرئياً. وملاوة على ذلك فإن نظم الرؤية الآلية للذكاء الاصطناعي، المستخدمة في نظم الروبوت، ستلقي مزيداً من الضوء على عملية الإدراك البصري، مما يساعد بدوره في استكمال الطريق الذي بدأه علم نفس الجمال، هذا فيما يخص الكيفية التي يدرك بها المتلقي الأشكال بصرياً، وكيف تتبسم انطباعاته الأولى عن الشكل إلى نوع من المتعة الذهنية، والانتشاء الوجداني. إن الطابع الرمزي الذي يسيطر على الفن التشكيلي في عصر المعلومات هو مرحلة وسيطة نحو الفن الذهني الخالص، ونستطيع القول أن تكنولوجيا المعلومات تدفع بالفن التشكيلي، إلى لقاء مثير مع العلوم والفلسفة والهندسة.

٢ - بين الفكر وفن الأدب، في عصر المعلومات:

أ - صعوبة التنظير للأدب: تحمس للأدب شيلنج كثيراً، وذهب إلى القول أن الأدب هو الفن الشامل لجميع الفنون، بل العلوم أيضاً (جان ماري شيفر ١٩٩٦)) وهذا قول مقال، إلا أنه يؤكد العلاقة الوثيقة بين الفن والفكر. وهي علاقة تتسم بتدنية شديدة، كانت سبباً من أسباب عدم خضوع الأدب لمعايير جمالية، تفرض عليه من خارجه، أسوة بما جرى لمعظم الفنون، وكان على الأدب أن يبحث عن تنظير يأتيه من داخله، من بنية سرده، من لغته، من رموز شفرته.

ب - اللغة والتنظير الأدبي: من الطبيعي أن يبقى الأدب دون التنظير العلمي الجاد، مادامت اللغة دون المستوى المطلوب في التنظير، فأتت الانطلاقة في بداية القرن الماضي، لما أطلق دي - سوسير الشرارة الأولى، إيذاناً بدخول اللغة مصاف العلوم الدقيقة. قام علم اللسانيات على أساس اللغة المنطوقة لا المكتوبة، وحد ذلك من تطبيقاته في مجال الأدب الذي يسوده طابع السرد المكتوب، واستقر الوضع هكذا حتى أظهرت البنيوية على (يد كلود ليفي شتراوس)، ومن البنيوية إلى ما بعد البنيوية فالتفكيكية، ومن نظرية النقد إلى نظرية السرد، ومن البلاغة الكلاسيكية إلى علم النص أو تحليل الخطاب، وظلت اللغة محافظة على وضعها المتميز كمدخل رئيسي لتنظير الأدب.

ج - ما أثر تكنولوجيا المعلومات في التنظير الأدبي؟ ظهرت الحاجة إلى تنظير أدبي جديد، يعكس ما فعلته تكنولوجيا المعلومات في النص الأدبي من تشظٍ وتشعب وتناثر، فقد نهض تنظير الأدب فيما مضى على الخطية والتماسك النصي، وبنية النص العميقة. وإن تنظير أدب عصر المعلومات ينتظر نقلة نوعية تمكنه من التعامل مع اللا خطية، ومع تعدد أشكال بنية النص وفقاً لتركيب شظاياها، ومع تغيرها دينامياً وفقاً لما يراه القارئ في تناول نصه، ولا جدال في أن الأدب، لارتباطه الوثيق باللغة، هو أكثر الفنون قدرة على التعبير عن مفهوم التقطع والتشظي. فاللغة تقطعية في جوهرها، بحكم طبيعتها الرمزية التي تكون الكلمات من الحروف المترابطة، والجمل من

الكلمات المتتابة والفقرات من الجمل المتلاحقة. وتقوى اللغة كل أنساق الرموز، في قدرتها على التجريد والتجسيد، وعلى الإيجاز والإطناب، وعلى الإسفار والغموض. والسرد الأدبي ذو قدرة عالية على نقل السياق بصورة لا خطية مباغتة عبر الزمان والمكان، وغير الأفكار أيضاً. مثلاً على ذلك باستخدام عبارات موجزة من قبيل: (ومضت القرون) (وبعد رحلة عبر الأطلنطي) (ومن وجهة نظر أخرى) يقفز زمن السياق إلى ما بعد هذه القرون التي مضت، ويعبر مكانه في قفزة واحدة إلى الجانب الآخر من الأطلنطي، وتنتقل وجهة نظره الراهنة في لحظة خاطفة، إلى وجهة نظر أخرى. وهنا وفرت تكنولوجيا المعلومات وسائل عدة، لقراءة شبكة العلاقات التي يصوغ بها النص من علاقات لغوية ونحوية. ومنطقية، وإيقاعية. وتركيبية. ومعجمية وموضوعية. ومقامية. وزمنية ومكانية. ومفاهيمية. إن تكنولوجيا المعلومات تعمل كأشعة أكس، التي تكشف عن داخل النص، ويأتي الذكاء الاصطناعي ليحقق وسائل آلية لاستنتاج المعاني، وفرض اللبس والغموض، والتعويض عن المحذوف المضمّن، ويفسر ذلك لماذا أقامت نظرية الأدب جسراً للحوار مع الذكاء الاصطناعي، يتبادلان من خلاله المعرفة المتعلقة بإشكالية المعنى.

- بين الفكر والشعر، في عصر المعلومات،

أ - ماذا عن علاقة الفلسفة بالشعر؟ لقد تجنى كائنات على الموسيقى بقدر ما أنصف الشعر، معتبراً إياه من أفضل الوسائل للسيطرة على العقل، وهو أعظم الفنون في الجمع بين العقل والتعبير. وكان لزعماء على الشعر أن يفلت من قيود اللغة، ومن قيود المنطق أحياناً، ليسمو بخياله ومجازيه إلى ما يعجز غيره عن الوصول إليه. والشعر في نظر بعضهم امتداداً للفلسفة أو بديلاً لها (روجيه جارودي ١٩٩٨) ويراه أهل الشعر فوق الفلسفة وعلى الفلسفة أن تتعالى على ذاتها بالشعر ليتفجر بذلك الصراع القديم بين الفلسفة والشعر منذ أيام أفلاطون.

ب - الشعر يرفض الإذعان؛ أفرط شيلنج بحماسة للأدب كذلك أكثر نوهاليس في حماسه للشعر، وقال إنه لن يهتم إلا بالشعر. وعلى الشعر أن

يفضي كل العلوم (المصدر السابق نفسه)، ويقول (ميثيل سيرز) عن الشعر أنه ضجيج العلم، ومن دون شعر لا يكون هناك علم، ومن دون علم أو على الأقل فلسفة ما، لا يمكن لنا أن نقرض الشعر، والوضوء تعني هنا هذا القموض الذي يستحث العقل على توليد معرفة جديدة، وقد قال (مواري جيل مان) عالم الفيزياء، مكتشف جسيم الكوارك الذري، إن اكتشافه له قد ألهمته إياه قصيدة شعرية عن الوحوش المفترسة في الغابات الأمريكية، فقد شبه ما بين قوة افتراضها والقوة الطاغية لجسيم الكوارك داخل نواة الذرة (محمد مديوني ١٩٩٩) إن هذا الموقف من الشعر يتسق مع كونه طبيعة اللغة واللغة طبيعة المعرفة، وعليه أن الشعر هو قائد المعرفة، والشعر ليس نوعاً من الرفاهية الوجدانية، نلجأ إليه عندما نبحث عن التسامي والسلوى، صحيح أن الشعر يذكرنا بضعفنا عندما يتناهى الغرور، وهو يشد من أزرنا إذا تقاعسنا وقعدت بنا الهوم، وهو يعتبر فرق كل هذا ضرورة عقلية لا تكتمل معرفتنا بدونها.

ج - هل ساهمت تكنولوجيا المعلومات في التنظير للشعر؟ تتضافر الجهود كلها إلى وضع نظرية عامة للشعر، قد تساعد بها تكنولوجيا المعلومات، وهي تتقابل مع الشعر في ثلاث ساحات: ساحة المجاز اللغوي - ساحة شفرة الرموز - ساحة الخيال الشعري، بالنسبة للمجاز اللغوي تساعد تكنولوجيا المعلومات في بناء قواعد وذاكرات النصوص اللازمة لرصد الظواهر المختلفة، لاستخدام الصيغ المجازية في سياق النصوص الفعلية، وكذلك الارتقاء بالمعاجم، من كونها حرفة إلى مستوى العلم المنضبط. وهو العلم الذي يسعى إلى تناول مدى قابلية المعاني للتوسع مجازياً، والعوامل التي تحكم التشبيه الاستعاري وتحدد ما الذي يستعير المجاز من المجال الدلالي الحريفي. إن استعارة تشبيه العواطف بالنيران على سبيل المثال، التهبت العواطف (وجذوة العاطفة)، وليس من المستساغ أن نقول (تفحمت العواطف) أو (وقود العاطفة أو حطب العاطفة). - وكما هو معروف يتجاوز الشعر اللغة، ليقيم بداخله ومن داخله شفرة الرموز الخاصة به، إن الشعر بمكانة وسطى بين اللغة المسرفة في القدرة التعبيرية، وشفرة المعلومات المعروفة في صورتها

وتجريدتها وهكذا، ويمكن أن ننظر إلى الشعر بأنه همزة الوصل التي تربط ما بين نسق اللغة ونسق المعلومات، ويمكن النظر إليه على أنه همزة وصل بين اللغة والموسيقى، فهو يجمع ما بين تنعيم اللغة وتنعيم الموسيقى، وتستخدم نظرية المعلومات في تناول قيمة الموسيقى كمياً وإحصائياً، تستخدم في مجال الشعر للفرض ذاته، أي للحكم على شاعرية القصيدة. ويمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تساعد في عملية الحكم بأسلوب آخر، وتقاس شاعرية الشعر في قدرته على تجاوز الأنماط النحوية، التي يمكن لقواعد اللغة أن تولدها، وتجاوز معاني الكلمات الواردة في معجم اللغة. إن نظم معالجة المدجم آلياً، يمكن أن تدلنا على الحدود القصوى للتوليد النحوي والمجمعي، والتي إن تجاوزها الشعر يكن قد حاز على دليل شاعريته. - وفيما يخص لقاء الشعر بتكنولوجيا المعلومات في مساحة الخيال، يظهر الواقع الخائلي كحلقة رابطة بينهما، ويمثل الواقع الخائلي موضوعاً مثيراً لإبداع شعري جديد، يثير الحزن بتأملاته حول السكوت في عالم الرمز، والعيش مع الكائنات الخائلية وأطلالها الرقمية. كما يمكن استخدام عوالم الواقع الخائلي في تجسيد عوالم الشعر الخيالية، وكما تحولت الروايات والأساطير إلى أفلام سينمائية، قد يأتي يوماً نجد الأشعار قد تحولت إلى عوالم خائلية، ولا شك أنها أكثر أشكال التمثيل الرمزي ملاءمة للشعر.

- بين الفكر والسينما، في عصر المعلومات؛

أ - بداية التنظير: إن فن السينما أو الفن السابع كما يسمى عادة، هو فن حديث جامع لفنون عدة، وهو ما أثر على الفكر؛ فلسفة، وعلماً، وقبل أن يرسخ هذا الفن، وتوضع معالمه إلى الدرجة التي تجتذب إليه الفكر الأكاديمي، جاءه التليفزيون ليعتلي قمة الثقافة الجماهيرية، ويصبح أكثر الوسائط إثارة للتنظير الأكاديمي، وأصبح الشاغل الرئيس لمدرسة فرانكفورت، ومحور التنظير الإعلامي (لارشال ما كلوهان)، هذا لم يمنع فن السينما من ممارسة حقه كغيره، وأن يتجاوز مرحلة المراهقة النظرية، إنه يتأرجح حائراً ما بين المدارس الفكرية المختلفة، فمرة يتجه نحو التنظير السينمائي مثل الوجودية،

ليركز على دور المشاهد، ومرة تشده البنيوية حيث تحثه للكشف عن بنية الفيلم الداخلية والمعرفة اللاواعية وراء ظاهر الفيلم، وأحياناً يميل التنظير نحو التأويلية، ليُفرق في دوامة التفسير وأخيراً يجد نفسه وجهاً لوجه مع اللغة واشكاليتها.

ب - علاقة تكنولوجية لا علمية: إن علاقة فن السينما مع الفلسفة ضعيفة وكذلك كانت علاقته بالعلم، لسبب أن فن السينما هو فن مرّجى، يجمع ما بين الصورة، والنص، والموسيقى، والحوار. وكل هذه العناصر المفذية لفن السينما لم تحقق الاستقرار النظري، ومن حق هذا الفن أن يتجه صوب تنظير علمي أكثر تأصيلاً، وهذا لم يمنع فن السينما من أن يضيع لائها بين فصائل العلوم، ومرة يلجأ إلى علم النفس، ليفشغل بدراسة التأثير السيكولوجي للفيلم في المشاهد، ويتجه بالنقد إلى ثبة المخرج وتفسير مقاصده، ومرة أخرى يرتقي بحضن علم الاجتماع ليركز على علاقة محتوى الفيلم بواقعه الاجتماعي، وبدلاً من أن تقيم علاقة حميمة بالعلم، وطدت السينما علاقتها بالتكنولوجيا، ومن المنطقي -والأمر يسير على هذا النحو- أن تكون مبادرات التنظير على يد المدرسة الشكلية الروسية، وهذه دفعت بها رؤيتها الإيديولوجية المادية إلى رؤية السينما على أساس تقنية محضية، لا وحي، ولا خيال، أو أداة للعمل السيكولوجي (دادلي أندرو ١٩٨٧) وقد كرس (سيرجي أيزن شتاين)، رائد هذه المدرسة، كل جهده على موضوع المونتاج، بصفته أبرز ما في الفيلم من التقنية، التي تميزه عن غيره من الفنون، ومن دون المونتاج، لن تكون السينما فناً، كما قال (مارلو). (نفس المصدر السابق) ولا تجد المدرسة الشكلية الروسية إلا أن تستعير مناهجها من الفنون الأخرى، ومن فن التصوير الثابت، ونتيجة هذا التوجه غاب المحتوى عن المنظرين الشكليين فانفصل التنظير السينمائي عن الواقع.

ج - المدرسة الواقعية: إن الناقد السينمائي أندريه بازان، عارض المدرسة الروسية الشكلية ليرد الاعتبار على محتوى الفيلم، فاستجابت السينما الإيطالية بواقعية جديدة، وأكد بازان الحاجة إلى نظرية علمية جديدة

للمينما، تبني على القوى الخالصة للصور المتحركة المسجلة ميكانيكياً (نفس المصدر السابق)، وقد حضر بأزان للتظير العلمي الجاد، وقام بجهد كبير من أجل تنظيم التراث السينمائي، كما وضع المنهجية لتصنيف أنواع الأفلام وسيناريوها، وطرق تعبيرها عن الواقع.

د - بين اللغة والتظير السينمائي: لا بد للتظير السينمائي أن يلتقي بالتظير الرمزي اللغوي، بوصف اللغة نوعاً من الإبداع الرمزي، وقد تخلص تظير اللغة على يد دي - سوسير من كل ما هو خارجها، وفصل (كريستيان ميتز) في محاولته تأسيس علم سينمائي خالص، بين الشق السينمائي وما هو خارج السينما من: تكنولوجيا، وتنظيم، وعلم نفس، وعلم اجتماع، وعلم اقتصاد (نفس المصدر السابق) والتظير السينمائي يتجه نحو السيميوطيقا، ولا يوجد خير منها كمدخل للتظير الرمزي، بصفتها علم المعنى، وتسعى سيميوطيقا السينما إلى تبني نموذج شامل قادر، أن يفسر كيف يشتغل الفيلم على المعنى؟ وكيف ينتقل هذا المعنى إلى المشاهدين؟ وتحاول سيميوطيقا السينما الكشف عن السمات والأنماط، التي تعطي كل فيلم أو كل نوع من الأفلام خصائصه المميزة. (نفس المصدر السابق)، وعندما يعبر المشاهد السينمائي بوابة السيميوطيقا، يجد نفسه مع اللغة وجهاً لوجه، وأكثرها نضجاً وأهمية وقدرة على نقل المعنى، ويصبح الهدف التظيري مصوباً على وضع معجم سينمائي، يحدد كلمات اللغة السينمائية ومعانيها، وعلى وضع نحو للغة السينما، يحدد أنماط تتابع أحداث الفيلم وتحديد دور كل منها، وكما جرى لعلم النص، اكتشف علم السينما أن اللغة وحدها لا تكفي، ولا بد للسينما من لغة خاصة، تتجاوز اللغة الإنسانية إلى ما هو أعم وأشمل، ويجد علماء التظير السينمائي ضالتهم في نظرية المعلومات، لأن مادة الفيلم عند (كريستيان ميتز)، ليست هي في الواقع ذاته، ولا تكتيكات المونتاج، بل مادة الفيلم هي الرسائل التي ينقلها الفيلم إلى المشاهد من خلال الشفرة الخاصة بلغة السينما، ومن أشهر الأمثلة على هذه الشفرات: استخدام تساقط أوراق النتيجة، دلالة على مضي الزمن، واستخدام الألحان الموسيقية الموحية بتوليد

لشعور بالرعب، أو باقتراب وقوع حدثٍ معينٍ أو تصرفٍ ما، تقوم به إحدى شخصيات الفيلم.

هـ - ماذا عن علاقة السينما بتكنولوجيا المعلومات؟ لقد كان المعمار هو موضع التقاء الفن مع تكنولوجيا الثوابت، وهي هندسة الإنشاءات، أما السينما فهي موضع التقاء الفن مع التكنولوجيا ذات الطابع الدينامي المتدفق، والتي تمثل تكنولوجيا المعلومات ذروة التقائها. وقد نقلت تكنولوجيا الصناعة المسرح إلى السينما، وتحاول تكنولوجيا المعلومات نقل السينما إلى عالم الوسائط المتعددة. وهنا قد تكمن الأهمية الخاصة للتنظير السينمائي في عصر المعلومات، ولم يعد التنظير ضرباً من الرفاهية المعرفية، أو أداة لممارسة النقد السينمائي، إنها البداية نحو جماليات الوسائط المتعددة، ولا شك في أن مونتاج الفيلم، وقدرته على تجسيد السيناريوهات المتوازية والمتقاطعة والمتلاقية، يعد أقرب الفنون لتجسيد مفهوم اللا خطية، وهو أبرز خصائص فنون عصر المعلومات، علماً أن تحويل الروايات إلى أفلام يوفر مجالاً خصباً لدراسة علاقة السرد النصي بالسرد المرئي، للوصول إلى جماليات متوازنة متحررة من مركزية الكلمة ومحورية الأدب.

- بين الفكر وفن المسرح في عصر المعلومات:

أ - ما هي أنواع المسرح وتوجهاته؟ إذا كان الشعر هو ديوان العرب فإن المسرح هو مدرسة الإغريق، إن المسرح الإغريقي هو مصدر توليد المعرفة وقد شكّل خطاباً المعرفي من عقول عدة، إن عقله الدرامي يجب من جميع مصادر المعرفة: - فهو يخاطب الآلهة والكائنات - يجادل في الأفكار والرؤى - يحاور الحاضر والغائب - يمرح عقله الأول دون قيد في خرافة الأسطورة - يصل ويجول عقله أتراهن في دنيا الواقع حائراً ما بين تناقضات هذا الواقع - مبدئياً رأيه وتصوراتهِ في هذا الشأن. - وربما يحاور المسرح عقل الآلة صنيعة تكنولوجيا المعلومات بعد أن تعاضل دور هذا العقل في صياغة الواقع الحاضر. - وتعددت مدارس المسرح وتوالت موجات جلائعه وتجاريه - فكان للمسرح توجهاته التاريخية والسريرية والرمزية والمستقبلية والعبثية - وكل

توجه يدعي السيطرة على ما عداها من أنواع المسرح. - ومثله مثل فن السينما، فقد استعصى فن المسرح على التنظير الدقيق، وقد يعود هذا إلى تعدد أنواعه: مسرح الفنانين - مسرح الحركة - - مسرح الشعائر - مسرح العرائس - مسرح التقليد والإيماء - مسرح الأعياد - مسرح الطقوس - مسرح القصص الدينية، ومن المتوقع أن تزداد الأمور صعوبة بظهور أنواع جديدة من المسرح في عصر المعلومات.

ب - كيف تعبر لغة المسرح عن نفسها؟ إن المسرح الأوروبي ساء طابع الحوار، والإيحاءات التعبيرية وأداء الفنانين المقتن، فقد كان الحوار أو فكر المؤلف، هو وسيط المسرح إلى الفلسفة والعلم، وهكذا غابت أهم خاصية تتفرد به تمييز المسرح عن غيره من الفنون، وهو عنصر الأداء الحي. وهنا، تبرز علاقة التنظير المسرحي بفنون عصر المعلومات، التي يسودها الطابع الأدائي التفاعلي. والأمل معقود على تكنولوجيا المعلومات، لترد الاعتبار لعناصر فن المسرح التي طفت عليها لغة الحوار، وتشمل هذه العناصر: الصورة والأداء والبناء المسرحي والكورال وتوالي المشهد المسرحي وخلافه، ويرى مؤرخو المسرح ونقادهم أن لا مخرج لأزمة المسرح، ومركزيته الأوروبية، ومحورية حوارهم، إلا بشحنة أداء قوية، نهب عليه من شرق آسيا، مثله في ذلك مثل الموسيقى الغربية، التي تنتظر هي الأخرى شحنة قوية إيقاعية تأتيها من قبائل إفريقية ودويلات جزر الكاريبي، وهذا ما يفسر: لماذا يستمر المسرح التجريبي من مسرح الكابوكي الياباني (والجينجو) الصيني، والكاتاكالتي الهندي، يخفت الحوار ليبدو الأداء الحركي، والإيماء وطقوس الشعائر الدينية، في النهاية إن المسرح شأنه شأن الموسيقى والسينما والشعر يحاول أن يتمرد على اللغة سعياً إلى توسيع نطاق التعبير الإنساني.

ج - كيف تم اللقاء بين المسرح وتكنولوجيا المعلومات؟ إن معرفة المسرح لتلقي مع تكنولوجيا المعلومات، مباشرة من خلال مسرح ما بعد الحداثة الذي يتبنى مفهوم إعادة التدوير، أي البناء على ما سبق تقديمه على المسرح، أو في فنون الأداء الأخرى، ولا بد أن يجد تشظي المعلومات، بصورة أو

بأخرى، طريقه إلى مسرح ما بعد الحداثة، من خلال إعادة استخدام التراث ممزوجاً بتراث الفنون الأخرى، لتتقد بذلك المسرحية خطيتها. ويختفي الحوار ليكسر بذلك احتكار الممثل، وهو ناقل الحوار فيما مضى، من أجل إتاحة الفرصة أمام مشاركة الجمهور، ولكن هل سيفقد المسرح وظيفته الأصلية في التعبير عن الواقع؟ أم سيستعيد المسرح وظيفته التي أخذها على عاتقه منذ نشأته الإغريقية؟ وتتوالى الأسئلة بلا حدود: ما هي حدود المسرح في نقل المعرفة؟ وما علاقة المسرح بالدين والسلطة وبالاقتصاد ومؤسسات المجتمع المدني؟ وهل يفيد المسرح عن جبهة العمل في خضم صراعات الحاضر، تحت ضغوط فن الميديا فيقيد معه دوره المحوري في صراع القوى الرمزية والاجتماعية؟.

- بين الفكر وفن الإيقاع الحركي: في عصر المعلومات،

أ - بين البوصلة والتكامل المعرفي: إن الرقص بحاجة هو الآخر مثله مثل باقي الفنون إلى معرفة: معرفة لإبداعه، ومعرفة لتذوقه، ومعرفة لمزجه مع فنون الأداء، وهنا يحضرنا صورة مبدع الرقص الأمريكي الحديث، الذي كان يراقب الحشرات تحت المجهر، يبحث في حركاتها عن (موتيفات) حركية جديدة لتصميم رقصاته، وينتقل إلى تصميم علاقة الأداء الحركي بالمعرفة، ومدخلها إليها هي البوصلة ذات الاتجاهات الأربعة، التي حددها فيتجنشتين عن تكامل المعرفة الإنسانية، فقد استلهم فيلسوف اللغة في بوصلته الرياضية، ثنائية الفكر والفعل لأرسطو، حيث يمثل المحور الأفقي محور الفكر، في حين يمثل المحور الرأسي محور الفعل، وتمثل محاور البوصلة الأربعة مصادر المعرفة الإنسانية المختلفة، كما ورد في ص (٤) على المحور الأفقي شرقاً تقع لبني المعرفة، من مفاهيم وخبرات ومعارف علمية، وتقع غرباً مؤثرات الإدراك الحسي من صور وتصميمات وهياكل فنية، وعلى المحور الرأسي شمالاً تقع عناصر الإلزام من قواعد وقوانين وواجبات والتزامات، وجنوباً تقع المعرفة من خلال مزاوله العادات من احتفاليات وطقوس وشعائر وتراث شعبي. وتركز تعليمنا على الجزء الشمالي الشرقي من بوصلة التكامل

المعرفة، فقد اعتدنا أن نتعلم من المفاهيم والمعارف النظرية، من خلال الأوامر والالتزام بالقوانين والأعراف، وحان لنا أن نكتشف الأجزاء الثلاثة الأخرى لبوصلة التكامل المعرفي. ولنا أن نزاول اكتساب المعرفة عبر إبداع الفنون وتذوقها من خلال ممارسة الطقوس وأنشطة التراث الشعبي، وسبق لنا وأن تعلمنا شعائر الدين وروحانياته من خلال ممارستنا للطقوس الدينية، وتعلمنا من خلال الطقوس العسكرية مبادئ القتال والضبط واحترام الأوامر والتضحية وتحمل المسؤولية، ومن هنا تبرز أهمية الأداء الحركي كمصدر للمعرفة، بصفته نوعاً من الطقوس، لا مجرد حركات جسدية خالية من المعنى.

ب - مفهوم جديد للرقص: إن العلم قد ابتذل الرقص وخلعنا عنه صفته ووظيفته الأصلية المختبئة في صوفية طقوسه، وتخلصنا من مادية الجسد، نبغي من خلالها التمسك والتعالي، وحتى فن الباليه لم يهمننا منه سوى جماله الشكلي، وسجناء في أبجدية حركية محدودة، تصل إلى حد الملل، عندها راح الرقص الحديث يستعير رقص الهنود واليابانيين والزنوج وتميزاته وإيماءاته ورصانته وحيويته.

ج - ما صلة فن الأداء الحركي مع تكنولوجيا المعلومات؟ لقد ضيقنا الخناق على جسدنا، ولم نعد نهتم به، ولن يرد إلى أذهاننا إلا مقروناً بالأمور الصحية، وممارسة تمارين اللياقة البدنية، ونحن اليوم بحاجة إلى إعادة الاعتبار لعلاقتنا بجسدنا عبر صلته بفن الأداء الحركي وعلاقته بتكنولوجيا المعلومات، إن تكنولوجيا المعلومات، وعوالم الواقع الخائلي، ستمكن الإنسان من التخلص من قيود جسد، ليلهو منطلقاً في عالم الرمز كما يتخلص رواد الفضاء من أثر الجاذبية الأرضية، وهنا يحضرنا قول راقصة الباليه الأمريكية (أيزادورا دنكان) (دعوا الجسد ينطلق) وعبقري الرقص التشيكي الذي كان يقفز بالهواء كمئات، يبدو وكأنه تخلص من أثر الجاذبية، لينتهي به ولعه بالرقص الرفيع إلى تلك النهاية التراجيدية، فينقلوه إلى مشفى الأمراض العقلية لعله يجد في (عالمها الخائلي) ما عجز عن العثور عليه في عالمه

الواقعي. وقد أظهر فن الرقص الحديث حساسية مفردة لروح عصر المعلومات، سواء كان الرقص على موسيقى التكنو، مرقص الشباب، أم على أنغام الموسيقى الطليعية في المسرح التجريبي. وفي جميع الحالات يسهل على الفرد ملاحظة الطابع المتقطع للرقص، أو (التشظي الحركي) على إيقاعات مفاجئة متدفقة، تماماً كتدفق نبضات المعلومات، إن لغة الرقص هي أقصر اللغات على التعبير، بلا منازع، عن فجائية التقطع أو ثنائية التثقل بين الصفر والواحد.

- علاقة الفكر العربي بالفنون -

أ - هل هناك علاقة بين الفكر العربي والفنون؟

لا ندري إن كنا نذيع سرّاً، إن قلنا، كنا لا نريد أن نتناول هذا الفقرة، ولكن في الحقيقة نريد أن ننصف السلف، في علاقة الفكر بالفنون، وتحت ضغط انطباع ضمور فكرنا وفننا، لا بد أن يعني ضموراً مزدوجاً في الفكر والفن في هذه الأيام، ولكن نكون مجعفين بحق ما أبدعه سلفنا العظيم في مجال معرفة الفنون والإبداع، وما أضافه محدثينا مثل: مصطفى سوييف، وبهذه الحالة سنكتفي بعرض ما قدمه السلف، من إنجازات في معرفة فن التشكيل، ومعرفة الموسيقى.

ب - مدى مساهمة السلف في الفن الموسيقي، وأهمها: - إن ابن سينا كان «سباقاً» في موسوعة الشفاء والتجامة، في وصف تعدد الأصوات (البولي فونية) قبل أن يعرفه الغرب بمئات السنين، ويعتبر ابن سينا رائداً من رواد التدوين الجدولي، درس العلاقة بين وضع يد العازف على عنق الآلة الموسيقية، وطبيعة الأصوات التي تصدرها. - إن إبحاث الكندي في طبيعة الأصوات كانت فتحاً جديداً في علم الموسيقى، واكتشافه السلم المعدل، وتحديد نطاق الذبذبات للأصوات الموسيقية، وهو السلم الذي عرفه الغرب بعد ذلك بقرون عدة، وتعد رسالة الكندي الشهيرة في التأليف الموسيقي وترتيب النغم الدال على طبائع الأشخاص وفي الإيقاع، سبقاً حقيقياً في علوم الموسيقى وصنعتها. - أما الفارابي صاحب كتاب الموسيقى الكبير، أشهر كتاب

في تاريخ الموسيقى، هو أول من تحدث عن التناظر، وتعدد المقامات وتعدد الأصوات. - وهل من المعقول أن نهمل زرياب وتجاريه الرائدة على خامات الأصوات، والمدى الصوتي للمغني، ومعهم في قرطبة الذي كمن كعبة الدارسين في أوروبا، وما سجله إخوان الصفا في رسائلهم في الضروب والإيقاعات، وهذه الأبحاث في علوم السلف، ساعدت في تأسيس علاقة العلم بالموسيقى، وخاصة في مجال رياضيات وفيزياء الأصوات، وتميزت بربط الجوانب العلمية بالتطبيق العملي، وبتكنولوجيا صناعة الآلات، ولا ينظر هذا الثراء المعرفي إلا قصور دراستنا الحالية، سواء في المعرفة الموسيقية الحديثة، أو تناول تراثنا الموسيقي.

ج - ما أهمية تراثنا الموسيقي؟ لا بد لنا من أن نحافظ على تراثنا ومواردنا الموسيقية، لدينا تراث عظيم في المقامات الموسيقية، بينما يشكو الغرب من فقر في المقامات التي أهدانا تراثنا الموسيقي منها المئات، ومن يتوَل أن عددها تجاوز الألف (فتحى الخميس ١٩٩٨) ومعظمها بين ضائع ومفقود أو مشوه أو مهمَل، ومقاماتنا الموسيقية المستخدمة مهددة بالانقراض، (من المئات إلى العشرينات في عصر سيد درويش وعبد الوهاب ورياض السنياطي والرحابني) وأصبحت اليوم أقل من عشرة مقامات متداولة، وعلينا أن نعيد بناء منظوماتنا الموسيقية، وقد رممها ونظمها لنا (صفي الدين الأموي)، على شكل سلاسل مترابطة منتظمة، وإن لم نقم نحن بذلك سيقوم به غيرنا، بمساعدة تكنولوجيا المعلومات التي تمتلك القدرة الكافية على ترميم المخلفات الموسيقية وإعادة بنائها. - وعلينا أن نقوم بمزج تراثنا الموسيقي، وإجراء تجاربنا عليه، ونحن لم نكتشف إلى الآن ما الذي يتكون من مزج غناء المغرب العربي، وغناء المشرق العربي، وغناء الجزيرة العربية، وغناء بلاد الشام، وغناء الخليج، وغناء مصر والسودان، وعلينا أن نمزج موسيقانا وتراث إيران وتركيا، ونركز على العلاقة بينهما.

ج - عن فن التشكيل، إن الزخرفة العربية هي رتيبة ميكانيكية، مفرطة هندسياً وهي متخمة باللفو التشكيلي، وهذا صدى لميل الفكر العربي للتكرار

والاجترار، كما يقول بعضهم، وهذا البعض يقول ليس هناك ما يسمى بالفن الإسلامي، وهكذا يحاولون تشطي وتقتيت الفن الإسلامي، فهذا تاج محل، ليس إسلامياً إنه مغولي، وقصر الحمراء مغربي، - وما علاقة فن الزخرفة بتكنولوجيا المعلومات؟ - تمثل الزخرفة تطبيقاً عملياً لمفهوم التوليد الرياضي، وهو أحد المفاهيم الأساسية في كثير من العلوم الحديثة، مثل اللسانيات والبيولوجيا الجزيئية، - تؤكد الرسومات الزخرفية مفهوم اللانهاية، والانتشار غير المحدود، وهو الآخر أحد المفاهيم العلمية الأساسية. - يتميز فن الزخرفة بطابعه التجريدي، وهو ما يتسق مع طابعه الرمزي الذهني لفنون عصر المعلومات.

- اللغة والإبداع الفني القربي في عصر المعلومات،

أ - هل لغة علاقة بالإبداع؟ لا توجد جماعة بلا لغة، ولا جماعة بلا فن، وخلصت الأنثروبولوجيا الرمزية على الصلة بين اللغة والفن، وكل فرع من فروع الإبداع لغته الخاصة به، وكثيراً ما نسمع فصاحة موسيقى بتهوفن، وبلاغة الفيلم السينمائي، ومعاجم الشعر، واستعارة الشكل، وأجدية المعمار، وأضافت تكنولوجيا المعلومات لمستها المجازية، وهناك نظم آلية لإعراب الجممل، وتطور نظم آلية لإعراب الأشكال والأفلام، يعني تحليلها إلى عناصرها المركبة منها، وتحديد العلاقة الوظيفية بين هذه العناصر، واللغة أصبحت نهجاً للنظير العلمي، يجري تطبيقه على مجالات معرفية متعددة متباينة، ومن الممكن أن تكون اللغة نهجاً عاماً، يمكن تطبيقه على الفنون عامة، واللغة في الحقيقة أقرب إلى الفن منها إلى العلم - وتكمن صلة اللغة بالإبداع، في قدرتها على توليد عدد لانهائي من التراكيب النحوية والمعاني المجازية، والشعر لا يقض علينا ما حدث بل ما كان ممكناً أن يحدث، إن الشعر من خلال أداة اللغة، يولد الممكن ويمتد صوب اللانهائي.

ب - هل اللغة قيد على الإبداع؟ قال كافكا: كل الأشياء تبدي مقاومة شديدة كي تصاغ في صورة كلمات، والشاعر في علاقته باللغة أكثر تزامناً فهذا: ت. أس. إليوت، يعبر في إحدى قصائده عن معاناته الشديدة مع اللغة،

وكيف تحدد الكلمات في انطلاقة شعر، ويوسف الخال اصطدم بجدار اللغة، فجاء ديوانه (الولادة الثانية) سجلاً لمعركته في الإهلات من قبضتها، واللغة تكشف، وهي في طور تألقها في حضرة الشعر، عن عجزها وحاجتها الماسة إلى تفجير معانيها السائدة وتمطيتها الجامدة، وهذه تكنولوجيا المعلومات تقوم بدور مساعدٍ ومهمٍ في بلورة العلاقة بين اللغة والإبداع، وتشكل نظم معالجة اللغة آلياً أحد عناصر البنى التحتية لمنظومة الإبداع، في حين تمثل فنون اللغة مصدراً لا ينتضب من التحديات اللغوية، تدفع بالبحث اللغوي إلى مشارف جديدة غير مسبقة.

- اللغة والإبداع الفني العربي.

أ - لغتنا الوعد والأمل في خلق الإبداع؛ لازلنا نأمل أن تدفع لغتنا العربية في نمو إبداعنا الفني، وإبداعنا الفني هو أملنا في إبداع وإحياء لغتنا، وفنوننا اللغوية، من أدب وشعر، هي أهم فنوننا بلا منازع، حيث موسيقانا في ضمور، وفنون المسرح وأداء الإيقاع الحركي أكثر ضموراً، وفنون التشكيل ما زالت لدينا مقصورة على النخبة، وهن المعمار ما زال يعاني من تبعية جمالية وتكنولوجية، وحسم العلاقة بين لغتنا وإبداعنا، شرطاً أساسياً لحسم العلاقة بين إبداعنا وديننا، لما للنص الديني من أهمية بالغة في منظومة القيم والمعتقدات.

ب - الإبداع الفني مَطَرُ اللغة؛ بالتأكيد تحيا اللغة من خارجها لا من داخلها، تحيا باستخدامها، وبإبداع الجماعة الناطقة بها، ترى كيف يمكن للإبداع أن يساهم في إخراج لغتنا من أزمتها الحالية؛ - طغى صرختنا على نحونا، يشكو غيرنا أن البحث اللغوي لديه ما زال أسير الجملة، لم يتجاوزها إلى النص، ونحن مازلنا أسرى الكلمة، ثم نحسم أمرنا في قضايا اللغة على مستوى الجملة، ومن هنا يأتي دور نظرية الأدب من حيث تناولها للنص، ويجب أن تكون النظرية مدخلاً أساسياً لتنظيرنا اللغوي، بهدف أن ننقذ على المشكلة من مستوى أعلى، ومستوى النص يحلر اللغة العربية من سجن الكلمات، فيعيد للمعنى مكانته، سواء في التنظير للغة العربية، أو في طرائق

تعلمها وتعليمها. - من المعروف أننا أهملنا الوظائف الاتصالية للغة، وهي الوظائف التي تزداد أهميتها بفعل المتغير المعلوماتي، واهتمامنا بالمسرح سيعطي دفعة قوية لتنمية الوظائف الحوارية للغة. - ونشكو من نقص شديد في دراسة المجاز، وتناول هذا القصور من منظور الشعر يمكننا من معالجة الظاهرة بصورة شاملة وعميقة. - لم تعط ظاهرة التثقيب والإيقاع الصوتي اللغوي الاهتمام الجدير به، بعد أن ازدادت أهميتها في نظم توليد الكلام وفهمه آلياً. وإن دراسة علاقة الموسيقى باللغة توفر الخلفية النظرية لتناول هذه الظاهرة. ولا يمكن تحقيق هذه المهام البحثية دون الاستعانة بتكنولوجيا المعلومات، فهي أملنا الوحيد في تعويض تخلفنا في مجال البحث اللغوي والإبداعي.

- الدين والإبداع الفني الغربي. في عصر المعلومات.

أ - الدين ينشط الفن؛ لاشك أن الدين كان منشطاً للفن، واكتسب المصري القديم منه من عقيدته، وأبدعت فنون التشكيل والنحت روائعها في ظل الدين، كما نشأ المسرح في أحضانه، وكان المسرح الإغريقي من أقدم المسارح، ذا طابع ديني، وما زالت طقوس الدين واحتفالياته مصدر إلهام الفن الدرامي الحديث، كما كانت نشأة الأدب ذات علاقة وثيقة بمعتقدات البشر، وامتلات أساطيره بأحاديث الآلهة وأخبار ممالكهم وخوارقهم. - سعى فن مصر الفرعونية لتأكيد فكرة الخلود، في حين أكد فن الهنود وحدة الوجود، وانشغل فن أهل اليابان والصين بجمال الطبيعة، وانشغل الفن الإغريقي بجمال الإنسان وكماله الجسماني، والفن الإسلامي يعلو عن شأن التوحيد الإلهي، وينشد الجمال المطلق، فتجريدية الزخرفة الإسلامية، واختزالية رسوم القراعنة وبساطة كتل تماثيلهم، والاحترام التي توحى به هذه التجريدية وتلك البساطة، تؤكد سمو القيم الروحية التي هدفت هذه الفنون، إلى تحسيدها. كان الدين مصدر إلهام للفن، وقد أوفى الفن بدينه للدين، فكان خادماً وقيماً للمعابد والطقوس والرموز المقدسة. وما أن ترك خدمة الدين راح هائماً ضائعاً، يبحث عن يعينه ويرعاه، منتقلاً بين رعاية القصور إلى رعاية

أصحاب الأموال، وأخيراً أصبح تحت رعاية أصحاب الفضل من مانحي العطايا.

ب - صراع الدين مع الفن: أظهرت الكنيسة في العصور الوسطى العداء للفن بصورة أقل ضراوة من عدائها للعلم، فكان صراعها مع الفن على جبهة الأخلاق، في ظل اعتقاد أن الفن يهدم الأخلاق، ويهدد المبادئ السامية، والفرق شاسع ما بين صراع الدين مع الفن ذي الأساس الأخلاقي، وصراعه مع العلم حيث الصراع على سلطة المعرفة وكسر احتكار الكنيسة لها، بما يقوض موقف المؤسسة الدينية، ويهدد حقوقها الإلهية، وأدان بعض المسيحيين الأوائل الشعر لارتباطه بوثنية الماضي. يستندون في ذلك لتهام أفلاطون للشعر ووصفه للشعراء بالكذابين لأنهم يتكلمون عن آلهة وثنية، أي كائنات ليس لها وجود (جان ماري شيفر ١٩٩٦) ويتطابق ما ذكرناه آنفاً، بما حصل عن موقف بعض أهل الدين لدينا من شعر الجاهلية، ونترك هذا للقارئ. ووجهة نظر المذهب البروتستانتي إلى الفن تعكسها مواقف مارتن لوتر المصلح الديني الألماني، وجون كالفان المصلح السويسري من فن الموسيقى، الذي كان شاغل البروتستانتية الأخلاقي، أما المسيحية الناشئة انشغلت بالشعر، وهنا نلجأ إلى كتاب الفيلسوف والموسيقي (جوليوس برتوي ١٩٧٤)، كان مارتن لوتر يعزف الموسيقى، ويستمتع بالغناء والأنشيد والقداسات، وكان الرجل متساهلاً مع الأغاني الدنيوية، بل أكد على دور الموسيقى في تهذيب سلوك المؤمن، ليعكس تعاليم أسلافه الكاثوليكين، وحض على أن يحص كل طفل بروتستانتي على تعليم موسيقي، وأسس التراتيل اللوثرية ضمن المؤلفين الموسيقيين، وهو صاحب المقولة الشهيرة: على المعلم أن يفني، والا لن ينظر في وجهه، ليأتي من بعده كالفان وينقُص على تعاليم نظريات مارتن لوتر في الموسيقى، بل امتد واتسع هجومه ليلبغ فن التشكيل، لأنه كان يخشى أن تؤدي هذه الفنون إلى تحويل في أفكار المؤمنين عن الهدف الحقيقي للدين، وراح المتعصبون الدينيون وأعداء البابوية في سويسرا، يهاجمون الكنائس والأديرة، ويحطمون آلات الأرغون، ويمحون رسوم المذابح والجدران، كي لا يخلط

المؤمن بين الرمز التصويري وما يمثله الرمز بالفعل.. وتترك للقراء ما يرونه مناسباً من أوجه التشابه، بين ما ذكرناه وما يعلن عنه بعض رجال الدين لدينا من مواقف تجاه الموسيقى والتشكيل.

- الدين والإبداع الفني العربي،

١ - خصومة لا مبرر لها مع ديننا، إن الفن العربي محاصرٌ بسورٍ محكمٍ من الخصومات المفتعلة، ولم يخرج من هذه الدائرة المفتعلة السيئة الذكر إلا فن المسار، وذلك لكونه فناً عملياً ذا طابع تقعي تفرضه الضرورة الحياتية، ولولا ذلك لأخذ نصيبه من فكر التحريم ودعاوي التكفير، لأن معمارنا ابتعد كثيراً في حدائته المستوردة عن أصوله الإسلامية، ولم نحسم قضايانا الخلافية حول علاقة الدين بالعلم، غير أن مواقف بعض أهل الدين لدينا من الفن أكثر شدة، وانحسار العلم في وطننا العربي الكبير لا يجعل منه خصماً مثيراً لتيارات الفكر الديني المتطرفة، وهذا ما يجعل الفن متفلسفاً الوحيد لممارسة صرامتها ورقابتها، ولهذا كله وجدنا وحيداً في معركة غير متكافئة، أمام قوى تفوقه عدةً وجماهيريةً، بلا سندٍ من علم يؤازره، ومن دون أهمية اقتصادية تبرره، مثل تلك التي تحظى بها السياحة، ولا يجد الفن من يدافع عنه في معركته المتوحشة، سوى أصوات تأتي خجولةً من بعض المؤسسات الثقافية الرسمية، التي التزمت معظمها بالانضباط في إطار سياسة عامة يتعاشى بها ما يوسعها - الصدام مع تيارات دينية متطرفة، ويزيد من أزمة الفن العربي ضعف المنظمات غير الحكومية، وعزوف الفنان نفسه عن خوض المعركة على جبهة الفكر الديني المعادي للفن، ويعطي الأولوية لمعركته مع القوى السياسية، مؤثراً السلامة، ومعظم فنانينا لا يجيدون لعبة العمل الجماهيري والإعلامي. وكثيراً ما يؤدي هذا إلى استهزاء لا مبرر له، لتورطه في معارك تكتيكية على حساب المواقف الإستراتيجية، إن عصر المعلومات الذي نعيشه، يتطلب مراجعة شاملة لعلاقة ديننا مع الفنون على اختلاف أنواعها وتوجهاتها.

ب - كيف نجدد الدفاع عن الفن؟ إن على خطابنا الثقافي المدافع عن الفن أن يحدد استراتيجياته وتكتيكاته وأولوياته. ولم يغن شيئاً أن نردد (إن الله جميل يحب الجمال) وأن ديننا يحتفي بالتنوع الثقافي الخلاق، حيث نزل القرآن على سبعة أحرف، جميعها شاف وكاف. ولم يعد كافياً ما قيل في مقام تأكيد اختلاف الأدب عن علوم الوسائل، من أنه يدرس لنفسه، والمقصود تذوق الجمال الفني، ودور الفن في عصر المعلومات لم يعد تذوق الجمال، بل هو مصدر من مصادر المعرفة، وله وظيفته التربوية والأخلاقية. ولا بد لنا من مداخل أساسية لتجديد خطابنا الثقافي بصدد موقف ديننا من الفن: - ما المعرفة الكامنة وراء الفن؟ إن المعرفة ما زالت تحظى بتقدير أفضل من قبل تيارات الفكر الديني، وعلى خطابنا الثقافي أن يركز على أن إهمالنا للفن يعني عدم تكامل معرفتنا، وهي أهم موارد عصر المعلومات، وقد يرى بعضنا أن نحسم خلافتنا بين ديننا وفكرنا، قبل أن نحسم خلافتنا مع الفن. - إبراز مدخل وحدة الفنون وتكاملها مع العلوم: إن إبراز أهمية هذه الوحدة وذلك التكامل تربوياً وثقافياً واقتصادياً، إن وحدة الفنون لها مفهوم أساسي، ذو صلة بتكنولوجيا الوسائل المتعددة، والتي تعد مقوماً أساسياً لاقتحامنا العوالم الرمزية، والفضاء الرمزي المعلوماتي وعوالمها الخائلية. - المدخل الاقتصادي الفني: - وذلك بتوجيه النظر إلى أهمية الفنون في إقامة صناعة ثقافية عربية. - إن ثقافتنا تقوم على النص: حيث أسماء فهم البعض لهذا المفهوم، إلى إغفال مادون النص، وهو ما يمثل عائقاً أمام عصر المعلومات، التي تلعب فيه الصورة دوراً مهماً. - التوافق بين الدين وفنون وعصر المعلومات: وحيث تدنو الفنون من الرمزية، وتميل إلى التعامل مع المجرد وغير المادي. - هل اتسعت وظائف الفن: إن المسرح تربوية، والشعراء أداة لتطوير اللغة، والعمارة لها بعدها الاجتماعي ورتبتها السياسي، والأدب ونظريته من ضمن الوسائل الرئيسية لتحليل الخطابات المسائدة في المجتمع، وبالتالي فهم أداء المجتمع ككل.

- الفن وسيلة للتربية الأخلاقية، يصعب علينا استيعاب الجوانب الأخلاقية المتعددة التي يطرحها المتغير المعلوماتي، دون تفهم علاقة العلم والفن مع الأخلاق وبالتالي، ومع ديننا، وبالحقيقة لا نستطيع أن نعيش في عصر المعلومات بأتصاف معنا، وتحت ظل ثنائية ظالمة وفاحشة، لقد جعلنا فكرنا وفننا في خدمة معتقداتنا، وحان الوقت لنجعل من معتقداتنا حافظاً على تجديد فكرنا وفننا.

- التربية والإبداع الفني الغربي: لا شك أن تعليم الإبداع أصعب من تعليم التفكير العلمي، ولا يمكن حصره في التعليم الرسمي، بتنظيماته ومناهجه ويطء تجاربه. تحتاج فنون عصر المعلومات ذات الطابع الرمزي الذهني إلى تنمية التوجه عبر التخصصي، وإلى اندماج المعرفتين الفنية والعلمية، وتوثيق علاقتهما كليهما بتكنولوجيا المعلومات، وهو يتطلب بيئة تعليمية مفايرة، سواء من حيث تأهيل المدرسين وتقويم أداء الطلبة، أو من حيث موارد المادة التعليمية، أو وسائل الإيضاح السمعية والبصرية وموارد تكنولوجيا التعليم الأخرى.

- التربية والإبداع الفني العربي: إن تربية الإبداع الفني لدينا، توازي تربية الإبداع العلمي في أهميتها، إن لم تكن أكثر منها أهمية، نظراً إلى أن فرصتنا في الإبداع الفني تفوق فرصتنا في الإبداع العلمي، وهذا يتطلب القيام بمهام عاجلة منها: - إنشاء معاهد متخصصة في فنون الكمبيوتر. - توعية مبدعيننا بتطبيقات تكنولوجيا المعلومات، في مجالات الفنون المتنوعة. - ربط المعاهد والمدارس بمراكز الفنون. - إدراج الذوق الفني ضمن مناهج الدراسة في جميع مراحل التعليم. - إحياء المسرح المدرسي؛ وقد ثبت أن المسرح كان وما زال من أهم وسائل التربية (مهدي بندق ١٩٩٩)

- الإعلام والإبداع الفني الغربي: يلعب الإعلام الجماهيري دوراً رئيسياً في دعم الإبداع الفني ويشمل: - تنمية الذوق الفني لدى الجماهير. - إلقاء الأضواء على المبدعين من أجل تشجيعهم على مداومة الجهد الإبداعي. - يعد الإعلام منفذاً تسويقياً لإنتاج الإبداع الفني - وصل ثقافة النخبة مع

ثقافة العامة بهدف الارتقاء بالثقافة العامة وتجعل النخبة أكثر وعياً بمسؤولياتها تجاه جماهيرها. وأضافت الإنترنت وسيطاً جديداً لإعلام الفنون، وهو ما يتيح فرصاً عدة لم تكن متاحة من قبل، بغرض التذوق الفني، عبر تفاعل المتلقي ايجابياً مع الأعمال الفنية.

- الإعلام والإبداع الفني العربي، علاوة على ما طرحناه بخصوص دعم الإعلام للإبداع الفني، هناك مهام إضافية على إعلامنا العربي القيام بها وهي: - التركيز على ربط الفنون بالعلوم - التصدي للصراع المفتعل بين ديننا والفنون على أنواعها - تشجيع الإبداع الفني القائم على مزج التراث العربي والإسلامي - إبراز دور الإبداع الفني في صناعة الثقافة، وأهمية هذه الصناعة في عملية التنمية. - تخصيص مساحة إعلامية أكبر لمبدعينا بغية تشجيعهم على المشاركة في عملية التنمية الاجتماعية، ونقد السياسات القائمة، والتصدي لتناقضات الواقع الاجتماعي. - إن علينا أن نستغل تكنولوجيا الوسائط المتعددة في عرض الإنتاج الإبداعي، وتنمية التذوق الفني، وعرض المنتج في سياقات ثقافية أوسع.

- منظومة الإبداع الفني،

- الإطار العام للمنظومة، يشمل المكونات الرئيسية التالية: - العلاقات الخارجية التي تربط منظومة الإبداع بخارجها. - العناصر الداخلية لمنظومة الإبداع، وتشمل التالي: المبدع - العمل الإبداعي - المتلقي - تراث الإبداع، ونظراً لأن فنون عصر المعلومات ستركز على إعادة توظيف التراث وهذا يعني أن التراث سيصبح وسيطاً بين المبدع وعمله الإبداعي، وقد وضعنا المتلقي على رأس قائمة المنظومة تماشياً مع التوجه نحو محورية المتلقي، والانتقال من جماليات المبدع إلى جماليات المتلقي. - عناصر البنى التحتية لمنظومة الإبداع، وتشمل: السياسة الثقافية فيما يخص الإبداع الفني. - مؤسسات تعليم وتأهيل المبدعين من معاهد فنون، ومراكز متخصصة في فنون الكمبيوتر. - وكذلك المتاحف والمعارض - إضافة إلى موارد المعلومات اللازمة للإبداع الفني، وتشمل التالي: ذخائر النصوص الأدبية - بتوك الصور والموسيقى، والأرشيف (السمعي - البصري) للتراث الإبداعي.

- العلاقات الخارجية لمنظومة الإبداع الفني القوي -

أ - ما علاقة منظومة الإبداع بالمجتمع ككل؟ إن الفن باحثٌ على الحياة، والحياة مجددةٌ للفن، ويقول بودلير إن العالم المحسوس مملوءٌ بالصور والإشارات وقاموسٌ للأشكال، يأخذ الفنان من توافقاتها رنيناً غير متوقع (محمد أركون ١٩٩٢)، وفي المقابل إلى تغيير العالم، ثم يعيد النظام إليه، عندما ينتشر فيه فساد النظم وأهواء السيامسة والتجارة، ويطيش المغامرين. ويمثل الفنان قرون الاستشعار لمجتمعه، وهو أول من يستشعر قدوم المحن والكوارث الاجتماعية، وهذا غوته يستشعر مدى التناقض العظيم بين التطور الحر والعالمي للإنسان، وبين واقع المجتمع البرجوازي ذاته (نفس المصدر السابق نفسه) كما أدرك بيكاسو وقوع إسبانيا في معنة الفاشية، وقد توقع (شينوا أتشيبي) رواء نيجيريا، انهيار نظام الحكم في بلاده قبل وقوعه بسنوات عدة من وقوعه، والفن يأخذ على عاتقه اعتراضه على تناقضات مجتمعه، فالتشكيل يلجأ إلى التشويه، والمسرح إلى العبث، والأدب إلى ضد الأدب، وتنعني العمارة في وظيفتها والزخرف الشكلية، عندها تتفجر العمارة ساخطة، تحطم نظم أنساقها كما فعلت الموسيقى سابقاً، ويخرج الشعر من سراليته وغيبوبة رومانتيكته ليقاتل مع ثوار أمريكا اللاتينية، وتكون النتيجة أن يدفع (يابلو نير) ودا حياته ثمناً لذلك، وتختلف طبيعة الفنون التي تتصدى للمواجهة المجتمعية من زمن إلى آخر. فكان المسرح في زمن الإغريق هو برلمانهم السياسي، وكان الشعر هو قائدهم بالعاطفة والحكمة، قبل ظهور الفكر والفلسفة، وكانت السينما طبيعة فرنسا الثقافية، في فترة الثلاثينات - السينما الشعبية في فرنسا. والفن في عصر المعلومات يأخذ أبعاداً عدة تنفذ إلى الأعماق، إن كان على مستوى الفن، أو على مستوى المجتمع، وهو يتجلى في التغيرات فيما يخص علاقة الفن بالمنظومة الاقتصادية.

ب - ما علاقة منظومة الإبداع بمنظومة الاقتصاد؟ إن الاقتصاد يضغط بشدة على جميع عناصر منظومة الإبداع، من موسيقى وسينما وتشكيل، (إبداعاً وإنتاجاً وتوزيعاً وتلقياً)، وإن عولة الثقافة تنمي الطلب على

إبداع ذي طابع استهلاكي، غزير الإنتاج، عن طريق إعادة استخدام مواد إبداعية تراثية، إن منتجات الإبداع الفني متطابقة مع قائمة منتجات صناعة الثقافة، وشبكة الإنترنت تطرح نفسها، كبديل مفضل لتوزيع منتجات الإبداع، وخاصة في مجال الموسيقى، ولأن معظم فنون عصر المعلومات كثيفة التكنولوجيا، أصبحت بحاجة إلى تمويل ضخم، وكاد الفن أن يصبح مؤسسة مثله مثل العلم. وفي ضوء ذلك على الفنان أن يواجه مصيره، ما بين استقلاليته وحاجته إلى تمويل خارجي، لدعم إنتاجه الإبداعي، والا ظل تحت رحمة المشفقين والمحسنين، كما اقترح بعضهم إنشاء (وكالة) لفنوث الفنانين، وفقد الأغنياء رعايتهم للفنانين والفن، وأصبحت رعاية الفن فرعاً من فروع العلاقات العامة، والتسويق للشركات العملاقة ولم تعد ثلاثية. المتحف، المعرض، الجاليري. (فيما يخص الفن التشكيلي) هو الهيكل الاقتصادي الأساسي لتسويق منتجاته. إن النمط الاقتصادي السياسي لصناعة السينما في هوليوود ينتشر في كل اتجاه، من تعليب سلع الموسيقى، وتوزيعها، إلى تصنيع الفلكلور اليدوي بأسلوب إنتاج الجملة.

ج - ما علاقة منظومة الإبداع بمنظومة السياسة؟ إن السياسة قد برزت في استخدام الفن لتوجيه وعي جماهيرها، وفرضت الالتزام على الفن، كي لا يبقى في إطار الأيديولوجية السائدة. وسينما ألمانيا النازية وروسيا الستالينية مثالان عن استقلال الفن سياسياً وإيديولوجياً، وموقف حراس الإيديولوجية الستالينية من المصورين التجريديين الروس معروف للناس. وفي ظل العولمة، تتجاوز علاقة الإبداع الفني بالسياسة حدود السياسات الداخلية، ومثالنا على ذلك ما تقوم به الولايات المتحدة من استقلال ثقلها السياسي لحماية إنتاجها الفني عالمياً. من خلال منظمة التجارة العالمية، أو باستخدام وسائل ضغط أخرى سياسية واقتصادية.

د - ما علاقة منظومة الإبداع بمنظوماته الثقافية الأخرى؟ إن المزج بين الفنون يشكل المحور الرئيسي لعلاقة منظومة الإبداع بمثالاتها في الثقافات الأخرى، ويمكن أن تسري هذه العلاقة من خلال المسارات التالية: -

المحور الأكاديمي: ويضم البحوث الخاصة بالفن المقارن، ووضع نظرية عامة للتراث الإنساني - المحور الاقتصادي: يتناول ميزان المدفوعات الرمزي بين الثقافات المختلفة. من يقترض ممن؟ وتتناول الأمور المتعلقة بالملكية الفكرية المشاعة الخاصة بالقانون الشعبي. - المحور الإبداعي: يضم المحاولات الإبداعية لمزج الإنتاج الفني، والتراث الإبداعي ما بين الثقافات، وتطوير الأساليب التكنولوجية لدعم عمليات المزج الفني.

هـ - ما علاقة منظومة الإبداع بالفضاء الاجتماعية؟ يحتاج فن عصر المعلومات إلى توثيق العلاقة بين منظومة الإبداع والفضاء الاجتماعية الأخرى، كي تتمكن من استيعاب النقلة النوعية في مجال الإبداع الفني ومثالنا عليه: - الناقد: وهو بحاجة إلى اكتساب المعارف الجديدة المرتبطة بالطابع الرمزي الذهني، وإلى اطلاع كاف بالأبعاد التكنولوجية للفنون، خاصة تكنولوجيا الوسائط المتعددة، إضافة إلى استخدام الوسائل الكمية في تقويم الإنتاج (الفني، - الإعلامي): وهو بحاجة إلى تأهيل خاص على الطرق الجديدة لعرض الإنتاج الفني، والقائمة على التفاعل ومشاركة الجمهور (المتلقي، - المرئي): وهو بحاجة إلى توعيته بأهمية الفنون في التكامل المعرفي، وتربية الأخلاق، وانعكاس ذلك على مواد المناهج ومنهجيات تقديمها.

• العلاقات الخارجية لمنظومة الإبداع العربي:

أ - ما علاقة منظومة الإبداع بمنظومة الاقتصاد؟ يواجه الإبداع الفني العربي موقفاً في غاية الصعوبة في المجال الاقتصادي. من حيث التمويل: لا يشكل الإنتاج الإبداعي مجالاً مغرباً للاستثمار العربي، أما على جبهة التوزيع: من المتوقع أن يواجه إبداعنا الفني العربي صعوبات ضارية في تسويق عالمياً، نظراً لقيود منظمة الجات. وعماً قريب سيشهرون في وجوهنا أسلحة وقياسات نظم الأيزو، وقد يضيقون إليها معاداة السامية والمقاطعة الإسرائيلية، ولا شك أن إنتاجنا السينمائي والتلفزيوني أصبح مهدداً بالانقراض بفعل الاستيراد المتزايد للإنتاج الأجنبي، ولنا أن نواجه ظهيرة الإنتاج الإبداعي الضخم، بتهمية الإنتاج الفني غزير الإبداع، لا كثيف

التكنولوجيا، ومن جهة أخرى، لا يجد ميدعنا الفني من يرعاه إلا من خلال منع هبات التفرغ التي لا تفني من جوع، علماً أن الإعلام التليفزيوني قد اقتصر من دور الفن كسلاح في يد السلطة، مما جعلها أكثر عزوفاً عن تقديم الدعم المالي إليه، أما متاحفنا فتحتاج إلى تمويل خارجي لتحديثها تكنولوجياً وتنظيمياً. وتحويلها إلى مراكز إشعاع ثقافي، يعيد بناء التاريخ إلكترونياً، ويعرض مخلفات هذا التاريخ، في سياقات معرفية جديدة أشمل وأعمق.

ب - ما علاقة منظومة الإبداع بالمنظومة السياسية؟ يمارس الدين كأيدولوجيا ضفوطاً شديدة على الإبداع العربي، لدرجة تحول بينه وبين قيامه بإحداث التقلبات النوعية إلى فنون عصر المعلومات، وما زالت مساهمة مؤسساتنا الثقافية في سياسات التنمية محدودة للغاية، وفي هذا تناقض جوهري، لأن الثقافة أصبحت محور عملية التنمية، وقياداتنا السياسية بحاجة إلى توعية بدور الإبداع في اقتصاد مجتمع المعلومات، ليتولد لديها الدافع في تقديم الدعم اللازم.

ج - ما علاقة منظومة الإبداع بالفئات الاجتماعية؟ لا زالت فنون عصر المعلومات غائبة عن أذهان معظم فئاتنا الاجتماعية، حتى على مستوى النخبة ونقادنا لا زالوا أسرى الجماليات التقليدية، وغير مدركين لانعكاسات الإنترنت على عملية الإبداع الفني. أما التربويون قد ترسخت لديهم مفاهيم خاطئة عن مفاهيم الفن، وهو ما يحتاج إلى نوع من التربية العلاجية لشفائهم من هذا الداء المعرفي (الخبث)، وعلى إعلاميين أن يتصدوا للهجمة الشرسة، التي تشنها الإيدولوجيا الدينية على منظومة إبداعنا الفني، وأن يُحَدِّثُوا وسائل دفاعهم عن الفن وفقاً لما سبق، وأن يكونوا على قدر عالٍ من المسؤولية.

- المبدع الفني الغربي:

أ - المبدع الفني ضمير مجتمعه؛ وهو رمز إرادته، والشاهد على عصره، والمعبر عن ثقافته، والمتكلم باسم جماعته، وتغير دوره عبر العصور، من خادم للقصور إلى مناضل ثوري يطالب بسقوط عروشها، من ناقش للأحجار

وعازف للألحان، إلى مجمل للأسقف والجدران، إلى الباحث على الأفكار
الحاث على التعبير وموقف الهمم، ولم تعد عملية الإبداع كما يقول (جار
ودي) مجرد انفعال وأوهام، بل عملية واعية، الهدف منها خلق صورة جديدة
للواقع، إن مهمة المبدع الفني أن ينجز فنا يساهم في صنع المعرفة، يفجر
الطاقة الخلاقة لدى متلقيه، يعاونه في إدراك حقائق واقعه، ويدعوه
للمساهمة في العملية الإبداعية، ويستحثه للدخول في العمل الجماعي
والنضالي، ويأتي عصر المعلومات وعولته، ليلقي أعباء إضافية على كاهل
المبدع الفني، وأصبح فضح السلطة وأساليبها في استخدام الأسلحة الرمزية،
والكشف عن أشكال جديدة لاستغلال الإنسان معلوماتياً وإعلامياً، يضاف
إلى ما ذكر من ضرورة مساهمته في الدعوة إلى ثقافة السلام والمشاركة في
صياغتها، والاحتفاء بالتنوع الثقافي الخلاق، والمحافظة على تراث ثقافته
وتراث الإنسانية كلها، والمشاركة في التجارب الفنية لمزج التراث الإبداعي عبر
الثقافات والحضارات، ومع صعوبة التنبؤ في عصر المعلومات، وعجز البصيرة
العلمية عن تصور المستقبل القريب، تبرز أهمية دور الإبداع الفني في توقع هذا
المستقبل، ومن خلال طرقه المبتكرة، للوصول إلى الحقائق مباشرة، يمكن
لإبداع الفني أن ينفذ ببصيرته مخترقاً ضباب الاحتمالات مستخلصاً
الغايات، من شواش الظواهر ومتاهة الرؤى المتضاربة.

ب - ما التحديات التي تواجه المبدع الفني؟ تنتظر المبدع الفني تحديات
كبيرة في ظل المتغير المعلوماتي، فيما يتعلق بإنتاج العمل الإبداعي، أو علاقته
بمتلقيه ومموليه، فعلى مستوى الإنتاج الإبداعي، على الفنان تأهيل نفسه
معرفياً ومعلوماتياً، تلبيةً لظنون عصر المعلومات ذات الطابع الذهني، وعلى
إبداعه أن يبعث عن الجديد دوماً، كي يبقى متقدماً على هذه التكنولوجيا
ذات القدرة الفائقة على إعادة إنتاج ما سبق من إبداع، وفيما يخص دعوة
ه تلقية إلى المشاركة في العملية الإبداعية، على الفنان أن يتواري عمداً إلى
الخلف جاعلاً من عمله الإبداعي هذا مصدر جذب للمتلقي، يدعوه إلى أن
يتفاعل معه ويضيف إليه. ونظراً لسرعة إيقاع عصر المعلومات، لن تكون لدى

المبدع رفاهية الوقت ليؤجل تجاوبه مع الأحداث الجارية، كي تتضح وترسخ،
وبات عليه أن ينصب هوائياته الحساسة لتقف على أهية الاستعداد، لالتقاط
ما يجب التقاطه، قبل أن يضيع في خضم الحياة الهادرة في عصر المعلومات.
ج - ما علاقة المبدع الفني بتكنولوجيا المعلومات؟ - يمكننا النظر
بعلاقة تكنولوجيا المعلومات بالمبدع الفني، من عدة جوانب وهي: إن
تكنولوجيا المعلومات يمكن أن تكون لزيادة إنتاج المبدع، حيث توفر له العديد
من الأدوات لإعداد عمله ومساعدته في اختباره وإخراجه، ومثالنا على ذلك:
توفر المعلوماتية للمؤلف الموسيقي نظاماً آلياً لتحرير النوتة الموسيقية،
واكتشاف أخطائها، بل يمكن للكمبيوتر من خلال مولدات الموسيقى
الإلكترونية أن يصاحب المبدع الموسيقي أولاً بأول، أثناء وضعه لمؤلفه. يعزف
معه ألحانه فور انتهائه من تحريرها، مما يكسب عملية الإبداع طابعاً تفاعلياً
دينامياً. - يمكن أن نعتبر تكنولوجيا المعلومات كبديل للمبدع الفني، تسعى
نظم الذكاء الاصطناعي إلى محاكاة صميم عملية الإبداع ذاتها، وهناك
محاولات لأخذ خصائص أسلوب الفنان التشكيلي من قلب لوحاته، ثم برمجة
هذا الأسلوب لينتج أعمالاً تشكيلية تحاكي الأسلوب نفسه، وتمثل عملية إنتاج
هذا العمل الإبداعي في نظرنا تهديداً مباشراً للفنان، وبعضهم الآخر يرى
فيها فرصة لتخليد اسمه إذ سمحت بمداومة إنتاج أعمال فنية بأسلوبه نفسه
بعد مماته. - إن تكنولوجيا المعلومات ومسيط بين المبدع الفني، وعلمه
الإبداعي، ولتوضيح هذه الفكرة نذكر ما قاله فيكتور فازارييلي، (مبصري
التجريد الهندسي المجري): عن سر إبداعه فيقول: (أنا لا أرسم لكني أصنع
معادلة اللوحة) تمثل مقولة فنّاننا المجري الغاية القصوى التي يصبو إليها
الفن الذهني لتحقيقها، ونعني بذلك أن ترقى عملية الإبداع الفني إلى مستوى
الذهنية الخالصة، حيث ينقصل المبدع عن الصورة النهائية لعمله الإبداعي،
لتصبح مهمته في النهاية محصورة في توصيف برنامج الكمبيوتر الذي يولد
اللوحة أو التمثال، أو القطعة الموسيقية. - إن تكنولوجيا المعلومات وسيلة
لنشر العمل الإبداعي عبر الإنترنت أو أقراص السي - دي.

- ما دور المبدع الفني العربي؟ إن مبدعنا الفني العربي، يمارس عمله المصني في جو خائقي للإبداع، غير معترف به، حائراً بين ثراث ثقافته وتراث عصره، وما بين متطلبات إنتاجه، ومطالب أمنه وحياته. غير أن هذا لا يعفيه من مهامه العاجلة، التي يفرضها عليه المتغير المعلوماتي والتي تشمل التالي: - أن يكتسب المبدع المهارات اللازمة لاستخدام تكنولوجيا المعلومات في مجال تخصصه - أن يبحث عن إنتاج فني كثيف الإبداع، لا كثيف التكنولوجيا، لعدم توافر مصادر التمويل أو الوسائل التكنولوجية. أن يحدث عتاده المعرفية تلبية لمطالب فنون عصر المعلومات ذات الطابع الذهني - أن يعمل لمواجهة محاولات نهب موارد التراث الفني، سواء كان من الداخل أو الخارج، فهي رصيدنا الاستراتيجي لإبداعنا الفني. - أن يعمل لبلورة دور الإبداع الفني في مواجهة الغزو الثقافي المصاحب لظاهرة العولمة. - أن يعمل على استعادة دوره، وجمهوره الذي سلبته منه أجهزة الإعلام الجماهيري. - أن يعمل على الفور في التجارب الفنية في استخدام تكنولوجيا الواقع الخائلي.

- العمل الإبداعي الفني الغربي: يتسم العمل الإبداعي لفنون عصر المعلومات بالسمات التالية: - التوجه الذهني: يكشف لنا فن عصر المعلومات عما كشف عنه فيثاغورث بخصوص تناغم أنساق الأرقام، والفن تواق إلى استكمال المسيرة، التي بدأها هنانون عظام، مثل: (سيزان وبيكاسو وأم سي ايشر) في فن التشكيل، (وياخ وهندل وتيليمان) في فن الموسيقى، وقدم لنا (ألبرتوايكو) تجربة رائعة الدلالة. ونحن في لهفة نتنظر فناً ينفذ إلى الجمال المستتر وراء المعادلات والمفاهيم، والثنائيات والمتناقضات والسلاسل الرمزية، يظهر لنا مغزى الجمال في التقاء الأفكار والمفاهيم، وحوار النظري مع العملي، ويجسد ما يعنيه الفرق بين محدودية البنى المعرفية ورحابتها، وإن ذهنية الفن تختلف اختلافاً جوهرياً عن ذهنية العمل، لأن الفن الذهني لا يحض على الفهم، بل يحضر الذهن لتوقع المستقبل، ولا جدال بأن العالم الخائلي هو البيئة النموذجية لممارسة الفنون الذهنية، حيث يتحرر المبدع من

جميع القيود . - التوجه التفاعلي الدينامي: هو الذي يعطي المتلقي فرصة التحكم في العمل الإبداعي، كأن يغير من إيقاع الموسيقى أو من باليته في الألوان المستخدمة في العمل التشكيلي، أو من نسب المحتويات وأوضاعها . لم يعد هدف العمل الفني مجرد التذوق أو التأويل أو إثارة المشاعر الوجدانية فالهدف منه هو المشاركة، وكلمة موجزة، يكمن في قدرته على التوليد والتغير الدينامي، لأحسه على التأويل، وإثارة الحس الوجداني . - التوجه المزجي: يمزج بين أنساق الفنون المختلفة، وبين التراث الفني عبر ثقافات والحضارات، وقابلية المزج هي أحد الشروط الأساسية لفنون عصر المعلومات، وأي عمل فني يفقد هذه الخاصية مآله للاندثار، إن مبدع عصر المعلومات يقدم عمله الإبداعي على هيئة شظايا قابلة للاندماج مع شظايا غيرها، ولم تعد مسؤوليته تقديم عمله في صورة فنية نهائية مكتملة، في صورة كتاب، أو فيلم، أو مقطوعة موسيقية، كما كان عليه في الماضي، وإن الفن المزجي هو أمضى الوسائل في إقامة الحوار بين ثقافات الشعوب والنمهد لثقافة السلام.

- التوجه الخائلي: يتجه العمل الفني صوب التخلص من المادية، فيرسم الفنان التشكيلي في فراغ ثلاثي الأبعاد، ويؤلف المبدع بالموسيقى بلا آلات، وتعزف الموسيقى بلا عازفين، وينحت النحات بلا مواد، ومن جانب آخر، نحتاج إلى سينما وثائقية جديدة لا تسجل الواقع المادي الفعلي بل تسجل ما يجري في عوالم الفضاء الرمزي، وما يجري بها من أحداث، هي عرضة للضياع بسبب فورية الإعلام، وتدفق المعلومات بصورة يصعب ملاحقتها . - التوجه صوب سقوط الهواجز بين أجناس الفنون: تتهاوى الحواجز تدريجياً بين أنواع الفنون بفعل التوجه المعرفي الذي يعمل على زيادة تجريبها، والتقارب فيما بينها، فمن المتوقع أن يقترب الرسم ثلاثي الأبعاد من فن النحت، وأن تعمل موسيقية الشعر على تكثيف الحوار بين الشعر والموسيقى، وأن تضيق المسافة الفاصلة بين الأدب والمسرح، وفي الوقت نفسه، الذي

تقارب فيه أدائية المسرح، بيته وبين فن الرقص، إن فنون عصر المعلومات تتميز بدرجة عالية من السيولة، يصعب الفصل فيها بين ما يجري في ديا العالم الحقيقي، وما تزخر به عوالم الرمز الخائلية، وواقعية العالم الخائلي وسرياليته. - التوجه غير الخطي: يطرح الفن جانب سرديّة الرواية البلاكية، ومسرحية الحكمة الأرمطية، وخطية النغم، في سبيل إنتاج فن يقيم من أبجديات شظايا التصوير والحوار والمشاهد وتتأقراات النغم، يوفر للمتلقي مداخل عديدة، لإعادة البناء الرمزي في صور لانهائية غير محددة، وفن عصر المعلومات سينتج أعمالاً فنية لا بدايات لها أو نهايات محددة، وروايات تفاعلية متعددة المسارات وأقلأماً متعددة النهايات.

- العمل الفني الإبداعي العربي: إذا كان فن عصر المعلومات كثيف التكنولوجيا هذا لا يعني عدم قدرة المبدع العربي إيجاد أعمال فنية أقل استخداماً للتكنولوجيا، وهي لا تقل عنها روعة وإبداعاً، وعندما لم تكن التكنولوجيا متاحة للشرق كاليابان والصين، أبدع فنانونهم فناً رمزياً راقياً، استلهمه بيكاسو نفسه من أجل انتشال فن التشكيل الغربي من انطباعيته، والارتقاء به إلى مستوى الإدراك الذهني، لا الحسي فقط، وهذه موسيقى الراي الجزائرية وموسيقى الصلصا الكوبية تشق طريقها إلى الموسيقى العالمية، وإن اكتساب أدبنا العربي طابع العالمية يجعله يساهم في حوارنا الثقافي مع الغير، وهو يتطلب الاهتمام بالترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية، وكما قيل عملٌ غير مترجم عملٌ غير مكتمل.

- المتلقي الغربي،

أ - هل يعني فنٌ جديدٌ متبقٍ جديدٌ؟ افترضت فنون ما قبل عصر المعلومات متلقياً سلبياً يستمع إلى الموسيقى، ويصغي إلى الشعر ويشاهد الأشكال، ويدور حول المنحوتات، فتعاملت فنون الماضي مع حواس المتلقي، فركزت الانطباعية على خداع البصر، وركز علم الجمال على عمليات الإدراك البصري والسمعي، وركزت السريالية على المبدع فقط وأغفلت

المتلقي، وانتشلت بما يدور في لاوعي المبدع إلى دنيا الظاهر. لقد حاول بعض المبدعين في الماضي محاولة الاشتباك مع عقل المتلقي، وحشه على إيمان الذهن فيما يسمعه أو فيما يشاهده. وبقيت هذه المبادرات دون مستوى الحد الأدنى من التفاعل الذهني. تسعى فنون عصر المعلومات إلى مخاطبة عقل المتلقي بصورة سافرة، وهذه الاستثارة العقلية هي نقطة البدء في رحلة طويلة، من أجل تحويل المتلقي السلبي إلى متأملٍ عقليٍّ، ثم متفاعلٍ إيجابيٍّ، فمبدعٍ مشاركٍ، لعله يستقل بنفسه كمبدعٍ مكتملٍ - أصبح لكل فن نسخته التفاعلية، فهناك موسيقى تفاعلية، وسينما تفاعلية، ورواية تفاعلية، ومسرح تفاعليٍّ، وشعر تفاعليٍّ، ورقص تفاعليٍّ، إن فن عصر المعلومات، يفتح ذراعيه للمتلقي كي يتفاعل معه، يدعو له ليحرك المنحوتات ويتحاور مع الشاعر، ويتحكم في إيقاع الموسيقى، ويرقص مع الراقص، ويشارك الممثل أداءه، ويعيد تشكيل فراغات المعمار.

- بين المتلقي وتكنولوجيا المعلومات، أصبح المتلقي مثله مثل المبدع، بحاجة إلى دعمٍ من تكنولوجيا المعلومات في جوانبٍ منها: - تنمية ذائقته الفنية، بتوفير الخلفية المعرفية اللازمة لتذوق الفنون. - عرض الأعمال الإبداعية في سياقاتٍ أشمل، كأن نعرض أعمال بيكاسو التكعيبية التحليلية، مقرونةً بأعمال براك شريكه بهذه المدرسة الفنية، وأعمال سيزان التي خرجت من ثنايا هذه المدرسة. لتتطرق بعدها إلى التوجه التحليلي للعلم الذي كان من ورائها، وزيما إلى أثر الفن التكعيبى على تصميمات الديكور والأزياء والتصميم الصناعي.

- المتلقي العربي؛ لا بُدَّ أن المتلقي العربي تعاونت كل العوامل الاقتصادية والتربوية مع وسائل الإعلام وطابعه الدعائي الاستهلاكي في محاصرة تذوقه في دائرة صغيرة، فضمير تذوقه الفني، واستبَعِدَتْ فيه معظم مجالات الفن الرفيع، وحتى على مستويات الطبقات القادرة، شأن المتلقي العربي في ذلك كمعظم الأمور المتعلقة بتأهيل الإنسان ثقافياً، إن عملية تذوقه الفني تحتاج

إلى جهد مضاعف على مستويين: علاجي وتحديثي، نلخص فيما يلي أهم خصائص عصر المعلومات مقرونة بعوائق تذوقه من منظور المتلقي العربي ولفرص المتاحة للعلاج أمامه: - التوجه الذهني: ويعتبر أهم عائق في تذوقه، - نقص الثقافة العلمية - وضعف المهارات الذهنية، - غياب مفهوم التكامل المعرفي، الذي ينهض عليه الفن الذهني لعصر المعلومات، - ولازال المبدع العربي يفتقد إلى الوسائل التي تساعد على نقل رسالته الفنية بصورة مؤثرة، ونحن بأمس الحاجة إلى عمل نماذج للفن الذهني ذات طابع تعليمي، باستخدام الوسائط المعقدة، بهدف تقديم المعرفة بطريقة أكثر وضوحاً ومباشرة، ونقل المتلقي إلى مرحلة يستطيع فيها استيعاب المستويات الأعقد للفن الرمزي، ولا بد هنا من خلق نوعية جديدة من النقاد الفنيين القادرين على تنمية وعي جماهيرهم جمالياً ومعرفياً، وقد يؤدي الفن الذهني إلى اتساع الهوة ما بين فنون النخبة وفنون العامة، الأمر الذي يتطلب إنتاج أعمال فنية تلبي المستويات الذهنية المختلفة، فكل فئة اجتماعية فنها الذهني، ويمكن استخدام تكنولوجيا المعلومات والإنترنت بمساعدة المتلقي العربي على بناء مكتبته الفنية، والتي لا بد أن تشمل إلى جانب الأعمال الفنية ذاتها، موارد المعلومات اللازمة لتذوقها. - التوجه التفاعلي: وأهم عائق أمامه هو النزعة السلبية المترسخة، وما أدت إليه من عزوف عن المشاركة، يحتاج ذلك من مبدعي الفني إلى استحداث طرق مبتكرة سهلة الاستخدام من أجل كسر رهبة التكنولوجيا عند متلقيه، وتشجيعه على التفاعل مع العمل الإبداعي، كأن يتضمن جانباً إرشادياً في صورة نماذج إيضاحية عن طرق التفاعل مع العمل الفني، أو جولة مخططة، يقوم خلالها المتلقي باستعراض الجوانب المختلفة للعمل الفني التفاعلي، تحت توجيه العمل الفني، دون تفاعل من جانب المتلقي أو بأقل قدر منه.

- التوجه المرجعي: لقد اعتاد المتلقي العربي على أجناس فنية، تعامل معها بمحدوديتها، وهذا ما يحد من نطاق المزج المتاح أمام المبدع العربي ويجب ألا

يمنع ذلك من إبداع مزجيّ باستخدام المقاح من أنساق الرموز، كالمزج بين الشعر والزخرفة العربية، ومقامات الموسيقى العربية، أو بين الأدب والمعمار الإسلامي والفناء العربي، فأمام المبدع العربي فرصة نادرة لاستخدام الفن المزجي ل (تسريب) أجناس فنية جديدة لم يعتمدها المتلقي العربي من قبل. والمزج الفني هذا لن يقتصر على المزج ما بين تراثنا وإنتاجنا الإبداعي فقط، بل لا بد أن يتجاوز فنون الثقافات والحضارات الأخرى، وهو لا بد أن يحدث دون أن يفقد المتلقي العربي اعتزازه بمكانة ثقافته، في خضم الثقافات الأخرى الممتزجة المتناهضة.

- تراث الإبداع الغربي: إن تراث الفنون أصبح من أهم موارد الإبداع في تكنولوجيا المعلومات ذات القدرة الفائقة التجدد وإعادة الإنتاج والتوظيف، وذلك بفضل تكنولوجيا الوسائط المتعددة، وتتفاوت أجناس الفنون من حيث قدرتها على استغلال الموارد التراثية، بينما بنى المسرح مجده على إعادة توظيف التراث، نجد أن استغلال السينما للتراث سيبقى محدوداً في الوقت الحالي، لكونها فناً حديثاً، وكل هذا لم يمنع من ظهور بعض المحاولات الجادة لإخراج أفلام قديمة في ثوب جديد، ولا يعني لجوء الفن إلى التراث أنه فن تقليدي مقلد، والفن الطليعي يمكن أن يكون تراثياً، وليست هذه المقولة صادقة بقدر ما هي عليه الآن لفنون عصر المعلومات، التي راحت تفتش وتتعب في كل موضع عن مناهل الإبداع، لتخرجه من أزمته الحالية، وتتيح له استغلال الإمكانيات الهائلة التي توفرها تكنولوجيا المعلومات، ولا يعني استخدام التراث التقليد أو النقل الميكانيكي أو كولاغ القص واللصق، إن إعادة توظيف التراث إبداعياً لا يتم إلا بتقطير هذا التراث لاستخلص رحيقه المعرفي، وتكشف عن مواضع روعته ومصادر أصالته، إن الغاية من هذا كله الوصول إلى لغة تراثية عالمية على مستوى التجريد، يسمح بانهيار الفنون ووحدها وتكامل معرفتها، عندها فقط يحق لنا الحديث عن حوار الثقافات على مستوى الإبداع الفني.

أ - المستوى الأول: على المبدع استخدام تراث ثقافته في نطاق تخصصه الفني ومثالثنا على ذلك: ما قام به (نجيب محفوظ) بالعودة لتاريخه الفرعوني، (وكازانتزاكي) لأساطير أهل الإغريق، (وماركيز) للتراث الشعبي لقرى أمريكا اللاتينية.

ب - المستوى الثاني: استخدام المبدع للتراث العالمي في مجال تخصصه، ومثالثنا على ذلك ما قام به (جيمس جويس)، في إعادة توظيف الأسطورة الإغريقية.

ج - المستوى الثالث: استخدام المبدع الفني تراث الثقافات المختلفة في مجال تخصصه، ومثالثنا عليه ما قام به بيكاسو الذي أعاد الصلة أولاً بالفن الروماني المسيحي، والفن البيزنطي في إسبانيا، الذي أورثه إياه الجريكو بجدارياته. وتوغل بيكاسو في متحف السلالة البشرية، وراح يمتص من تراث القبائل الأسترالية والإفريقية والقبائل الأمريكية، قبل كولومبس، (روجي جاردني ١٩٩٨) د - المستوى الرابع: حيث يقوم المبدع بتجاوز نطاق تخصصه الفني وكذلك نطاق تراثه، ومثالثنا على ذلك: الشاعر (سان جون بيرس) وأراد هذا الشاعر التشيكي العظيم أن تتبثق من كلمات شعره، حضارة مثالية جديدة نابعة من كل عهود التاريخ الرائعة، حضارة تعكس كل تاريخ الإنسان، وكل مكتسباته ومآثره، وكل أبعاد العظمة الإنسانية. وتحقيقاً لهدفه راح بيرس ينقب في كل المأثورات والأديان، وفي كل الطقوس والأساطير، وفي كل مؤسسات الإنسان وحضارته، وجمع بين أطراف هذه المسيرة البطولية في ملحمة واحدة، عن أثارها وعن معالم ماضيها الثيد، (نفس المصدر السابق نفسه) وكل هذه المستويات تصجر في المبدع طاقات إبداعية غير محدودة، لا يمكن إخضاعها لأي فرع من فروع التصنيف والتقنين. وليست تصنيفاً تراتبياً في درجة الإبداع الفني.

- تراثنا الإبداعي العربي، تراثنا من أهم مواردنا الرمزية الإبداعية ولنا أن نقوم بأرشفته وتحليله، ورقمنته، وربطه بالسياق الثقافي الحضاري

الأشمل، وضرورة حمايته من الاندثار، ضد محاولات النهب والسرقة والتشويه، (وما أكثرها) وأماليتها الإلكترونية اليوم.

أ - بين ميدعنا العربي والتراث: من أبرز الأمثلة وأروعها ما قامت به عبقرية المعمار العراقية زهاء حديد، وبنائها التي تبدو معلقة في الهواء، فوصفوا بناءها بالبساط السحري وهو وصف لا يروق لها، بسبب كونه يركز على النواحي الشكلية لقد نُقِذَتْ (زهاء حديد) ببصيرتها المعمارية وخلفيتها في دراسة الرياضيات إلى المعاني المجردة للعمارة العربية الإسلامية، وربطت بين سخاء الطبع، والفطرة الإنسانية، بين سخاء المكان ورحابته، فقد استخلصت زهاء حديد من تراث العمارة الإسلامية أبجدية خاصة بها، يتحاور من خلالها قناء الدار المفتوح مع الهواء الطلق، والفرف المنفلقة مع المساحات المفتوحة، وأخرجت زهاء حديد العمارة الحديثة من رتابتها وبرودة وظلفتها، لترد لها رونقها، وجمالها وروحانياتها (عارف محمد ١٩٩٩) إن زهاء حديد مزجت تراث العمارة عبر الثقافات المختلفة، في رائعتها بصورة يتمدر معها أن تحدد ما هو سومري، وما هو بابلي، أو عربي، أو إسلامي، وما هو من عمارة الحداثة العالمية، وفي مجال الموسيقى. يعد (أبو بكر خيرت) ممثلاً لتيار القومية الواعية حيث استعان بالتراث الشعبي والألحان الشائعة. مثل إبداع السيد درويش ووضعها في قالب سيمفوني أوركسترا لي.

ب - بين المبدع العالمي وتراثنا الإبداعي: إن تراثنا الإبداعي تجاوز حدود بلادنا، وخاصة في مجال العمارة والخط العربي والزخرفة العربية، فنرى (ما تيس) يستخدم موتيفات الخط العربي، (وفاز أريلي) يستلهم الزخرفة العربية، في حين يحاكي معمار مدينة البندقية والمعمار الإسباني الحديث سمات العمارة الإسلامية. وإن لجوء المبدع العالمي إلى تراثنا الإبداعي سيتزايد مع حركة العولمة ومحاولتهم التخلص من المركزية الأوروبية.

ج - لماذا أهملنا تراثنا الإبداعي؟: ساهمنا جميعاً في إهدار تراث إبداعنا العربي من تراث عمارة الفاطميين إلى مقامات الموسيقى وأرشيف السينما.

وما بعثرناه من تراث وثائقنا الدينية وغير الدينية. ولا وجود عندنا لمتحف للمسرح أو التراث الفلكلوري. ويدل على ذلك متاحف باريس وبرلين ولندن، وتعاونت فوضى أرشيف المحفوظات، والمياه الجوفية، والمحروقات، والحرائق، وإضرار النار عمداً بهدف تغطية السرقات، واجتمعت كل هذه المؤثرات مجتمعة ومنفردة لتهدد تراثنا الثقافي بالاندثار، وهناك جهود قامت بها مؤسسات حكومية في إقامة أرشيف مزود بأحدث الوسائل الإلكترونية لحفظ الوثائق، وترميمها، واسترجاعها عند اللزوم، وما قامت به دار الكتب المصرية، من جهود لصيانة وثائقها، وأقامت بعض البلدان العربية أرشيفات للسينما، وبالحقيقة يبقى أرشيف السينما مهدداً لأن مادة السليولوز لها عمرها الافتراضي، مما يدعو إلى إعادة تسجيلها، وتسعى مصر اليوم لأرشفة تراث السينما إلكترونياً ورقمياً، ولا شك أن التليفزيون يسعى إلى إنعاش تراثنا السينمائي، ويؤكد البعض على ضرورة أن يشمل أرشفة السينما بجانب الأفلام، الدراسات النقدية وسير النجوم والمخرجين، وتسجيلات المهرجانات السينمائية.

المراجع

- أحمد . عطية أحمد . مناهج البحث في التربية . وعلم النفس . الدار المصرية اللبنانية (القاهرة ١٩٩٩)
- إمام سيد تحليلات جاكسون الشعرية . دار سما للنشر القاهرة ٢٠٠٠ .
- أحمد . عاطف . نقد العقل العربي . قراءة في أنتكوين والبنية . في قضايا فكرية للنشر والتوزيع . القاهرة ١٩٩٥ .
- أبو المجد . أحمد كمال : حول ندوة الحوار القومي الديني . في الحوار القومي الديني / مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٩ .
- أمدي . هيثم : دور الإعلام في العالم الثالث نظام الإعلام المقارن . الدار الدولية للنشر . القاهرة (١٩٩١) .
- أبو زيد نصر حامد : نقد الخطاب الديني (ط: ٢ صيفا للنشر) .
- إبراهيم حيدر : إشكالية الأصولية في الوطن العربي في (العولة / مركز البحوث العربية . القاهرة ١٩٩٩)
- أركون . محمد : ت : هاشم صالح : تاريخية الفكر العربي الإسلامي / بيروت ١٩٩٨
- أركون . محمد : ت : هاشم صالح . أين هو الفكر الإسلامي المعاصر ؟ . دار الساقي بيروت (١٩٩٣)
- أمين . سمير : مناخ العصر . سينا للنشر القاهرة ١٩٩٩
- البشري . طارق . حول المروية والإسلام في الحوار القومي الديني مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٩
- البنا . جمال . الإسلام دين العالمية لا العولة / . الدار القومية العربية . القاهرة ١٩٩٩
- أندرو . دادي : ت : جرجس فؤاد الرشيد : نظريات الفيلم الكبرى / . الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٧
- بوير . كارل . ت : أحمد مستجير . بحثا عن عالم أفضل / . الهيئة العامة المصرية للكتاب . القاهرة . ١٩٩٩
- بندق . مهدي : المسرح وتحولات العقل العربي . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة ١٩٩٨
- برتوي . جوليوس : ت : فؤاد زكريا . الفيلسوف والموسيقي . الهيئة العامة المصرية للكتاب . القاهرة ١٩٧٤
- بدران . شبل : التربية والإيديولوجية الدار البيضاء . ١٩٩١
- بورجا . فرانسوا . ت : لوورين ذكرى : الإسلام السياسي . القاهرة ١٩٩٢

- ثالث، روبرت، التفكير المستقيم والتفكير الأعوج، ت: حصن سعيد الكرمي، عالم المعرفة ١٩٧٩، الكويت
- بريغومين وستيجر، نظام ينتج عن العشوائ، ت: طاهر بديع شاهين، وزارة الثقافة، (٢٠٠٨)
- تومبكنز جين ب، مدخل إلى نقد استجابة القارئ في نقد استجابة القارئ، من الشكلائية إلى ما بعد البنيوية تحرير: جين ب. تومبكنز ترجمة حصن ناظم وعلي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة (١٩٩٩)
- توفلر، ألفين، صدمة المستقبل، المتغيرات في عالم الغد ت: محمد علي ناصيف نهضة مصر (١٩٩٠)
- تايلور، فيليب، ت: سامي خشبة هصف العقول، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتربية والآداب، عالم المعرفة، عدد ٢٥٦، ٢٠٠٠
- الترابي، حسن؛ الإسلام، الديمقراطية، الدولة، الغرب، دار الجديد بيروت (١٩٩٥)
- التويجري، عبد العزيز، عثمان، آفاق مستقبل الحوار بين المسلمين والغرب أسيسكو سلا المملكة المغربية ١٩٩٧
- الجابري، محمد عابد، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٩
- الجابري، محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٧
- الجابري، محمد عابد، الديمقراطية وحقوق الإنسان ٢٠٠٤، ط١: ٣ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- جارودي، روجي؛ واقعية بلا ضفاف، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة (١٩٩٨)
- الجاد رجي، رفعت، إشكالية العمارة والتخطيط البنيوي، عالم الفكر، الكويت (١٩٨٩)
- حماد، محمود، طبيعة الإعلام الإسلامي بين المكونات الذاتية والواقعية والواقع في وسائل الاتصال الحديثة أسيسكو سلا، المملكة المغربية ١٩٩٦
- حنفي، حسن الفكر العربي المعاصر، الجذور والثمار، في قضايا فكرية قضايا فكرية للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٥
- حنا، نبلي؛ اللغة العامية وأنماط التحديث، قضايا فكرية للنشر والتوزيع القاهرة (١٩٩٩)
- الحمد، تركي، الثقافة العربية أمام تحديات التغيير، دار الساقي، بيروت ١٩٩٢
- الحمد، تركي؛ الثقافة العربية في عصر العولمة دار الساقي بيروت (١٩٩٩)
- الخولي، أسامة أمين، الجمعية الكويتية لتقدم المقولة العربية، العرب والتربية، العصر الجديد، الكتاب السنوي / ١٣ الكويت ١٩٩٧ - ١٩٩٨

- الخميسي . فتحي : سقوط المفردات الموسيقية العربية (المقامات) عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت ١٩٩٨
- الخولي . يمنى طريف . القطيعة المعرفية والفكر العربي المعاصرة في قضايا فكرية قضايا فكرية للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٥
- الخولي . أسامة أمين . الثقافة العلمية في الوطن العربي : هل من حديد في مستقبل الثقافة العربية . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . تونس ١٩٩٨
- الخفاجي . عصام . ملاحظات حول العولمة والدولة القومية (مركز البحوث العربية القاهرة ١٩٩٩
- الخطاب . أحمد . الصفات التي يجب أن تتعمم بها التربية للاستجابة لمتطلبات المجتمع في القرن الحادي والعشرين . مكتب اليونيسكو الإقليمي للتربية في الوطن العربي العدد ٢٥١ ١٩٨٩
- خليل . حامد . مستقبل العلاقات الثقافية والاجتماعية العربية . شؤون عربية . العدد ٩٢ - ١٩٩٨
- الخولي . يمنى . فلسفة العلم في القرن العشرين . العدد : ٢٦٤ . عالم المعرفة ٢٠٠١
- الأخضر . الحفيظ . ضرورة تدمي العوائق الفكرية التقليدية . السحرية المعرفية في قضايا فكرية . قضايا فكرية للنشر والتوزيع . القاهرة ١٩٩٥
- الأخضر . الحفيظ . ضرورة تدمير عوائق الفكر التقليدي السعري . المعرفية في قضايا فكرية . للنشر والتوزيع . القاهرة ١٩٩٥
- خشبة . سامي . مصطلحات فكرية . المكتبة الأكاديمية القاهرة ١٩٩٤
- دياب . عز الدين . الشخصية والثقافة . شؤون عربية العدد ٤ (١٩٩٨)
- الدجاني . أحمد صدقي . عن العروبة والإسلام وقضايا المستقبل . في الحوار القومي الديني مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٩
- رضا . محمد جواد . العرب والتربية والحضارة . بيروت مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ١٩٨٧
- زكريا . هؤاد . خطاب إلى العقل العربي . الكتاب السابع عشر الكويت ١٩٨٧
- زكريا . حسام الدين : التذوق الموسيقي منشورات جماعة الكتاب والفنانين . الإسكندرية (١٩٩٦
- زحلان . أنطوان . العولمة والتطور الثقافي العرب والعولمة مركز دراسات الوحدة العربية (١٩٩٨
- السيد . يسين . الفكر العربي والزمن . أين نحن الآن من نهضة مطلع القرن ٢١ . عالم الفكر . المجلد : ١٦ العددان : ٣ - ٤ / ١٩٩٨

- السيد . إمام . تحليلات جاكسون الشعرية في (إضاءة) القاهرة ٢٠٠٠
- ستيس . ولتر . تاريخ الفلسفة اليونانية مجاهد عبد المتعم مجاهد دار الثقافة للنشر والتوزيع . القاهرة ١٩٨٤
- سعيديف . أرثور : الفلسفة العربية الإسلامية . بيروت (٢٠٠٠)
- السكري عادل نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة أئدار المصرية اللبنانية القاهرة ١٩٩٩
- شمو . علي محمد : الاتصال الدولي والتكنولوجيا الحديثة . دار القومية العربية للثقافة والنشر القاهرة ١٩٩٨
- شيفر جان ماري ت : فاطمة الجيوشي . الفن في العصر الحديث . منشورات وزارة الثقافة . دمشق (١٩٩٦).
- شيفر . جان ماري ت : فاطمة الجيوشي . الفن في العصر الحديث منشورات وزارة الثقافة (١٩٩٦)
- الشبيني . محمد . أصول التربية دار الفكر العربي . القاهرة : (٢٠٠٠)
- شيلر هيربرت ت : عبد السلام رضوان المتلاعبون بالعقول . عالم المعرفة عدد ٢٤٣ (١٩٩٧)
- عصفور . جابر . التلوع البشري الخلاق . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة ١٩٩٧
- عبد الله . إسماعيل صيري . العرب والكوكبة (الحرب والعولمة) مركز دراسات الوحدة العربية بيروت / ١٩٩٨
- عبد الفضيل . محمود : حائز على جائزة نوبل في الاقتصاد بين (الفقر والجوع) (والمضاربات المالية) . في (الجديد في الاقتصاد) القاهرة ١٩٩٩
- عبد إلهام . عبد الله . نحو فلسفة تربوية عربية . الفلسفة التربوية ومستقبل الوطن العربي مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٩١
- علي . نبيل : صورة الثقافة العربية والحضارة العربية والإسلامية على الإنترنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الشارقة ١٩٩٨
- علي . نبيل : اللغة العربية والحاسوب القاهرة ١٩٨٨
- عبد الرحمن . عواطف . الإعلام العربي وقضايا العولمة العربي للنشر والتوزيع ١٩٩٩
- عبده . مصطفى : الإسلام يحرق الفن . مكتبة مدبولي ١٩٩٩
- عبده . مصطفى : فلسفة الجمال . ودور العقل في الإبداع الفني . مكتبة مدبولي . القاهرة (١٩٩٩)
- عبده . مصطفى : المدخل إلى فلسفة الجمال مكتبة مدبولي . القاهرة ١٩٩٩
- عبيد . منى مكرم . مداخل حول ندوة عبي الدين هلال . لأزمة الفكر الليبرالي في الوطن العربي عالم الفكر العددان ٢ - ٤ . المجلد ١٦

- عبد الدايم، عبد الله. التربية والقيم الإنسانية. في عصر العلم والثقافة والمال. المستقبل العربي. العدد ٢٣٠ / ١٩٩٨.
- عبد الرحمن، عبد الهادي: سلطة النص سبيلًا للنشر القاهرة ١٩٩٨
- العالم، محمود. أمين العالم. دفاع عن الخصوصية اللغوية في قضايا فكرية. قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٧
- عمار، حامد: الجامعة بين المؤسسة والمدرسة. الدار العربية للكتاب ١٩٩٦
- العقيف، الباقر: حقوق الإنسان في فكر الإسلاميين. مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ٢٠٠٠
- عبده، مصطفى. الإسلام يحرق الفن. القاهرة. ١٩٩٩
- غزولي، فريال: ما بعد الكولونيالية (قضايا فكرية للنشر والتوزيع ١٩٩٩)
- غليون، برهان نحو تجديد إشكاليات الفكر العربي المعاصر. من نقد التراث إلى نقد الحداثة (قضايا فكرية للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٩٩)
- غليون، برهان: اغتيال العقل القاهرة ١٩٩٠
- غليون، برهان - أمين سمير. ثقافة العولمة، وعولمة الثقافة، دار الفكر. دمشق ١٩٩٩
- هرم، جورج. جيبوليتريكا الأقليات في المشرق العربي. دراسات عربية. العددان ١١ - ١٢
- كليب، راسبال. في العالم الثالث، في نظام الإعلام المقارن. الدار الدولية للنشر والتوزيع ١٩٩١
- كرم، أنطونيوس. العرب أمام تحديات التكنولوجيا. عالم المعرفة. الكويت، العدد ٢٣٠ / ١٩٩٢
- كويلش، فرانك ت: حسام الدين زكريا. :مراجعة عبد السلام رضوان ثورة: الأنفو ميديا، عالم المعرفة العدد: ٢٥٢ الكويت ٢٠٠٠
- كون، توماس بنية الثورات العلمية كتاب عالم المعرفة. ١٩٩٢
- لمعي، إكرام: الخطاب الديني في مصر في الدين وحقوق الإنسان: مقارنة تاريخية واجتماعية دار الثقافة القاهرة ١٩٩٩
- الميلاد، زكي، الربيعو، تركي طلي: الإسلام والغرب، الحاضر والمستقبل. بيروت ١٩٩٨
- مصطفى، عادل. كارل يوزر مائة عام من التنوير وندرة العقل دار النهضة العربية ٢٠٠٢
- مبروك محمد إبراهيم الصراع الإيديولوجي الكامن وراء العولمة في الإسلام القاهرة ١٩٩٩
- مدبولي، محمد عبد الخالق. الشرعية والعقلانية في التربية الدار المصرية اللبنانية القاهرة ١٩٩٩

- مناع. هيثم: ملاحظات في حقوق الإنسان مركز الدراسات. حقوق الإنسان. القاهرة (٢٠٠٠)
- مطر. جميل. المسألة العربية بين قرنين. المستقبل العربي. العدد: ٢٣٠ / ١٩٩٨
- معسن. نجاح: مدخل إلى الفلسفة، القتح للإعلام العربي ١٩٩٨
- محمد. عارف: زهاء حديد: ظاهرة عربية في العمارة العالمية. عالم الفكر (١٩٩٩)
- محمود. زكي نجيب. حياتنا العقلية. دار الشروق. بيروت ١٩٨٩
- المسدي. عبد السلام. كتاب العربي. الثقافة العربية. العدد ٨١ / ٢٠١٠
- مارتين. هانس بيتر. هارلد شومان. فتح العولمة. ت: عدنان عباس علي. مراجعة وتقديم رمزي زكي. العدد ٢٣٨. ١٩٩٨ الكويت
- المسدي. عبد السلام. نحو وعي ثقافي جديد. العدد ٢٤ / ٢٠١٠
- المنظمة العربية للثقافة والعلوم: الإعلام العربي حاضرا ومستقبلا تونس ١٩٨٧
- مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية: التقرير الاستراتيجي العربي مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية ٢٠٠٠
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩٩ المحور الأول للسياسات الثقافية والاتصالات تونس ١٩٩٩
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الثورة التكنولوجية ووسائل لاتصال العربية تونس ١٩٩١
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وسائل الاتصال الحديثة تونس (١٩٩٦)
- موسى. عبد الله هاجس الحداد في الفكر العربي المعاصر (مضاي فكرية) القاهرة (١٩٩٩)
- مرسي. محمد: تاريخ التربية في الشرق والغرب. القاهرة. ١٩٩٣
- النوري. عيس. بنى المصلحة والثقافة والأزمة العربية. آفاق الديمقراطية والتركيب الثقافي العربي الفكر العربي العددان ٨٥ - ٨٦ ١٩٩٦
- هويدي. فهمي: الإسلام والديمقراطية مركز الأهرام للدراسة والنشر القاهرة ١٩٩٣
- مجموعة من الكتاب. نظرية الثقافة. العدد: ٢٢٣ ت: حلي الصاوي مراجعة وتقديم الفاروق زكي يونس. عالم المعرفة. الكويت. ١٩٩٧
- وطفة. علي أسعد. الجمود والتجديد في الثقافة العربية. آفاق ثقافية. عدد ٥٤ - ٢٠٠٧ وزارة الثقافة.
- اليونسكو: التعليم ذلك الكنز المكنون. مركز مطبوعات اليونسكو. القاهرة ١٩٩٩.

هندسة الحوار

إن البنية الاجتماعية السائدة في مجتمعاتنا العربية تطرح منظومة من الإشكاليات والتحديات المعقدة، وتأخذ الثقافة العربية بمكوناتها التقليدية وبنيتها الأسطورية صورة مركبة تتقاطع فيها صور مختلفة لواقع عربي غني بمشكلاته، وإذا كانت الثقافة العربية تشكل جوهر التحديات ومنطلقها، فإن رصد هذه التحديات والإشكاليات التي يطرحها الواقع العربي المعاصر، ودراستها وتحليل مقوماتها ورصد مضامينها، يشكل واحداً من أهم التحديات المنهجية، فالثقافة أمرٌ جليلٌ وعظيمٌ وعلينا ألا نتركها بأيدي رجال السياسة، فهم لا يصمدون أمام الإغراءات والمناصب فيتنازلون عن مبادئهم تدريجياً. والتاريخ يعلمنا بأن النهوض الحضاري للشعوب كان مرتبطاً بالثقافة الذي سجله إنسان الحضارات القديمة والحديثة، فنشوء الحضارات يركز إلى العقل والعقلانية، والتنوير بنظرته إلى الوجود والكون، ولا سيما الحضارات اليونانية والرومانية والعربية الإسلامية ثم الحضارة الأوروبية المعاصرة.

Bibliotheca Alexandrina
1241356



للدراسات
والنشر
والتوزيع

